⑤ ثقافة إسلاميّة المجلد الأول

المجموعة الكاملة لمؤلفات

الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

- المواهب الربّانية من الآيات القرآنية
- فوائد مستنبطة من قصة يوسف
- الجهاد في سبيل الله

أو واجب المسلمين

- وجوب التعاون بين المسلمين

وموضوع الجهاد الدّيني

- الدّلائل القرآنيّة

في أن العلوم والأعمال النافعة العصريّة داخل في الدّين الإسلامي

- الدّرّة المختصرة

في محاسن الإسلام

- الدّين الصّحيح يحل جميع المشاكل
- الرياض الناضرة والحدائق الزّاهرة

في العقائد والفنون المتنوّعة الفاخرة

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربيّة السّعوديّة
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

حقوق الطبع محفوظة
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية

المواهبُ الربّانيّة

مِنَ

الآيات القرآنيّة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه. هذه فوائد فتح الله عليَّ بها في هذا الشهر المبارك، نسأله المزيد من كرمه آمين (قوله تعالى):

﴿فلما أسلما وتَلَّه للجبين﴾ [سورة الصافات: الآية ١٠٣]

لما كان قوله: «أسلما» توطيناً لنفسه على أمر الله، وعزماً مقروناً بالإخلاص والامتثال، والعزمُ ربما تخلّف عنه الفعل ذكر الفعل بقوله: «وتله للجبين» فاجتمع العزم والفعل، ولكن تخلَّف أثر الفعل وهو وقوع الذبح، فذكر تعالى أنه أبدله بذِبح عظيم فداء له. (قوله تعالى):

﴿فعدة من أيام أخر﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤]

يدل على أن المعتبر مجرد العدة لا مقدارها في الطول والقصر، والحر والبرد، ولا وجوب الفور وعدمه ولا ترتيب ولا تفريق، ويقرر هذا قوله:

﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٥]

(قوله تعالى): ﴿أو على سفر﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٤]

أعمُّ من قوله «في سفر» ليدخل فيه من أقام في بلد أو برية ولم يقطع سفره، بل هو على سفر؛ وإن لم يكن في سفر. (قوله تعالى):

﴿يودّ المجرمُ لو يفتدي من عذابِ يومئذٍ ببنيه﴾
[سورة المعارج: الآية ١١]
فيه أن غير المجرم لا يودّ ذلك، لأنه قد افتدى في الدنيا من عذاب يومئذ بالتقوى والإيمان، وإنّما هو في هذا اليوم لا يحزنه الفزع الأكبر، ويؤمل اجتماعه بمن صلح من آبائه وأبنائه وأحبابه في جنات النعيم. (قوله تعالى):

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ [سورة المعارج: الآية ٣٢]

أي يكونون لذلك رعاة متعاهدين مجتهدين في كل سبب تقوم به الأمانات والعهود، وتكمل وتتم، مبعدين عن كل سبب يناقض ذلك، وكذلك قوله:

﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ [سورة المعارج: الآية ٣٣]

(قوله تعالى): ﴿يا أيها المدَّثِّر * قم فأَنذِرْ﴾
[سورة المدَّثر: الآيتان ١، ٢]
نبَّه الله تعالى فيها على حال رسوله وكماله، وإتمام نعمة الله عليه، وكم بين ابتداء أمره وانزعاجه من الوحي وتدثُّره من شدة ما لقيَ، وبيْن آخر أمره حين أتم الله أموره كلها؛ ولهذا أمره بتكميل نفسه وتكميل غيره، وأرشده إلى ما ينال به ذلك: وهو القيام التامّ على وجه النشاط والتعظيم لربه، وتكبيره في باطنه، وتطهير أعماله وثيابه الظاهرة، وترك كل شر ودنس، واستعمال روح الأعمال، وهو الإخلاص في كل شيء، حتى في العطاء. فلهذا قال:

﴿ولا تمنن تستكثر﴾ [الآية ٦]

ثم أرشده إلى ما يعينه على كل الأمور، وهو الصبر لوجه الله، فقال:

﴿ولربك فاصبر﴾ [الآية ٧]

ثم تكفَّل له بحفظه من الأعداء وحفظِ ما جاء به بتوعُّدهم بالعذاب خصوصاً لأكبرهم عِناداً وأعظمهم عداوةً وهذا تمام النعمة. (قوله تعالى):

﴿والمطلَّقات يتربَّصن بأنفسهن ثلاثة قروءٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

وكذلك قوله: ﴿والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويَذَرُون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشراً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٤]

التربص المذكور هو الانتظار والمكث في العدة، فما الفائدة في قوله «بأنفسهن» مع أنه يغني قوله «يتربصن ثلاثة قروء» و«يتربصن أربعة أشهر وعشراً» فاعلم أن في قوله «أنفسهن» فائدةً جليلة، وهي أن هذه المدة المحدودة للتربص مقصودة لمراعاة حق الزوج والولد، ومع القصد لبراءة الرحم فلا بد أن تكون في هذه المدة منقطعة النظر عن الرجال، محتسبة على زوجها الأول، لا تُخطب ولا تتجمَّل للخطَّاب ولا تعمل الأسباب في الاتصال بغير زوجها. ويدل على هذا المعنى قوله:

﴿فإذا بلغن أجلَهن فلا جُناح عليكم فيما فعلنَ في أنفسهن بالمعروف﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٣٤]

أي من التجمل والتبهّي، ولكن بالمعروف على غير وجه التبرج المحظور. ويدل على هذا قوله في الآية الأخرى:

﴿والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويذرون أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٠]

فلم يأمر هذه المرة أن يتربصن بأنفسهن، بل جعلها وصية تتمتع بها المرأة سنةً بعد موت زوجها جبراً لخاطرها؛ ولهذا رفع الحرج عنها بالخروج، وأنها بعد الخروج لها التجمل المعروف، وقبل ذلك، كما جبر الورثة قبلها لأجل زوجها فعليها العدل وترك التجمُّل. وهذا يبيِّن أن الآية الأولى ليست بناسخة لهذه الآية، بل تلك عدة لازمة وهذه وصية تمتيع غير متحتمة والله اعلم.

(الإيمان والاحتساب) يخفف المصائب ويحمِلُ على الصبر دليله قوله تعالى:

﴿إنْ تكونوا تألَمون فإنهم يألَمون كما تألَمون وترجُون من الله ما لا يرجُون﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

أي فليكن صبركم أعظم ومصيبتكم أخف. كما أن عدم الإيمان يصعِّب المصيبة ويحمِل على الجزع؛ دليله قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا

في الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا لِيجعَلَ اللَّهُ ذلك حسرةً في قلوبهم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٦]
ومما يدل على الأمرين قوله تعالى:

﴿ما أصابَ من مصيبة في الأرضِ ولا في أنفسكم إلاَّ في كتاب من قبلِ أَنْ نبرأها إنّ ذلك على الله يسير * لكيلا تَأْسَوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [سورة الحديد: الآيتان ٢٢، ٢٣]

وقوله تعالى: ﴿ومن يؤمنْ بالله يهدِ قلبَه﴾ [سورة التغابن: الآية ١١]
وغير ذلك من الآيات.

شرع الله الدين والعبادات والأوامر والنواهي لإقامة ذكره، ولهذا يذكر أن العبادات ناشئة عن ذكره، كما قال تعالى:

﴿قد أفلح من تزكّى * وذَكَر اسم ربِّه فصلّى﴾
[سورة الأعلى: الآيتان ١٤، ١٥]

فجعل الصلاة ناشئة عن الذكر ومسبَّبةً عنه، كما جعل الصلاة لإقامة ذكره، فقال:

﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ [سورة طه: الآية ١٤]
وقال في ترك الذنوب والاستغفار منها:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٥]

فجعل الاستغفار ناشئاً عن الذِّكر، فدل ذلك على أن الذكر لله هو الأصل الجامع الذي يتصف به المؤمن الكامل، فيصير الذكر صفةً لقلبه، فيفعل لذلك المأموراتِ ويترك المنهياتِ ناشىء عن تعظيم الله تعالى وذكره، وهو دليل على ذلك وهو أعظم المقصودات في العبادات. قال تعالى:

﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وَلَذِكْرُ الله أكبرُ﴾
[سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

وقال تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرَىٰ للذاكرين﴾
[سورة هود: الآية ١١٤]

وقال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلافِ الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبِهم﴾

[سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠، ١٩١]

فكل من كان في عبادة فهو في ذكر الله، ومن ترك منهيًّا لله فهو في ذكر الله، وهذا هو المعنى الذي خلق الله لأجله، وشَرَع الشرائع لأجله، وجعل النعم الظاهرة والباطنة مقصودة لأجله ومعينة عليه، فنسأله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، ويجعلنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، آمين.

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي



فصـــل

الراسـخ في العلم الذي مدحه الله هو المتمكن في العلم النافـع، المزكّي للقلوب، ولهذا وصف الله الراسخين في العلم بأنهم يؤمنون بمحكم الآيات ومتشابِهها، ويردون المتشابَه المحتمل للمحكم الصريـح، فيؤمنون بهما جميعاً وينزِّلون النصوص الشرعية منازلَها، ويعلَمون أنها كلها من عند الله، وأنها كلها حقّ، وإذا ورد عليهم منها ما ظاهرُهُ التعارضُ اتهموا أفهامَهم وعلِمُوا أَنها حقٌّ لا يتناقض لأنه كله من عند الله؛ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. وهم دائماً يتضرعون إلى ربهم في صلاح قلوبهم واستقامتهم وعدم زيغها، ويعرفون نعمة الله عليهم بعظيم هدايتـه وتمام البصيرة التي مَنّ الله بها عليهم. ومن صفاتهم التي وصفهم الله بها أنهم يدورون مـع الحق أينما كان، ويطلبون الحقائق حيثما كانت، ولهذا وصف الله الراسخين من أهل الكتاب بأنهم يؤمنون بما أنزل الله على جميـع أنبيائه، ولا يحملهم الهوى على تكذيب بعض الأنبياء وبعض الحق، فقال تعالى:

﴿لكِنِ الرَّاسخون في العلم منهُم والمؤمِنونَ يؤمنونَ بما أُنزِل إليكَ وما أُنزِلَ من قَبلكَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٢]

توطين النفس على عدم الانقياد للحق لا ينفـع معه تذكير ولا وعظ. قال تعالى:

﴿نحن أعلم بما يستمعون به إذْ يستمعون إليكَ وإذْ هُمْ نَجْوَى إذْ يقولُ الظالمون إنْ تتبعونَ إلاَّ رجُلاً مسحوراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٧]

ولهذا يذكر الله المعنى في سياق الإخبار عن عدم إيمان الكفار وانقيادهم؛ وإذا وصل الإنسان إلى هذه الحالة فكما قال تعالى:

﴿إن الذين حَقَّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتى يَروُا العذابَ الأليم﴾ [سورة يونُس: الآيتان ٩٦، ٩٧]

ويذكر تعالى أن الذي ينتفع بالتذكير هو الذي يطلب الحق والإنصاف، فهذا إذا تبين له الحق انقاد له؛ والله أعلم.

لما قتل من قُتِل من الصحابة شهداءَ في سبيل الله أنزل الله على المسلمين: بلِّغوا إخواننا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه. فتلوها مدة فأنزل الله بدلها:

﴿ولا تحسبَنَّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً بلْ أحياءٌ عند ربهم يُرزَقون * فَرِحين بما آتاهُمُ اللَّهُ من فَضلِه ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهمْ من خلفِهِم ألَّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * يستَبْشِرون بنعمة من اللَّهِ وفضلٍ وأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أجرَ المؤمنين﴾

[سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ ــ ١٧١]

وفي هذا حكمة ظاهرة. فإنه مناسب غاية المناسبة أن يُخبر اللَّهُ عنهم إخوانَهم وأصحابَهم وأحبابهم بخصوصهم ليفرحوا وتطمئن قلوبُهم وتسْكُنَ نفوسُهم ويُقْدِموا على الجهاد. فلما حصل هذا المقصود، وكان هذا الحكم ثابتاً: من قتل في سبيل الله إلى يوم القيامة، وكان من بلاغة القرآن وعظمته أنه يخبر بالأمور الكلية، ويذكُر الأصول الجامعة أنزل الله هذه الآيات العامّات المُحْكَمات حكمةً بالغة ونعمة من الله على عباده سابغة.

ونظير هذا أنه كان ممّا يتلى: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البته إلخ، فنسخ لفظها وجعل الشارع الرجم بوصف الإحصان، لأنه هو الصفة الموجبة لا وصف الشيخوخة. ولكن في ذكر الشيخ والشيخة من بيان شناعة هذه الفاحشة ممن وصل إلى هذه الحال وقبحها ورذالتها ما يوطِّن قلوب المؤمنين في ذلك الوقت الذي كانت القلوب يصعب عليها هذا الحكم على الزنى، الذي كانوا آلفين له في الجاهلية فلم يفجأهم بحكم الرجم دفعة واحدة، بل حكم به على الشيخ والشيخة اللذين ماتت شهوتهما ولم يبق لهما

إرادة حاملة عليه إلا خبث الطبـع وسوء النية؛ فلما توطنت نفوسهم على قبحه شرع لهم الحكم العام، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربِّك لا يَنفـعُ نفساً إيمانُها**﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٨]

فسّر النبـي ﷺ ذلك بطلوع الشمس من مغرِبها، فالأحاديث الصحيحة دلّت على أن أول الآيات طلوعُ الشمس من مغربها، والآية دلّت على أن أي آية من آيات الله التي هي مقدمات الساعة وبها يكون الإيمان اضطراريًّا أتت فإنه لا ينفـع الإيمان لأنه إنما ينفـع إيمانُ الاختيار وإيمان الغيب. وإذا أتى بعض الآيات صار الإيمان بشهادة واضطرار فلا ينفـع، فالآية دلّت على التعليل، والأحاديث دلت على الأولية؛ والله أعلم. قوله تعالى:

﴿**من بعد وصية يوصي بها أو دين**﴾ [سورة النساء: الآية ١١]

والآية الأخرى:

﴿**من بعد وصية توصون بها أو دين**﴾ [سورة النساء: الآية ١٢]

والأخرى:

﴿**من بعد وصية يوصين بها أو دين**﴾ [سورة النساء: الآية ١٢]

فاتفقت على إطلاق الدَّيْن وتقييد الوصية بحصول الإيصاء بها؛ وهذا يدل على أن الدَّيْن مقدَّم على حقوق الوَرَثة وغيرِهم مطلقاً، سواءً وصَّى المدين بقضائه أو لم يُوصِّ، وسواءً كان ديناً لله أو للآدميين، وسواء كان به وثيقةٌ أم لا. وأما الوصيةُ فشرطُ الله في ثبوتها أن يوجد الإيصاء بها، فإن لم يُوَصِّ الميت لم يجب على الورثة شيء من التركة لغير الدَّين، ولا بد من تحقق الإيصاء. فلو وجد منه قول في حال عدم شعور وعلم بما أوصى به لم يتحقق أنه أوصى. ودلت الآيات على ثبوت الوصية التي يوصي فيها الميت وقيدتها السُّنة بأنها الثلث فأقل، لغير وارث؛ بل آيات المواريث وتقدير أنصباء الورثة مـع قوله في آخرها:

﴿تلك حدودُ الله ـ إلى قوله ـ ومَنْ يعصِ اللَّهَ ورسولَه ويتعدَّ حدودَه يُدخِلْه ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾ [سورة النساء: الآيتان ١٣، ١٤]

تدلّ على أن الوصية لوارث من باب تعدِّي الحدود.

فوائد: لا يمنع الله تعالى عبدَه شيئاً إلاّ فتح له باباً أنفعَ له منه وأسهل وأوْلى. قال تعالى:

﴿ولا تتمَنَّوا ما فضَّل الله به بعضَكم على بعضٍ للرجالِ نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسَبْن واسْأَلوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ [سورة النساء: الآية ٣٢]

فمنع الله من تمنِّي ما فضَّل الله به بعضَ العبيد على بعض، وأخبر أن كل عاملٍ منَ الرجال والنساء له نصيبٌ وحظٌّ من كَسْبه، فحضَّ الصِّنفين على الاجتهاد في الكسب النافع، ونهاهم عن التمنِّي الذي ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، ودعاهم إلى سؤال ذلك بلسان الحال ولسان المقال؛ وأخبرهم بكمال علمه وحكمته، وأن مِنْ ذلك أنه لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ولا تُنال المطالب العالية إلا بالسعي والاجتهاد، والله الموفق لكل خير. قوله تعالى:

﴿ولا تَمُدَّنَّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً مِنهُم زهرةَ الحياةِ الدُّنيا لنفتنَهم فيه ورزقُ ربِّك خيرٌ وأبقى﴾ [سورة طه: الآية ١٣١]

تضمنت التزهيد في الدنيا، وأن غضارتَها وحسنَها الذي متّع به المُترفين ليس لكرامتهم عليه وإنما ذلك للابتلاء والاختبار، لينظر أيهم أحسن عملاً، وأيهم أكمل عقلاً، فإن العاقل هو الذي يُؤْثِرُ النفيس الباقي على الدنيِّ الفاني، ولهذا قال: ﴿ورزق ربك﴾ أي الذي أعده للطائعين الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ولم يغرَّهم رونق الدنيا وبهجتها الزائلة بل نظروا إلى باطن ذلك، حين نظر الجهال إلى ظاهرها وعرفوا المقصود ومقدار التفاوت ودرجات الأمور فرِزْقُ الله لهؤلاء خيرٌ وأبقى، أي أكمل في كل صنف من أصناف

الكمال. وهو مـع ذلك باقٍ لا يزول. وأمَّا ما متـع به أهلَ الدنيا فزهرةُ الحياة الدنيا، تمرُّ سريعاً وتذهب جميعاً؛ ولهذا نهى الله رسوله أن يمد عينيه إلى ما متّـع به هؤلاء؛ ومدُّ العين هو التطلـعُ والتشرفُ لذلك، لا مجرد نظر العين وإنما هو نظر القلب، ولهذا لم يقل: ولا تنظر عيناك إلى ما متعنا به أزواجاً الآية فمدّ العين متضمن لاستحسان القلب وتطلعه إلى ذلك. ومثل قوله:

﴿وآصبرْ نفسَك مـع الذين يَدعُون ربهم بالغداةِ والعَشِيِّ يريدون وجهَه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريدُ زينةَ الحياةِ الدّنيا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٨]

فهذه الآية بينت المراد من تلك الآية. وأن نظر العين المقرون بإرادة زينة الحياة الدنيا. ونظير ذلك قوله تعالى:

﴿ولقد آتيناك سبعاً من المَثَاني والقرآنَ العظيم * لا تمدَّنَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً مِنهم ولا تحزنْ عليهم وآخفِض جناحك للمؤمنين﴾
[سورة الحِجْر: الآيتان٨٧، ٨٨]

فنبّهه الله تعالى على الاغتباط بما آتاه الله من المثاني والقرآن العظيم، وامتنّ عليه بذلك، وأنه الخير والفضل والرحمة الذي يحق الفرح والسرور به، فإن ذلك خير مما يجمـع أهل الدنيا ويتمتعون به؛ وإنما الذي ينظرون ويغبطون هم المؤمنون الذين لم يغتروا بما اغتر به المعرضون، فلهذا قال:
(واخفض جناحك للمؤمنين).

لعل من فوائد تأخير ذكر ذلك القتيل عن ذكر الأمر بذبـح البقرة في قصة موسى مـع بني إسرائيل لأن السياق سياق ذم لبني إسرائيل، وتعدادِ ما جرى لهم مما يقرر ذلك. فلو قَدَّم ذكر القتيل على الأمر بذبـح البقرة لصارت قصة واحدة وقضية داخل بعضها في ضمنِ بعض، فَفَصَل هذا من هذا ليتبين ذمُّهم وسوءُ فعالهم في القضيتين. ولهذا أتى في ابتداء كل منهما «بإذْ» الدالّةِ على تذكّر تلك الحال وتصويرها، فقال:

﴿وإذْ قال موسى لقومه إنّ اللّهَ يأمركم أن تذبحوا بقرةً﴾
[سورة البقرة: الآية ٦٧]

ثم قال: ﴿وإذ قتلتم نفساً فآدَّارَأْتُمْ فيها﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٢]
وليرتب عليه أيضاً ما ذكر بعده من قوله:

﴿فقلنا آضربوه ببعضها﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٣]

إلى آخر الآيات، والله أعلم.

ويقارب هذا ما ذكر الله في قصة مريم حين أثنى عليها بالنعم الظاهرة والباطنة هي ووالدتها، فذكر حالها وكمالها أولاً، وأن الله جعلها في كفالة زكريا لتتربى تربية حسنة، وتتأدب وتتعلم، وذكر اجتهادها في ملازمة مِحرابها واستجابة دعاء أمها، وأنه تقبَّلها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً قبل ذكر اختصام بني إسرائيل فيها واقتراعهم عليها لينبه تعالى: أن هذا مقصود، وهذا مقصود، وأن لها مدحاً وكمالاً في حال اختصامهم عليها، ومدحاً وكمالاً في حال نشأتها وعبادتها وتيسير الله لها أمورَها. ومن فوائد ذلك أن تقديم الغايات والمقاصد والنهايات أهم من تقديم الوسائل، فالاختصاص من باب الوسائل وما ذكر قبله من باب المقاصد، والله أعلم وأحكم.

(ذِكْرُ الله تعالى) مُرْقِـعٌ للخَلَل، مُتَمِّمٌ لما فيه نقصٌ، ودليله قوله تعالى ــ بعدما ذكر صلاة الخوف وما فيها من عدم الطمأنينة ونحوها ــ قال:

﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾
[سورة النساء: الآية ١٠٣]

أي لينجبر نقصكم وتتم فضائلكم. ويشبه هذا أن الكمال هو الاستثناء في قول العبد: إني فاعل ذلك غداً، فيقول: إن شاء الله؛ فإذا نسي فقد قال تعالى:

﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٤]

وهذا أعم من كونه يستثني بل يذكر الله تعالى تكميلاً لما فاته من الكمال؛ والله أعلم. فعلى هذا المعنى ينبغي لمن فعل عبادة على وجه فيه قصور، أو أَخَلَّ بما أمر به على وجه النسيان أن يتدارك ذلك بذكر الله تعالى ليزول قصوره ويرتفـع خَلَلُهُ.

(احتجاج الفقهاء) على أنه لا يجب على الزوج أن يطأ زوجته إلا في كل ثلث سنة مرة بقوله تعالى:

﴿للّذين يُؤْلُون من نسائهم تَرَبُّصُ أربعةِ أشهرٍ﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢٦]

فيه نظر، وإنما فيها الدلالة على أن للمُؤلي خاصة هذه المدة لأجل إبلائه، وأما غير المُؤْلي فمفهومها يدلّ على خلاف ذلك، وأنه ليس له أربعة أشهر وإنما عليه ذلك بالمعروف، لأنه من أعظم المعاشرة الداخلة في قوله تعالى:

﴿وعَاشروهن بالمعروف﴾ [سورة النساء: الآية ١٩]

فمن آلى زوجها منها فله أربعة أشهر لا تملك المطالبة إلّا أن يتبين أن قصده الضِّرار فيمنـع من ذلك.

فصـــل

يؤخذ من نهي الله عن نكاح المشركة وإنكاح المؤمن للمشركة، وتعليل الله لذلك أنه ينبغي اختيار الخلطاء والأصحاب الصالحين الذين يدعون إلى الجنة بأقوالهم وأفعالهم وتجنبُ ضِدّهم من الأشرار، الذين يدعون إلى النار بحالهم ومقالهم، ولو كانوا ذوي جاه وأموال وأبهة، ولو كان الأوّلون فقراء ولا جاه لهم ولا قدر عند كثير من الناس؛ لأن اختيار السعادة الأبدية أوْلى بالعاقل من حصول حظ عاجل يعقب أعظم الحسرة وأشد الفوت، فتخيرُ الخلطاء والأصحاب من شيم أولي الألباب.

قوله تعالى: ﴿**ألم تَرَ إلى الذين يُزكُّون أنفسهم بَل الله يزكِّي من يشاء ولا يُظلَمُون فتيلاً**﴾ [سورة النساء: الآية ٤٩]

أي إذا كانوا إنما حملهم على تزكية نفوسهم ومدحها خوفُ أَنْ لا يُعرف مقدارُهم ومنزلتُهم فليعلموا أن الله هو المزكِّي لمن يشاء من خلقه، وهو الذي تزكَّى بترك القبائح وفعل الخيرات، والله تعالى شكور حكيم، فإن كانوا أزكياء حقيقة فلا بد أن يُظهِر الله ذلك وإن لم يظهروه؛ فإنه لا يَظْلم فتيلاً. ولكن قد علم أن الحامل لهم على هذه التزكية الدعوى الباطلة والافتراء والكذب، فلهذا قال:

﴿**انظر كيف يفترون على الله الكذبَ وكفى به إثماً مبيناً**﴾
[سورة النساء: الآية ٥٠]

(اتفاقُ المقاصد) والاجتماع من أكبر الأسباب لحصول المطالب المهمة، كما أن اختلاف الإرادات وحصول التنازع من أسباب الفشل وتفويت المصالح. ويدل على هذا قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً ـ إلى قوله ـ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهَبَ ريحكم واصبروا إن الله مـع الصابرين﴾
[سورة الأنفال: الآيتان ٤٥، ٤٦]

وإذا كان هذا في قتال الأعداء الذي هو أشد الأشياء وأصعبها فغيره من الأمور من باب أولى وأحرى.

من المناسبات الحسنـة أن أكبر البراءة وهو بـراءة الله ورسولـه من المشركين أمر الله بإعلانها في يوم الحـج الأكبر؛ فالذنوب والمعاصي جميعها تشترك في البراءة من الله ورسوله وعدم الموالاة، ولكن البراءة التامة التي ليس معها من الموالاة مثقال ذرة إنما هي من كل مشرك وكافر بالله العظيم؛ وتمام موالاة المؤمن بالله ورسوله الموافقة التامة على هذه البراءة ولهذا كانت سورة:

﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [سورة الكافرون]

إلى آخرها متضمنة لهذه البراءة، مستلزمة للإخلاص لله تعالى في جميـع الدين.

قوله تعالى: ﴿لا يرقُبُوا فيكم إلاًّ ولا ذمةً﴾ [سورة التوبة: الآية ٨]

وفي الآية الأخرى:
﴿لا يرقُبُون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذِمةً وأولئك هم المعتدون﴾
[سورة التوبة: الآية ١٠]

دليل على معاداتهم للصحابة: خصوصاً، وعموماً؛ فخصوصاً: لما بينكم وبينهم من العداوة وآثارها، وخصوصاً لإيمانهم فلم تكن هذه العداوة لهم إلا لأجل الإيمان فهم أعداء الإيمان وأعداء كل مؤمن؛ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، وهذا هو الاعتداء التام، فلذلك حصر الاعتداء فيهم بقوله:
﴿وأولئك هم المعتدون﴾.

قوله تعالى: ﴿وإن نكثوا أيمانَهم من بعدِ عهدِهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمةَ الكُفر إنهم لا أَيْمانَ لهـم لعلهم ينتهُون﴾
[سورة التوبة: الآية ١٢]

أوقـع الظاهر، وهو قوله أئمة الكفر، موقـعَ المضمَر، فلم يقل: فقاتلوهم ـ ليدل على الحض على قتالهم، وأنهم تمكنوا من الكفر، ودل على أن بهذه الأشياء يكون الإنسان من أئمة الكفر وهو نقض العهود والدعوة إلى دين الكفر والطعن في دين الإسلام. ويدل هذا على أن أئمة الإيمان ضدهم، فهم المؤمنون الملتزمون لشرائـع الإيمان الموفون بعهوده، الداعون إلى الله، الذابُّون عنه، المبطلون لما ناقضه ظاهراً وباطناً، وأنهم الموثوق بهم ومحل القدوة والأمانة. نسأل الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿إنما المشركون نَجَسٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٨]

دليل على أن قوله تعالى:

﴿وطهر بيتي للطائفين﴾ [سورة الحج: الآية ٢٦]

عامٌّ لتطهيره من النجاسات الحسية والنجاسات المعنوية.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأَحبارِ والرُّهبانِ لَيَأْكُلون أموال الناس بالباطل ويصُدون عن سبيل الله والذين يكنِزُون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونَها في سبيل الله فبشِّرهم بعذاب أليم﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٤]

ذكر الله فيها جُمّاع الأموال المحرّمة، وأن الآكلين لها صنفان: أحدهما مَنْ أخذها بغير حقها وأخذُ أموال الناس بالباطل من الغُصوب ونحوها والرشاء ونحوها وتناول من له مستحق يبذل له ويأخذه بحسب قيام الوصف به وليس به فدخل في ذلك مصارف الصدقات والأوقاف والزكوات والكفارات والنفقات ونحو ذلك؛ والصنف الثاني من منـع الحق الذي عليه من ديون الله وديون الآدميين وكلاهما أكل للمال بالباطل. قوله تعالى:

﴿يـوم يُحمى عليها في نـار جهنم فتُكوى بهـا جباهُهم وجنـوبُهم وظُهورُهم هذا ما كَنزْتُم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنِزُون﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٥]

قال: يوم يحمى عليها ولم يقل يوم تحمى في نار جهنم ليدل ذلك على أنها مع حرارة نار جهنم تستعمل لها الآلات المحمية، كالمنافيخ ونحوها، فيضاعف حرّها ويشتد عذابها وذكر المفسرون، رحمهم الله تعالى، مناسبةً لتخصيص كَيِّ جباههم وجنوبهم وظهورهم، وذلك لأنه إذا جاءهم الفقير السائل صَعّر أحدهم بوجهه فإذا أعاد عليه ولّاه جنبه، فإذا ألحَّ عليه ولّاه ظهره فاختصت هذه الثلاث لذلك جزاءً وفاقاً، وظهر لي معنى أَوْلَى من هذا: وهو أن كَيَّ هذه المواضع الثلاثة هي أشد على الإنسان من غيرها، وهي متضمنة لجهاته الأربع: الأمام والخلف واليمين والشمال؛ وهذه الوجوه التي يخرج منها الإنسان، فلما منعوا الواجب عليهم منعاً تامًّا من جميع جهاتهم جوَّزوا بنقيض مقصودهم، فإن مقصودهم من المنع التمتع بتلك الأموال، وحصول النعيم بها وخوف وحرارة فقدها لو بذلوها فصار المنع هو عين العذاب فلو أنهم أخرجوها وقت الإمكان لسَلِموا من كَيِّها وفازوا بأجْرها. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى:

﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾

[سورة التوبة: الآية ٣٥]

ويدل عليه أيضاً قول النبي ﷺ: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلّا من قال: هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله. وفي اللفظ الآخر هم الأخسرون ورب الكعبة، فمن خسارتهم أنهم فاتهم ربح أموالهم وسلامتهم من تَبِعتها وكيِّها ويؤيد هذا أن المعنى الذي ذكره المفسرون ليس في اللفظ ما يدلّ عليه، وليس أيضاً لازماً لكل مانع فقد يمنع الفقير والسائل، وهو بغير تلك الصفة وقد يكون عنده حق واجب لا يطلب ويسأل أن يعطاه فيستحق هذا الجزاء والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إنّ عدَّةَ الشُّهور عندَ اللَّهِ آثْنا عَشَرَ شهراً في كتاب الله﴾

[سورة التوبة: الآية ٣٦]

دليل على أن هذه الشهور المعروفة قد ألهم الله العباد لها وفطرهم عليها، وأن

ذلك موافق لقدره وشرعه ويستدل بها من قال: إن اللغة إلهام من الله، لا اصطلاح اصطلح عليه العقلاء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافةً واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٦]

في هذه الآية الكريمة فوائد: إحداها: وجوب قتال المشركين؛ لأن الأمر الأصلُ فيه الوجوب؛ الثانية: أن ذلك فرض على جميع المؤمنين؛ وهذا مأخوذ من قوله: «وقاتلوا» لا من قوله «كافة» فإن كافة حال المشركين على الصحيح، فخطاب الله للمؤمنين جميعاً بقوله: «وقاتلوا» يدل على ذلك، ولكن هذا الغرض على الكفاية على القادر لقوله تعالى:

﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافةً﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٢]

وقوله: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ [سورة النور: الآية ٦١]

الآية الثالثة: إن هذا القتال لجميع المشركين، لا يختص به أحد دون أحد. الرابعة: أن المستكبرين عن عبادة الله من أنواع الملاحدة والدهرية أولى بالقتال من المشركين. الخامسة: أن قتالهم مستحق بشرطين: كونهم مشركين وكونهم مقاتلين. فمتى زال أحد الوصفين لم يقاتَلوا، فالمسلم لا يقاتل لوصفه الذي اتصف به من الظلم والمعاصي وإنما يقاتل المفسد منهم، كالبغاة والخوارج ونحوهم؛ وكذلك من لم يقاتل المسلمين من المشركين لا يقاتلون إما لكونه ليس أهلاً للقتال كالنساء والأطفال والشيوخ والرهبان ونحوهم، وإما لكونه أخلد للمسلم وأقر بالجزية ففيه دليل أيضاً على أن الجزية تقبل من كل مشرك بذلها؛ ولو صح لم يكن من أهل الكتاب لهذا العموم وهذه الفائدة. السادسة، والسابعة: فيه التنبيه على الإخلاص في الجهاد وأنهم يقاتلون لوجه الله، ولكونهم اتصفوا بما يبغضه الله وهو الشرك. فليكن الحامل لكم أيها المؤمنون على قتالهم موافقةَ ربكم في بغضه وعداوته لهم، لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا. الثامنة: التهييج للمؤمنين على قتال المشركين، وذلك

أنهم يقاتلون المؤمنين كافة؛ فكل من اتصف بالإيمان فطبعهم الخبيث معاداته وقتاله لأجل إيمانه. أفلا تقاتلون أيها المؤمنون من كفروا بما جاءكم من الحق وعاندوه وحاربوه فلتكونوا في عداوتهم متفقين وعلى حربهم جاهدين.
التاسعة: الاجتهاد على التحقق بتقوى الله لتنال بذلك معونة الله ومعيته.
العاشرة: إن معية الله نوعان: عامة، يدخل فيها البر والفاجر، كقوله:

﴿ما يكونُ من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعُهُم ولا خمسةٍ إلاّ هو سادِسُهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾

[سورة المجادلة: الآية ٧]

وما أشبهها من الآيات الدالة على كمال العلم والمجازاة، وخاصة لمن قام بمحبوبات الله: من الإيمان والإحسان والصبر والتقوى، كقوله: **﴿إن الله مع المحسنين﴾**، و**﴿مع الصابرين﴾** و**﴿مع المؤمنين﴾** وهذه المعية تقتضي مع العلم والجزاء الحسن العون والنصرة والتأييد والقرب الخاص. الحادية عشرة: بلّغ فيها التنبيه على أسباب الانتصار على الأعداء، وهو الاتفاق على قتالهم، وعدم المنازعة، والإخلاص لله تعالى، وشدة العداوة التي من لازِمِها أن يبذل ما يستطاع ويمكن في قتالهم: ويدخل في ذلك إعداد السلاح والخيل والقوة بجميع أنواعها، وكذلك حصول اليقين بمعية الله والاتصاف بالتقوى، فمتى اجتمعت هذه الأسباب لم يتخلّف عنها النصر؛ وبحسب ما يفوت منها يفوت من النصر وبهذا ونحوه يُعلم أن الشريعة الإسلامية كاملة من جميع أبوابها منتظمة لمصالح الدنيا والآخرة وبالله التوفيق.

قوله تعالى: **﴿إنما النسيءُ زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كَفَروا يُحِلُّونَه عاماً ويحرِّمونه عاماً لِيُوَاطِئُوا عدَّةَ ما حَرَّم اللَّهُ فيُحِلُّوا ما حَرّم الله﴾**

[سورة التوبة: الآية ٣٧]

فيها دلالة على تحريم الحيل المتضمنةِ تغييرَ دين الله بإسقاط الواجبات وإحلال المحرّمات بالتوصل إلى ذلك بصورة المباح؛ ووجه هذا أن الله تعالى ذمّ أهل النسيء، وجعل هذا من زيادة كفرهم، وهم يقدّمون شهراً

أو يؤخِّرونه ويبدِّلون الشهر الحرام بالشهر الحلال وبالعكس، ويجعلونه العدد الذي يصطلحون عليه ويسمونها بالأشهر الحُرُم ويتجنبون فيها ما يتجنبون في الأشهر الحرم فهم غيَّروا صورها وأسماءها وعلّقوا التحريم والتحليل على الصورة والاسم، لا على الحقيقة والمعنى، وهذه الحيل بعينها من غير فرق، والله أعلم.

الداعي إلى الله وإلى دينه له طريق ووسيلة إلى مقصوده، وله مقصودان: فطريقة الدعوة بالحق إلى الحق للحق فإذا اجتمعت هذه الثلاثة، بأن كان يدعو بالحق أي بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وكان يدعو إلى الحق وهو سبيل الله تعالى وصراطه الموصل لسالكه إلى كرامته، وكانت دعوته للحق، أي مخلصاً لله تعالى، قاصداً بذلك وجه الله ـ حصل له أحد المقصودين لا محالة، وهو ثواب الداعين إلى الله، وأجرُ ورثة الرسل بحسب ما قام به من ذلك. وأما المقصود الآخر، وهو حصول هداية الخلق وسلوكهم لسبيل الله الذي دعاهم إليه، فهذا قد يحصل وقد لا يحصل؛ فليجتهد الداعي في تكميل الدعوة كما تقدّم، وليستبشرْ بحصول الأجر والثواب. وإذا لم يحصل المقصود الثاني، وهو هداية الخلق أو حصل منهم معارضة أو أذية له بالقول أو بالفعل فليصبرْ ويحتسب، ولا يوجب له ذلك ترك ما ينفعه، وهو القيام بالدعوة على وجه الكمال ولا يضيق صدره بذلك فتضعف نفسه وتحضره الحسرات بل يقوم بجد واجتهاد ولو حصل ما حصل من معارضة العباد. وهذا المعنى تضمنه إرشاد الله بقوله تعالى:

﴿فلعلك تاركٌ بعضَ ما يوحَى إليك وضائقٌ به صدرُك أَنْ يقولوا لولا أُنزلَ عليه كنزٌ أو جاء معه مَلَكٌ إنما أنتَ نذيرٌ واللَّهُ على كل شيء وكيل﴾
[سورة هود: الآية ١٢]

فأمره بالقيام به بجد واجتهاد مكملاً لذلك غير تارك لشَيء منه، ولا حرج صدره لأذيتهم، وهذه وظيفته التي يطالب بها؛ فعليه أن يقوم بها؛ وأما هداية العباد ومجازاتهم فذلك إلى الله، الذي هو على كل شيء وكيل.

قوله تعالى: ﴿وإذا مسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوْا ربَّهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذَا فريقٌ منهم بربهم يُشركون﴾ [سورة الروم: الآية ٣٣]

ونحوها من الآيات التي فيها هذا المعنى؛ فإذا كان هذا ثابتاً في أصل الدين أن الناس أكثرهم إذا مسهم الضر أنابوا إلى الله لعلمهم أنه كاشف الكربات وحدَه، لا شريك له، وللضرورة التي تضطرهم إليه، ثم إذا زالت الضرورة عادوا إلى شِركهم فكذلك الأمر ثابت في فروع الدين وفي سائر الأمور تجد الناس مستجيبين لداعي الغفلة، مقيمين على ما يكرهه الله، غافلين عن ذكر ربهم ودعائهم، فإذا مستهم نائبة من نوائب المحن أقبلوا إلى ربهم متضرِّعين، ولكشف ما بهم داعين، فأَقبَلوا وأنابُوا، ثم إذا أزال الله شدتَّهم وكشفَ كُربَتَهم عادوا إلى غفلتهم وغيِّهم يعمهون، ونسُوا ما كانوا يدعونه إليه من قبل، كأنه ما كان. وهذه الحال من أعظم الانحرافات وأشد البليات التي يبتلى بها العبد، لا يعرف ربه إلا في الضرورة، وهذه شعبةٌ من شُعَبِ الشِّرك، ومن كان فيه هذا الأمر ففيه شبهٌ ظاهر من حال المشركين. وإنما المؤمن الكامل الذي يعرف ربه في السَّراء والضراء والعسر واليسر، فهذا هو العبد على الحقيقة، وهذا الذي له العاقبة الحسنة والسعادة الدائمة، وهذا الذي يحصل له النجاة من الكروب إذا وقع فيها. قال تعالى بعدما ذكر عن ذي النون أنه بسبب عبادته في الرخاء عرفه الله في الشدة:

﴿فلولا أنه كان من المسبحين * لَلَبِثَ في بطنه إلى يوم يبعثون﴾
[سورة الصافات: الآيتان ١٤٣، ١٤٤]

وقال: ﴿ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾
[سورة الأنبياء: الآية ٨٨]

وقال النبي ﷺ: (تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة) وقريب من هذا المعنى ما ذكر الله من حال المترفين الرادين لدعوة المرسلين، حيث قال:

﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنّا بما أرسلتم به كافرون﴾ [سورة سبأ: الآية ٣٤]

فأخبر أن السبب في ردهم لدعوتهم كونهم مترفين، فدل على أن الترف هو

الانغماس في نعيم الدنيا ولذاتها، والانكباب عليهـا والتنوّق في مـآكلها ومشاربها ومراكبها، والإسرافُ في ذلك يُحدث في الإنسان خُلُقاً خبيثاً يمنعه من سرعة الانقياد لأمر الله والاستجابة لداعي الله، وكما أنه ثابت واقـع في أصل الدين فإنه واقـع أيضاً في شرائعه وفروعه؛ فكم منـع الترف من عباداتٍ وكم فوّت من قُرُبات، وكم كان سبباً للوقوع في المحرّمات، فإن الترف وكثرة الإرفاه تصيِّر الإنسان شبيهاً بالأنعام التي ليس لها هم إلّا التمتـع في الأكل والشرب؛ وكذلك يرهل البدن ويكسله ويثقله عن الطاعات، ويشغل القلب في مـرادات النفس، ومراداتهـا كم حمَلت صاحبَهـا على جمـع الأموال من غير حِلّها، وحملت النفس على الأَشَر والبَطَر والرياء والفخر والخُيلاء والاستكثار من قُرَناء السوء. وفي الجملة، في الترف والسرف من المضار أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا، فعلى العبد أن يكون مقتصداً في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه، وغير ذلك من حوائجه التي لا بدّ منها، فلا يعلق قلبُه إلا بما يحتاجه منها، ولا يستعمل زيادة عن حاجته ويعوِّد نفسه على ذلك لتتمرن النفس على الأخلاق الجميلة ويسلَمَ من كثير من الآفات والشرور المترتبة على الترف. ولهذا لما فتحت الدنيا على المسلمين أيام عمر، رضي الله عنه، وكَثُرَت الأموال كان رضي الله عنه ينهى المسلمين أشد النهي عن الترف، ويأمرهم بالخشونة والاقتصاد الذي به صلاح المعاش، والمعاد، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: **﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيـي الأرضَ بعد موتِها، إنَّ ذلك لمحيـي الموتَى وهو على كل شيء قدير﴾** [سورة الروم: الآية ٥٠]

فإذا كانت الأرض الخاشعة الخالية من كل نبت، إذا أنزل الله عليها المطر اهتزت وَرَبَتْ وأنْبتت من كل زوجٍ بهيـج، واختلط نبتُها وكثرت أصنافه ومنافعه جعله الله تعالى من أعظم الأدلة الدالّة على سعة رحمته وكمال قدرته، وأنه سيحيـي الموتى للجزاء فالدليل في القلب الخالي من العلم والخير حين ينزل الله عليه غيث الوحي فيهتز بالنبات وينبت من كل زوج بهيـج من العلوم

المختلفة النافعة، والمعارف الواسعة، والخير الكثير والبر الواسع، والإحسان الغزير والمحبة لله ورسوله، وإخلاص الأعمال الظاهرة والباطنة لله وحدَه لا شريك له، والخوف والرجاء والتضرع والخشوع لله، وأنواع العبادات وأصناف التقربات، والنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، وغير ذلك من العلوم والأعمال الظاهرة والباطنة والفتوحات الربانية، مما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر: أعظم من الأرض بكثير، على سعة رحمة الله وواسع جوده وتنوع هباته وكمال اقتداره وعزته، وأنه يحيي الموتى للجزاء، وأن عنده في الدار الأخرى من الخيرات والفضل ما لا يعلمه أحد غيرُه، وقد نبّه الله على أن حياة القلوب بالوحي بمنزلة حياة الأرض بالغيث، وأن القلوب الخالية من الخير بمنزلة الأرض الخبيثة، فقال تعالى:

﴿والبلدُ الطيبُ يَخْرُجُ نباتُهُ بإذنِ ربِّه والذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاّ نَكِداً كذلك نُصرِّفُ الآياتِ لقومٍ يشكرون﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٨]

نية العبد تقوم مقام عمله؛ وإذا أحسن العبد في عبادة ربه ووطّن نفسه على الأعمال الفاضلة الشاقّة سهّل الله له الأمور وهوّن عليه صعابَها، وربما انقلبت المخاوف أمناً وتبدّلت المحنة منحة، وربما حصل من آثار ذلك خيرُ الدنيا والآخرة؛ ويدل على ذلك قوله تعالى:

﴿الذين استجابوا لله والرسولِ مِنْ بعدِ ما أصابهُمُ القَرْحُ ـ إلى قوله ـ فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ [سورة آل عمران: الآيات ١٧٢ ـ ١٧٤]

فلا يستنكر هذا الخير على ذي الفضل العظيم. وفي هذه الآية دليل أيضاً على أن الله يحدث لعبده أسباب المخاوف والشدائد ليحدث العبد التوكل على ربه والإخلاص والتضرع فيزداد إيمانه وينمو يقينه، كما قال تعالى:

﴿الذين قالَ لهُمُ الناسُ إنَّ الناسَ قد جَمَعُوا لكم فاخشَوْهم فزادَهُم إيماناً وقالوا حسبُنا الله ونعم الوكيل﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٣]

قوله تعالى: ﴿وأنذِرْ به الذين يخافون أن يُحشَروا إلى ربهم﴾
[سورة الأنعام: الآية ٥١]

ليس فيه نقص كما توهَّمه بعضُهم، وجعل الخوفَ بمعنى العلم، وإنما فيه زيادة معنى نفيس، وهو أنه: كما كان العلم نوعين، علمٌ لا يثمر العمل بمقتضاه، وإنما هو حجة على صاحبه، وهو غير نافـع؛ وعلمٌ يُثمر العمل وهو علم المؤمنين بأن الله سيبعثهم ويجازيهم بأعمالهم؛ فأحدث لهم هذا العلم الخوف فخافوا مقام ربهم وانتفعوا بنذارة الرسل، وعلموا أنه ليس لهم من دون الله وليٌّ ولا شفيـع، فهؤلاء الذين أمر الله ورسولَه بنذارتهم لأنهم يعرفون قدرَها ويقومون بحقها. وأما حالة المعرِضين الغافلين والمعرِضين المعاندِين فهؤلاء لا ينفـع فيهم وعظٌ ولا تذكيرٌ لعدم المقتضى والسبب الموجب، وهذا المعنى يأتي بما أشبه هذا الموضـع من القرآن والله ولي الإحسان.

فصل

العزم الذي مدح الله به خيارَ خلقه، كقوله:

﴿فاصبرْ كما صبر أُولو العزم من الرسل﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٣٥]

هو قوة الإرادة وحزمها على الاستمرار على أمر الله، والهمة التي لا تني ولا تفتر في طلب رضوان الله وحسن معاملته، وتوطين النفس على عدم التقصير في شيء من حقوق الله، ولذلك لام الله آدمَ عليه السلام بعدم استمراره على الأمر وحصول الاغترار منه لعدوِّه بأكل الشجرة التي عهد الله له بالامتناع من أكلها، فقال تعالى:

﴿ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ مِنْ قَبلُ فنسي ولم نجدْ له عزماً﴾
[سورة طَه: الآية ١١٥]

فحصول الفتور وفلتات التقصير منافٍ كمال العزم، ولهذا لم يكن كمال هذا الوصف إلّا لمن بلغوا الدرجة العالية في الفضائل. والنقصُ إنما يصيب العبدَ من أحد أمرين: إما من عدم عزمه على الرشد، الذي هو الخير؛ وإما من عدم ثباته واستمراره على عزمه. ولهذا كان دعاء النبي ﷺ: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر. والعزيمةُ على الرشد من أنفع الأدعية وأجمعها للخيرات؛ فمن أعانه الله على نية الرشد والعزيمة عليها والثبات والاستمرار فقد حصل له أكبرُ أسباب السعادة. والناس في هذا المقام درجات بحسب قيامهم بهذين الأمرين؛ وحَسْبُ ذي الفضل فضلاً أن تكون العزيمة على الرشد وصفُه وآثارَها من العلم والعمل نعتُه، وإذا حصل له نوع فتور وخلل في هذا المأمور رجع إلى أصله وأخيته، وداوى هذا الداء بالتذكر والاستغفار. قال تعالى:

﴿إن الذين اتَّقَوْا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تـذكَّروا فـإذا هم مبصرون﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠١]

أي تذكروا الخلل الذي دخل عليهم من الشيطان والنقصَ الذي حصل لهم به الخسرانُ فأبصروا ذلك فبادروا إلى سَدِّه والعودِ إلى ما عودهم وليُّهم من لزوم الصِّراط المستقيم. نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بمَنِّه وكرمه، آمين.

قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فٱفْسَحُوا يفسَحِ اللَّهُ لكمْ وإذا قيل ٱنشُزُوا فٱنشُزُوا يرفَـع اللَّهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجاتٍ واللَّهُ بما تعملون خبير﴾**
[سورة المجادلة: الآية ١١]

فيها فضيلةُ التأدب بالآداب الشرعية، ورفعةٌ عند الله ولو ظنها الإنسان منقصةً، فليس النقص غير الإخلال بآداب الله لعباده؛ ومن فوائد إيقاع الظاهر موقـع المُضْمَر في هذه الآية حيث قال: **﴿يرفـع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾** ولم يقل يرفعكم، ليدل ذلك على فضيلة الإيمان والعلم عموماً، وأنَّ بهما تحصل الرِّفعة في الدنيا والآخرة، ويدل على أن من ثمرات العلم والإيمان سرعة الانقياد لأمر الله، وأن هذه الآداب ونحوها إنما تنفـع صاحبَها، ويحصل له بها الثوابُ إذا كانت صادرة عن العلم والإيمان، وهو أن تكون خالصة لوجه الله لا لغير ذلك من المقاصد.

الظاهر أن قوله تعالى: **﴿ولوْ أنّ أهلَ القُرى آمنوا واتَّقَوْا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرض﴾** [سورة الأعراف: الآية ٩٦]

تفسير لقوله في الآية الأخرى:

﴿لأكلوا مِنْ فَوقِهم ومِن تحتِ أرجُلهم﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٦]

فالسماء منها مادةُ الأرزاق، والأرضُ محلُّها وموضعها.

فصل

قوله تعالى: ﴿إذ يبيِّتون ما لا يرضَى مِن القول﴾

[سورة النساء: الآية ١٠٨]

ذمٌّ لهم من وجهين: من جهة فعل الذنب، والإصرار على الذنب؛ وثم وجهٌ ثالث، من الذم وهو: أن الله ذمهم على المكر؛ لأن التبييت هو التدبير ليلاً على وجه الخديعة للحق وأهله من كلامهم وقولهم بما يبغضه الله ولا يرضاه من الأقوال المحرمة ومن الإصرار على ذلك؛ فقولهم إثمٌ وظلم، وبياتُهم على ذلك وإصرارهم عليه إثمٌ آخرُ، وهذا أبلـغ من لو قال: «وهو معهم إذ يقولون ما لا يرضى من القول» فعلى العبد التوبة إلى الله من فعل الذنوب والإصرار عليها؛ فكما أن فعلها معصية فالاستمرار عليها ونية فعلها متى سنحت له الفرصة معصية أخرى، وعلى العبد أن يُبَيِّت ما يُرضي الله تعالى من الأقوال والأفعال، فيفعل ما يقدر عليه من الخير وينوي فعل الخير الذي لم يحضر وقته، والذي لا يقدر علي؛ وبذلك يتحقق العبد أن يكون ممن اتبـع رضوانَ الله، فيدخل في هذه المعاملة المذكورة في قوله:

﴿أفمن اتبـع رِضوانَ الله كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٦٢]

وتحصل له الهداية في أموره كلها يهدي به الله من اتبـع رضوانه سبلَ السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم صراط مستقيم.

قوله تعالى: ﴿وإنْ يتفرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وكان الله واسعاً حكيماً﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٠]

في هذه الآية فائدة عظيمة، وهي أن العبد عليه أن يعتمد على الله، ويرجو

فضله وإحسانه، ويعمل ما أُبيح له من الأسباب؛ وأنه إذا انغلق عليه باب وسببٌ من الأسباب التي قدّرها الله لرزقه فلا يتشوَّش لذلك ولا ييأس من فضل الله، ويعلم أن جميع الأسباب مستندة إلى مسببها، فيرجو الذي أغلق عليه هذا الباب أن يفتح له باباً من أبواب الرزق أوسع وأحسن من الباب الأول. وهذه العبودية من أفضل عبوديات القلب، وبها يحصل التوكّل والكفاية والراحة والطمأنينة. فهذه المرأة المتصلة بزوج ينفق عليها ويقوم بمؤنتها فإذا حصل لها فرقةٌ منه وتوهّمت انقطاع النفقة والكفاية فلتلجأْ إلى فضل الله ووعده بأَنه سيغنيها وقال: ﴿يغني الله كلًّا من سعته﴾ ولم يقل «يغنيها» مع أن السياق يدلّ عليه لئلاّ يُتَوهّمُ اختصاصُها بهذا الوعد، وإنما الوعد لها وله، فالله أوسع وأكثر، ولكن هباته وعطاياه تبع لحكمته، ومن الحكمة أن من انقطع رجاؤه من المخلوقين، ومن كل سبب، واتصل أمله بربه ووثق بوعده ورجا بره فإن الله يُغنيه ويقنيه؛ والله الموفق لمن صلح باطنه وحسنت نيته فيما عند ربه.

فصل

ينبغي لمن طمحت نفسه لما لا قدرة له عليه أو غير ممكن في حقّه، وحزنت لعدم حصوله، أن يسلّيها بما أنعم الله به عليه مما حصل له من الخير الإلّهي الذي لم يحصل لغيره. ولهذا لما طمحت نفس موسى عليه السلام إلى رؤية الله تعالى، وطلب ذلك من الله، فأعلمه الله أن ذلك غير حاصل له في الدنيا وغير ممكن، سلّاه بما آتاه، فقال:

﴿يا موسى، إني اصطفيتُك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذْ ما آتيتُك وكن منَ الشاكرين﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٤]

وكذلك نبه الله رسوله وعباده المؤمنين على هذا المعنى بقوله:

﴿أو جاؤوكم حَصِرَتْ صدورُهم أَنْ يقاتلوكم أو يقاتِلوا قومَهم ولو شاءَ اللَّهُ لسلَّطهم عليكُم فلَقَاتَلُوكم﴾ [سورة النساء: الآية ٩٠]

فإن النظر إلى هذه الحالة: وهو كَفُّ أيديهم عن المؤمنين ومسالمتهم بالنسبة إلى الحالة الأخرى، وهي أن لو شاء الله لسلّطهم على المؤمنين فقاتلوهم، مما يهون بها الأمر فَهُم وإن لم يكونوا معاوِنين للمؤمنين، فكذلك لم يكونوا معاونين عليهم أعداءهم. ومما يشبه هذا أن العبد مأمور أن ينظر إلى من دونه في المال والجاه والعافية ونحوها، لا إلى من فوقه؛ فإنه أجدر أن لا يزدري نعمة الله عليه. وكذلك إذا ابتلي ببلية فليحمدِ اللَّهَ أنْ لمْ تكنْ أعظمَ من ذلك، وليشكر الله أن كانت في بدنه أو ماله لا في دينه؛ وصاحب هذه الحال مطمئن القلب مستريح النفس صبور شكور.

الإتيان بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غيرَ بيوتكم حتى تستأنِسوا﴾** [سورة النور: الآية ٢٧]

أحسن من قوله «تستأذنوا» لأن ﴿تستأنسوا﴾ تتضمن الاستئذان وزيادة التعليل، وأن الحكمة التي شرع الله الاستئذان لأجلها هي حصول الاستئناس من عدم الوحشة، ويدل على ذلك أيضاً على أنه يحصل الإذن والاستئذان بكل ما يدل عليه عادة وعرفاً، لكن قد يقال: إن الاستئذان أيضاً يدخل فيه الاستئذان اللفظي والعرفي؛ والله أعلم.

الإتيان باللفظ العام في قوله:

﴿ولا يَأْتَلِ أُولو الفضل منكم والسَّعة أَنْ يُؤتُوا أولِي القُربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيل الله، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [سورة النور: الآية ٢٢]

مـع أنها نزلت في شأن أبـي بكر الصديق، رضي الله عنه، حين تألى أن لا ينفق على مسطح حين شايـع أهل الإفك، مما يحقق أن القرآن العظيم نزل هداية عامة، وأنه يتناول من لم ينزل عليهم من الأمة ومن نزلت وهم موجودون ومن كان له سبب بنزولها وغيره، وهكذا يقال في جميع الآيات التي نزلت في قضايا جزئية خاصة ولفظها يتناول القضايا الكلية العامة؛ وبهذا ونحوه تعرف أن معرفة أسباب نزول الآيات وإن كان نافعاً فغيره أنفـع وأهم منه؛ فتدبُّرُ الألفاظ العامة والخاصة والتأملُ في سياق الكلام والاهتمام بمعرفة مراد الله بكلامه وتنزيله على الأمور، كلُّها هو الأمر الأهم، وهو المقصود، وهو الذي تعَبَّد اللَّهَ العبادُ به، وهو الذي يحصل به العلم والإيمان. ومما يدل على أن معرفة أسباب النزول ليس كمعرفة معنى ما أراد الله بكلامه أنه لا يتوقف معرفة معاني القرآن على معرفتها، ولذلك تجد المفسرين يذكرون في أسباب النزول أقوالاً كثيرة مختلفة، لا يهتدي الإنسان إلى معرفة الصحيـح منها في الغالب؛ وكذلك المعتنين بها تضعف معرفتهم بتفسير القرآن كما ينبغي، ولست أقول إن الاعتناء بأسباب النزول ليس بنافـع، بل هو نافـع، وقد يتوقف فهم كمال المعنى عليه، وإنما قولي إن الاعتناء بتدبر الألفاظ والمقاصد هو الأهم ومـع ذلك فإذا عرض للإنسان سبب نزول بعض الآيات ببعض الواقعات فلا يذهب وهمُه إليه وحده، بل يكون مرجعه إلى هذا الأصل

الكبير، فيعرف أن القضية الجزئية التي نزلت الآية فيها بعضُ المعنى وفردٌ من أفراده؛ فالمعنى قاعدةٌ كلية يدخل فيها أفرادٌ كثيرة، ومن جملة تلك الأفراد تلك الصورة، والله المستعان في جميع الأمور، المرجوُّ لتسهيل كل صعب والإعانة على كل شديد.

ما يجري على الأخيار يحصل لهم فيه النفع، خصوصاً، ولغيرهم عموماً؛ وهذا من بركة الله لهم وبركته فيهم، ومن نصحهم للخلق. ولهذا لما رأى سليمان، عليه الصلاة والسلام، عرشَ ملكة سبأ مستقرًّا عنده قد أُحضر في أسرع وقت قال:

﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أَأَشكرُ أمْ أكفرُ ومن شكر فإنّما يشكرُ لنفسه ومن كَفَرَ فإنَّ ربِّي غنيٌّ كريم﴾ [سورة النمل: الآية ٤٠]

ألا ترى كيف اعترف بفضل الله، وشكر الله على ذلك، وأقر لله تعالى بالحكمة وأخبر عن كرم الله وسَعة غناه، وكان في ضمن كلامه هذا الحضُّ للعباد على هذه الأمور، ولهذا أتى باللفظ العام «ومن شكر ومن كفر». وإذا تأملت جميع القضايا التي تجري على الأنبياء وأَتْباعهم وورثتهم وجدتَها بهذه الحالة، ينتفعون بها وينفع الله بها الخلق بسببهم، فنسأل الله تعالى أن يبارك لنا فيما أعطانا من نعم الدين والدنيا، فإن بركة الله لا نهاية لها وجودَه لا حدَّ له، والقليل إذا بارك الله فيه صار كثيراً ولا قليل في نِعَمِ ربِّنا، فله الحمد والشكر بجميع أنواعهما حمداً على ما له من أنواع الكمالات وشكراً على ما أسدى إلى الخلق من الإفضالات والهبات، بالقلب واللسان والجوارح كثيراً طيباً مباركاً فيه.

إبطال قول الخصم قد يكون بإبطال الدليل الذي اَستدلّ به، أو بإبطال دلالته على مطلوبه، وقد يكون بإبطال نفس المقالة التي ينصرها وإفسادها، وقد يكون بإثبات نقيض ما قاله الخصم قولاً ودليلاً لأن النقيض للشيء متى

صح أحدهما بطل الآخر. وقد اجتمعت هذه الأمور في قول يوسف عليه السلام محتجًّا على صحة التوحيد وإبطال الشِّرك:

﴿يا صاحِبَيِ السِّجن أأربابٌ متفرِّقون خيرٌ أمِ اللَّهُ الواحد القهار * ما تعبدون من دونِهِ إلَّا أسماءً سمَّيتُموها أنتُم وآباؤكُمْ ما أنزل الله بها من سُلطان إنِ الحُكْمُ إلَّا لله أمَرَ ألَّا تعبُدوا إلَّا إيَّاه ذلكَ الدينُ القيِّم ولكِنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمُون﴾ [سورة يوسف: الآيتان ٣٩، ٤٠]

فأبطل الشِّرك وصوّر قبحه عقلاً ونقلاً وأنّ ما يُدعى من دونِ الله آلهةٌ متفرِّقة، كلٌّ فريق يزعم صحةَ قوله وإبطالَ الآخر، والحال أنه لا فرق بينهما، وأن المشرَكَ فيه شركاءُ متشاكسون، وأن هذه المعبودات من دون الله ليس فيها شيء من خصائص الإلَهية، فليس فيها كمال يوجب أن تُعبد لأجله، ولا فِعال بحيث تنفع وتضرّ فتُخَاف وتُرجى، إنما هي أسماءُ لا حقائق لها، ومع ذلك ما أنزل الله بها من سلطان على عبادتها، فليس في جميع الحجج الصحيحة ما يدل على صحة عبادتها، بل اتفقت الحجج والبراهين كلها على إبطالها وفسادها، وعلى إثبات العبادة الخالصة لله الواحد الذي انفرد بالوحدانية والكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي ليس له شبيه ولا نظير ولا مقارب، وهو القهار لكل شيء، فكل شيء تحت قهر الله، وناصيته بيد الله، فالواحد القهار هو الذي يستحق الحب والخضوع والانكسار لعظمته، والذل لكبريائه.

قوله تعالى: **﴿واللَّهُ يقولُ الحقَّ وَهُوَ يهدِي السبيلَ﴾**

[سورة الأحزاب: الآية ٤]

هذه الآية جمعت كل علم صحيح، وذلك أن العلم إما مسائل نافعة وإما دلائل مصيبة؛ فأنفع المسائل المشتملة على الحق ــ وهو الصدق والعدل والقسط والاستقامة ظاهراً وباطناً ــ أهدى الدلائل وأرشدُها ما هدى السبيل الموصل إلى المطالب العالية والمراتب السامية. فالكتاب والسنة كفيلان بهذين الأمرين على أكمل الوجوه وأتمها وأبينها، وما سوى ذلك فهو باطل

وضلال؛ فماذا بعد الحق إلاّ الضلال، وما بعد الهداية إلى السبيل المستقيم إلاّ الهداية إلـى سبيل الجحيم؟

﴿ولا يأتونَك بمَثَلٍ إلاّ جئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً﴾

[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

إن قلتَ إن الله أخبر في غير موضـع أنه لا يهدي القوم الظالمين، ولا يهدي القوم الفاسقين، والقوم الكافرين، والمجرمين، ونحوهم، والواقـع أنه هدى كثيراً من الظالمين والفاسقين والقوم الكافرين والمجرمين، مـع أن قوله صدق وحق لا يخالفه الواقـع أبداً.. فالجواب: أن الذي أخبر أنه لا يهديهم هم الذين حقّت عليهم الشِّقوة وكلمة العذاب، فإنها إذا حقت وتحقّقت وثُبِتت ووَجَبت فإن هذا لا يتغير ولا يتبدل. قال تعالى:

﴿وكذلك حَقَّت كلمةُ ربِّك على الذين كفروا أَنَّهم أصحابُ النار﴾

[سورة غافر: الآية ٦]

﴿كذلك حَقَّت كلمةُ ربِّك على الذين فَسَقُوا أنهم لا يؤمنون﴾

[سورة يونس: الآية ٣٣]

﴿إنَّ الذين حقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون * ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ حتَّى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾ [سورة يونُس: الآيتان ٩٦، ٩٧]

وغير ذلك من الآيات الدالّات على هذا المعنى. وهؤلاء هم الذين اقتضت حكمة الله تعالى أنه لا يهديهم لكونهم لا يصلُحون للهداية ولا تليق بهم، فلو علم فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولَّوْا وهم معرضون، وهم الذين مَرَدُوا على أسباب الشقاء ورضُوها واختارُوها على الهدى، وأما من سبقت لهم من الله الحسنى، فإن الله تعالى يهديهم ولو جرى منهم ما جرى، فإنه تعالى هدى كثيراً من أئمة الكُفر المحاربين له ولرسوله وكتبه فصاروا من المهتدين، والله عليم حكيم؛ فالذين أخبر عنهم أنه لا يهديهم هم الذين حقّت عليهم الشِّقوة، والذين هداهم هم الذين سبقت لهم منه الحسنى، فصار النفي واقعاً

على شيء ووقوع الهداية واقع على شيء آخر، فلم يحصل تناقض ولله الحمد.

سعيُ الإنسان في دفع أسباب التهمة السيئة عن نفسه والعار والفضيحة ليس بعار، بل ذلك من سيماء الأخيار، ولهذا لم يجب يوسف عليه الصلاة والسلام الداعي حين دعاه إلى الخروج من السجن والحضور عند الملك حتى يتحقق الناس براءة ما قيل فيه.

﴿فلما جاءه الرسول قال: آرجِع إلى ربِّك فاسأله: ما بالُ النِّسوة اللاتي قطَّعن أيدِيَهُن﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٠]

لما كان التوكّل به حياةُ الأعمال والأقوال وجميع الأحوال، وبه كمالها، قال تعالى:

﴿وتوكَّلْ على الحي الذي لا يموت﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٨]

فأمر بالتوكل والاعتماد على الحي كامل الحياة، فإذا حقق العبد التوكل على الحي الذي لا يموت أحيا الله له أموره كلَّها، وكمّلها وأتمَّها، وهذا من المناسبات الحسنة التي ينتفع العبد باستحضارها وثبوتها في قلبه، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا توكّلاً يحيي به قلوبنا وأقوالنا وأفعالنا وديننا ودنيانا، ولا يكلنا إلى أنفسنا ولا إلى غيره طرفة عين ولا أقل من ذلك، إنه جواد كريم.

قوله تعالى: **﴿إنّا نحنُ نزَّلنا الذكرَ وإنّا له لحافظون﴾**
[سورة الحِجْر: الآية ٩]

اشتملت على فوائد عديدة. **الأولى، والثانية**: أن القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوق، وأن الله تعالى عليٌّ على خلقه، وهذا مأخوذ من قوله: **﴿نزلنا الذكر﴾** فإنه نزل به جبريل من الله العزيز العليم؛ فكونه نازلاً من عند الله يدل على علو الله، وكونه أيضاً من عنده يدل على أنه كلام الله، فإن الكلام صفة للمتكلم ونعت من نعوته. **الثالثة**: عظمة القرآن ورفعة قدره وعلو شأنه حيث أخبر تعالى في هذه الآية بما أخبر أنه الذي تولى إنزاله وحفظَه، ولم يَكِلْ

ذلك إلى أحد من خلقه. **الرابعة**: أن القرآن مشتمل على كل ما يحتاج العباد إليه من أمور الدنيا وأمور الدين، ومن الأحوال الظاهرة والباطنة، فإن معنى الذِّكر أنه متضمِّن لتذكير العباد وتنبيههم لكل ما يحتاجون إليه وتتعلق به منافعهم ومصالحهم. والأمر كذلك. فإنه مشتمل على أمور الدين والدنيا ومصالحهما على أكمل وجه وأشمله، بحيث لو تذكر الخلق بتذكيره ومشوا على إرشاده لاستقامت لهم جميع الأمور ولَانْدَفعت عنهم الشرور. ولهذا أكثر الله في القرآن من حثِّ العباد على الاهتداء به في كل شيء، والتفكر والتدبر لمعانيه النافعة ويترتب على هذا المعنى، الفائدة **الخامسة**: وهي أن من قام بالقرآن وتذكَّر به كان رفعةً له وشرفاً وفخراً وحُسْنَ ذِكرٍ وثناء. وبهذا أُوِّلَ قوله تعالى:

﴿وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك﴾ [سورة الزخرف: الآية ٤٤]

أي شرف ورفعة لمن تذكَّر به واستقام عليه. **السادسة**: إن التذكّر بغيره غير مفيد ولا مُجْدٍ على صاحبه نفعاً؛ لأنه إذا ثبت وتقرر أنه مادة التذكير لجميع المنافع عُلمَ أن ما ناقضه وخالفه فهو بضد هذا الوصف؛ ولهذا أتى بالألف واللام المفيدة للاستغراق والعموم. **السابعة**: أنه أتى بما يوافق العقل الصحيح والفِطَر المستقيمة، فليس فيه شيء مخالف ولا مناقض للمحسوس، ولا معاكس للقياس الصحيح، ولا مضاد للعدل والقسط والميزان والحق، لأن الله سماه ذِكراً، والذِّكر هو الذي يذكِّر العباد ما تقرر من فِطَرهم السليمة وعقولِهم الصحيحة، من الحق والحث على الخير والنهي عن الشر، فهو مذكر لهم ما عرفوه مجملاً ولم يهتدوا إلى كثير من تفاصيله فبه تزداد العقول وتتفتق الأذهان وتَزْكو الفِطَر. ولشيخ الإسلام «ابن تيمية» ــ رحمه الله ــ في هذا المعنى كتاب: «موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح». **الثامنة والتاسعة**: إن الله تكفل بحفظه حال إنزاله، فلا يمكن أن يقربَه شيطان فيغيِّره ويزيد فيه وينقص، أو يختلط بغيره، بل نزل به القويّ الأمين جبريل على قلب

الرسول محمد، ﷺ، القلبِ الزكيِّ الذكي، الذي هو أكمل قلوب الخلق على الإطلاق. وضمن الله لرسوله قرآنه وبيانه:

﴿فإذا قرأناه فاتّبِعْ قرآنه * ثم إنّ علينا بيانه﴾

[سورة القيامة: الآيتان ١٨، ١٩]

وتكفل الله أيضاً بحفظه بعدما نزل وتقرر، فأكمله الله تعالى وأكمل به على عباده النعمة، واستحفظه لهذه الأمة على اختلاف طبقات علمائها وأئمتها، ووكّلهم به وآئتمنهم عليه فكل قرن حمل عدو له وأزكياؤه الذين ضمن الله لهم العصمة عند اتفاقهم ألفاظه ومعانيه غضة طرية لا تغيير فيها ولا تبديل، وكل من أراد إدخال شيء فيه أو إخراج شيء منه قيّض الله من يذبّ عنه ويحفظه، وهذا من حفظه. ويؤيد هذا **الفائدة العاشرة**: أن هذا من أدلة صدقه وصدق ما اشتمل عليه وصدق من جاء به، وهو محمد ﷺ، فإنه تعالى خبر بأنه أنزل وأنه حافظ له فوقع كما أخبر الله تعالى، فصار هذا آية وبرهاناً على صدقه وصحة ما جاء به كما يشهد بذلك الواقع.

فائدة عظيمة: لما كان الدعاء مُخّ العبادة ولبَّها وخالصَها لكونه متضمناً للافتقار التام لله، والخشوع والخضوع بين يديه، وتنوع عبوديات القلب، وكثرةِ المطالب المهمة كان أفضله وأعلاه ما كان أنفع للعبد وأصح من غيره وأجمع لكل خير، وتلك أدعية القرآن التي أخبر الله بها عن أنبيائه ورسله وعباده الأخيار التي كان سيد المرسلين يختارها على غيرها. ولما كان من شروط الدعاء وآدابه حضور قلب الداعي واستحضاره لمعاني ما يدعو به أحببت أن أُنبِّه تنبيهاً لطيفاً على معاني أدعية القرآن ليسهل استحضارها فيعظم انتفاع العبد بها.

فأفضل أدعية القرآن وأفرضها قوله تعالى:

﴿اهدنا الصِّراطَ المستقيمَ * صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالين﴾ [سورة الفاتحة: الآيتان ٦، ٧]

أي عَلِّمْنا يا ربّنا وألْهِمْنا ووفِّقنا لسلوك الصراط المستقيم، صراطِ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، المشتملِ على علم ما يحبه الله ورسوله ومحبته، وفعلِهِ على وجه الكمال وعلمِ ما يكرهه الله ورسوله ويغضِبه وتركِه من كل وجه. وحقيقة ذلك أن الداعي بهذا الدعاء يسأل الله تعالى أن يهديَه الصِّراط المستقيم المتضمِّن لمعرفة الحق والعمل به ويجنِّبَه طريقَ المغضوب عليهم، الذين عرفوا الحق وتركوه، وطريقَ الضَّالين الذين تاهوا عن الحق فلم يعرفوه.

ومن أجمع الأدعية وأنفعها دعاء أرباب الهمم العالية، الذين جمع الله لهم بين خيري الدنيا والآخرة.. قال تعالى:

﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠١]

فصدّروا دعاءهم بقولهم: «ربنا» وذلك متضمن لاستحضارهم معنى تربية الله العامة، وهو الخَلْق والتدبير وإيصال ما به تستقيم الأبدان والتربية الخاصة لخيار خلقه، الذين ربّاهم بلطفه وأصلح لهم دينهم ودنياهم، وتولّاهم فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وهذا متضمن لافتقارهم إلى ربِّهم، وأنهم لا يقدِرُون على تربية نفوسهم من كل وجه، فليس لهم غير ربهم يتولّاهُم ويُصلح أمورَهم، ولهذا كانت أغلبُ أدعية القرآن مصدَّرة بالتوسُّل إلى الله بربوبيته، لأنها أعظم الوسائل على الإطلاق التي تحصل بها المحبوبات وتندفع بها المكروهات. وحسنة الدنيا اسمٌ جامعٌ للعلمِ النافعِ والعمل الصالح وراحة القلب والجسم والرزقِ الحلالِ الطيبِ من كل مأكل ومشرب وملبس ومنكح ومسكن، ونحوها، فهي اسم جامع لحسن الأحوال وسلامتها من كل نقص. وأما حسنة الآخرة فهي كل ما أعده الله لأوليائه في دار كرامته ممّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ولما كانت حسنة الدنيا والآخرة تمامها وكمالها الحفظُ من عذاب النار والحفظ من أسبابه وهو الذنوب والمعاصي قالوا: **﴿وقنا عذاب النار﴾** فاشتمل هذا الدعاء على كل

خير ومطلوب محمود ودفـع كل شر وعذاب، ولهذا كان النبـي ﷺ يدعو بهذا الدعاء كثيراً.

ومن ذلك الدعاء الذي في آخر «البقرة» الذي أخبر الله على لسان رسوله أنه قبله من المؤمنين حين دَعَوْا به:

﴿ربَّنا لا تؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أو أخطأْنا ربَّنا ولا تحمِلْ علينا إصراً كما حملتَه على الذين مِنْ قَبْلِنا ربَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا به وآعفُ عنا وآغفِرْ لنا وآرْحَمْنا أنتَ مولانا فانصُرنا على القوم الكافرين﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

ولما كان إخلال العبد بأمر الله قد يكون عمداً على وجه العلم، وقد يكون نسياناً وخطأً، وكان هذا القسم غير ناشىء عن عمل القلب الذي هو محل الإثم وعدمه سألوا ربهم أن لا يؤاخذهم بالنسيان والخطأ وذلك عامٌ في جميـع الأمور. قال الله تعالى: «قد فعلت». ولما كانت بعض الأفعال فيها شدة ومشقة وآصار وأغلال، لو كُلِّف العباد بها لأحْرى أن لا يقوموا بها، سألوا الله تعالى ألّا يحملهم إياها ولا يكلّفهم بما لا طاقة لهم به ليسهل عليهم أمر ربهم وتخفَّ عليهم شرائعُه الظاهرة، فقال الله تعالى: «قد فعلت». ولما كانت أيضاً الشرائـع التي شرعها الله لعباده لا بد أن يحصل منهم التقصير فيها: إما بفعل محظور، أو بترك مأمور، وذلك موجبٌ للشر والعقوبة إن لم يغفره الله ويُزِلْه قالوا: **﴿وآعفُ عنّا وآغْفِرْ لنا﴾** فبهذه الأمور تندفـع المكروهات والشرور كلها. ثم سألوا الله بعد ذلك الرحمة التي ينشأ عنها كل خير في الدنيا والآخرة. ولما كان أمر الدين والتمكين من فعل الخير وترك الشر لا يحصل ولا يتم إلا بولاية الله وتولّيه ونُصْرته على الأعداء الكافرين من الشيطان وجنوده قالوا: **﴿أنت مولانا فآنصرنا على القوم الكافرين﴾** قال تعالى: «قد فعلت». فالله تعالى يتولى عبده ويُيَسِّرُه لليسرى في جميـع الأمور، فيدفـع عنه الشرور، فهو نِعْم المولى ونعم النصير.

ومن هذا دعاء الراسخين في العلم بعد الثناء عليهم بالإيمان التامّ:

﴿ربنا لا تُزِغْ قلوبَنا بعدَ إذْ هديْتَنا وَهَبْ لنا من لَدُنْك رحمةً إنك أنت الوهَّاب﴾ [سورة آل عمران: الآية ٨]

فسألوا ربهم وتوسَّلوا بربوبيته في حصول أفضل الوسائل، وهو استقامة القلوب على ما يُحِبّه الله ويرضاه، والثبات على ذلك وعدم زيغها عن هذه الهداية، وأجل المقاصد، وهو حصول رحمة الله تعالى التي يحصل معها خير الدنيا والآخرة، وختموا دعاءهم بالتوسل إلى ربهم باسمه الوهّاب، أي كثير العطايا، واسع الكرم: فمن كرمك يا وهَّاب نسألك الاستقامة وعدم زيغ القلوب، وأنْ تَهَبَ لنا من لَدُنْك رحمة، لأن الرحمة التي من لَدُنه لا يقادر قدرها ولا يعلم ما فيها من البركات والخيرات إلاّ الذي وَهَبهم إيّاها.

ويشبه أن يكون قولهم:

﴿ربنا إنك جامعُ الناسِ ليومٍ لا ريبَ فيه إنّ اللَّهَ لا يُخلف الميعاد﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩]

توسُّلاً إلى ربهم بإيمانهم بهذا اليوم وتصديق ربهم في وعده ووعيده، فإن التوسل إلى الله بالإيمان ومِنّةَ الله به من الوسائل المطلوبة فيكون هذا من تمام دُعائِهم. كذلك دعاء المتقين الذين أعد لهم الجنة وما فيها الذين يقولون:

﴿ربنا إننا آمنا فاغفِرْ لنا ذنوبنا وقِنَا عذاب النار﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٦]

فتوسلوا بربوبية الله لهم وبإيمانهم أن يغفر لهم الذنوب وأن يَقِيهم عذاب النار. وإذ غُفرت ذنوبهم ووقاهم الله عذاب النار زالَ عنهم الشرُّ بأجمعه، وحصل لهم الخير بأجمعه لأن الأدعية هكذا تارة تأتي مطابقةً لجميع مطالب العبد وتارة يُذكر نوعٌ منها ويدخل الباقي باللزوم، كهذا الدعاء.

ومِمَّا أتى فيه الدعاء بجميع المطالب على وجه المطابقة دعاء أولي الألباب وخواص الخلق حيث قالوا بعدما تفكروا بما في ملكوت الله:

﴿ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانَك فَقِنا عذابَ النار * ربَّنا إنك من

تُدخِلِ النارَ فقد أخزيتَه وما للظالمين من أنصار * ربَّنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمانِ أَنْ آمِنوا بربِّكم فآمَنَّا ربَّنا فاغفِرْ لنا ذنوبَنا وكفِّر عنا سيئآتنا وتوفَّنا مع الأبرار * ربَّنا وآتنا ما وعدتَّنا على رُسُلك ولا تُخْزِنا يومَ القيامةِ إنك لا تخلف الميعاد﴾ [سورة آل عمران: الآيات ١٩١ ـ ١٩٤]

فتوسّلوا بربوبية الله، وكَرَّروا هذا التوسُّل. وإقرارهم بحكمة الله وصدق وعده ووعيده، وإيمانهم برسل الله حين دعوهم إلى الإيمان ومنةُ الله عليهم بالمبادرة بذلك أن يَقِيَهم عذابَ النار وأن يغفرَ ذنوبهم الكبار، ويكفِّر عنهم سيئآتِهم الصِّغار فيدفع عنهم أعظمَ العقوبات، وهو عذاب النار، ويزيلَ عنهم أسباب الشُّرور كلِّها، وهي الذنوب والسيئآت، وأن يرزقَهم اللَّهُ ويوفِّقهم لأعمال البرِّ كلِّها فيصيروا بذلك من عباد الله الأبرار، وأن يثبِّتهم عليها حتى يموتوا عليها فيدخلوا في معية الأبرار، وأن يؤتِيَهم ما وعدهم على ألسنة رسله وذلك شامل لعطايا الدنيا وخيراتِها وعطايا الآخرة وكراماتها، وأن يكرمهم في يوم القيامة ولا يُخْزهم.

وحقيق بقوم دَعَوْا بهذه الأدعية الجليلة بحيث ما بقي خير إلّا سألوه ولا شرٌّ إلّا آستدفعوه أنْ يسمِّيَهم الله أولي الألباب. فهذا من لُبِّهم وعقلهم وتمام فطنتهم، نسأله تعالى أن يوفقنا لما وفَّقهم له، إنه جواد كريم.

ومن ذلك دعاء أتباع الأنبياء في مواطن الشدائد وأنواع المِحَن:

﴿وما كان قولَهم إلّا أن قالوا ربَّنا آغفِرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمرنا وثبِّتْ أقدامَنا وآنصرنا على القوم الكافرين * فآتاهُمُ اللَّهُ ثوابَ الدُّنيا وحسنَ ثواب الآخرة والله يُحبُّ المحسنين﴾ [سورة آل عمران: الآيتان ١٤٧، ١٤٨]

فدلّ هذا على الدعاء من الدعاء الذي استجابه الله، وأن أهله محسنون فيه، وذلك أنهم توسّلوا إلى الله بربوبيته فافتقروا إليه وطلبوا أن يُرِبَّهم بما يُصلح أحوالهم، وأن يغفر لهم الذنوب، وهي المعاصي المستقلة، وإسرافنا في أمرنا، وهي تعدِّي ما حَدّ للعبد ونُهِي عن مجاوزته؛ فكما أن التقصير يُلام

عليه الإنسان فكذلك المجاوزة للحدِّ، وأن يُثَبِّتَ أقدامهم فيرزقهم الصبر والثبات والقوة التي هي مادة النصر، وأن يُمِدهم بمدده الإلّهي وهو نصره على القوم الكافرين. فسألوا ربهم زوال المانع من النصر، وهي الذنوب والإسراف، وحصول سبب النصر وهو نوعان: سبب داخلي، وهو ثبات الأقدام والصبر عند الإقدام، وسبب خارجي، وهو نصره. ويشبه أن يكون قولهم: ﴿**على القوم الكافرين**﴾ توسلاً إلى الله، وأننا يا ربَّنا آمنَّا بك وآتبعنا رسلَك وحارَبْنا أعداءك الذين كفروا بك وبرسلك، فمعاداتنا لهم وقتالنا إياهم لأجلك وفي سبيلك، فآنصرنا عليهم لكوننا من حزبك وجندك، وهم جنود عدوك الشيطان الرجيم.

ومن ذلك دعاء عباد الرحمن الذين وصفهم الله بكل خُلق جميل، وأعد لهم المازل العالية فدعَوْا بدعوتين: دعوة استجيبت لجميعهم، كامل الدرجة ومن دونه، ودعوةٍ استجيبت لخواصهم وأئمتهم وقدوتهم. قال تعالى:

﴿**وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً ــ إلى أن قال عنهم ــ والذين يقولون ربَّنا آصرِفْ عنَّا عذابَ جهنم إن عذابها كان غراماً**﴾

[سورة الفرقان: الآيات ٦٣ ــ ٦٥]

فتوسّلوا بربوبية الله لهم وإيمانهم وخوفهم من عذابه أن يَقِيَهُم عذاب النار، وإذا وقاهم الله عذاب النار كان من لازم ذلك مغفرةُ ذنوبهم وتكفيرُ سيئآتهم ودخولُهم الجنة. وقال تعالى عنهم:

﴿**والذين يقولون ربَّنا هَبْ لنا من أزواجِنا وذرّيّاتنا قُرةَ أعينٍ واجعلنا للمتقين إماماً**﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٤]

فتوسلوا بربوبية الله أن يهب لهم من أزواجهم وقرنائهم وذرياتهم ما تقر أعينهم به، وهو أن يكونوا مطيعين لله عاملين بمرضاته، وذلك دليل على أن طاعة الله قرةُ أعينهم ومحبتَه نعيمُ قلوبهم فقويت هذه الحالة إلى أن سألوا الله تعالى أن يجعل قرناءهم بهذه الحالة الكاملة، وذلك من فضل الله عليهم، فإن الله إذا أصلح قرناءهم عاد من هذا الخير عليهم شيء كثير، ولهذا جعلوا هذا من

مواهب ربهم فقالوا ﴿ربنا هب لنا﴾ إلخ، ولما كان غاية كمال الإنسان أن يكون مطيعاً لله، وأن يكون قريناً للمطيعين، سألوا ربهم أعلى المراتب وأجلَّها وهي الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين، وذلك أن يجعلهم علماء ربانيين، راسخين في العلم مجتهدين في تعلُّمه وتعلِيمه والدعوة إليه، وأن يكون علمهم صحيحاً بحيث أن من اقتدى بهم فهو من المتقين، وأن يرزقهم من الأعمال الظاهرة والباطنة ما يصيرون به أئمة للمتقين. وجماع ذلك الصبر على محبوبات الله وثبات النفس على ذلك والإيقان بآيات الله وتمام العلم بها قال تعالى:

﴿وجعلنا منهم أئِمةً يَهدُون بأمرنا لمَّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقِنون﴾
[سورة السجدة: الآية ٢٤]

فالحاصل أنهم سألوا ربهم أن يكونوا كاملين مكمِّلين لغيرهم، هادين مُهتَدين وهذه أعلى الحالات فلذلك أعد الله لهم أعلى غرف الجنان:

﴿أولئك يُجْزَون الغرفة بما صَبروا ويُلَقَّوْنَ فيها تحية وسلاماً * خالدين فيها حَسُنَت مستقرًا ومُقَاماً﴾ [سورة الفرقان: الآيتان ٧٥، ٧٦]

ومن ذلك دعاء آدم عليه السلام حين تاب إلى الله وتلقّى منه هذه الكلمات هو وزوجه:

﴿قالا ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإنْ لَمْ تغفِرْ لنا وترحمْنا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٣]

فتوسلا بربوبية الله واعترافهم بالظلم وإقرارهم بالذنب أن يغفر لهما فيزيل عنهما المكاره كلَّها وأن يرحمَهما فيعطيَهما أنواع المطالب وأنه لا وسيلة لهما ولا ملجأ منه إلا إليه، وأنه لئِنْ لم يرحمْهما ويغفرْ لهما خَسِرا الدنيا والآخرة؛ فقبل الله دعاءهما وغفر لهما ورحمهما.

ومثل قول نوح لما لامَه الله بسؤال نجاة ابنه الكافر، الذي ليس من أهله، وأن هذا عمل غير صالح، فقال:

﴿ربِّ إنِّي أعوذُ بك أنْ أسألَك ما ليس لي به علمٌ وإلاَّ تَغفرْ لي وترحمْني أكنْ من الخاسرين﴾ [سورة هود: الآية ٤٧]

فتوسل بربوبية الله واستعاذ به أن يسأله سؤالاً ليس له به علم، وإنما حمله عليه مجردُ محبة النفس لا إرادة رضى الله واعترف بأن هذا الذي جرى منه يوجب التضرُّع والاستغفار، وأنه إن لم يغفر له ربُّه ويرحمْه كان من الخاسرين. فالناس قسمان: رابحون، وهم الذين تغمَّدهم الله بمغفرته ورحمته؛ وخاسرون، وهم الذين فاتتهم المغفرة والرحمة، ولا يحصل ذلك إلا بالله.

ومن ذلك دعاء إبراهيم خليل الرحمن، وابنه اسماعيل، وهما يرفعان قواعد البيت:

﴿ربَّنا تقبَّلْ منا إنّك أنتَ السميع العليم * ربَّنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذرّيّتنا أُمةً مسلمة لك وأَرِنَا مناسِكَنا وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾

[سورة البقرة: الآيتان ١٢٧، ١٢٨]

فتضرّعا إلى ربهم في قبول الله عملَهما، وأن يكون كاملاً من كل وجه وتحصلَ منه الثمرات النافعة، وتوسَّلا إليه بأنه السميع لأقوالهما العليم بجميع أحوالهما. ولما دَعَوَا بهذا الدعاء الخاص في قبول عملهما سألا الله أجلَّ الأمور وأعلاها، وهو أن يَمُنَّ الله عليهما وعلى من شاء من ذريتهما بالإسلام لله ظاهراً وباطناً والعمل بما يُحبه ويرضاه، وأن يُعلِّمهما العمل الذي شرعا فيه ويكمِّلَ لهما مناسكَهما علماً ومعرفةً وعملاً وأن يتوب عليهما لتتم أمورُهما من كل وجه. فاستجاب الله هذا الدعاء كلَّه وبارك فيه وحقق رجاءهما، والله ذو الفضل العظيم.

وكذلك دعاء يوسف عليه السلام:

﴿ربِّ قد آتيتني من المُلْكِ وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاطِرَ السمواتِ والأرضِ أنتَ وليّـي في الدنيا والآخرة تَوَفَّنِي مُسلِماً وأَلْحِقْني بالصالحين﴾

[سورة يوسف: الآية ١٠١]

فتوسل إلى الله بربوبيته وبنعمة الله عليه بنعمة الدنيا وهي المُلك وتوابعه، ونعمة الدين وهي العلم الكامل، وبولاية الله وانقطاعه عن غيره، وتولي الله له في الدنيا والآخرة أن يثبِّته على الإسلام الظاهر والباطن حتى يلقاه عليه، فيدخله في خُلَّص عباده الصالحين.

ومن ذلك دعاء سليمان عليه السلام:

﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾

[سورة النمل: الآية ١٩]

فتوسل إلى الله بربوبيته وبنعمته عليه وعلى والديه أن يوزعه أي يلهمه ويوفقه لشكرها بالاعتراف بها ومحبته لله عليها والثناء عليه والإكثار من ذكره وأن يوفقه عملاً صالحاً يرضاه ويدخل في هذا جميع الأعمال الصالحة ظاهرها وباطنها وأن يدخله برحمته في جملة عباده الصالحين وهذا الدعاء شامل لخير الدنياوالآخرة ومثل هذا دعاء الذي بلغه الله أشده وبلغه أربعين سنة ومن عليه بالإنابة إليه فقال:

﴿ربِّ أوْزِعْنِي أنْ أشكُرَ نعمتكَ التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمـلَ صالحـاً ترضـاهُ وأَصلِـحْ لي في ذريتي إني تُبتُ إليكَ وإنّي من المسلمين﴾ [سورة الأحقاف: الآية ١٥]

فتوسل بربوبية ربه له وبنعمته عليه وعلى والديه وبالتزام ترك ما يكرهه ربه بالتوبة وفعل ما يحبه بالإسلام أن يمن عليه بالشكر المتضمن لاعتراف القلب وخضوعه ومحبته للمنعم، والثناء على الله مطلقاً ومقيَّداً، وأن يوفقه لما يُحبه الله ويرضاه، ويُصْلِحَ له في ذريته. فهذا دعاء مُحتوٍ على صلاح العبد وإصلاح الله له أمورَه كلَّها وإصلاح ذريته في حياته وبعد مماته، وهو دعاء حقيق بالعبد خصوصاً إذا بلـغ الأربعين أن يداوم عليه بذلٍّ وافتقار لعله أن يدخل في قوله:

﴿أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عنهم أحسنَ ما عملوا ونتجاوزُ عن سيِّئآتهم في أصحاب الجنة وَعْدَ الصِّدقِ الذي كانوا يوعدون﴾

[سورة الأحقاف: الآية ١٦]

قوله تعالى: ﴿ثم تولّى إلى الظِّلِّ﴾ مستريحاً لذلك الظلال بعد التعب فقال في تلك الحالة مسترزقاً:

﴿ربِّ إني لما أنزلتَ إليّ من خيرٍ فقير﴾ [سورة القصص: الآية ٢٤]

أي إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليّ وتُيَسِّره لي؛ وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال قد يكون أبلغَ من السؤال بلسان المقال؛ فلم يزل في هذه الحالة راجياً ربه متملقاً مفتقراً إليه معلِّقاً رجاءه بالله وحده حتى فرج كربَه وجلا همه والله هو الرزّاق.

ومن ذلك الأدعية التي أمر الله بها رسولَه وعبادَه المؤمنين فقال:

﴿وقُلْ ربِّ اغفِرْ وٱرحمْ وأنت خير الراحمين﴾

[سورة المؤمنون: الآية ١١٨]

فهذا توسل إلى الله بربوبيته ورحمته الواسعة في حصول الخير ودفع الشر كله، وهي المغفرة التي تندفع بها المكروهات والرحمة التي تحصل بها جميع المحبوبات.

وكذلك قوله:

﴿وقلْ ربِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدقٍ وأَخْرِجْني مُخْرَجَ صِدقٍ واجعل لي من لدُنْك سلطاناً نصيراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٠]

فهذا توسل إلى الله بربوبيته أن تكون مداخل العبد ومخارجه كلها صدقاً، وذلك أن تكون صالحة خالصة لوجه الله، مقرونةً بالاستعانة بالله والتوكل عليه، وذلك يستلزم أن تكون حركات العبد كلُّها ظاهرُها وباطنُها طاعةً لله وعملاً بما يحبه ويرضاه، وهذا هو الكمال من جهة العمل؛ وأما الكمال من جهة العلم، فإنه يجعل الله له سلطاناً نصيراً، أي حجة ظاهرة ناصرة وقوة

يحصل بها نصر الحق وقمع الباطل، فيحصل باستجابة هذا الدعاء العلمُ النافع والعمل الصالح والتمكينُ في الأرض. وقال تعالى لرسوله: ﴿وقُل ربِّ زدني علماً﴾ [سورة طه: الآية ١١٤]

فالعلم أجلّ الأشياء، وبه تعرف جميع الأشياء، فسؤاله وسؤال الزيادة منه من أفضل ما سأل السائلون.

ومن أجمعِ الأدعية وأحسنها توسُّلاً دعاء موسى عليه السلام حين تضرع إلى ربه فقال:

﴿أنتَ وليُّنا فاغفر لنا وآرحمنا وأنت خير الغافرين * واكتبْ لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة إنّا هُدْنا إليكَ﴾

[سورة الأعراف: الآيتان ١٥٥، ١٥٦]

فتوسّل إلى وليِّه بولايته لعبده وحسن تدبيره وتربيته ولطفه على حصول المغفرة والرحمة؛ وكذلك توسل بكمال مغفرة الله وسعة جوده على هذا ورتّب على هذا حصول حسنة الدنيا والآخرة، فإنه إذا حصلت المغفرة زالت الشرور كلُّها والعذابُ كلُّه، وإذا حصلت الرحمة حلَّ الخير وحسناتُ الدنيا والآخرة، فيكون قوله:

﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾

نظيرَ قوله:

﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٠١]

مع زيادة التوسل بولاية الله وكمال غفرانه ومع طلب مغفرته ورحمته اللذين بهما تنال حسنة الدنيا والآخرة. ثم ختم دعاءه بالتوسل إلى ربه بالإقبال إليه والإنابة إليه والتذلّل لعظمته فقال: **﴿إنّا هُدْنا إليك﴾** أي رجعنا إليك في مهماتنا وأمورنا، لا نرجع إلى غيرك لعلمنا أنه لا يكشف السوء ولا يجيب المضطر إلا أنت، ورجعنا إليك في عباداتنا الظاهرة والباطنة.

ومن ذلك دعاء أصحاب الكهف إذ فرُّوا إلى الله بدينهم فقالوا ملتجئين إليه:

﴿ربَّنا آتِنا من لدُنْك رحمةً وهيِّىءْ لنا من أمرنا رَشَداً﴾

[سورة الكهف: الآية ١٠]

فتضرعوا إليه في أن يؤتيهم من لدُنه رحمة بحيث إذا حلّت عليهم سَلِمَ لهم دينهم وحفظهم من الفتن وأنالهم بها الخير، وأن يهيِّىء لهم من أمرهم رَشَداً أي يُيَسِّرهم لليُسرى ويسهِّل لهم الأمور ويرشدهم إلى أرفق الأحوال؛ فاستجاب لهم هذا الدعاء ونشر عليهم رحمته وحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعل فيهم بركة على أنفسهم وعلى غيرهم.

ومن ذلك دعاء حَمَلة العرش ومَن حولَه مِنَ الملائكة المقرَّبين حين دعوا للمؤمنين:

﴿ربَّنا وَسِعْتَ كلَّ شيء رحمةً وعلماً فٱغفِرْ للَّذين تابوا وٱتَّبَعُوا سبيلَك وقِهِمْ عذاب الجحيم * ربَّنا وأدخِلْهم جناتِ عدنٍ التي وعدتَّهُمْ ومَنْ صَلَحَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم إنّك أنتَ العزيزُ الحكيم * وقِهِمُ السيئآت ومَنْ تَقِ السيئآتِ يومئذٍ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾

[سورة غافر: الآيات ٧ ــ ٩]

وهذا دعاء جامع وتوسل نافع، فتوسَّلوا بربوبية الله تعالى وسعة علمه ورحمته المتضمن علمه بحال المؤمنين، وما خلقهم عليه من الضعف ورحمته إياهم لكونه جعل الإيمان أعظم وسيلة تنال بها رحمته أن يغفر للمؤمنين الملتزمين للإيمان، وهم الذين تابوا مما يكرهه الله واتبعوا سبيله بالتزام ما يحبه ويرضاه، فيغفر ذنوبهم ويقيهم أشد العذاب وهو عذاب الجحيم، وأن ينيلهم أعظم الثواب، وهو دخول جنات عدن التي وعدهم على ألْسِنة رسله، وتمام ذلك: أن يُقِرَّ أعينهم باجتماعهم بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم الصالحين. ثمَّ توسَّلوا بكمال عزة الله وكمال حكمته لأن المقام يناسب هذا؛ فمن كمال عزته واقتداره أن يحفظهم ويَحُول بينهم وبين السيئآت، ويصرف عنهم السيئآت، وينيلهم أنواع المثوبات. ومن كمال حكمته أن الموصوفين بتلك الصفات هم

أهلٌ لأن يغفر لهم ويرحمهم ويدفع عنهم السوء وينيلهم الأجر. ولما دعوا أن يغفر لهم السيئآت التي فعلوها دعوا الله أن يقِيَهم سيئآت أنفسهم الأمّارة بالسوء بأن يحبب إليهم الإيمان ويزينه في قلوبهم ويكَرِّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ويجعلهم من الراشدين، وأنَّ من لاَزِمِ وِقايةِ السيئآت حصول رحمة الله، وهذا دعاء عظيم صادر من أعظم الخلق معرفة بالله ولذلك وصف الله من حصلت له هذه الأمور بالفوز بكل مطلوب، والنجاة من كل مرهوب. فقال: **﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾**.

وكذلك دعاء الذين اتبعوا المهاجرينِ والأنصار بإحسان، حيث قال تعالى عنهم:

﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ربنا إنَّك رؤوف رحيم﴾

[سورة الحشر: الآية ١٠]

فتضرَّعوا إلى ربهم وتوسلوا إليه بربوبيته ونعمته عليهم بالإيمان وبسعة رحمته ورأفته أن يغفر لهم ولجميع إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، وأن يُصلح الله قلوبهم بالاجتماع على الإيمان ومحبة بعضهم بعضاً، وأن لا يجعل في قلوبهم أدنى غلٍ لكل من اتصف بالإيمان. وهذا الدعاء يتضمن حصول الخير لهم ولإخوانهم، ودفع الشر عنهم وعن إخوانهم؛ وقد أخبر الله أن أنبياءَه تضرّعوا إليه في مطالب خاصة ومطالب عامة، وتوسّلوا بكمال أسمائه وصفاته وبما مَنّ الله عليهم به من الإيمان والنعم الدينية والدنيوية وبما كانوا عليه من الفقر والضعف وشدة الضرورة إلى ربهم في جميع أمورهم؛ فهذه الأدعية التي أمر الله بها وحث عليها ومدح أهلها هي الأدعية النافعة التي لا يليق بالعبد أن يختار عليها غيرَها من الأدعية المصطلحة والألفاظ المخترعة التي لا نسبة لها إلى هذه الألفاظ القرآنية. إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم من الأعمال والأقوال، الباطنة والظاهرة، ومن ذلك الأدعية؛ وكم في السُّنة من الأدعية النبوية مما يوافق الأدعية القرآنية فنسأله تعالى أن يهديَنا لأحسن الأمور ويصرف عنا جميع الشرور، إنه جواد كريم رؤوف رحيم.

فصل

إذا وفق الحاكم أن يحكم بالحق والعلم، لا بالجهل والباطل، وبالعدل وحسن القصد لا بالظلم واتباع الهوى، فقد سلك سبيل الأنبياء. قال تعالى لداود:

﴿يا داودُ إنّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكُمْ بين الناس بالحقِّ ولا تتبعِ الهوى فيضلَّك عن سبيل الله إنَّ الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد بما نَسُوا يوم الحساب﴾ [سورة صٓ: الآية ٢٦]

قوله تعالى: **﴿ويُنجِّي اللَّهُ الذين اتقَوْا بمفازَتِهم لا يَمَسُّهم السُّوء ولا هم يحزنون﴾** [سورة الزّمر: الآية ٦١]

فوعد الله المتقين بنفي العذاب عنهم ظاهراً وباطناً، كما أثبت لهم في آخر السورة النعيم ظاهراً وباطناً من قوله:

﴿وسِيقَ الذين اتقَوا ربهم إلى الجنة زُمَراً﴾ [سورة الزّمر: الآية ٧٣]

إلى آخرها.

الإخلاص لله تعالى أعظم الأسباب لعون الله للعبد على جميع أموره، ولثبات قلبه وعدم انزعاجه عند المقلقات والشدائد. قال الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصُرُوا اللَّهَ ينصُرْكم ويثبِّتْ أقدامكم﴾

[سورة محمد: الآية ٧]

أي إذا كان قصدكم في جهاد الأعداء نصرَ الله، وأن تكون كلمتُه هي العليا، نَصَرَكُمُ الله على أعدائكم وثبَّتَ أقدامَكم في مواطن اللقاء، فالنصر سببٌ خارجي وتثبيت الأقدام سبب داخلي، وبهذين الأمرين يتم الأمر.

كثيراً ما يدور على ألسنة الناس: «إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه». دليلُ ذلك في القرآن قولُه:

﴿إذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ في منامك قليلاً ولو أراكَهُم كثيراً لفَشِلْتُم ولتنازعتم في الأمر ولـكِنَّ اللَّهَ سلَّم إنه عليم بذات الصدور * وإذْ يُريكُمُوهُم إذِ التقيتُم في أعينكم قليلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فـي أَعيُنِهم لِيَقْضِيَ اللَّهُ أمراً كان مفعولاً﴾
[سورة الأنفال: الآيتان ٤٣، ٤٤]

قوله تعالى: **﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لِأولِ الحَشر ما ظننتُمْ أن يخرُجوا وظنُّوا أنهم مانعتهم حصونهُمُ مِنَ الله فأتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حيثُ لم يحتسِبوا وقذفَ في قلوبهم الرُّعبَ يُخرِبُون بيوتَهم بأيدِيهم وأيدِي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾** [سورة الحشر: الآية ٢]

ما أضعف اليقين في قلوب كثير من المؤمنين! تجدُهُمُ الآن قد استولى عليهم اليأس، وظنّوا أن أمر الإفرنـج الغربيين الآن سيظهر وسيدوم، وأن أهل الإيمان لا قيام لهم، وأنهم لا بدّ مغلوبون وأعداؤهم لا بد غالبون.. وسبب هذا: نظرُهم إلى الأسباب المدرَكة بالحس، وقصَروا النظر عليها ولم يقـع في قلوبهم أن وراء الأسباب المشاهَدَة أسباباً غيبية أقوى منها، وأموراً إلّهية لا تعارَض ولا تمانَـع، وآفات تطري وقوات تزول وضعفاً يزول وأمور لا تدخل تحت الحساب.. فهؤلاء أهل الكتاب، ذوو القوة والشوكة، قـد غرَّتهم أنفسهم، وظنُّوا أن حصونَهم مانعتُهم، وأنهم يمتنعون فيها، ولم يخطر في قلوب المؤمنين خروجُهم منها حتى جاءهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، واستولى عليهم الضعف والخراب من حيث لا يشعرون، وللكافرين أمثالها، فالمؤمن حقًّا هو الذي ينظر إلى قَدَر الله وقضائه وما له من العزة والقدرة، ويعلم أن هذا لا تعارضُه الأسباب وإن عَظُمَتْ وأن نمو الأسباب ونتاجَها إذا لم يعارِضْها القَدَر فإذا جاء القدر اضمحل عذرُه كل شيء ولكن الأسباب محل حكمة الله وأمره؛ فَأَمَرَ المؤمنين بالاستعداد لعدوهم ظاهراً وباطناً، فإذا فعلوا المأمور ساعدهم المقدور.

قوله تعالى: **﴿والذين تبوؤوا الدّارَ والإيمان من قبلِهِم يُحبّون من هاجَرَ إليهم﴾** [سورة الحشر: الآية ٩]

لا يمكن أن تكون القبلية في قوله **﴿من قبلهم﴾** راجعة إلى الدار دون الإيمان، لأن اللفظ لا يساعد على هذا، لأن الوصف بالجارّ والمجرور ولا يصلح إلا أن يعود على المعطوف والمعطوف عليه، فإلى أين يعود، وقد عُلم وتَقَرَّر أن المهاجرين قد تقدَّم إيمانُ كثيرٍ منهم على الأنصار؟ فالجواب: أن هذا عائدٌ إلى الدار، والإيمان على اللفظ المصرّح به، وهو التبوُّء والاستقرار. ومعنى هذا أن أهل الإيمان لهم حال تبوُّء وتمكين يتمكنون فيه من إقامة دينهم وقيامه في أنفسهم وفي غيرهم، ولهم حال وجود للإيمان منهم دون تمكين، فلم يحصل التمكين إلاّ بعدما هاجروا إلى المدينة، وصار لهم دار إسلام. وأما قبل ذلك، فهم وإن كانوا مؤمنين، لكنهم في حالة ذِلة وقِلة، محكومون مقهورون خائفون على أنفسهم، وبهذا يتبين المعنى.

التجارات نوعان: **أحدهما**، تجارة ربحُها الجناتُ وأنواعُ الكرامات وصنوفُ اللذات، وهي تجارة الإيمان والجهاد في سبيل الله؛ قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدُلُّكم على تجارة تُنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسولِه وتُجاهدون في سبيل الله بأموالِكم وأنفسِكم﴾
[سورة الصف: الآيتان ١٠، ١١]

إلى آخر الآيات، فهؤلاء هم الرابحون حقًّا وهم الذين تحققوا بالإيمان، ظاهراً وباطناً، فاجتهدوا في علوم الإيمان ومعارف الإيمان، في أعماله الباطنة كمحبة الله ورسوله وخشية الله وخوفه ورجائه، وفي أعماله الظاهرة، كالأعمال البدنية والمالية والمركّبة منهما، وجاهدوا أنفسهم على هذا، وجاهدوا أعداء الله بالحجة والبرهان، والسيف والسنان.

وثانيهما تجارةٌ ربحُها الخسران وأصنافُ الحسرات، وهي كل تجارة مُشغِلة عن طاعة الله ومفوِّتة لتلك التجارة الرابحة. قال تعالى:

﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً آنفضُّوا إليها وتَرَكُوكَ قائماً قُلْ ما عندَ اللَّهِ خيرٌ من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين﴾ [سورة الجمعة: الآية ١١]

وكم في القرآن من مدح تلك التجارة والحثِّ عليها والثناء على أهلها، ومن ذمٍّ التجارة الأخرى والزجر عنها والذم لأهلها. وأهل التجارة الرابحة إذا اشتغلوا بتجارة المعاش لم تكن قاطعةً لهم عن تجارتهم، بل ربما كانت عوناً لهم عليها. إذا أحسنوا فيها النية، وسَلِموا من المكاسب الرديّة وأخذوا منها مقدار الحاجة. قال تعالى:

﴿رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإِقام الصلاة وإِيتاءِ الزكاة﴾ [سورة النور: الآية ٣٧]

فلم يقل: إنهم لا يَتَّجِرون ولا يبيعون، بل أخبر أنهم لو فعلوا ذلك لم يشغلهم عن المقصود، وهو ذكر الله، وأمهات العبادات. وعَطَفَ البيعَ على التجارة، وإن كان البيع داخلاً فيها لأنه أعظم الأسباب التي تحصل بها التجارة وأنواع المكاسب وأبركها، والله أعلم.

سورة مريم عليها السلام قد اشتملت على تفاصيل عظيمة من ذكر رحمة الله بأنبيائه وأصفيائه وأحبابه وما مَنّ عليهم به في الدنيا من نِعَم الدين والدنيا، والنِّعم الظاهرة والباطنة، وما يكرمهم به من الذِّكر الجميل والثناء الحسن، ووصفهم بأحسن أوصافهم ونعتهم بأشرف نعوتهم، وما يُكرمهم به في الآخرة من الثواب والفضل العظيم. وذكر رحمته أيضاً بأعدائه، حيث عاملهم بالحلم والصفح، وتصريف الآيات لعلهم يرجعون ما عظم ما أَتوا به من الشرور وعظائم الأمور؛ ولذلك أكثر الله فيها من ذكر اسمه الرحمن، الذي هذه آثارُهُ، ومن ذكر الرحمة، فنسأله تعالى أن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

قوله تعالى: **﴿إن الذين كفروا وَيَصُدُّون عن سبيل الله والمسجِدِ**

الحرامِ الذي جعلناه للناس سواءً العاكفُ فيه والبادِ ـ إلى قوله ـ وطهِّر بيتي للطائفين والقائمين والرُّكَّعِ السجود﴾ [سورة الحج: الآيتان ٢٥، ٢٦]

فيه الذم للذين كفروا وصدُّوا عن المسجد الحرام عبادَه المؤمنين من وجهين: من جهة أنهم اختصوا به ومنعوا غيرهم، مع أن الناس فيه سواء؛ ومن جهة أن المؤمنين أحقُّ به منهم؛ وهذه مرتبة ثانية فأباحوه للأبعدين ومنعوه الأقربين. فإن الله أمر إبراهيم عليه السلام أن يطهِّره للطائفين والقائمين والرُّكَّع السُّجُود، فهؤلاء أحق الخلق به لأنهم حزب الله وأولياؤه، وما كان المشركون أولياءه:

﴿إن أولياؤه إلاَّ المتقون﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٤]

لولا فضل الله ورحمته لما شرع لعباده الأحكام؛ ولولا فضله ورحمته لما فصّلها وبيّنها؛ ولولا فضله ورحمته وأن الله تواب حكيم لما وَضّح ما يحتاج إليه العباد ويسّره غاية التيسير؛ ولولا فضله ورحمته لما شَرَع أسباب التوبة والمغفرة ولما تاب على التائبين؛ ولولا فضله ورحمته لما زكّى منكم من أحدٍ أبداً، ولكن الله يزكّي من يشاء، والله سميع عليم، كما فصل ذلك في صدر سورة النور.

قوله تعالى: **﴿وأَنكِحوا الأيامى منكم والصالحين مِنْ عِبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يُغنِهم اللَّهُ من فضله والله واسع عليم * ولْيَسْتَعْفِفِ الذين لا يجدون نِكاحاً حتى يغنِيَهم الله من فضله ـ إلى قوله ـ ولا تُكرِهوا فتياتِكم على البِغاء إِنْ أردنَ تحصُّناً لتبتغوا عَرَضَ الحياة الدنيا﴾**

[سورة النور: الآيتان ٣٢، ٣٣]

اشتملت هذه الآيات على الأمر بالسعي بالأسباب المباحة التي يُنال بها الرزق كالنكاح ونحوه؛ وعلى أن من لم يحصل له سعة فليلزم تقوى الله تعالى والكف عن محارمه، وينتظر فضل الله ورزقه وغناه، وعلى تحريم السعي بالأسباب المحرّمة في قوله: **﴿ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء﴾** والله أعلم.

«الأعراف»: موضع بين الجنة والنار، يشرف على كل منهما. وليس هو موضع استقرار إنما هو موضع أناس تساوتْ حسناتُهم وسيئآتهم يمكثون فيه مدة كما يشاء الله ثم يدخلون الجنة. وفي ذلك حِكَمٌ نبَّه الله تعالى عليها. منها: أن هذا منزل به يُستدل على كمال عدل الله وحكمته وحمده، حيث جعل الله تعالى أسباب الثواب والعقاب تتجاذب وتتعارض ويقاوم بعضُها بعضاً؛ فحسناتهم منعتهم من النار وسيئآتهم منعتهم الجنة في ذلك الوقت فصاروا وسطاً بين الدارين، وفي برزخ بين المحلين، لتظهر الحكمة أولاً ثم يأتيها الفضل من ذي الفضل العظيم، الذي أحاط بالخلق من جميع الوجوه فيغمرها، ويكون الحكم له. ففي هذا من تنويع حمده وتصريفه لعباده ما به يَعرِفُ العبادُ كمالَه وكمال أسمائه وصفاته، وحكمته وعدله وفضله، ومنها أن حالَهم من جملة الأدلة على سعة رحمة الله، وأن رحمته سبقت غضبه وغلبَتْه بحيث إذا تعارض موجب هذا وموجب هذا صار الحكم قطعاً لموجب الرحمة على موجب الغضب. ومما يدل على هذا أنه إذا كان في العبد من موجب الرحمة مثقالُ ذرة من إيمان فإنه لا بدّ أن يصير الحكم له ولو عمل موجب الغضب عمله فالعاقبة لموجب الرحمة. ومنها أن الله إذا أراد أمراً هيأ أسبابه؛ فلما قضى تعالى أنهم سيدخلون الجنة جعل الطمع والرجاء في قلوبهم والدعاءَ أن يُجيرهم من النار، ولا يجعلهم مع القوم الظالمين على ألسنتهم والدعاء مع الرجاء والطمع لا تتخلف عنه الإجابة. ومنها أن أهل «الأعراف» جعلهم الله سبباً يعرف به ما يصير إليه أهل الدارين، وما كان عليه أهل الشقاء من النكال والوبال وما عليه أهل الجنة من السرور والغبطة، ولهذا ذكر الله توبيخهم لرجال يعرفونهم بسيماهم من أهل النار.. إلى غير ذلك من الحِكَم الإلَهية فيما يجريه من الأحكام على البرية.

قول شعيب عليه السلام:

﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلّا أن يشاء الله ربُّنا وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيء عِلماً على الله توكَّلْنا﴾ [سورة الأعراف: الآية ٨٩]

بعد قوله: ﴿**قد آفترينا على الله كذِباً إنْ عُدنا في مِلَّتِكم بعدَ إذ نجانا اللَّهُ منها**﴾ [سورة الأعراف: الآية ٨٩]

من أعظم الأدلة على كمال معرفته بربِّه، فإنه: أولاً، لما بين امتناع عَوْدهم في ملة الكفار بحسب ما كان عليه من منة الله عليه بكراهته الشديدة لملّتهم، واغتباطه بإنجاء الله له منها، وأنهم لو عادوا في ملتهم بعد هذا كان من أعظم الافتراء على الله الذي يمتنع غاية الامتناع ممن هذا وصفه، وكان هذا الامتناع أثراً عمّا يسَّر الله له من الأسباب ـ استدرك الأمر بعد ذلك، وعلم أن هذا الامتناع بحسب ما وصلت إليه علوم البشر، وأن علم الله تعالى محيط بعلومهم؛ فقد يعلمون شيئاً ويخبرون ما يترتب على عملهم مما يكون بحسب حكمة الله تعالى. ومع ذلك فالله غالب على أمره وقد يتخلف العلم الذي علموه وأثرُه الذي حكموا به فقال:

﴿**إلاَّ أنْ يشاء الله ربنا**﴾. ثم قرر ذلك بقوله: ﴿**وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيء عِلماً**﴾ ثم لجأ إلى أعظم الأسباب الصادرة من العبد، التي بها ينال ما عند الله من خير الدنيا والآخرة ودفع شرورهما وهو التوكل على ربه، فقال: ﴿**على الله تَوَكَّلْنا**﴾ ثم بيَّن ثقته التامة بوعد الله له بالنجاة، هو ومن تبعه، وهلاكِ مَنْ خالَفَه فقال:

﴿**ربَّنا آفتَحْ بينَنا وبين قومِنا بالحق وأنت خير الفاتحين**﴾
[سورة الأعراف: الآية ٨٩]

قوله تعالى: ﴿**أمْ يقولون به جِنَّةٌ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون * ولو اتبعَ الحقُّ أهواءَهم لفسدتِ السمواتُ والأرضُ ومَنْ فِيهِنّ بَلْ أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون**﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٧١]

دلت على أن مخالفتهم للرسول لأجل ما جاء به من الحق؛ وأن عداوتهم الحقيقية للحق لذاته، وأنه السبب في ذلك، لأن الحق خالف أهواءهم وأن أهواءهم فاسدة يمتنع أن يَرِدَ الحق بما يوافقها، لأن الحق هو صلاح السموات

والأرض ومن فيهن، ولو وافق الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، فدل هذا على أن الحق جاء بما تشهد العقول الصحيحة والفِطَرُ المستقيمة بصحته واستقامته، واعتداله وكماله، وأن من خالف الحق فلفسادٍ في عقله وانحرافٍ في فطرته، وأنه اختار الضارَّ على النافع، فلهذا قال: ﴿بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾.

قوله تعالى: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ [سورة مريم: الآية ١٢]

ذكر كثير من المفسرين أن تقديره: «فوهبنا له يحيى، وقلنا يا يحيى ألخ». ولا يحتاج إلى هذا؛ فإنه صرّح أولاً بهبته يحيى في قوله:

﴿يا زكريا إنّا نبشِّرك بغلام اسمه يحيى﴾ [سورة مريم: الآية ٧]

فلو ذكر بعد ذلك لكان تكريراً لا يحتاج إليه.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بعدِهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاةَ واتَّبعوا الشهواتِ فسوفَ يلقون غَيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٥٩]

عذاباً مضاعفاً شديداً ــ اتبعوا الشهوات بمعنى أرادوها وصارت هي همهم، وانقادوا لها وصاروا مطيعين لها، فلذلك قال: ﴿اتبعوا﴾ ولم يقل «تناولوا، وأكلوا» ونحوه لهذا المعنى، لأن هذا الذم إنما يتناول متّبعي الشهوات، فمهما اشتهت نفوسهم فعلوه على أنه المقصود المتبوع. ومن المعلوم أن النفس من طبعها أنها أمَّارة بالسوء، فإذا كان هذا طبعها علم أن ذمهم على اتِّباع الشهوات يدخل فيه المعاصي كلُّها، فلذلك رتب على هذا العقابَ البليغ في قوله: ﴿فسوف يلقون غياً﴾ وهذا بخلاف المؤمن المطيع لله، فإنه ــ وإن تناول الشهوات ــ فإنه لا يتبعها ولا تصير أكبر همه، ولا مبلغ علمه، بل يتناولها على وجهٍ تكون هي تابعة لغيرها لا متبوعه. وخواص المؤمنين يتناولون الشهوات بقصد التوسُّل بها إلى القُرُبات فتنقلب طاعاتٍ. ونظير هذا: أن الذي تناوله الذم هو اتباع الهوى وهو كونه متبوعاً بأن يتخذ العبد إلّهه هواه

لا مجرد أن يكون للعبد هوى، فكل أحد له هوى ولكن المؤمن كما قال تعالى:

﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإنّ الجنة هي المأوى﴾ [سورة النازعات: الآيتان ٤٠، ٤١]

قوله تعالى: ﴿ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما فاعبُدْه واصطبرْ لعبادته هل تعلَمُ له سميًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٥]

اشتملت على أصول عظيمة على توحيد الربوبية، وأنه تعالى ربُّ كل شيء وخالقُه ورازقُه ومدبرُه، وعلى توحيد الإلّهية والعبادة، وأنه تعالى الإلّه المعبود، وعلى أن ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده، ولهذا أتى فيه بالفاء قوله ﴿فاعبده﴾ الدالّة على السبب، أي فكما أنه رب كل شيء فليكن هو المعبود حقًّا فاعبده؛ ومنه الاصطبار لعبادته تعالى، وهو جهاد النفس وتمرينها وحملها على عبادة الله تعالى. فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر، وهو الصبر على الواجبات والمستحبات، والصبر عن المحرمات والمكروهات، بل يدخل في ذلك الصبر على البليات، فإن الصبر عليها وعدم تسخطها والرضى عن الله بها من أعظم العبادات الداخلة في قوله: ﴿واصطبر لعبادته﴾. واشتملت على أن الله تعالى كامل الأسماء والصفات، عظيمُ النعوت جليل القدر، وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي، بل قد تفرد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، ودلّ على هذا أكبر الأدلة على أنه الذي لا تنبغي العبادة الظاهرة والباطنة، القلبية والبدنية والمالية، إلّا لوجهه الكريم، خالصة مخلصة؛ كما خلص له الكمال والعظمة والكبرياء والمجد والجلال.

ومنها بطلان الشرك عقلاً ونقلاً، فكيف يليق بالعاقل أن يجعل المخلوق الناقص، الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضُرًّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً نِدًّا لمن لا كفء له ولا سميّ، ولا مشابه بوجه من الوجوه؟ فهل هذا إلا من السَّفَه والضلال، والجهل المفرط والضرر من كل الوجوه؟ ودلّت على

أن الشِّركَ قد تقرر في العقل قبحُه، وأن التوحيد قد تقرر في العقل حسنُه؛ فكما لا سَمِيَّ لله، فلا أحسن من عبادته وإخلاص العمل له، ولا أنفع للعبد من ذلك، ولا أصلح ولا أزكى؛ ومن المتقرر شرعاً أن الإحسان في عبادة الله تعالى ـ الذي هو سبب كل خير عاجل وآجل، بل سبب لأعلى المراتب وأكمل الثواب ـ هو كما قال النبي، ﷺ: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). فكلما حقق العبد هذا الأمر كان له نصيب وافر من العبادة، بل هو أهم الأمور؛ ولهذا أمر النبي ﷺ مُعاذَ بن جَبَل أن يسأل الله تعالى أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته، وهذا أمر يقل من الخلق من يحقق ويتصف به على وجه الكمال، لمشقة ذلك على النفوس، فإذا امتثل العبد لأمر ربه بالاصطبار، ولعبادته وحبس النفس وتوطينها على إحسان العبادة خصوصاً أفضل العبادات وأعظمها وهي الصلاة، كما أمر الله بالاصطبار عليها خصوصاً فقال:

﴿وَأْمُرْ أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ [سورة طه: الآية ١٣٢]

استنار قلبه بالإيمان وأشرق نور العرفان في ضميره وذاق طعم الإيمان وباشر حلاوته فانجذب إلى عبادة الله وإخلاص العمل له، وعلم أن هذا هو الفلاح الدايم والربح المتضاعف، الذي لا خسارة فيه، فصبر نفسه قليلاً ليستريح بأعظم اللذات طويلاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فصل

قوله تعالى: ﴿كلُّ نفس بما كَسَبت رَهِينة * إلاّ أصحاب اليمين﴾
[سورة المدَّثِّر: الآيتان ٣٨، ٣٩]

أي كل نفس مرتهنة محبوسة وموثقة بكسبها السيِّىء وحبسها في العذاب السيِّىء، وذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فكما حبس المجرمون ما لديهم لله ولخلقه من الحقوق اللازمة، فلم يؤدوا الصلاة التي هي أكبر العبادات المتضمنة للإخلاص للمعبود، ولا أطعموا المساكين من الحق الذي أوجبه الله لهم في أموالهم، ولا حبسوا نفوسهم على ما شَرَع وقيَّدوها بقيود الدين بل أَطلقوها فيما شاؤوا من المرادات الفاسدة فخاضوا بالباطل مع الخائضين ولا صدقوا ربهم ورسُلَه مع تواتر الآيات، بل كانوا يكذِّبون بيوم الدين.. فلذلك حبسوا في هذا المحبس الفظيع، وأُدخلوا في سَقَر.

ولما كان أصحاب اليمين قد حبسوا نفوسهم في الدنيا على شَرْع الله تصديقاً وعملاً، وأطلقوا أَلْسِنتهم وجوارحَهم في طاعة الله ومرضاته أطلق الله أَسَارهم وفكّ رَهنهم، فلم يكونوا في ذلك اليوم مرتهنين، بل كانوا مُطْلَقين فيما اشتهت أنفسهم ولذّت عيونهم. فعمل العبد في الدنيا إمّا أن يكون سبباً لارتهانه أو سبباً لخلاصه، بل الأصل أن الإنسان في حبس، وأن عمله سَيُرْتَهَن لأنه ظلوم وجهول طبعاً إلاّ من خلّصه الله من هذا ومَنَّ عليه بالصبر وعمل الصالحات، فلهذا جعل الارتهان عامًّا واستثنى منه أصحاب اليمين، فقال تعالى: ﴿كلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾.

كلما ازداد العبدُ قرباً من الله بالإيمان به والتحقق بحقائقه ومعرفته بالله ومحبته والإنابة إليه وإخلاص العمل له ــ حصل له الخير والسرور، واندفعت

عنه أنواع الشرور، وزالت عنه المخاوف، وسهلت عليه صعاب الأمور؛ وهذا هو المعنى الذي أراد الله بقوله لموسى:

﴿لا تخفْ إني لا يخاف لديَّ المرسَلون * إلّا من ظَلَمَ ثم بَدَّل حُسناً بعد سوء فإنِّي غفورٌ رحيم﴾ [سورة النمل: الآيتان ١٠، ١١]

ويدل على هذا قوله ﴿لا يخاف لديّ﴾ ولم يقل «لا يخاف مني» أي لا خوفَ ينالُ مَنْ مَنَنْتُ عليه بأكمل الحالات وأشرف المراتب، وهي الرسالة، ولكل مؤمن نصيب من هذا بحسب ما قام به من اتّباع المرسَلين. ويدل أيضاً أن المراد هذا المعنى العام الحسن الجليل أن السياق والقرينة تدل عليه دلالة بيِّنة، فإن الخوف الصادر من موسى إنما وقع لما رأى عصاه تهتزُّ كأنها جانٌّ فخاف حينئذ من تلك الحية بحسب الطبيعة البشرية، فأعلمه الله تعالى: أن هذا محل القرب من الله، لا يليق ولا يكون فيه خوف، وإنما فيه الأمن التام. ولهذا قال في الآية الأخرى:

﴿أَقبِلْ ولا تَخَفْ إنّك من الآمنين﴾ [سورة القصص: الآية ٣١]

ويدل على هذا المعنى ما دل عليه الاستثناء في قوله: ﴿إلّا من ظَلَمِ ثم بَدّل حُسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ فإن الاستثناء مِيزان العموم، والأصل أن يكون من جنس المستثنى منه، فالمعنى:

﴿الـذين آمنوا ولم يَلْبِسـوا إيمانَهم بظلمٍ أولئك لهمُ الأمنُ وهُم مهتدون﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٢]

فإن ظلموا أنفسهم ثم رجعوا إلى ربهم وبدّلوا سيئآتهم حسنات رجعوا إلى مرتبتهم وأزال عنهم الغفور الرحيم موجب الظلم والإساءة؛ والله أعلم.

فائدة: وهي في الحقيقة تابعة للإيراد السابق فيَ إخبار الله: لا يهدي الظالمين والكافرين ونحوهم، مع أنه وقع منه هداية لمن اتصف بذلك الوصف، وجوابه السابق: وهو أن النفي واقع على من حقَّ عليه أنه مجرم من أهل النار، وأن الهداية الحاصلة لمن لم يكن كذلك، ثم تبين لي في يومي

هذا وتوضح معنى ما زال مشكلاً علي: وضّحه الله وله الحمد، وهو حل هذه الآية الكريمة:

﴿وإذا وَقَعَ القولُ عليهم أخرَجْنا لهم دابَّةً من الأرض تكلِّمُهُم إنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ [سورة النمل: الآية ٨٢]

وأنها تقرير للآية التي قبلها فإن الله تعالى قال لرسوله مسلِّياً بعدم إيمان المعاندين وأن هذا لا يضر الحق شيئاً،

﴿إنَّك لا تسمعُ الموتى ولا تسمعُ الصُّمَّ الدعاءَ إذا ولَّوْا مُدبرين * وما أنتَ بهادِي العُمي عن ضلالَتِهم إنْ تُسمِعُ إلّا من يؤمنُ بآياتنا فهمْ مُسلمون﴾
[سورة النمل: الآيتان ٨٠، ٨١]

فلما بين له أن اجتهاده ﷺ في هداية الضالين إنما ينتفع به ويسمعه سَمْعَ قَبول ٍ وانقيادٍ مَنْ يؤمن بآياتنا فهم مسلمون، وأما الموتى الذين ليس في قلوبهم أدنى حياة لطلب الحق: فكما أن صوتك لا تسمع به الأموات موتاً حسِّيًّا فصوتك أيضاً في الدعوة والإرشاد لا تَسمع به موتى القلوب ولا الصُّمُّ المعرضون المدبرون عن الحق، ولا الذين صار العمى لهم وصفاً والغيُّ لهم نعتاً، فهؤلاء هم الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأولئك هم الغافلون، وهؤلاء هم الذين حقَّ عليهم القول، وإذا حق القول على الأشقياء لم تنفعْهم الآيات المسموعة والتذكير، كما لا تنفعهم الآيات التي يصير الإيمان عندها اضطراريًّا، وهي الآيات الكبار، التي تكون مقدِّمة الساعة، فإنها إذا طلعت الشمس من مغربها لم ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، حينئذ حق القول على الأشقياء أنهم لا يزالون على شقائهم، فيخرجُ لهم دابةً من الأرض تكلِّمهم وتبيِّن المسلم من الكافر. فالقول إذاً حقٌّ لا يتغير ولا يتبدل، ويحصل اليأس من إيمان الكافرين ولو كانت الآيات أكبر الآيات، فالآية تقرر ما قبلَها، وتدلُّ على العِلة الجامعة، وهي أن مَنْ حَقَّ عليه القول لو جاءته كلُّ آية لم يؤمن حتى يرى العذاب الأليم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يكن لهم آيةً أنْ يعلَمَه علماءُ بني إسرائيل﴾
[سورة الشعراء: الآية ١٩٧]

تدلّ على أن أهل العلم بهم يعرف الحق من الباطل، والحلال من الحرام، فهم الوسائل بين الله وبين عباده، ولهذا استشهد الله بهم على التوحيد وعلى النبوة وعلى صحة القرآن، كما في هذه الآية، وعلى التوحيد في قوله:

﴿شهد الله أنه لا إلَه إلاّ هُوَ والملائكةُ وأُولو العلم﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٨]

وعلى القرآن قوله:

﴿بلْ هُوَ آياتٌ بيِّناتٌ في صدور الذين أُوتُوا العلم﴾
[سورة العنكبوت: الآية ٤٩]

وتدلّ هذه الآيات على أن العلم الحقيقي هو ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وما فَرَّقَ بين الحق والباطل؛ وما سوى ذلك ـ وإن كان صحيحاً ـ فلا يستحق صاحبه أن يكون من أهل العلم الذين أمر الله بالرجوع إليهم، وإنما هو من أهل الذِّكر الذين قال الله فيهم:

﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣]

حقيق بمن مَنّ الله عليهم بشيء من العلم أن يكونوا أسرع الناس انقياداً للحق، وأبعدَ الناس عن الباطل، ولهذا شدّد الله الذمَّ بمخالفة هذين الأمرين على أهل العلم، كقوله:

﴿ألمْ تَرَ إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطاغوت﴾
[سورة النساء: الآية ٥٠]

﴿ألمْ تَرَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة﴾
[سورة النساء: الآية ٤٤]

﴿ألمْ تَرَ إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله لِيَحْكُم بينهم ثم يتولَّى فريقٌ منهم وهم معرضون﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٣]

فائدة عظيمة: بل هي أعظم الفوائد على الإطلاق: الإيمان هو أعلى

الخصال وأشرف المراتب وأكمل المناقب؛ بل لا يمكن أن تكون فضيلة ولا ثواب إلا بالإيمان وحقوقه، ولذلك أثنى الله به على خيار خلقه والمصطفَيْن من عباده، فقال في كلٍّ من نوح وإبراهيم وموسى وهرون وإلياس وغيرهم من الأنبياء: إنه من عبادنا المؤمنين. فعَلَّل ما حصل لهم من الخيرات وزوال الشرور بإيمانهم. وقد علّق الله الفلاح ودخولَ الجنان على الإيمان في قوله:

﴿قد أفلح المؤمنون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١]

ثم ذكر صفاتِهم الناشئةَ عن إيمانهم، ثم قال:

﴿أولئك هم الوارثون * الذين يَرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾
[سورة المؤمنون: الآيتان ١٠، ١١]

وقال تعالى: **﴿وبشِّر المؤمنين﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٢٣]

وقال: **﴿ألاَ إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾** [سورة يونس: الآيتان ٦٢، ٦٣]

وقال تعالى: **﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾**
[سورة الحج: الآية ٣٨]

والله يحب المؤمنين. إن الله لمع المؤمنين.. وغير ذلك من نصوص الكتاب والسنة الدالة على فضله وفضل أهله، وأن الخير كله فيه فعلى العبد الذي يريد نجاة نفسه ويقصد كمالها وفلاحها أن يسعى غاية جهده ويبذل مقدوره في هذا الوصف، وهو الإيمان علماً ومعرفةً وعملاً وحالاً ووصفاً، وهو كما قال النبي ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبه أعلاها قول: لا إلّه إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق). والحياء شعبة من الإيمان، فوصفه بأقوال اللسان التي يحبها الله ورسوله، وذكر أعلاها بالإحسان إلى عباد الله، أيَّ إحسانٍ كان، حتى إماطة الأذى عن طريقهم، وبأعمال القلوب التي أصلها الحياء، فإن من اتصف بالحياء من الله فقد انصبغ قلبه بمعرفة الله وحبه، وخوفه ورجائه، والتحبب إليه مهما أمكن.

وحقيقة هذا أن الإيمان اسم جامع للشرائع الظاهرة والباطنة، ولأقوال

اللسان وأقوال القلب، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأن من قام بهذه الأمور ونصحَ فيها وأحسن كان أكمل إيماناً، وأن من نقص منها معرفة وعلماً وعملاً وحالاً صالحاً نقص من إيمانه بقدر ذلك. والناس في الإيمان درجاتٌ متفاوتة، فأكملهم مَنْ وَصَل في علوم الإيمان إلى علم اليقين وحق اليقين، وفي أعماله من وفى مرتبة الإحسان، وَعَبَدَ الله على وجه الحضور والمراقبة، وفي أحوال الإيمان من كانت آدابه وأخلاقه صبغة لقلبه وحالاً غير حائلة، بل إنْ عَرَضَ له ما يُشَوِّش عليه إيمانه بادر بالحال لإزالته، ورجع إلى نعته ووصفه صَبَغَه الله، ومن أحسن من الله صبغة! ولهذا قال النبي ﷺ: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) فإن لم يتغير إيمانه عند المعارضات، كالشهوات والإرادات السيئة وإتيان الأمر مخالفاً لمراد النفس، كان هذا المؤمن حقًّا. ولهذا قال تعالى:

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾

[سورة الحجرات: الآية ١٥]

ولهذا كان من كمال الإيمان أن تَصِلَ مَنْ قَطَعَك، وتُعطيَ مَنْ حَرَمك، وتعفوَ عمَّن ظَلَمَك؛ ولهذا أيضاً كان إخراج محبوب النفس، وهو المال، لله تعالى دليلاً على الإيمان، كما قال النبي ﷺ: (والصدقة برهان) ولهذا أيضاً كان الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.

ومن علامات الإيمان ما ذكره الله بقوله:

﴿إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُليت عليهم آياتُهُ زادَتْهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم درجاتٌ عند ربهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم﴾ [سورة الأنفال: الآيات ٢ ـ ٤]

فوصف المؤمنين بأنهم الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قلوبهم، أي خضعت

وخشعت وذلت لعظمته وانكسرت لكبريائه فتركت معاصِيَه وخافت عقـابه واطمأنت بذكره،

﴿الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبُهم بذكر الله ألاَ بذكرِ الله تطمئن القلوبِ﴾.
[سورة الرعد: الآية ٢٨]

وإنهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، أي ازدادوا بها علماً وبصيرة ورغبة في الخير ورهبة من الشر، فنما الإيمان في قلوبهم، وكان إيماناً ناشئاً عن أعظم الأدلة والبيانات، كما قالوا:

﴿ربَّنا إننا آمنَّا فاغفر لنا ذنوبنا وقِنَا عذاب النار﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٦]

وقالوا: ﴿ربَّنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أنْ آمنوا بربِّكم فآمنَّا﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٩٣]

وكما قال مؤمنو الجن:

﴿وأنَّا لمَّا سمعنا الهُدى آمنَّا به﴾ [سورة الجنّ: الآية ١٣]

فبحسب إيمان العبد يزداد إيمانه عند تلاوة كتاب الله والحكمة، وهذا أعلى ما يكون من الإيمان، فإنه إيمانٌ عن أكبر البراهين، وإيمان على بصيرة، لا كإيمان ضعفاء المؤمنين، الناشىء عن العادات والتقليد، الذي هو عرضة للعـوارض والعوائق. وأمـا هذا الإيمـان فهو إيمـانٌ لا تزعـزعـه الشُّبُهـات ولا تعارضه الخيالات بل يزداد مـع صاحبه مدى الأوقات. وَوَصَفَهُم بتحقيق التوكل عليه، فأعظم الناس إيماناً أعظمهم توكُّلاً على الله، خصوصاً التوكل العالي الذي هو الاعتماد التام على الله في تحصيل محابِّه ومراضيه، ودفـع مساخطه؛ ولهذا يجعل الله التوكل ملازماً للإيمان في كثير من الآيات. كقوله:

﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٣]

فالمؤمن حقًّا تجدُه قائماً بما أمر الله به من الأسباب، معتمداً على مسبِّبها ومصرِّفها واثقاً بربه، لا يقلقه تشوُّشُها ويحزنه إتيانها على غير مراده، قد هدى

الله قلبه فاطمأن إلى ربه ورضي به وفوّض إليه أمره؛ ومن يؤمن بالله يهد قلبه؛ قد تحقق قوله تعالى:

﴿ألَمْ تعلمْ أنّ الله يعلم ما في السماء والأرض إنَّ ذلك في كتابٍ إنّ ذلك على الله يسير﴾ [سورة الحج: الآية ٧٠]

﴿لكي لا تأسَوْا على ما فاتكم ولا تفرَحُوا بما آتاكم﴾
[سورة الحديد: الآية ٢٣]

قد رضي بكفاية ربه وسلّم إليه الأمر، ومن يتوكّل على الله فهو حسبه. ووصف المؤمنين حقًّا في هذه الآية بأنهم الذين يقيمون الصلاة، أي يقيمونها بقيام مكمِّلاتها، ظاهراً وباطناً، ويؤتون الزكاة، فالصلاة فيها الإخلاص للمعبود والزكاة فيها الإحسان إلى عباد الله تعالى؛ فبحَسَب إيمان العبد يكون قيامه بالصلاة والزكاة اللتين هما أم العبادات وأجلها وأعلاها وأعظمها نفعاً وثمراتٍ. وكذلك وصف الله المؤمنين في قوله:

﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللَّغْو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلاَّ على أزواجهم أو ما ملكت أَيْمَانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صَلَواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون﴾
[سورة المؤمنون: الآيات ١ ـ ١٠]

فهذه الأوصاف العظيمة بها يكمل الإيمان ويتحقق، وهو ميزان للخلق، فالمؤمنون المفلحون، أهل الفردوس، هم الذين أقاموا الصلاة ظاهراً وباطناً بحقوقها وخشوعها، الذي هو لبُّها، وآتوا الزكاة المأمورَ بها، وحفظوا ألسنتهم من الكلام السيِّىء والفحش ومن اللغو والكلام الباطل، ولهذا نبَّه بالأدنى الذي هو اللغو على ما هو أولى منه، فإخبار الله أنهم عن اللغو ـ الذي هو الكلام الذي لا منفعة فيه ـ يدلّ على أنهم تركوا الكلام المحرَّم وحفظوا

فروجهم عن الحرام لله تعالى؛ وتمامُ حفظها حفظُ البصر وعدمُ قُرْبان الفواحش ومقدماتها، كما قال تعالى:

﴿قلْ للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجَهم﴾

[سورة النور: الآية ٣٠]

ووصفهم بمراعاة عهودهم وأماناتهم، وهذا عام للعهود والأمانات التي بينهم وبين ربهم، فإنهم قد عقدوا بينهم وبين ربهم عقدَ الطاعةِ والسمع والالتزام، ولهذا ذكّرهم الله بهذا العهد في قوله:

﴿واذكروا نعمةَ الله عليكم وميثاقَه الذي واثَقكم به إذْ قلتم سمِعْنا وأطعنا﴾ [سورة المائدة: الآية ٧]

والعهود والأمانات التي بينهم وبين الخلق ألّا ينقضوها وأن يؤدوا الأماناتِ إلى أهلها؛ ولهذا ذكر النبي ﷺ أن علامة الإيمان أن يكون العبد مؤتَمناً على الدماء والأموال فقال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمِنَه الناس على دمائهم وأموالهم) وقال: (لا يؤمن من لا يأمن جارُه بوائقه) ووصف المنافق بضد ذلك ووصف المؤمنين بالإيمان بجميع الحق الذي نَزَّله الله وبالرسل الذين أرسلهم الله فقال:

﴿آمنَ الرسولُ بما أنزل إليه من ربِّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانَك ربَّنا وإليك المصير﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥]

فالمؤمن لما كان وصفه أنه متطلب لرضوان الله، متَّبعٌ هداه أينما كان، آمن بجميع الإلَهية والرُّسل والتزم الدخول في طاعة الله وطاعة رسوله في كل شيء، وسأل الله أن يغفر له ما قصَّر فيه وأن يتجاوز عنه إذا قدم عليه. ومن صفات المؤمنين أنهم يحكِّمون الله ورسوله في جميع أمورهم..

﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شَجَر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قضيتَ ويُسَلِّموا تسليماً﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥]

﴿إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ

لَمْ يذهبوا حتى يَسْتأْذِنوه إنَّ الذين يستأذِنُونَك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا آستأذنوك لبعض شأنهم فأذَنْ لِمَنْ شئتَ منهم واستغفِرْ لهم اللَّهَ إن الله غفور رحيم﴾ [سورة النور: الآية ٦٢]

﴿إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سَمِعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ [سورة النور: الآية ٥١]

﴿فإنْ تنازعتم في شيء فرُدُّوه إلى اللَّهِ والرسولِ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩]

فالمؤمن أخلص دينَه لله، واجتهد في الاقتداء برسول الله، ولم يُقَدِّم على قوله وحكمه قولَ غيرِه وحكمِه، بل إذا تبينت له سُنَّةُ رسول الله لم يعدل عنها إلى غيرها، وبحسب تحقيقه لهذين الأصلين يتحقق إيمانه ويقوى يقينه وعرفانه.

ومن صفات المؤمنين أنهم متحابون متوالون متراحمون متعاطفون، كما قال تعالى:

﴿والمؤمنون والمؤمناتُ بعضُهُم أولياءُ بعضٍ يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ويقيمون الصلاة ويُؤْتون الزكاة ويطيعون الله ورسولَه﴾
[سورة التوبة: الآية ٧١]

وقال: ﴿إنَّما وليُّكم اللَّهُ ورسولُهُ والذين آمنوا﴾
[سورة المائدة: الآية ٥٥]

وقال تعالى: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربَّنا آغفِرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعلْ في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربَّنا إنك رؤوف رحيم﴾ [سورة الحشر: الآية ١٠]

وكما قال النبي ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وكلما ازداد الاتصال بقرابة أو جوار أو حق من الحقوق ازداد هذا المعنى وتأكد الإحسان إليه كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه،

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) وقال: (من غشَّنا فليس منا) و(الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) فالمؤمنون يدينون الله بالنصيحة له في عبوديته ولكتابه في تعلم وتفهم والعمل به والدعوة لذلك، ولرسوله في الاجتهاد في متابعته في أقواله وأفعاله وجميع أحواله، ولأئمة المسلمين وعامتهم بإرشادهم إلى مصالحهم الدينية والدنيوية ومعاونتهم على البر والتقوى وكفهم عن الإثم والعدوان بحسب القدرة. كما قال تعالى في الآية السابقة في وصفهم: أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ومن صفاتهم الحميدة ومناقبهم السديدة ما قاله النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (ثلاث من كُنَّ فيه وجد فيهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يُحب المرء لا يُحبه إلاّ لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) فجعل تحقيق الإيمان ووجد حلاوته بكون المحبة لله ولرسوله، وتقديمها على سائر المحابّ وجعل المحابّ تبعاً لها، فيحب المرء لما قام به واتصف به من محابِّ الله وما مَنّ الله به من الأخلاق الفاضلة، فكلما قويت فيه ازدادت محبته له فتكون محبة المؤمن دائرة مع محبة الله، فيحب الله ورسوله ويحبّ من يحبُّه من الأعمال والأشخاص، وتكون كراهته للكفر المضادّ للإيمان أعظم من كراهته للنار التي سيقذف فيها. ومثل ذلك قوله ﷺ: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رَبًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيًّا). وقد تقدم قول هرقل الذي في صحيح البخاري: وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون. وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سَخَطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. اهـ. ــ فلعل النقص سقط من كلام المؤلف رحمه الله ــ.

وقال ﷺ: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا

المسلمين ولا تتبعوا عوراتِهم فإنه من يتبـع عورةَ أخيه يتبـع الله عورتَه يفضحه ولو في جوف بيته).

ومن علاماتهم أن الله قد شرح صدورهم للإسلام فانقادوا لشرائعه طوعاً واختياراً ومحبةً، قد اطمأنت لذلك نفوسهم وصاروا على بيِّنة من أمرهم، فهم يمشون بنورهم بين الناس. قال تعالى:

﴿أفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صدرَه للإسلام فهو على نورٍ من ربِّه﴾

[سورة الزمر: الآية ٢٢]

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. وقال ﷺ: (إذا دخل الإيمان في القلب اتسـع وانشرح) قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: (نعم! الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبـل نزوله). ولما قال له حارثة: «أصبحت مؤمناً حقًّا» قال: (وما حقيقة إيمانك) قال: «عزفت النفس عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربـي بارزاً وإلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار في النار يتعاوون فيها» فقال: (عبدٌ نَوّرَ الله قلبه. فالزم!) فتحقيق الإيمان علامته سهـولة العبـادات والتلذذ بالمشقـات في رضى رب الأرض والسموات، والتصديق التام بالجزاء والعمل بمقتضى هذا اليقين. وكذلك قال الحسن، رضى الله عنه: «ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمنِّي ولكن ما وَقَر في القلب وصدّقته الأعمال». ولهذا من أجَلِّ علاماتهم أن الإيمان يصل بهم إلى حد اليقين والصِّدِّيقين، كما قال تعالى:

﴿والذين آمنوا بالله ورُسُله أولئك هم الصِّدِّيقون﴾

[سورة الحديد: الآية ١٩]

ولمـا ذكر النبـي ﷺ ارتفـاع غرف الجنـة وعلوَّها العـظيم قـالـوا: «يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرُهم» فقال: (بلى، والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصَدَّقوا المرسلين) ولهذا كانت الصِّدِّيقة التي أثنى بها على خواصّ خلقه هي تكميل مراتب الإيمان علماً وعملاً ودعوةً.

وكما أن من تحقيق الإيمان أن تكون الأعمال الصالحة مصدِّقة له فمن تحقيقه أيضاً أن يكون المؤمن متنزهاً عن الإثم والفسوق وأنواع المعاصي الداخلة في قوله تعالى:

﴿الذين آمنوا ولم يلبِسوا إيمانهم بظلم أولئك لهمُ الأمن وهم مُهتدون﴾
[سورة الأنعام: الآية ٨٢]

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آتَّقُوا الله وذَرُوا ما بقي من الرِّبا إنْ كنتمْ مؤمنين﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٧٨]

ومن موجبات الإيمان صرفُ الأموال في مصارفها الشرعية ووضعها مواضعها وإقامة الحدود التي حدّ الله ورسوله. قال تعالى:

﴿واعلموا أنَّ ما غَنِمتُم من شيء فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وللرسولِ ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إنْ كنتُمْ آمنتمْ باللَّهِ وما أَنزلنا على عبدِنا يومَ الفُرقان﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤١]

وقال تعالى: ﴿الزانيةُ والزاني فاجلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مِائَةَ جَلْدةٍ ولا تأخُذْكم بهما رأفةٌ في دين الله إنْ كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾
[سورة النور: الآية ٢]

وقال: ﴿. . . وَحُرِّمَ ذلك على المؤمنين﴾ [سورة النور: الآية ٣]

إلى غير ذلك من النصوص في الكتاب والسنة الدالّة على وصف المؤمنين. وأن العبد لا يستحق حقيقة الإيمان حتى يتصف بها.

وفي الجملة فكلَّما قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا أو: اتركوا كذا، كان امتثالُ ذلك الأمر واجتنابُ ذلك النهي من مقتضيات الإيمان وموجباته، الذي لا يتم إلاّ بها. فبهذا ونحوه تعرف حقيقة الإيمان الذي جعله الله عنوان السعادة ومادة الفلاح وسبب الفوز بكل مطلوب والنجاة من كل مرهوب، فنسأله تعالى إيماناً كاملاً يَهدِي به قلوبَنا إلى معرفته ومحبته، والإنابة إليه في كل أمر وألسِنَتَنا إلى ذكره والثناءِ عليه، وجوارحَنا إلى طاعته. . . قال تعالى:

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربُّهم بإيمانهم﴾
[سورة يونُس: الآية ٩]

ومن صفاتهم الجليلة أن الله يهديهم إلى الحقِّ في المواطن المُشْتَبَهات وللصوابِ في محال المتاهات التي لا تحتملها عقول كثير من الناس، ويزدادون إيماناً ويقيناً في المواضع التي يزداد بها غيرُهم ريباً وشكًّا. قال تعالى:

﴿إن الله لا يَسْتَحْيِي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقَها فأمَّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحقُّ من ربِّهم وأمَّا الذين كفروا فيقولون ماذا أرادَ اللَّهُ بهذا مثلاً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦]

وقال تعالى: **﴿وما أرسلنا مِن قَبلِك مِنْ رسولٍ ولا نبيٍّ إلاّ إذا تمنَّى ألقى الشيطان في أُمنيَّتِهِ فَيَنْسَخُ الله ما يُلقِي الشيطانُ ــ إلى أن قال ــ ولِيَعْلَمَ الذين أُوتُوا العِلمَ أنهُ الحقُّ من ربِّك فيُؤْمِنوا به فَتُخْبِتَ له قلوبُهم وإنَّ الله لهادي الذين آمنوا إلى صراطٍ مستقيم﴾** [سورة الحج: الآية ٥٤]

وقال تعالى: **﴿وما جعلْنا أصحابَ النار إلاّ ملائكةً وما جَعَلْنا عِدَّتَهم إلاّ فتنةً للذين كفروا لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُوا الكتابَ ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً ولا يَرتابَ الذين أُوتُوا الكتابَ والمؤمنون﴾** [سورة المدَّثِّر: الآية ٣١]

وقال تعالى: **﴿والراسخون في العلم يقولون آمنَّا به كلٌّ مِنْ عِندِ ربِّنا﴾**
[سورة آل عمران: الآية ٧]

فما معهم من الإيمان واليقين يهديهم إلى الحقائق وأقومِ الطرائق وأرشدِ الأمور وأصلحِ الأحوال، ولهذا كان القرآن تذكرة ورحمة وبشرى للمؤمنين. وقال تعالى:

﴿إن الذين هم من خَشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربِّهم يؤمنون﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ٥٧، ٥٨]

إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون فلما مشوا في نور إيمانهم في ظلمات

الجهالات والشرور وتولاهم مولاهم الله، وليّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور، والله ولي المؤمنين مَشَوْا في نورهم يوم القيامة

﴿يومَ ترى المؤمنين والمؤمناتِ يسعى نورُهم بين أيديهم وبأَيْمَانهم بُشْرَاكُمُ اليومَ جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾

[سورة الحديد: الآية ١٢]

ولما كانت تجارتهم أجلَّ التجارات كان ربحها النعيم المقيم في غرف الجنان:

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أَدُلُّكم على تجارة تُنْجِيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله﴾ [سورة الصف: الآيتان ١٠، ١١]

ومن صفاتهم أن الله ينزل في قلوبهم السكينة والطمأنينة في مواضع الحرج والقلق. قال تعالى:

﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ [سورة الفتح: الآية ٤]

كل من قام بحق أو دعا إليه، أو سعى في إنكار منكر وإبطال باطل وجبت معاونته ومساعدته على ذلك. وهو داخل في قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصارَ الله﴾ [سورة الصفّ: الآية ١٤]

ودلت هذه الآية ونحوها باللزوم على الأمر بالسعي بالأسباب التي تتم بها نصرة الحق، كالتعلم والتعليم للعلوم النافعة ونحوها.

الإخلاص والالتجاء إلى الله على الدوام والرجوع إليه في كل أمر هو السبب الأعظم في حصول الهداية إلى الصراط المستقيم: علماً وعملاً. قال الله تعالى عن الخليل عليه السلام:

﴿وقال إني ذاهبٌ إلى ربي سيهدينِ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٩]

وقال تعالى: **﴿والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾**

[سورة العنكبوت: الآية ٦٩]

﴿قال ربِّ اغْفِرْ لي وَهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾

[سورة صٓ: الآية ٣٥]

قد استجاب الله له هذا الدعاء ووقـع الأمر. كذلك فإنه مهما تَنَقَّلَتْ بالخَلْق الأحوالُ وأُعطُوا الأسبابَ العظيمة من التمكين في الأرض والاقتدار على مصالحها فلا بلغوا ولا يبلغون ما بلغه سليمان عليه السلام: من الرِّيـح التي غُدُوُّها شهرٌ ورواحها شهرٌ وَتجري بأمره رُخاء حيث أصاب؛ ومن تسخير الشياطين كل بَنَّاءٍ وغواص، وآخرين مقرَّنين في الأصفاد ومن تسهيل الأسباب التي تدرك فيها المطالب.

﴿قال يا أيها الملأ أَيُّكُمْ يأتِيني بعرشِها قبلَ أنْ يأتوني مُسْلِمين * قال عفريتٌ مِن الجِنِّ أنا آتيك به قبلَ أن تقومَ مِنْ مَقَامك وإنِّي عليه لقويٌّ أمين * قال الذي عندَه عِلمٌ مِنَ الكِتاب أنا آتيكَ به قبلَ أن يرتدَّ إليكَ طرفُك فلمَّا رآه مستقرًّا عندَه قال: هذا من فَضْلِ ربـي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾

[سورة النمل: الآيات ٣٨ ــ ٤٠]

ومن تسخير الطير والوحوش، وتعلُّم منطِقها، مما هو من أعظم الأدلة على أن هذا أمر سماوي، ليس في قدر المخلوقات استطاعته.

في أمر الله تعالى لزكريا بالذِّكر بالعشي والأبكار، بعد البشارة له بيحيـى عليهما السلام، وفي أمر زكريا لقومه بتسبيـح الله بكرة وعشيًّا تنبيهٌ على شكر الله تعالى على النِّعم المتجددة، لا سيما النِّعم التي يترتب عليها خير كثير ومصالـح متعددة، وأنه ينبغي للعبد كلَّما أحدث الله له نعمةً أحدث لذلك شكراً، وأن أفضل أنواع الشكر الإكثار من ذكر الله وتسبيحه وتقديسه والثناء عليه.

كمالُ العبد في تمام النِّعمتين: نعمة الدين ونعمة الدنيا، فيهما تحصل السعادة العاجلة والآجلة. فنعمة الدين بالعلم الهادي إلى الصراط المستقيم، وبتقوى الله التي هي امتثال أمره واجتناب نهيه؛ ونعمةُ الدنيا بأن ينقطـع العبد

عن رجاء المخلوقين والافتقار إليهم، ويرزقه الله العفة عن القبائح، ثم يغنيه بالحياة الطيبة والخير الذي يكون عوناً له على عبادة ربه. قال تعالى:

﴿والذين ٱهْتَدَوْا زادهم هُدًى وآتاهم تقواهم﴾

[سورة محمد: الآية ١٧]

وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الذين لا يجدون نِكاحاً حتى يغنِيَهم اللَّهُ من فضله﴾ [سورة النور: الآية ٣٣]

وقد تضمن هذه الأمورَ الأربعة الدعاءُ الذي ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى).

إذا صدق العبد في حبه ما أمر الله به وكراهَتِهِ لِمَا نهى الله عنه، وبذل جهده في فعل المحبوب وترك المكروه، واستعان بالله وتضرَّع إليه في التوفيق لفعل ما يحبُّه والحفظ مما يكرهه، فإن الله أكرمُ الأكرمين، ولا يخيبُ عبداً.. هذا شأنه. ولو توالت وتكاثرت الأسباب المعارِضةُ فإن هذا السبب المجتمع من ثلاثة هذه الأشياء لا يتخلّف عنه عند مسبّبه وإنما يأتي العبد النقص من إخلاله بها أو بأحدها؛ ولهذا لما اجتهد يوسف الصديق، عليه السلام، في السلامة من شرِّ مراودة امرأة العزيز ومَنْ أعانها على مرادها وصَدَق في حبه وإيثاره طاعة الله على طاعة النفس، وتضرّع إلى الله تعالى وتوكل عليه في حفظه وصيانته استعصم وحفظَه الله، وصرف عنه السوء والفحشاء، فقال عليه السلام:

﴿رَبِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه وإلّا تَصْرِفْ عنّي كيدَهن أَصْبُ إليهِن وأكُنْ من الجاهلين﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٣]

فاختار السجن المتضمن للعقوبة والإهانة على مراد النفس الدني المثمر للخسران الدائم، وتملَّق إلى الله وتضرَّع في صرف كيدهن واجتهادِهن في فتنته، وفوَّض الأمر إلى ربّه وعَلِمَ أنّ الله إنْ وَكَلَه إلى نفسه ولم يصرِفْ عنه كيدَهن فلا بد أن يصبُوَ إليهن ويفعل أفعال الجاهلين، لأن هذا طبع النفس، إلّا من رحم الله.

قوله تعالى: ﴿ما لَهُم به مِنْ عِلمٍ ولا لآبائهم كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ مِنْ أفواههم إِنْ يقولون إلاّ كَذِباً﴾ [سورة الكهف: الآية ٥]

أبطل به قول من زعم أن لله ولداً، من ثلاثة أوجه، بل من أربعة:

أحدها: أنه قول بلا علم؛ ومن المعلوم أن القول بلا علم من أعظم المختلَقات، وأن ذلك من الجهالات والضَّلالات، خصوصاً في أعظم المسائل وأهمها وهي مسألة التوحيد وتفرُّد الباري جل جلالُه بالكمال وتنزُّهِهِ عن كل ما لا يليق بجلاله من أنواع النقائص المنافية لكمال الربوبية وعظمة الإلٓهية، فنفى عنهم العلمَ ونفى عنهم التقليدَ لأهل العلم فلم يقولوا شيئاً يعلمونه، ولا ٱقْتَدَوْا بالعالِمين، بل هم وآباؤهم في ضلال مبين.

والوجه الثاني، قوله: ﴿كَبُرت كلمةً تخرُج من أفواههم﴾ أي عظمت وزادت في الشناعة إلى حدٍّ يستعجب كيف نطقوا به، وكيف خرجت هذه الكلمة الشنيعة من أفواههم، التي:

﴿تكادُ السمٰواتُ يَتَفَطَّرْنَ منه وتنشقُّ الأرض وتَخِرُّ الجبال هدًا * أَنْ دَعَوْا للرحمن ولداً﴾ [سورة مريم: الآية ٩١]

وإنما كانت شنيعة جدًّا لأنها متضمنة لشتم رب العالمين وسبِّه، كما قال في الحديث الصحيح: (شتمني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وكذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك: أما شتمه إياي فقوله: إن لي ولداً وأنا الواحد الأحد، الفردُ الصَّمد، الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد) إلخ فأي شتم أعظم من هذا الشتم الذي مضمونه حاجة رب العالمين إلى اتخاذ الصاحبة والولد، ومنافاة وحدانيته وتفرده بالكمال.

الوجه الثالث، قوله: ﴿إِنْ يقولون إلاّ كذباً﴾ فسجل على أن قولهم هذا هو الكذب الصراح والإفك المبين. وتأمل كيف ارتقى في إبطاله من وجه يُبطله ويُفسده، إلى وجه آخر يزيد في إبطاله، إلى وجه ثالث لا يبقى ريبٌ ولا شك لكل ذي بصيرة في إبطاله. فنفى العلم بوجوهه وشنّع ما قالوه

وعظّمه وأخبر عن مرتبته وأنه قول في أخس المراتب وأسفلها، وهو الكذب والافتراء.

والوجه الرابع: ما يحصل به من مجموع هذه الأوجه، فإن الهيئة الاجتماعية يحصل منها أثر ودلالة غير ما حصل لكل وجه على انفراده، ويحصل بها من تصريح الدلالة ما يتضح به الحق وينجلي؛ وهكذا كل مسألة عليها عدة أدلة، فإنه يحصل بكل دليل على انفراده علم، ثم يحصل بالدليل الآخر علم آخر، ثم يحصل باجتماعهما علم آخر؛ وهكذا كلما كثرت وتعددت. وبهذا ونحوه يُعلم أن المسائل الكبار كمسألة التوحيد وفروعه ومسألة المعاد ومسألة النبوة أن من تتبع أدلتها واستقرأ براهينها فإنه يحصل له من حق اليقين ومن العلم الكامل فيها ما لا يحصل في غيرها من المسائل التي هي دونها، وهذا من أجَلِّ قواعد الإيمان، وأفضل العلوم النافعة، وأعظم ما يقرِّب إلى رب العالمين.

فصل

سؤال: ما هو الغيب الذي أثنى الله على المؤمنين به، وأخبر عن سعادتهم وفلاحهم واستحقاقهم النعيم المقيم. فلعل العبد يعرفه ويتعرف محالَّه ومواضعَه فيجتهد في تحقيق الإيمان ليكون من المفلحين. فإن أكثر الناس، بل أكثر المؤمنين، ليس عندهم في هذا الباب إلا أمور مجمَلة وألفاظ غير محقّقة، وهذا نفعه دون نفع التنويع والتفصيل والتوضيح والتبيين بكثير كثير. فأفتونا بحسب قدرتكم واستطاعتكم، فإنَّا لا نطلب منكم شَطَطاً، وإلا فقد تقرر أن هذه المسألة لا يتمكن خواص الخلق من إيفاء حقها وبيان أمرها فأفتونا مأجورين.

الجواب: وبالله أستعين، وإليه أضرع في الهداية فيها وفي غيرها: الغيبُ هو خِلاف الشهادة، ولهذا تُقسم الأشياء قسمين: غيبية ومحسوسة.

فالأمور المحسوسة المشاهَدة لم يعلِّق الشارع عليها حكماً من أحكام الإيمان، الذي يفرق به بين أهل السعادة وغيرهم، وذلك كالسماء والأرض وما فيها من المخلوقات المشاهدة والطبائع المعلومة المعقولة؛ إنما يذكر الله تعالى من هذا النوع الأدلة والبراهين على ما أخبر به وأخبرت به رُسُله.

القسم الثاني: وهو **الغيب** الذي أمَرَ بالإيمان به ومَدَح المؤمنين به في غير موضع من كتابه؛ وضابطُ هذا القسم أنه كلُّ ما أخبر الله به وأخبرت به رُسله على وجه يدعو الناس إلى تصديقه والإيمان به. وذلك أنواع كثيرة: أجلها وأعلاها وأفضلها وأنفعها وأيسرها ما أخبر به في كتبه وأخبرت به رسله من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، ونعوته الجليلة الجميلة، وأفعاله الحميدة، وفي الكتاب والسنة من هذا النوع شيء كثير جدًّا بحسب الحاجة

إليه، فإنه لا أعظم حاجة وضرورة من معرفة النفوس بربِّها ومليكها الذي لا غنى لها عنه طرفة عين، ولا صلاح لها ولا زكاء إلا بمعرفته وعبادته. وكلما كان العبد أعرفَ بأسماء ربه وما يستحقه من صفات الكمال، وما يتنزه عنه مما يضادّ ذلك، كان أعظمَ إيماناً بالغيب، واستحق من الثناء والمدح بحسب معرفته. وموضع هذا تدبُّر أسمائه الحسنى التي وصف وسمَّى بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسله، فيتأملها العبد اسماً اسماً، ويعرف معنى ذلك، وأن له تعالى في ذلك الاسم أكملَه وأعظمَه وأن هذا الكمال والعظمة ليس له منتهى. ويعرف أن كلَّ ما ناقض هذا الكمال بوجه من الوجوه فإن الله تعالى منزَّه مقدَّس عنه. لما كان هذا النوع هو أصل الإيمان بالغيب وأعظمه وأجله قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحد، مَن أحصاها دخل الجنة) أي ضبط ألفاظها وأحصى معانيها وتعقّلها في قلبه وتعبَّد الله بها، وتقرب بمعرفتها إلى رب العالمين؛ فينبغي للمؤمن الناصح لنفسه أن يبذل ما استطاع من مقدوره في معرفة أسماء الله وصفاته وتقديسه، ويجعل هذه المسألة أهمَّ المسائل عنده وأولاها بالإيثار وأحقها بالتحقيق ليفوز من الخير بأوفر نصيب. ولهذا لما سأل النبي ﷺ الرجل الأنصاري عن سبب ملازمته لقراءة سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ في صلاته فقال: «لأنها صفة الرحمن، فأحب أن أقرأ بها» فقال: (حبُّك إياها أدخلك الجنة) ــ متفق عليه.

ثبت أن حب العبد لصفات الرحمن وملازمة تذكُّرها واستحضارَ ما دلّت عليه من المعاني الجليلة والتفهم في معانيها من أسباب دخول الجنة؛ وطريق ذلك أن يجمع العبد الأسماء الحسنى الواردة في القرآن، وهي قريب من ثمانين اسماً ــ وفي السُّنَّة زيادة على ذلك ــ فيتدبرها ويعطي كلَّ اسم منها عموم ذلك المعنى وكمالَه وأكملَه، فإذا تدبر اسمَ الله عرف أن الله تعالى له جميع معاني الإلٓهية، وهي كمال الصفات والانفراد بها، وعدم الشريك في الأفعال، لأن المألوه إنما يؤلَه لما قام به من صفات الكمال فيحب ويخضع له

لأجلها. والباري جل جلاله لا يفوته من صفات الكمال شيء بوجه من الوجوه، أو يؤلَه ويعبد لأجل نفعه وتولّيه ونصره فيجلب النفع لمن عَبَده ويدفع عنه الضرر.

ومن المعلوم أن الله تعالى هو المالك لذلك كله، وأن أَحَداً من الخلق لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضُرًّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإذا تقرر عنده أن الله وحدَه المألُوه أوجب له أن يُعَلِّقَ بربه حبَّه وخوفَه ورجاءَه، وأناب إليه في كل أموره، وقطع الالتفات إلى غيره من المخلوقين، ممَّن ليس له من نفسه كمال ولا له فعالٌ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

ويتدبر مثلاً اسم العليم، فيعلم أن العلم كله بجميع وجوهه واعتباراته لله تعالى، فيعلم تعالى الأمور المتقدمة والأمور المتأخرة، أزلاً وأبداً، ويعلم جليل الأمور وحقيرَها، وصغيرها وكبيرها، ويعلم تعالى ظواهر الأشياء وبواطنها، غيبها وشهادتها، ما يعلم الخلق منها وما لا يعلمون؛ ويعلم تعالى الواجبات والمستحيلات والجائزات، ويعلم تعالى ما تحت الأرض السُّفلَى كما يعلم ما فوق السموات العُلى، ويعلم تعالى جزئيات الأمور وخبايا الصدور وخفايا ما وقع ويقع في أرجاء العالم وأنحاء المملكة، فهو الذي أحاط علمه بجميع الأشياء في كل الأوقات، ولا يعرض تعالى لعلمه خفاء ولا نسيان، ويتلو على هذه الآيات المقررة له: كقوله في غير موضع والله بكل شيء:

﴿عليم بذات الصدور﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٣]

﴿يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تُسرّون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ [سورة التغابن: الآية ٤]

﴿وإنْ تجهَرْ بالقول فإنه يعلم السِّرَّ وأخفى﴾ [سورة طه: الآية ٧]

﴿سواءٌ منكم مَنْ أسَرَّ القولَ ومَنْ جَهَر به وَمَن هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل وسارِبٌ بالنهار﴾ [سورة الرعد: الآية ١٠]

﴿أَلَمْ تعلمْ أن الله يعلم ما في السماء والأرض إِنّ ذلك في كتابٍ إِنّ ذلك على الله يسير﴾ [سورة الحج: الآية ٧٠]

﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء * هو الذي يصوِّركم في الأرحام كيف يشاءُ لا إِلّهَ إلاَّ هو العزيز الحكيم﴾
[سورة آل عمران: الآيتان ٥، ٦]

﴿إن الله عنده علمُ الساعة وينزِّل الغيثَ ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسِبُ غداً وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت إن اللَّهَ عليم خبير﴾
[سورة لقمان: الآية ٣٤]

﴿وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلاّ هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقُطُ من ورقة إلا يعلمها ولا حبةٍ في ظلماتِ الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتاب مبين﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩]

﴿أَلَمْ تَرَ أنّ اللَّهَ أنزلَ من السماء ماء فتصبحُ الأرضُ مُخضرَّةً إن الله لطيف خبير﴾ [سورة الحج: الآية ٦٣]

﴿عالمُ الغيبِ فلا يُظهِرُ على غيبه أحداً * إلاّ مَنِ ارتضى من رسول﴾
[سورة الجن: الآيتان ٢٦، ٢٧]

﴿يعلم ما يَلِجُ في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرُجُ فيها﴾ [سورة سبأ: الآية ٢]

﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ من بعدِهِ سبعةُ أبحرٍ ما نَفِدَتْ كلماتُ الله إن الله عزيز حكيم﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٧]

﴿والله بما تعملون خبير﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٤]

﴿والله خبير بما تعملون﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٣]

﴿أَلَمْ تَرَ أنّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعُهُم ولا خمسةٍ إلاّ هو سادسُهُم ولا أدنى من ذكل ولا أكثَرَ إلاّ

هو معهم أينما كانوا ثم ينبِّئُهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾
[سورة المجادلة: الآية ٧]

﴿فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرَّةِ أعينٍ﴾
[سورة السجدة: الآية ١٧]

وغير ذلك من النصوص الكثيرة على هذا المعنى، فإن تَدَبَّرَ بعضٍ ذلك يكفي المؤمن البصيرَ معرفةً بإحاطة علم الله تعالى وكمال عظمته وجليل قدره، وأنه الرب العظيم المالك الكريم؛ وكذلك يتدبر اسمه الرحمن، وأنه تعالى واسع الرحمة، له كمال الرحمة، ورحمته قد ملأت العالم العلوي والسفلي وجميع المخلوقات، وشملت الدنيا والآخرة، ويتدبر الآيات الدالَّةَ على هذا المعنى كقوله تعالى:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦]

﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣]

فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أن الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنة﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٠]

﴿وما بكم من نعمة فَمِنَ الله ثم إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فإليه تَجأَرون﴾
[سورة النحل: الآية ٥٣]

﴿وإِنْ تَعُدُّوا نِعمةَ الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾
[سورة النحل: الآية ١٨]

ويتلو سورة النحل الدالة على أصول النعم وفروعها التي هي نفحة وأثرٌ من آثار رحمة الله، ولهذا قال في آخرها:

﴿كذلك يُتِمُّ نعمته عليكم لعلَّكم تُسلِمُون﴾ [سورة النحل: الآية ٨١]

ثم تدبر سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فإنها عبارة عن شرح وتفصيل لرحمة الله تعالى؛ فكل ما فيها من ضروب المعاني وتصاريف الألوان من

رحمة الرحمن، ولهذا اختتمها في ذكر ما أعد الله للطائعين في الجنة من النعيم المقيم الكامل الذي هو أثر من رحمته تعالى؛ ولهذا يسمي الله الجنة الرحمة كقوله:

﴿وأما الذين آبيضَّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٠٧]

وفي الحديث أن الله قال للجنة أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاء من عبادي. وقال: وهو أرحم الراحمين. وفي الحديث الصحيح (للَّهُ أرحمُ بعباده مِن الوالدة بولدها). وفي الحديث الآخر (إن الله كتب كتاباً عنده فوق عرشه أن رحمتي سبقت غضبي) وفي الجملة: فالله خلق الخلق برحمته، وأرسل إليهم الرسل برحمته، وأمرهم ونهاهم وشرع لهم الشرائع برحمته، وأسبغ عليهم النعمة الظاهرة والباطنة برحمته، ودبَّرهم أنواع التدبير وصرّفهم بأنواع التصريف برحمته، وملأ الدنيا والآخرة من رحمته، فلا طابت الأمور ولا تيسّرت الأشياء ولا حصلت المقاصد وأنواع المطالب إلاّ برحمته، ورحمته فوق ذلك وأجلُّ وأعلى وللمحسنين المتقين من رحمته النصيبُ الوافر والخير المتكاثر:

﴿إنّ رحمةَ اللَّهِ قريبٌ من المحسنين﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٦]

وهكذا يتدبر العبد صفاتِ ربه وآثارَها وأحكامَها حتى ينصبغ قلبه بمعرفته، ويستنير فؤاده ويمتلىء من عظمة خالقه وشواهد صفاته. ولنقتصر على هذا التنبيه اللطيف على هذه الأسماء الثلاثة ليحتذي في باقيها على هذا الحذو ويتدبر مثلاً آية الكرسي وأول سورة آل عمران وأول سورة الحديد وغافر وآخر سورة الحشر وسورة الإخلاص ونحوها من الآيات المشتملة على هذا العلم العظيم، وما يتأيد بها من الأحاديث النبوية لينال حظًا جزيلاً من الإيمان بالغيب، وليكون من الذين يخشون ربهم بالغيب.

ومن الإيمان بالغيب الإيمان بجميع رسل الله الذين أرسلهم على وجه الإجمال والتفصيل لأشخاصهم ولدعوتهم وشرعهم؛ وكذلك الإيمان بجميع

الكتب التي أنزلها الله هداية للعباد على ما اجتباهم برسالته، ولهذا سمى الله الوحي الذي أنزله على رسوله غيباً، فقال:

﴿وما هو على الغيب بضَنِين﴾ [سورة التكوير: الآية ٢٤]

ويذكر تعالى من أدلة رسالة محمد ﷺ الأخبار بوقائع الأنبياء المتقدمين وما جرى لهم فيقول:

﴿تلكَ من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنتَ تعلَمُها أنت ولا قومُك من قَبْلِ هذا﴾ [سورة هود: الآية ٤٩]

﴿وما كنت لديهم إذ يُلقون أقلامَهم أيُّهم يَكفُلُ مَرْيَمَ وما كنتَ لديهم إذْ يختصمون﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٤]

﴿وما كنت بجانب الغربي إِذْ قضينا إلى موسى الأمرَ﴾

[سورة القصص: الآية ٤٤]

وما أشبه هذا مما فيه التبيان لصحة رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بهذه الغيوب. فتمام الإيمان بالغيب أن يؤمن العبدُ بجميع رُسُل الله ويعرفَ من صفاتِهم ومن دعوتهم ما يحقق به هذا الأمر، وكذلك يؤمنُ بجميع الكتب، خصوصاً هذا القرآن العظيم، الذي كُلِّف العبد بالإيمان به إجمالاً وتفصيلاً. وكيفية الإيمان على وجه الإجمال والتفصيل أن يؤمن ويصدق بأنه كلام الله، أنزله مع جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ بهذا اللسان العربي لينذر الخلق ويهديَ إلى الحق في جميع المطالب، ويلتزم العبد ٱلتزاماً لا تَرَدُّد فيه تصديقَ إخباراته كلِّها وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وإحلال حلاله وتحريم حرامه؛ ثم يحقِّق هذا الأصل بتفاصيله، فيتفهم ما دلّت عليه أخباره ويجعلها عقيدةً لقلبه راسخة، لا تزلزلها الشُّبَهُ ولا تغيِّرها العوارض، ويجتهد في كل ما أُمر به من أعمال القلوب والجوارح أن يقوم به على وجه الكمال والتكميل، علماً وعملاً وحالاً؛ وما لا يقدر عليه ينوي فعله لو قدر عليه.

وكذلك النواهي: يأخذ نفسه في كل ما نهي عنه أن لا يقربه ولا يحوم حوله، امتثالاً لأمر الله، ورجاءً لثوابه. فبحسب قيام العبد بهذا يكون إيمانه

بالغيب: فمستقِلٌّ ومستكثرٌ ومتوسطٌ. ويدخل في هذا النوع الإيمان بأخباره بما كان من الأمور الماضية، وما يكون من الأمور المستقبلة. ومن أنواع الإيمان بالغيب الإيمانُ باليوم الآخر، وبما وعد الله العباد من الجزاء فدخل في هذا الإيمانُ بجميع ما يكون بعد الموت من فتنة القبر وأحواله، ومن صفات يوم القيامة وأهوالِه، ومن صفات النار وأهلها، وما أعد الله لهم فيها، ومن صفات الجنة وأهلها، وما أعد الله فيها لأهلها، فيفهمها فهماً صحيحاً مأخوذاً من الكتاب ودلالته البيِّنة، ومن السُّنّة الصحيحة ودلالتها الظاهرة. فبحسب ما يصل إلى العبد من نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب، وفهمها على وجهها، يكون إيمان العبد بالغيب. وإذا استقر الإيمان بالوعد والوعيد في قلب العبد وحصل فيه من ذلك تفاصيل كثيرة أوجب له الرغبة في فعل ما يُقرِّبه إلى ثواب الله والرهبة من الأسباب الموجبة للإهانة وعلم أن الله تعالى قائم على كل نفس بما عملت من خير وشر وأنه واسع الفضل، كامل العدل، قال تعالى:

﴿جناتِ عدنٍ التي وَعَدَ الرحمنُ عبادَه بالغيبِ إنَّهُ كان وعدُهُ مأتِيًّا﴾
[سورة مريم: الآية ٦١]

﴿ومَنْ أصدقُ مِنَ الله قِيلا﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٢]

﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ [سورة النساء: الآية ٨٧]

﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩]

ومن الإيمان بالغيب الإيمانُ بالملائكة الكرام، الذين جعلهم الله عباداً مكرَّمين، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنه تعالى جعلهم يدبِّرون بأمره وإذنه أمور الدنيا والآخرة، فهم أكثر جنود الله، وهم رُسُله في أحكامه الدينية وأحكامه القَدَرية، وأن الله جعل للعبد منهم معقباتٍ يحفظونه من أمر الله، ويحفظون عليه أعماله:

﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾ [سورة قٓ: الآية ١٨]

﴿كلَّا بل تُكَذِّبون بالدين * وإنّ عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلَمُون ما تفعلون﴾ [سورة الانفطار: الآيات ٩ ـ ١٢]

ولهم صفات وأفعال مذكورة في الكتاب والسُّنّة لا يتم الإيمان بالغيب إلّا بالإيمان بها، فرَجِع الإيمان بالغيب إلى أصولِ الإيمان الستة بالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر: خيره وشره، على هذا الوجه الذي ذكرنا والأصل الذي نبهنا أدنى تنبيه عليه فمن حقق الإيمان بذلك كله كان من المؤمنين بالغيب حقيقة المتقين المفلحين.

فائدة: ما هو الخشوع الذي أمر الله به ومدح أهله وذمَّ من قسا قلبه فلم يخشع، فما حقيقة ذلك؟ وما علامته ودلالته؟

قلت: قد مدح الله الخشوع عموماً في جميع الأوقات والحالات والعبادات، مثل قوله تعالى:

﴿والخاشعين والخاشعات﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

﴿أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أنْ تخشعَ قلوبُهم لذكر الله وما نَزَل من الحق﴾ [سورة الحديد: الآية ١٦]

﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأَخْبتُوا إلى ربهم أُولئك أصحابُ الجنةِ هم فيها خالدون﴾ [سورة هود: الآية ٢٣]

ومدح الخشوع خصوصاً في الصلاة، مثل قوله:

﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢]

فخشوع القلب عنوان الإيمان وعلامة السعادة، كما أن قسوته وعدم خشوعه عنوانُ الشقاوة؛ فالخشوع انكسار القلب وذُلُّه بين يدي ربه، وأنْ يبقى هذا الخشوع مستصحباً مع العبد في جميع أوقاته: إن غفل رجع إليه وإن مرح عاد إليه، وإن شرع في تعبُّد وقُرْبة من القُرُبات خضع فيها وقام بالأدب الذي هو أثر الخشوع، خصوصاً في أم العبادات، والجامعة بين أنواع التعبدات القلبية والبدنية وأقوال اللسان: وهي الصلاة؛ فإنه يقوم فيها مراعياً للمراقبة

ومرتبة الإحسان أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يره فإنه يراه، فيجهد نفسه على التحقيق بهذه العبودية الكاملة، فيحضر قلبه فيناجي ربه بقلبه قبل لسانه، ويستحضر ما يقوله ويفعله فتسكن حركاته ويقل عبثه، ولهذا لما رأى النبي ﷺ رجلًا يصلّي وهو يعبث في لحيته فقال: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه) وبهذا يعرف أن من أعظم علامات الخشوع سكونَ الجوارح والتأدبَ في الخدمة الذي هو أثر سكون القلب، ولهذا وصف الله عباده الذين أضافهم إلى رحمته في قوله:

﴿وعبادُ الرحمن الذين يمشُون على الأرض هَوْناً﴾

[سورة الفرقان: الآية ٦٣]

المراد: خاضعين متواضعين. ومن أَمارات هذا الخشوع أن يطمئن القلب بذكر الله، ويخشع ويخضع للحق الذي أنزله الله، فيعتقد ما دلّ عليه من الحق، ويرغب فيما دعا إليه من الخير، ويرهب عمَّا حذَّر منه من الشر، كما قال تعالى:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبُهم بذكر الله ألَا بذكر الله تطمئن القلوب﴾

[سورة الرعد: الآية ٢٨]

وقال تعالى: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبُهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾** [سورة الحديد: الآية ١٦]

وقال تعالى: **﴿فويلٌ للقاسية قلوبُهُم من ذكرِ الله أولئك في ضلال مبين * اللَّهُ نَزَّل أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثانِيَ تقشعِرُّ منه جلودُ الذين يخشَوْنَ ربَّهم ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به مَنْ يشاء ومَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فما له من هاد﴾** [سورة الزمر: الآيتان ٢٢، ٢٣]

فالقلب القاسي لا تؤثر فيه الآيات شيئًا ولا يزداد مع التذكير إلا تمادياً في غيه وطغيانه وضلاله، والقلب الخاشع، لما كان حسن القصد متواطئاً على الحق طالباً له مستعدًّا لقبوله لما وصل إليه الحق عَرَفه، وعرف الحاجة بل الضرورة إليه ففرح به واطمأن به، وزادت رغبته وأثَّر في قلبه خضوعاً وفي عينيه دموعاً

وفي جلده قشعريرةً ثم يلين قلبه ويطمئن إلى ذكر الله تعالى. فهذا من هداية الله لعبده وتوفيقه إياه إلّا من أعرضوا فأعرض الله عنهم. وقال تعالى:

﴿والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخرُّوا عليها صمًّا وعُمياناً﴾

[سورة الفرقان: الآية ٧٣]

أي بل خرُّوا سامعين مبصرين، منقادين لها طوعاً واختياراً. وقال تعالى:

﴿إن الذين أوتوا العلم من قَبله إذا يُتلى عليهم يَخِرُّون للأذقان سُجَّدا * ويقولون سبحانَ ربِّنا إنْ كان وعدُ ربِّنا لمفعولاً * ويَخِرُّون للأذقان يبكونَ ويزدُهُم خشوعاً﴾ [سورة الإسراء: الآيات ١٠٧ ـ ١٠٩]

فهذا تأثير آيات الله في أهل العلم الخاشعين، يجمعون بين خشوع القلب وخضوع اللسان وتضرّعه وخضوع الجوارح حيث خرُّوا للأذقان يبكون. وقال تعالى بعدما ذكر أصفياءه الخاضعين:

﴿أولئك الذين أنعمَ اللّهُ عليهم من النبيين مِنْ ذُرِّية آدمَ ومِمَّن حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ومِن ذُرّية إبراهيمَ وإسرائيلَ وممَّنْ هدينا وآجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرُّوا سُجَّداً وبكيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٥٨]

ومن أعظم علامات الخاشعين ما ذكر الله بقوله وبشر المخبتين ثم وصفهم فقال:

﴿الـذين إذا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم والصـابرين على مـا أصابهم والمقيِمِي الصلاةِ وممّا رزقناهم ينفقون﴾ [سورة الحج: الآية ٣٥]

فلما اخبتت قلوبهم إلى ربهم فَذَلَّت له وانكسرت وتبتّلت إليه تبتيلاً وَجِلت عند ذِكرِه وصبرت على ما أصابها من ابتلاء الله وأدّت ما أُمرت به من الصلاة وأنواع النفقات فجمـع بين وصف المخبتين وبين أعمال القلوب وهو الصبر والوجل وأعمال الجوارح كلها ـ وأقوال اللسان وهو الصلاة التي تجتمـع فيها أنواع التعبد والأعمال المالية وتقديم محبة الله على محبة المال فأخرجت المال المحبوب للنفوس في الوجوه التي يحبها الله تعالى إيثاراً لربها فهذه أوصاف المخبت الخاشـع التي لا يستحق هذا الاسم من لم يتصف بها.

وكذلك وَصَفهم بأنهم الذين يعرفون الحق في مواضع الشُّبَهِ فيزدادون إيماناً إلى إيمانهم كما قال تعالى:

﴿وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتوا العلم أَنه الحقُّ من ربك فيؤمنوا به فتُخْبِتَ له قلوبُهم وإنّ اللَّهَ لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾

[سورة الحج: الآية ٥٤]

وقوله تعالى: **﴿إن الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات وأَخْبَتُوا إلى ربهم﴾**

[سورة هود: الآية ٢٣]

يتضمن وصف المخبتين الخاشعين بالرجوع إلى ربهم في جميع الحالات والإنابة إليه في كل الأوقات، لأن تعدية الفعل بإلى يدلّ على هذا المعنى، فإنهم لما أخبتوا إلى ربهم وخضعوا لعظمته أخبتوا إليه في التعبد متذلّلين فتقبَّل منهم، وأوصلهم إلى مقصودهم وجعلهم أصحاب الجنة خالدين فيها، فلما خشعت قلوبهم خشعت أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم وجوارحهم للرحمن. ومما يدل على أن هذه الأشياء تابعة للقلب في خشوعه ما تقدم من قوله ﷺ: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه) وقوله تعالى:

﴿وَعَنَتِ الوجوهُ للحيِّ القَيُّوم﴾ [سورة طَه: الآية ١١١]

﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ [سورة طَه: الآية ١٠٨]

ولهذا فَسَّر كثير من المفسرين:

﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢]

أنه غَضُّ البصر وقلة الحركات وعدم الالتفات، ولا شك أن هذا أثر الخشوع ودليلُه، فالخاشع هو الذي سكن في قلبه تعظيمُ الله ووقارُه وتصديقُ وعده ووعيده، فذل وخضع، وانقادت جوارحُه لما أُمرت به وترك الأشر والبطر والمرح المنافي للخشوع؛ وكلما بَعُدَ القلب عن هذا الوصف قسا وغلظ فلم يخضع لأمر الله ولا أثَّرَ فيه الذكر، بل ربما زاد خساراً وافتتن عند المحن والشبهات، وفسق عن أمر به...

يا لطيفاً بالعباد، لطيفاً لما يشاء، آلطُفْ بنا في جميع الأمور. ما معنى لطف الله بعبده ولطفه لعبده الذي تتعلق به آمال العباد ويسألونه من ربهم، وهو أحد معنيي مقتضى اسمه اللطيف، فإن اللطيف بمعنى الخبير العليم قد تقرر معناه، ولكن المطلوب هنا المعنى الثاني، الذي يضطر إليه العباد. ولنذكر بعض أمثلته وأنواعه، ليتضح. فاعلم أن اللطف الذي يطلبه العباد من الله بلسان المقال ولسان الحال هو من الرحمة، بل هو رحمة خاصة. فالرحمة التي تصل العبد من حيث لا يشعر بها أوْ لا يشعر بأسبابها هي اللطف، فإذا قال العبد: يا لطيف آلطُفْ بي أوْ ليَ وأسألك لطفَك.. فمعناه تولَّني ولاية خاصة، بها تصلُحُ أحوالي الظاهرة والباطنة، وبها تندفع عني جميع المكروهات: من الأمور الداخلية والأمور الخارجية. فالأمور الداخلية لطف بالعبد والأمور الخارجية لطف للعبد. فإذا يَسَّر الله عبده وسهّل طريق الخير وأعانه عليه فقد لطف به، وإذا قيض الله له أسباباً خارجية غير داخلة تحت قدرة العبد، فيها صلاحُه، فقد لطف له. ولهذا لما تنقلت بيوسف عليه الصلاة والسلام تلك الأحوال، وتطوّرت به الأطوار من رؤياه وحسد إخوته له وسعيهم في إبعاده جدًّا واختصاصهم بأبيهم، ثم محنته بالنسوة، ثم بالسجن، ثم بالخروج منه بسبب رؤيا الملك العظيمة وانفراده بتعبيرها، وتبوئه من الأرض حيثُ يشاءُ، وحصول ما حصل على أبيه من الابتلاء والامتحان، ثم حصل بعد ذلك الاجتماع السارُّ وإزالة الأكدار وصلاح حالة الجميع، والاجتباء العظيم ليوسف ــ عرف عليه الصلاة والسلام أن هذه الأشياء وغيرها لطفٌ لَطَفَ الله لهم به، فاعترف بهذه النعمة فقال:

﴿إن ربي لطيفٌ لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾

[سورة يوسف: الآية ١٠٠]

أي لطفه تعالى خاصٌّ لمن يشاء من عباده ممن يعلمه تعالى محلًّا لذلك، وأهلًا له، فلا يضعه إلّا في مَحَلِّه، والله أعلم حيث يضع فضلَه، فإذا رأيت الله تعالى قد يَسَّر العبد لليُسرى وسهَّل له طريق الخير، وذلّل له صعابه وفتح

له أبوابه ونهـج له طُرُقه ومَهَّد له أسبابه وجَنَّبه العُسرى فقد لَطَفَ به، ومِنْ لُطفه بعباده المؤمنين أنه يتولاهم بلطفه فيخرجهم من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجهل والكفر والبِدَع والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة. ومن لطفه أنه يرحمهم من طاعة أنفسهم الأمَّارة بالسُّوء التي هذا طبعها وديدنُها فيوفِّقهم لنهي النفس عن الهوى ويصرف عنهم السوء والفحشاء، فتوجد أسباب الفتنة وجواذب المعاصي وشهوات الغي، فيرسل الله عليها برهان لطفه ونور إيمانهم الذي مَنَّ به عليهِم فيدعونها مطمئنين لذلك، منشرحة لتركها صدورهم. ومن لطفه بعباده أنه يقدِّر أرزاقهم بحسب علمـه بمصلحتهم لا بحسب مراداتهم، فقد يريدون شيئاً وغيرُه أصلحُ فيقدِّرُ لهم الأصلحَ وإن كرهوه، لطفاً بهم وبِرًّا وإحساناً. اللَّهُ لطيف بعباده، يرزق من يشاء وهو القوي العزيز. ولو بسط الله الرزقَ لعباده لَبَغَوْا في الأرض، ولكن ينـزل بقدر ما يشاء، إنه بعباده خبير بصير.

ومن لطفه بهم أنه يقدِّر عليهم أنواع المصائب وضروب المحن والابتلاء بالأمر والنهي الشاقّ، رحمة بهم ولطفاً، وسوقاً إلى كمالهم وكمال نعيمهم:

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أن تُحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

ومن لطيف لطفه بعبده إذ أهَّله للمراتب العالية والمنازل السامية التي لا تدرك إلاّ بالأسباب العظام التي لا يدركها إلا أرباب الهمم العالية والعزائم السامية أن يقدر له في ابتداء أمره بعض الأسباب المحتملة المناسبة للأسباب التي أهل لها ليتدرج من الأدنى إلى الأعلى، ولتتمرن نفسه ويصير له ملكة من جنس ذلك الأمر. وهذا كما قَدَّرَ لموسى ومحمد وغيرهما من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، في ابتداء أمرهم رعايةَ الغنم ليتدرَّجوا من رعاية الحيوان البهيم وإصلاحه إلى رعاية بني آدم ودعوتهم وإصلاحهم. وكذلك يذيق عبده حلاوة بعض الطاعات فينجذب ويرغب ويصير له ملكة قوية بعد ذلك على

طاعات أجلّ منها وأعلى، ولم تكن تحصل بتلك الإرادة السابقة، حتى وصل إلى هذه الإرادة والرغبة التامة.

ومن لطفه بعبده أن يُقَدِّر له أن يتربى في ولاية أهل الصلاح والعلم والإيمان، وبين أهل الخير، ليكتسب من أدبهم وتأديبهم، ولينشأ على صلاحهم وإصلاحهم كما امتنَّ الله على مريم في قوله تعالى:

﴿فتقبّلها ربُّها بقبولٍ حسنٍ وأنبتَها نباتاً حسناً وكفَّلها زكريا﴾

[سورة آل عمران: الآية ٣٧]

إلى آخر قصتها. ومن ذلك إذا نشأ بين أبوين صالحين وأقارب أتقياء أو في بلد صلاح أو وفّقه الله لمقارنة أهل الخير وصحبتهم أو لتربية العلماء الربانيين فإن هذا من أعظم لطفه بعبده، فإن صلاح العبد موقوف على أسبابٍ كثيرة: منها، بل من أكثرها وأعظمها نفعاً، هذه الحالة. ومن ذلك إذا نشأ العبد في بلد أهله على مذهب أهل السُّنة والجماعة فإن هذا لطف له، وكذلك إذا قدّر الله أن يكون مشائخه الذين يستفيد منهم الأحياءُ منهم والأموات أهلَ سُنّة وتُقىً فإن هذا من اللطف الربّاني. ولا يخفى لطف الباري في وجود شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، في أثناء قرون هذه الأمة وتبيين الله به وبتلامذته من الخير الكثير والعلم الغزير وجهاد أهل البدع والتعطيل والكفر، ثم انتشار كتبه في هذه الأوقات، فلا شك أن هذا من لطف الله لمن انتفع بها، وأنه يتوقف خير كثير على وجودها، فلله الحمد والمِنَّة والفضلُ.

ومن لطف الله بعبده أن يجعل رزقه حلالاً في راحة وقناعة، يحصل به المقصود ولا يشغله عما خلق له من العبادة والعلم والعمل، بل يعينه على ذلك ويفرغه ويريح خاطره وأعضاءه، ولهذا من لطف الله تعالى لعبده أنه ربما طمحت نفسه لسبب من الأسباب الدنيوية التي يظن فيها إدراك بغيته فيعلم الله تعالى أنها تضرّه وتصدّه عما ينفعه فيحول بينه وبينها، فيظل العبد كارهاً ولم يدرِ أن ربه قد لَطَف به حيث أبقى له الأمر النافع وصرف عنه الأمر الضارّ. ولهذا كان الرضى بالقضاء في مثل هذه الأشياء من أعلى المنازل.

ومن لطف الله بعبده إذا قَدّر له طاعة جليلة لا تنال إلاّ بأعوان أن يُقَدِّر له أعواناً عليها ومساعدين على حملها. قال موسى عليه السلام:

﴿وٱجعلْ لي وزيراً من أهلي * هارونَ أخي * ٱشْدُدْ به أزري * وأَشْرِكْهُ في أمري * كي نُسَبِّحَك كثيراً * ونذكُرَك كثيراً﴾
[سورة طه: الآيات ٢٩ ــ ٣٤]

وكذلك امتنّ على عيسى بقوله:

﴿وإذْ أوحيتُ إلى الحواريينَ أنْ آمِنوا بـي وبرسولي قالوا آمَّنا وٱشْهَدْ بأنَّنا مسلمون﴾ [سورة المائدة: الآية ١١١]

وامتن على سيد الخلق في قوله:

﴿هو الذي أيَّدَكَ بنصره وبالمؤمنين﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٢]

وهذا لطف لعبده خارج عن قدرته. ومن هذا لطف الله بالهادين إذا قيض الله من يهتدي بهداهم ويقبل إرشادهم فتتضاعف بذلك الخيرات والأجور التي لا يدركها العبد بمجرد فعله بل هي مشروطة بأمر خارجي. ومن لطف الله بعبده أن يعطي عبده من الأولاد والأموال والأزواج ما به تَقَرُّ عينه في الدنيا ويحصل له به السرور، ثم يبتليه ببعض ذلك ويأخذه ويعوضه عليه الأجر العظيم إذا صبر واحتسب، فنعمة الله عليه بأخذه على هذا الوجه أعظم من نعمته عليه في وجوده وقضاء مجرد وطره الدنيوي منه. وهذا أيضاً خير وأجر خارج عن أحوال العبد بنفسه، بل هو لطف من الله له قيَّض له أسباباً أعاضه عليها الثواب الجزيل والأجر الجميل.

ومن لطف الله بعبده أن يبتليه ببعض المصائب فيوفِّقَه للقيام بوظيفة الصبر فيها فينيلَه درجاتٍ عالية لا يدركها بعمله. وقد يشدِّد عليه الابتلاء بذلك، كما فعل بأيوب عليه السلام، ويوجد في قلبه حلاوة روح الرجاء، وتأميل الرحمة، وكشف الضُّرّ، فيخف ألمه وتنشط نفسه؛ ولهذا من لطف الله بالمؤمنين أنْ جَعَل في قلوبهم احتسابَ الأجر فخَفَّت مصائبهم وهان ما يلقَوْن من المشاق في حصول مرضاته.

ومن لطف الله بعبده المؤمن الضعيف أن يعافيَه من أسباب الابتلاء التي تُضعِف إيمانَه وتنقصَ إيقانَه؛ كما أن من لطفه بالمؤمن القوي تهيئةَ أسباب الابتلاء والامتحان ويعينه عليها ويحملها عنه ويزداد بذلك إيمانه ويعظم أجره، فسبحان اللطيف في ابتلائه وعافيته، وعطائه ومنعه.

ومن لطف الله بعبده أن يسعى لكمال نفسه مع أقرب طريق يوصله إلى ذلك، مع وجود غيرها من الطرق التي تبعد عليه، فَيُيَسِّر عليه التعلم من كتاب أو معلم يكون حصول المقصود به أقربَ وأسهل، وكذلك ييسره لعبادةٍ يفعلها بحالة اليسر والسهولة وعدم التعويق عن غيرها مما ينفعه، فهذا من اللطف.

ومن لطف الله بعبده قدر الواردات الكثيرة والأشغال المتنوعة والتدبيرات والتعلقات الداخلة والخارجة، التي لو قسمت على أمة من الناس لعجزت قُواهم عليها، أن يَمُنَّ عليه بخلق واسع وصدر متسع وقلب منشرح بحيث يعطي كل فرد من أفرادها نظراً ثاقباً وتدبيراً تامًّا وهو غير مكترث ولا منزعج لكثرتها وتفاوتها، بل قد أعانه الله تعالى عليها ولطف به فيها ولطف له في تسهيل أسبابها وطرقها. وإذا أردت أن تعرف هذا الأمر فانْظرْ إلى حالة المصطفى ﷺ الذي بعثه الله بصلاح الدارين وحصول السعادتين وبعثه مكمِّلاً لنفسه ومكمِّلاً لأمة عظيمة هي خير الأمم، ومع هذا مكّنه الله ببعض عمره الشريف في نحو ثُلُثِ عُمُره أن يقوم بأمر الله كلِّه على كثرته وتنوّعه، وأن يقيم لأمته جميعَ دينهم ويعلّمَهُمْ جميع أصوله وفروعه، ويخرج الله به أمة كبيرة من الظلمات إلى النور، ويحصل به من المصالح والمنافع والخير والسعادة للخاص والعام ما لا تقوم به أمة من الخلق.

ومن لطف الله تعالى بعبده أن يجعل ما يبتليه به من المعاصي سبباً لرحمته، فيفتح له عند وقوع ذلك باب التوبة والتضرّع والابتهال إلى ربه وازدراء نفسه واحتقارها وزوال العُجب والكِبْر من قلبه ما هو خير له من كثير

من الطاعات. ومن لطفه بعبده الحبيب عنده إذا مالت نفسه مع شهوات النفس الضارة واسترسلت في ذلك أن ينقصها عليه ويكدرها، فلا يكاد يتناول منها شيئاً إلا مقروناً بالمكدِّرات محشوًّا بالغصص لئلا يميل معها كل الميل؛ كما أن من لطفه به أن يلذذ له التقرُّبات ويحلِّي له الطاعاتِ ليميلَ إليها كلَّ الميل.

ومن لطيف لطف الله بعبده أن يأجره على أعمال لم يعملها بل عزم عليها، فيعزم على قُرْبة من القرب ثم تنحل عزيمته لسبب من الأسباب فلا يفعلها، فيحصل له أجرها. فانظر كيف لطف الله به فأوقعها في قلبه وأدارها في ضميره وقد علم تعالى أنه لا يفعلها سوقاً لبِرِّه لعبده وإحسانه بكل طريق. وألطفُ من ذلك أن يقيِّض لعبده طاعة أخرى غير التي عزم عليها هي أنفع له منها فيدع العبد الطاعة التي ترضي ربّه لطاعة أخرى هي أرضَى لله منها، فتحصل له المفعولة بالفعل والمعزوم عليها بالنية؛ وإذا كان من يهاجر إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت قبل حصول مقصوده قد وقع أجره على الله مع أن قطع الموت بغيِّر اختياره فكيف بمن قطعت عليه نيته الفاضلة طاعة قد عزم على فعلها؟ وربما أدار الله في ضمير عبده عدة طاعات، كل طاعة لو انفردت لفعلها العبد لكمال رغبته، ولا يمكن فعل شيء منها إلا بتفويت الأخرى فيوفّقه للموازنة بينها وإيثار أفضلها فعلاً مع رجاء حصولها جميعها عزماً ونيةً.

وألطف من هذا أن يقدر تعالى لعبده ويبتلِيَه بوجود أسباب المعصية ويوفِّر له دواعِيَها وهو تعالى يعلم أنه لا يفعلها، ليكونَ تركُه لتلك المعصية التي توفرت أسبابُ فعلها مِن أكبر الطاعات، كما لطف بيوسف عليه السلام في مراودة المرأة، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال:

﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾ [سورة الحشر: الآية ١٦]

ومن لطف الله بعبده أن يقدر خيراً وإحساناً من عبده ويجريَه على يد عبده

الآخر، ويجعله طريقاً إلى وصوله للمستحق، فيثيب الله الأولَ والآخرَ.

ومن لطف الله بعبده أن يجري بشيء من ماله شيئاً من النفع وخيراً لغيره فيثيبه من حيث لا يحتسب. فمن غرس غرساً أو زرع زرعاً فأصابت منه روح من الأرواح المحترمة شيئاً آجر الله صاحبَه وهو لا يدري، خصوصاً إذا كانت عنده نية حسنة وعقد مع ربه عقداً في أنه مهما ترتّب على ما له شيء من النفع فأسألك يا ربِّ أن تأجرني وتجعله قربةً لي عندك. وكذلك لو كان له بهائم انتفع بدَرِّها وركوبها والحَمْل عليها أو مساكن انتفع بسكناها ولو شيئاً قليلاً أو ماعون ونحوه انتفع به أو عين شُرب منها، وغير ذلك ككتاب انتفع به في تعلّم شيء منه أو مصحف قرىء فيه والله ذو الفضل العظيم.

ومن لطف الله بعبده أن يفتح له باباً من أبواب الخير لم يكن له على بال، وليس ذلك لقلة رغبته فيه وإنما هو غفلة منه وذهول عن ذلك الطريق، فلم يشعر إلّا وقد وجد في قلبه الداعي إليه واللافت إليه، ففرح بذلك وعرف أنها من ألطاف سيّده وطرقه التي قيض وصولها إليه فصرف لها ضميرَه ووجه إليها فكرَه وأدرك منها ما شاء الله، وفتح قوله تعالى:

﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما آتَّقَوْا وآمنوا وعملوا الصالحاتِ ثم آتَّقَوْا وآمنوا ثم آتَّقَوْا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٣]

تأملتُ في فائدة تكرار التقوى في هذه الآية ثلاث مرات فوقع لي أحد وجهين: **أحدهما**، أن الأول للماضي، والثاني للحال، والثالث في المستقبل، وبيان ذلك، أن قوله تعالى: **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾** أن جناح نكرة في سياق النفي فتعم الماضي والمستقبل والحال، لأنه نفي الجناح عن المؤمنين مطلقاً وهذا النفي العام لا ينطبق إلّا على الأحوال الثلاثة، ويكون هذا التكرار من محترزات القرآن، التي يحترز الباري فيها عن كل حال تقدَّر وتُمْكن لأنهم لو اتقوا في الماضي

أو في الحال أو فيهما دون المستقبل لم يصدق عليهم نفي الجناح، ولا بد في كل حالة من الأحوال التي تقام فيها التقوى من الإيمان والعمل الصالـح؛ ومن الإيمان والإحسان يؤيد هذا الاحتمال قوله:

﴿فمن تعجَّل في يومين فلا إثمَ عليه ومن تأخَّر فلا إثمَ عليه لِمَنِ اتقى واتَّقُوا الله﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٣]

فإن قوله **﴿فلا إثم عليه﴾** نظير قوله **﴿جناح﴾** ولما كانت هذه الآية لا يتصور فيها الماضي كما هو بَيِّـنٌ لأنه شرط وجزاء للمستقبل ويصلـح للحال قال: **﴿فلا إثم عليه﴾** يعني في الحال لمن اتقى الله فيها ثم ذكـر ما يصلـح للمستقبل فقال **﴿واتقوا الله﴾** فإذا قرنت هذه بتلك بانت لك فائدة التكرار، وأن ذلك لأجل عموم الأزمنة.

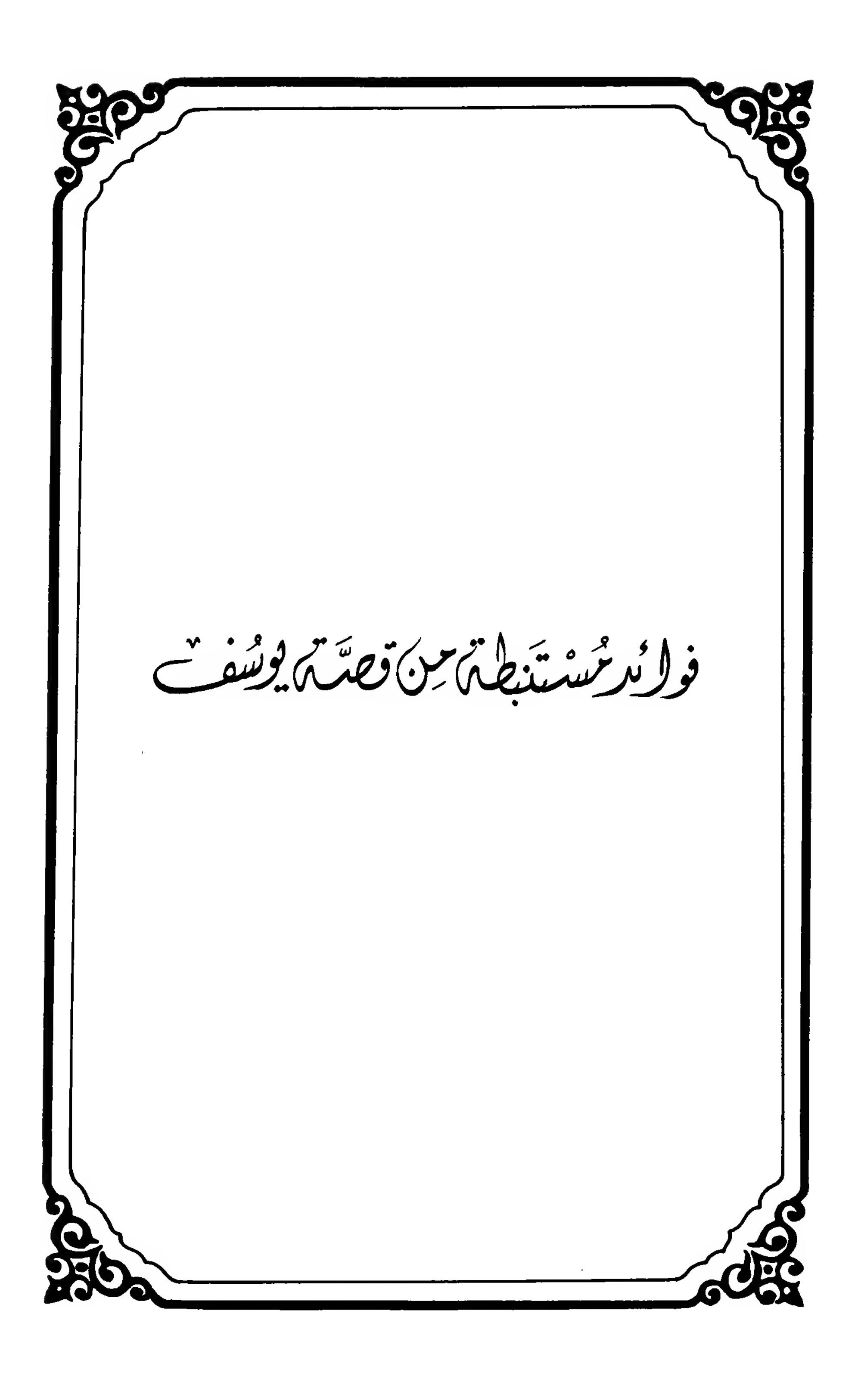
الوجه الثاني: أن الأول في مقام الإسلام والثاني في مقام الإيمان والثالث في مقام الإحسان: والمؤمن لا تكمل تقواه حتى يترك ما حرّم الله ولا يتم دينه إلّا بهذه المقامات الثلاثة لأن مقام الإسلام يقتضي وجود الأعمال الظاهرة مـع الإيمان والتقوى، فقال فيها: **﴿إذا مـا اتقوا وآمنـوا وعملوا الصالحات﴾** ومقام الإيمان لا بدّ فيه من القيام بأركان الإيمان مـع التقوى، فقال فيه: **﴿ثم اتقوا وآمنوا﴾** ومقام الإحسان لا بد فيه من المقام بالإحسان مـع التقوى، فقال فيه: **﴿ثم اتقوا وأحسنوا﴾** فنفي الجناح العام لا يكون إلا لمن قام بمقامات الدين كلها؛ وعلى هذين الوجهين ففي الآية الكريمة من بيان جلالة القرآن وعظمته وإحكامِ معانيه ورصانتها وعدم اختلالها واختلافها، ما يشهد به العبد أنه كلام الله حقًّا وصدقاً وعدلاً وأنه محتوٍ على أعلى رتب البلاغة التي لا يقاربه فيها أي كلام كان. وقد يقال إن كلا الوجهين مراد، لأن اللفظ لا يأباه والمعنى مفتقر إليه؛ وطريقة القرآن أن يحمل على أعم الوجوه المناسبة لأنه تنزيل من حكيمٍ حميد، عليمٍ بكل شيء، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. اللهم ذكِّرنا منه ما نسينا، وعلِّمنا منه ما جَهِلنا، واجعلنا ممن يتلونه حق تلاوته.

أقول: ولما ختم المؤلف رحمه الله كلامه على معنى (اللطيف) قال:
وأرجو من الله أن يكون ما نحن فيه من هذا النوع؛ فإن جنس هذه الفوائد المذكورة في هذه الرسالة قد كانت تعرض لي كثيراً أثناء القراءة لكتاب الله فأتهاون بها ولم أقيدها فيضيع شيء كثير. فلما كان أول يوم من هذا الشهر المبارك أوقع في قلبي أن أقيد ما يمرّ علي من الفوائد والمعاني المتَّضِحة التي لا أعلم أنها وقعت لي قبل ذلك، فعملت على هذا النمط حتى كان الانتهاء إلى لطف الله كما كان الابتداء بلطف الله بهذه الرسالة اللطيفة، وكان ذلك موافقاً للثامن والعشرين من هذا الشهر المبارك الذي حصل به الابتداء في ٢٨ من شهر رمضان سنة ١٣٤٧ سبع وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وصلى الله على محمد وسلم.

* * *

وقد تمت هذه الرسالة على يد جامعها الفقير إلى ربه من كافة الوجوه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي المتوفى سنة ١٣٧٦ في ليلة الخميس الموافق ٢٣ من شهر جمادى الآخرة غفر الله له وتغمده برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته إنه سميع مجيب.





فوائد مستنبطة من قصة يوسف



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله، وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم. أما بعد، فهذه فوائد مستنبطة من قصة يوسف ﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، فإن الله تعالى قصّها علينا مبسوطة، وقال في آخرها:

﴿لقد كان في قَصَصِهم عبرةٌ لِأولي الألبابِ﴾
[سورة يوسف: الآية ١١١]

والعبرة ما يعتبر به ويعبر منه إلى معانٍ وأحكام نافعة وتوجيهات إلى الخيرات وتحذير من الهلكات؛ وقصص الأنبياء كلها كذلك، لكن هذه القصة خصّها الله بقوله:

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين﴾ [سورة يوسف: الآية ٧]

ففيها آيات وعبر منوّعة لكل من يسأل ويريد الهدى والرشاد، لما فيها من التنقّلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة، ومنه ومن ذلة ورِقٍّ إلى عزّ ومُلك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وإدراك غايات، ومن حزن وترح إلى سرور وفرح، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة. إلى غير ذلك مما اشتملت عليه هذه القصة العظيمة، فتبارك من قصها ووضّحها وبيّنها.

فمن فوائد هذه السورة أن فيها أصولاً لعلم تعبير الرؤيا، فإن علم تعبير

الـرؤيا علم عـظيم مهم، مبناه على حسن الفهم، والعبـور من الألفـاظ والمحسوسات والمعنويات أو ما يناسبها بحسب حال الرائي وبحسب الوقت والحال المتعلقة بالرؤيا، وقد أثنى الله على يوسف عليه الصلاة والسلام بعلمه بتأويل الأحاديث، تأويل أحاديث الأحكام الشرعية والأحاديث المتعلقة بتعبير الرؤيا، والفرق بين الأحلام التي هي أضغاث أحلام لا تأويل لها مثل ما يراه من يفكر ويطيل تأمله لبعض الأمور، فإنه كثيراً ما يرى في منامه من جنس ما يفكر به في يقظته، فهذا النوع الغالب عليه إنه أضغاث أحلام لا تعبير له؛ وكذلك نوع آخر ما يلقيه الشيطان على روح النائم من المرائـي الكاذبة والمعاني المتخبطة فهذه أيضاً لا تعبير لها، ولا ينبغي للعاقل أن يشغل بها فكرَه، بل ينبغي له أن يلهى عنها.

وأما الرؤيا الصحيحة فهي إلْهامات يُلهمها الله للروح عند تجرُّدها عن البدن وقت النوم، أو أمثالٌ مضروبـة يضربهـا المَلِك للإنسـان ليفهم بها ما يناسبها. وقد يرى الشيء على حقيقته ويكون تعبيره هو ما رآه في منامه، فيوسف ﷺ أعطاه الله من العلم ما يميز به بين المـرائي الصحيحة والباطلة، والحق والباطل منها، وهذه القصة فيها الدلالة على تعبير الرؤيا من وجوه:

أحدها رؤيا يوسف التي قصَّها على أبيه يعقوب ﷺ:

﴿إذْ قال يوسفُ لأبيه يا أبتِ إني رأيتُ أحد عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين﴾ [سورة يوسف: الآية ٤]

ففسَّرها يعقوب ﷺ بغاياتها وما تؤول إليه، وبوسائلها التي تتقدم عليها، ففسر الشمس والقمر بأبـي يوسف وأمه، والكواكب الأحد عشر بإخوته، وأن الحال سيكون مآلها أن الجميـع ليسجدون ليوسف ويخضعون له. ولهذا لما حصل الاجتماع ودخل أبوه وأمه وإخوته مصر، ورَفَـع أبويه على العرش خرَّ الجميـع له سجَّداً وقال يوسف متذكراً ذلك التعبير والتفسير:

﴿يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ من قَبْلُ قد جعلها ربـي حقًّا﴾

[سورة يوسف: الآية ١٠٠]

وهذا أمر عظيم تصل بيوسف الحال إلى أن يكون معظّماً تعظيماً بليغاً عند أبويه وإخوته، وكذلك عند الناس. وهذه الغاية تستدعي وسائل ومقدِّمات لا تحصل إلّا بها، وهو العلم الكثير العظيم والعمل الصالح والإخلاص والاجتباء من الله والقيام بحق الله وحقوق الخلق. فلهذا قال في ذكر السبب الموصل لهذه الغاية الجليلة:

﴿وكذلك يجتبيك ربُّك ويعلِّمك من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمتَه عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبلُ إبراهيمَ وإسحقَ إن ربَّك عليم حكيم﴾ [سورة يوسف: الآية ٦]

يعني لا بدّ أن يُتِمَّ اللَّهُ **عليك** نعمته بتعليم العلوم النافعة والأعمال الصالحة والاجتباء من الله، وحصول الأخلاق الجميلة والمقامات الجليلة، فتبشره بحصول هذه الأمور، ثم بالوصول إلى الرفعة في الدنيا والآخرة. وفي ضمن هذا التعبير من يعقوب ليوسف بشارة له وتسهيل لما سيناله من المشقّات والكروب مع إخوته وفي السجن؛ فإن من علم أن المكاره والمشقات تفضي إلى الخير والراحات تسلّى وهانت عليه مشقتها وسهلت عليه وطأتها، وحصَّل بذلك من اللطف والروح بشيء عظيم. وهذا من جملة اللطف الذي أشار إليه يوسف في قوله:

﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٠]

وهذا من مقتضى حكمة الله أن المراتب العاليات لا تُنال إلا بالوسائل الجليلة، ولهذا قال إن ربك عليم حكيم.

ومن فوائد هذا التعبير لرؤيا يوسف بشارة عظيمة ليعقوب وأم يوسف وإخوته بحصول الرفعة والصلاح والخير، فيعقوب ﷺ من أكابر الأنبياء وأفاضل الأصفياء، وأمه لها من الخير والصلاح والرفعة في الدنيا والآخرة حيث شبهت بالشمس أو بالقمر، على اختلاف القولين، وإخوة يوسف وإن كان قد جرى منهم في حق أبيهم وأخيهم من الأذية والعقوق والقطيعة ما جرى

ولكنَّ أباهم وأخاهم عفيا عنهم واستغفر الله لهم والله تعالى أرحم الراحمين.
فالشمس والقمر والنجوم تضمّنت النور والارتفاع، ولكنها متفاوتة في نورها بحسب التفاوت بين الأبوين وبين الإخوة، فالحاصل أن هذه الرؤيا تضمّنت ما حصل ليوسف ﷺ من خير الدنيا والآخرة والمقامات العظيمة والوسائل والمنن التي أوردتها هذه الأمور وما حصل لأبويه وإخوته من مشاركته في خير الدنيا والآخرة، والله تعالى أعلم.

عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي

الفصل الأول

وأما رؤيا الفتيين حيث قال أحدهما:

﴿إني أراني أَعصِرُ خمراً وقال الآخر إني أراني أحملُ فوقَ رأسي خبزاً تأكل الطيرُ مِنه﴾ [سورة يوسف: الآية ٣٦]

فتلطفوا ليوسف أن يبلغهما بتأويل رؤياهما لما شاهدوا من إحسانه للأشياء وإحسانه إلى الخلق. ففسر رؤيا من رأى أنه يعصر خمراً أنه ينجو من سجنه ويعود إلى مرتبته وخدمته لسيده، فيعصر له العنب الذي يؤول إلى الخمر، وفسّر رؤيا الآخر فيقتل ثم يصلب فتأكل الطير من رأسه. فالأول رؤياه جاءت على وجه الحقيقة، والآخر رؤياه جاءت على وجه المثال وأنه يقتل، ومع قتله يُصلب ولا يدفن حتى تأكل الطيور من رأسه. وهـذا من الفهم العجيب والغوص على المعاني الدقيقة، وذلك أن العادة أن المقتول يدفن في الحال ولا تتمكن السباع والطيور من الأكل منه. ففهم أن هذا سيقتل ولا يدفن سريعاً حتى يصل إلى هذه الحال، وفي هذا من فضيحته وخزيته وسوء مصيره الدنيوي ما تقشعر منه الجلود وحيث علم أن هذه الرؤيا صحيحة، لا بد من وقوعها، قال لهما:

﴿قضي الأمر الذي فيه تَسْتَفْتِيان﴾ [سورة يوسف: الآية ٤١]

وهذا من كمال علمه للتعبير الذي لا يعبر عن ظن وتوهّم وإنما يعبّر عن علم ويقين. وأما المناسبة في ذلك في أن الطيور لا تقرب الحي وإنما تتناول الميت إذا لم يكن عنده أحد، وهذا إنما يكون بعد قتله وصلبه. ومن كمال

يوسف ونصحه وفطنته العجيبة أنهما لما قصّا عليه رؤياهما تأنّى في تعبيرها ووعدهما بتعبيرها بأسرع وقت، فقال:

﴿لا يأتيكما طعامٌ تُرزَقَانِهِ إلَّا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيَكما﴾
[سورة يوسف: الآية ٣٧]

فوعدهما بتعبيرها قبل أول طعام يأتيهما من خارج السجن ليطمئنا ويشتاقا إلى تعبيرها، وليتمكن من دعوتهما قبل التعبير ليكون أدعى لقبول الدعوة إلى الله لأن الدعوة لهما إلى الله أهم من تعبير رؤياهما. فدعاهما إلى الله بأمرين: أحدهما بحاله وما هو عليه من الوصف الجميل الذي أوصله إلى هذه الحال الرفيعة، بقوله:

﴿ذلكما مما علّمني ربـي إنِّي تركتُ ملةَ قومٍ لا يُـؤْمنون باللَّهِ وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملةَ آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوبَ ما كان لنا أن نُشرِكَ بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكنَّ أكثرَ الناس لا يشكرون﴾ [سورة يوسف: الآيتان ٣٧، ٣٨]

الأمر الثاني: دعاهما بالبرهان الحقيقي الفِطري فقال:

﴿يا صاحبَـي السجنِ أأربابٌ متفرِّقون خيرٌ أمِ اللَّهُ الواحدُ القهارُ * ما تعبدون من دونه إلَّا أسماءً سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللَّهُ بها من سلطان إنِ الحُكمُ إلَّا للَّهِ أَمَرَ ألَّا تعبُدُوا إلَّا إيَّاهُ ذلك الدِّين القَيِّمُ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [سورة يوسف: الآيتان ٣٩، ٤٠]

فإن من توحّد بالكمال من كل وجهٍ، وبالقهـر للعالم العلوي والسفلي، المستحق للألوهية الكاملة، الذي خلق الخلق لعبادته وأمرهم بها وله الحكم على عباده في الدنيا والآخرة هو الذي لا ينبغي العبادة إلَّا له وحدَه دون المعبودات الناقصة المتفرقة، التي كلُّ قوم يدَّعون إلـٰهيتها، وليس فيها من معاني الإلـٰهية شيء ولا استحقاق، وإنما هي أسماءٌ اصطلحوا على تسميتها أسماءً بلا معانٍ فرأى ﷺ دعوتهما إلى الله أولى بالتقديم على تفسير رؤياهما وأنفـع لهما ولغيرهما.

الفصل الثاني

وأما رؤيا الملك فإنه رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف وسبع سنبلات خضر يأكلهن ويستولي عليهم سبع سنبلات يابسات ضعيفات فهالته، وجمع لها كل من يظن فيه المعرفة فلم يكن عند أحد منهم علم بتعبيرها، وقالوا:

﴿أضغاثُ أحلامٍ وما نحنُ بتأويل الأحلام بعالمين﴾

[سورة يوسف: الآية ٤٤]

وبعد هذا تفطن الذي خرج من السجن لحالة يوسف وما هو عليه من العلم العظيم والعلم بالتعبير، وتفطن لوصيته التي أنساه الشيطان ذكر ربه لحكمة قد فصح أمرها، وأنه لا يخرج من السجن إلا بعد اشتهاره وتميزه العظيم على الناس كلهم بتعبير رؤيا الملك، فطلب هذا الرجل من الملك أن يرسله إلى يوسف، وأنه كفيل بمعرفة تفسيره فلما جاء يوسف قال له:

﴿يوسفُ أيها الصِّدِّيق أفتِنا في سبعِ بقراتٍ سمانٍ يأكلهن سبعٌ عجافٌ وسبعِ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخَر يابساتٍ﴾

فإن الملك والناس معه أرسلوني إليك لتفسرها لهم وهم في انتظار ذلك متشوقين إليه غاية التشوق، ولهذا قال:

﴿لعلي أرجعُ إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٦]

ما أهم الملك وأزعجه ولاعه، ففي الحال فسّرها يوسف ﷺ، وزادهم مع التفسير حسنَ العمل بها وحسن التدبير، فأخبرهم أن البقر السمان والسنابل السبع الخضرات هي سنون رخاء وخصب متواليات تتقدم على السنين المجدبات؛ وأن البقر العجاف والسنابل اليابسات سنون جدبٌ تليها، وأن بعد

هذه السنين المجدبات عامٌ فيه يُغاث الناس وفيه يعصِرون. وأنه ينبغي لهم في السنين المخصبات أن ينتهزوا الفرصة ويعدوا العدة للسنين الشديدات فيزرعون زروعاً هائلة أزيد بكثير من المعتاد، ولهذا قال:

﴿تزرعون سبعَ سِنينَ دَأَباً﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٧]

ومن المعلوم أن جميع السنين يزرع الناس، لكنه أراد منهم أن يزرعوا زروعاً كثيرة ويبذلوا قُواهم في كل ما يقدرون عليه، وأنهم يحتاطون في الغلّات إذا حصلت بالتحصين والاقتصاد. فقال:

﴿فما حصدتُمْ فَذَرُوهُ في سُنْبُلِهِ إلاَّ قليلاً مما تأكلون﴾

[سورة يوسف: الآية ٤٧]

أي احفظوا الحاصلات من الزرع حفظاً تسلَمُ به من الفساد والسوس بأن تبقى في سنابلها ويقتصدون في هذه المدة مدة الرخاء فلا يسرفون في الإنفاق، بل يأكلون القليل ويحفظون الكثير. وإن بعد هذه السنين المخصبات سيأتي عليكم سبعُ سنين مجدبات شديدات، تشمل الديار المصرية وما حولها، وإنها تأكل ما قُدم لها مما حفظ في سنين الخصب إلا قليلاً مما تحصنون. ووجه المناسبة أنه كما تقدم أن الرؤيا تعبر بحال رائيها، والمناسبات المتعلقة بها فكالرائي لها الملك الذي تتعلق به أركان الرعية وأمورُها، ولهذا كانت رؤياه ليست خاصة له، بل تشمل الناس والرعية.

ووجه المناسبة في تفسير البقرات والسنابل بالسنين ظاهراً في البقر من وجهين: أحدهما أنها هي التي في الغالب يحرث عليها الأرض، والحروثُ والزروعُ وتوابعها تبعٌ للسنين في خصبها وجدبها. والوجه الثاني: البقر من المواشي التي سمنها وعجفها تبعٌ للسنين أيضاً، فإذا أخصبت سمنت وإذا جدبت عجفت وهزلت؛ وكذلك السنابل تزهو الزروع وتكمل وتنمو مع كثرة الماء والسنين المخصبات، وتضعف وتيبس مع السنين المجدبات، فكانت رؤياه في البقر والسنابل من أوصاف السنين وآثارها ومن ذكر الوسائل والغايات. فالحرث للأراضي وسيلة، ونمو الزرع وحصول السمن في المواشي هو الغاية من ذلك والمقصود.

وأما قوله: ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يغاثُ الناس وفيه يعصِرون﴾ [سورة يوسف: الآية ٤٩]

أي يحصل للناس فيه غيث مغيث، تعيد الأراضي خصبَها، ويزول عنها جدبها، وذلك مأخوذ من تقييد السنين المجدبات بالسبع؛ فدل هذا القيد على أنه يلي هذه السبع ما يزيل شدتَها، ويرفع جدبَها؛ ومعلوم أن توالي سبع سنين مجدبات لا يبقي في الأرض من آثار الخضر والنوابت والزروع ونحوها لا قليلاً ولا كثيراً، ولا يرفع هذا الجدب العظيم إلا غيث عظيم؛ وهذا ظاهر جداً، أخذه من رؤيا الملك ومن العجب أن جميع التفاسير التي وقفتُ عليها لم يذكروا هذا المعنى، مع وضوحه، بل قالوا: لعل يوسف ﷺ جاءه وحي خاص في هذا العام الذي فيه يغاث الناس وفيه يعصرون. والأمر لا يحتاج إلى ما ذكروه، بل هو ولله الحمد ظاهر من مفهوم العدد، وأيضاً ظاهر من السياق. فإنه جعل هذا التعبير والتفسير توضيحاً لرؤيا الملك.

ثم اعلم أن رؤيا الملك وتعبير يوسف لها وتدبيره ذلك التدبير العجيب من رحمة الله العظيمة على يوسف وعلى الملك وعلى الناس. فلولا هذه الرؤيا وهذا التعبير والتدبير لهجمت على الناس السنون المجدبات قبل أن يُعِدّوا لها عدتها فيقع الضرر الكبير على الأقطار المصرية، وعلى ما جاورها، فصار ذلك رحمة بهم وبغيرهم من الخلق. ألا ترى كيف شمل الجدب البلادَ المصرية وشمل البلاد الشامية وفلسطين وغيرَها حتى احتاجوا إلى الاكتيال من مصر، واحتاج يوسف أن يقدر للجميع، ويوزع عليهم توزيعاً عادلاً فيه الرفق بالجميع والإبقاء عليهم؟ وكان هذا العلم العظيم من يوسف هو السبب الأعظم في خروجه من السجن وتقريب الملك له من اختصاصه به وتمكينه من الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وهذا من إحسانه، والله لا يضيع أجر المحسنين. ومع هذا الفضل فضلُ الله أعظم من ذلك، يصيب برحمته من يشاء ممن يختاره، ويختص ويجمع له خير الدنيا والآخرة.

الفصل الثالث

ومن فوائد هذه القصة أنه يتعين على الإنسان أن يعدل بين أولاده. وينبغي له إذا كان يحب أحدهم أكثرَ من غيره أن يخفيَ ذلك ما أمكنه، وأن لا يفضله بما يقتضيه الحب من إيثار بشيء من الأشياء، فإنه أقرب إلى صلاح الأولاد وبِرِّهم به واتفاقهم فيما بينهم؛ ولهذا لما ظهر لإخوة يوسف من محبة يعقوب الشديدة ليوسف وعدم صبره عنه وانشغاله به عنهم سعَوْا في أمرٍ وخيم، وهو التفريق بينه وبين أبيه. فقالوا:

﴿لَيُوسُفُ وأَخُوهُ أحبُّ إلى أبينا منَّا ونحن عصبةٌ إنَّ أبانا لفي ضلال مبين * اقتلوا يوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرضاً يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ [سورة يوسف: الآيتان ٨، ٩]

وهذا صريح جدّاً أن السبب الذي حملهم على ما فعلوا بيوسف من التفريق بينه وبين أبيه هو تميزه بالمحبة، خلاف ما ذكر كثيرٌ من المفسرين أن يوسف أخبرهم برؤياه ــ فحسدوه لذلك فإنه منافٍ للآية الكريمة، وسوء ظن بيوسف حيث استكتمه أبوه فقال:

﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾

[سورة يوسف: الآية ٥]

فيوسف أبرُّ وأعقلُ من أن يخبرهم بها، ولكن كثير من الإسرائيليات تروج على كثير من الناس، مع أن أقل تأمُّل في النصوص الشرعية يعلمهم ببطلانها. والمقصود: أن الذي حمل إخوة يوسف على ما فعلوا هو تمييز يعقوب ليوسف؛ ومع هذا فلا يحل هذا الأمر الشنيع. وهم يعلمون أنه لا يحل

لهم، ولكنهم قالوا: افعلوا هذا الجرم العظيم وتوبوا إلى الله بعده. فلهذا قالوا:

﴿وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ [سورة يوسف: الآية ٩]

وهذا لا يحل أن يواقع العبد الذنب بأي حالة يكون، ولو أضمر أنه سيتوب منه، فالذنب يجب اجتنابه فإذا وقع وجبت التوبة منه. ولعل من حكمة الله ورحمته بيعقوب ما قدره عليه من الفرقة التي أحدثت له من الحزن والمصيبة ما أحدثت رفعةً لمقاماته في الدنيا والآخرة، ولتكون النعمة عند حصول الاجتماع لها الموقع الأكبر والشكر الكثير والثناء على الله بها، وليصل ولدُه يوسف إلى ما وصل إليه من المقامات الجليلة، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ومن فوائد الحث على التحرز مما يخشى ضره لقوله:

﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾
[سورة يوسف: الآية ٥]

وما فيها من التأكيد عليهم في حفظه حين أرسله معهم ثم عند إرسال أخيه بنيامين بعد ذلك أخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك. فالإنسان مأمور بالاحتراز، فإن نفع فذاك، وإلّا لم يَلُمِ العبدُ نفسَه. ومنها أن من الحزم إذا أراد العبد فعلاً من الأفعال أن ينظر إليه من جميع نواحيه ويقدر كل احتمال ممكن، وأن الاحتراز بسوء الظن لا يضرّ إذا لم يحقق بل يحترز من كل احتمال يخشى ضرره، ولو تضمن ظن السوء بالغير إذا كانت القرائن تدل عليه وتقتضيه، كما في هذه الآية، وكما قويت القرائن في قوله:

﴿هَلْ آمَنُكُم عليهِ إلّا كما أَمِنْتُكُم على أخيه من قبلُ﴾
[سورة يوسف: الآية ٦٤]

فإنه سبق لهم في أخيه ما سبق فلا يلام يعقوب إذا ظنّ بهم هذا الظن، وإن كانوا في الأخ الأخير لم يجرِ منهم تفريط ولا تعدٍّ.

ومنها الحذر من الذنوب، خصوصاً الذنوب التي يترتب عليها ذنوب أُخَر ويتسلسل شرُّها، كما فعل إخوة يوسف بيوسف، فإنه نفس فعلهم فيه عدة جرائم في حق الله وفي حق والديه وقرابته وفي حق يوسف؛ ثم يتسلسل كذبهم كلما جرى ذكر يوسف وقضيته أخبروا بهذا الكذب الفظيع ولهذا حين تابوا وخضعوا وطلبوا من أبيهم السماحَ:

﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنّا خاطئين﴾

[سورة يوسف: الآية ٩٧]

ومنها أن بعض الشَّرِّ أهون من بعض؛ فحين اتفقوا على التفريق بين يوسف وأبيه ورأى أكثرهم أن القتل يحصل به الإبعاد الأبدي:

﴿قالَ قائلٌ منهم: لا تقتلوا يوسُفَ وأَلْقُوهُ في غيابة الجب يلتقطُهُ بعضُ السيارة إن كنتم فاعلين﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠]

فخفّف به الشَّرُّ عنهم ولهذا لما وردت السيارةُ الماءَ وأدلى واردهم دلوه تبشر بوجوده وقال:

﴿هذا غلام﴾ [الآية ١٩]

وكان إخوته حولَه فقالوا: إنه غُلامٌ أَبِقَ مِنّا؛ وتبايعوا معهم:

﴿وشَرَوْهُ بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين﴾

[الآية ٢٠]

وإنما قصدهم إبعاده والتأكيد على مشتريه منهم، صورةً، أنْ يحتفظ به لئلا يهرب. ومن لطف الله أن الذي أخذه باعه في مصر على عزيزها، فحين رآه رغب فيه جداً وأحبه وقال لامرأته:

﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذَه ولداً﴾ [الآية ٢١]

فبقي مكرَّماً عندهم معفًى عن الأشغال الشاقة وغيرها متجرداً للخير. وهذا من اللطف بيوسف ولهذا قال:

﴿وكذلك مَكَّنَّا ليوسُفَ في الأرضِ وَلِنُعَلِّمَهُ من تأويلِ الأحاديث﴾
[الآية ٢١]

فكان تفرغه عند العزيز من أسباب تعلُّمه للعلوم النافعة ليكون أساساً لما بعده من الرفعة في الدنيا والآخرة. كما أن رؤياه مقدمة اللطف، وكما أن الله أوحى إليه حين ألقاه إخوته في الجب:

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بأمرِهم هذا وهم لا يشعرون﴾ [الآية ١٥]

وهذه بشارة له بالنجاة ممّا هو فيه، وأنه سيصل إلى أن ينبِّئهم بأمرهم وهم لا يشعرون. وقد وقع ذلك في قوله:

﴿هلْ علمتم ما فعلتُم بيوسفَ وأخيه إذْ أنتم جاهلون﴾ [الآية ٨٩]

إلى آخر الآيات. وألطاف المولى لا تخطر على البال، ومنها أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية، وذلك أن إخوة يوسف جرى منهم ما جرى من هذه الجرائم، لكن في آخر أمرهم ونهايته تابوا إلى الله، وطلبوا السماح من أخيهم يوسف ومن والديهم الاستغفار، فحصل لهم السماح التام والعفو الكامل فعفا الله عنهم وأوصلهم إلى الكمال اللائق بهم. قيل إن الله جعلهم أنبياء، كما قاله غير واحد من المفسرين في تفسير الأسباط: إنهم إخوة يوسف الاثنا عشر. وقيل بل كانوا قوماً صالحين؛ كما قاله آخرون؛ وهو الظاهر، لأن المراد بالأسباط قبائل بني إسرائيل، وهو اسم لعموم القبيلة لأولاد يعقوب الاثني عشر فهم آباء الأسباط وهم من الأسباط ولهذا في رؤيا يوسف رآهم بمنزلة الكواكب في إشراقها وعلوها، وهذه صفة أهل العلم والإيمان والله أعلم. ولهذا تفسر رؤيا الشمس والقمر والكواكب بالعلماء والصالحين وقد تفسر بالملوك، والمناسبة ظاهرة ومنها تكميل يوسف صلوات الله عليه لمراتب الصبر، الصبر الاضطراري: وهو صبره على أذيَّة إخوته وما ترتب عليها من بعده عن أبويه وصبره في السجن بضع سنين؛ والصبر الاختياري: صبره على مراودة سيدته امرأة العزيز مع وجود الدواعي القوية من جمالها وعلو منصبها وكونها هي التي راودته عن نفسه وغلقت الأبواب

وهو في غاية ريعان الشباب، وليس عنده من قرابته ومعارفه الأصليين أحد. ومـع هذه الأمور، ومـع قوة الشهوة، مَنَعهُ الإيمان الصادق والإخلاص الكامل من مواقعة المحذور. وهذا هو المراد بقوله:

﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ [الآية ٢٤]

فهو برهان الإيمان الذي يغلب جميـع القوى النفسية فكان هو مقدم السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله، وهو رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله. ثم بعد ذلك راودته المرأة وراودته، واستعانت عليه بالنسوة اللاتي قطعن أيديهن فلم تحدّثـه نفسه، ولم يـزل الإيمان ملازماً له في أحواله حتى قال بعدما توعدته بقولها:

﴿ولئن لم يفعلْ ما آمرُهُ ليُسْجَنَنَّ وليكونَنْ من الصاغرين * قال ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه﴾ [الآيتان ٣٢، ٣٣]

فاختار السجن على مواقعة المحظور؛ ومـع ذلك فلم يتكل على نفسه بل استغاث بربه أن يصرف عنه شرهن، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن، إنه هو السميـع العليم.

وكما أنه كمل مراتب الصبر فقد كمل مراتب العدل والإحسان للرعية حين تولى خزائن البلاد المصرية، وكمل مراتب العفو والكرم حين قال له إخوته:

﴿تاللَّهِ لقد آثرك الله علينا وإنْ كنَّا لخاطئين * قال لا تثريبَ عليكُمُ اليومَ يغفرُ اللَّهُ لكم وهو أرحم الراحمين﴾ [الآيتان ٩١، ٩٢]

فارتقى ﷺ إلى أعلى مقامات الفضل والخير والصدق والكمال، ونشر الله له الثناء بين العالمين.

الفصل الرابـع

ومنها أن الإخلاص لله تعالى أكبر الأسباب لحصول كل خير واندفاع كل شر، كما قال تعالى:

﴿كذلك لِنَصْرِفَ عنهُ السوءَ والفحشاءَ إنَّه من عبادِنا المخلَصين﴾
[الآية ٢٤]

وفي القراءة الأخرى المخلصين، أي الذين أخلصهم الله بخالصة ذكر الدار وهما متلازمتان، فأخلصهم لإخلاصهم له، فمن أخلص لله أخلصه وخلّصه من الشرور، وعَصَمه من السوء والفحشاء.

ومنها ما دلت عليه القصة من العمل بالقرائن القوية من عدة وجوه؛ منها: حين ادعت امرأة العزيز أن يوسف راودها، وقال: هي راودتني عن نفسي؛ فشهد شاهد من أهلها؛ أي حكم حاكم بهذا الحكم الواضـح، وكانت قد شقت قميص يوسف وقت مراودتها إياه:

﴿إن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهو من الكاذبين﴾ [الآية ٢٦]

لأنه يدل على إقباله عليها وأن المراودة صادرة منه.

﴿وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين﴾ [الآية ٢٧]

فكان هذا هو الواقـع، لأنها تريده وهو يفرُّ منها ويهرب عنها فَقَدَّتْ قميصه من خلفه، فتبين لهم أنها هي المُرَاوِدَة في تلك الحال؛ وبعد ذلك اعترفت اعترافاً تاماً حيث قالت:

﴿الآن حَصْحَصَ الحقُّ أنا راودتُّهُ عن نفسه وإنه لمن الصادقين * ذلك ليعلم أنِّي لم أَخُنْهُ بالغيبِ وأنَّ اللَّهَ لا يَهدِي كيدَ الخائنين﴾
[الآيتان ٥١، ٥٢]

ومن العمل بالقرائن وجود الصواع في رحل أخيه وحكمهم عليه بأحكام السرقة لهذه القرينة القوية.

ومنها أنه ينبغي للعبد أن يبعُدَ عن أسباب الفتن، ويهربَ منها عند وقوعها، كما فعل يوسف حين راودته امرأة العزيز. واعلم أن كثيراً من المفسِّرين ذكروا في تفسير البرهان الذي رآه يوسف حين اعتصم عن الفاحشة إسرائيليات تنافي العقل والدين، وتنافي ما عليه الرسل من الكمال حيث قال بعضهم: تبدَّى له جبريل في الهوى، أو تبدَّى له يعقوب عاضّاً على إبهاميه أو ما أشبه ذلك من الأمور، التي لو حصلت على أفجر الناس لامتنع من فجوره، فكُلها باطلة. وكذلك من الأقوال الباطلة ما قاله بعضهم في قوله:

﴿ولقد هَمَّتْ به وهمَّ بها﴾ [الآية ٢٤]

أي هم أن يضربها ـ وهذا تحريف ظاهر. وصاحب هذا القول أراد الفرار من الهم المعروف خَشية أن يكون فيه نقص وتنقيص للأنبياء محذور في ذلك، فإن الهم والهوا ونحوها إذا قاومه العبد وقدّم عليه الخوف والإيمان فهو كمال، كما قال تعالى:

﴿وَلِمَنْ خافَ مقامَ ربِّه جنتان﴾ [سورة الرحمن: الآية ٤٦].

وكما ثبت في الصحيح مرفوعاً: من هَمَّ بسيئة فلم يعملْها كتبها الله حسنة كاملة ـ فإنه إنما تركها من جرائي، أي تركه لها لأجل الله خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه من أكبر العبادات والله أعلم.

ومنها ما عليه يوسف، صلوات الله عليه، من الجمال الظاهر الذي أخذ بلب امرأة العزيز وشغفها حبّاً. وحين رأتهُ النسوة قطعن أيديهن وأكبَرْنه وقلن:

﴿حاشا لله ما هذا بشراً إنْ هـذا إلّا مَلَكٌ كريم﴾ [الآية ٣١]

ومن الجمال الباطن وهو العفة والإخلاص الكامل والصيانة.

ومنها أنه ينبغي للعبد أن يلتجىء إلى الله عند خوف الوقوع في فتن المعاصي والذنوب، مع الصبر والاجتهاد في البعد عنها، كما فعل يوسف ودعا ربه قال:

﴿وإلَّا تَصْرِفْ عني كيدَهن أَصْبُ إليهِنَّ وأَكُنْ من الجاهلين﴾

[الآية ٣٣]

وإن العبد لا حول له ولا قوة ولا عصمة إلا بالله، فالعبد مأمور بفعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور مع الاستعانة بالملك الشكور.

الفصل الخامس

ومنها فضل الإيمان الكامل واليقين والطمأنينة بالله وبذكره حيث اتصف بها يوسف ﷺ فأوجبت له الثبات في أموره كلها والاشتغال فيما هو يصدره من وظائفه الحاضرة، وهو في أحواله وتنقلاته مطمئن القلب ثابت النفس ليس عنده قلق لبعده عن أبيه وأحبابه، مع ما يعلمه من شدة الشوق والحب المفرط بينه وبين والديه خصوصاً أبوه يعقوب، وهو يعلم المكان الذي هو فيه ويتمكن من مراسلته، ولكن اقتضت حكمة الله أن لا يحصل اللقاء إلا في تلك الحال التي اشتدت مشقتها وعظمت شدتها، فأعانه الله وأيَّده بروح منه، وهذا من أجل ثمرات الإيمان.

ومنها أنه لا بأس بالاستعانة بالمخلوق في الأمور العادية التي يقدر عليها بفعله أو قوله وإخباره كما قال يوسف للذي ظن أنه ناج منهما:

﴿اذكرني عند ربك﴾ [الآية ٤٢]

ومن كمال إخلاص يوسف وكمال خلقه أنه لم يعاتب هذا الذي وصّاه أن يذكره عند ربِّه فنسي، وجاءه يسأله عن رؤيا الملك، فأجابه، ولم يعاتبه أو يعنِّفْه أو يعامله بسوء خلق. وبحسن الخلق تحصل للعبد الحياة الطيبة العاجلة والآجلة.

ومنها أن اللسان إذا وجهت له تهمة هو بريء منها لا يلام على طلب الطرق والوسائل التي يحصل بها الوضوح والبيان العام للناس، كما

فعل يوسف ﷺ مع طول مكثه لما جاءه الرسول يستدعيه للحضور عند الملك، قال:

﴿ارجع إلى ربِّك فآسأله ما بالُ النِّسوة اللاتي قَطَّعن أيدِيَهن. . .﴾
[الآية ٥٠]

إلى آخر الآية، حيث بان لكل أحد براءته التامة التي لا شُبهة فيها فلم يخرج من السجن لمواجهة الملك إلا في حالة براءته وهيبته ورفعته وتعظيم منهم لعلمه وفضله ونزاهته عليه الصلاة والسلام.

الفصل السادس

ومن ذلك أن يوسف ﷺ جمـع لهم بين تعبير رؤيا الملك وبين ما ينبغي لهم أن يفعلوه ويدبّروه في سنين الخصب، للاستعداد لسنين الجدب؛ وحين قال له الملك:

﴿إنَّك اليومَ لدينا مكينٌ أمينٌ﴾ [الآية ٥٤]

أي تتمكن من أمور المملكة وتدابيرها، مفوضٌ إليه الأمور لأمانته وكفاءته وكمال الثقة به، فالملك هو الذي ابتدأ توليته وتفويض الأمور إليه، وهو الذي آقترح أن يكون على خزائن الأرض وجبايتها وتصريفها لأجل عموم المصلحة، ولهذا قال:

﴿إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ [الآية ٥٥]

أي أحفظ الحاصلات والغلاَّت وأعلم كيفية تصريفها وتدبيرها، فحينئذٍ أعتني في سنين الخصب بالزروعات الهائلة وجباها في مخازنها، وفي سنبلها، وأجتهد في الاقتصاد في أكلهم أيام السنين الخصيبة لتتوفر الغلال ويكون لها النفـع العام. فحين جاءت السنون المجدبات وعم الجدب للأقطار المصرية وما جاورها من الأقطار، وفني ما عند الناس جعلوا يقصدون مصر من كل جهة، جعل يكيل لهم كيل العدل والاقتصاد بحسب الحاجة، لا يزيد كل واحد على حمل البعير خوفاً من ألَّا يحتاجه المحتكرون ويحصل الضرر على المحتاجين المعوزين. ولهذا من جملة ما عالـج إخوة يوسف أباهم لإرسال بنيامين معهم أن قالوا:

﴿ونزدادُ كيلَ بعيرٍ﴾ [الآية ٦٥]

أي إذا كان معنا حصل لنا زيادةُ كيل بعير لأن عائلة يعقوب كثيرون، يحتاجون إلى ميرة كثيرة، فحصل لهذه الأعمال الجليلة على يد يوسف نفع للخلق عظيم، وإزالة ضرورات ودفع حاجات وتهوين للشدات والكربات.

ومنها مشروعية الضيافة، وأنها من سنن الرسل، وقررتها هذه الشريعة لقول يوسف:

﴿ألا ترون أني أوفي الكيلَ وأنا خير المُنزِلين﴾ [الاية ٥٩]

ومنها أن استعمال الأسباب الواقية من العين أو غيرها غير ممنوع بل جائز، أو مستحب بحسب حاله، وإن كانت جميع الأمور بقضاء الله وقدره، لكن الأسباب الواقية أو الدامغة من قضاء الله وقدره، بشرط أن يفعلها العبد وهو معتمد على مسبِّبها، لأن يعقوب عليه السلام حين أراد أن يوصي بنيه لما أرسل بنيامين معهم، قال:

﴿يا بَنِيَّ لا تدخلوا من باب واحدٍ وادخُلُوا من أبوابٍ متفرقة، وما أُغْني عنكم مِنَ اللَّهِ مِنْ شيء إِنِ الحُكْمُ إلَّا لله، عليه توكَّلت﴾ [الآية ٦٧]

وأخبر تعالى أنهم امتثلوا أمر أبيهم، وأن هذا الأمر لم يُغن شيئاً إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو شفقة الوالد على أولاده، والشريعة جاءت بإثبات الأسباب النافعة الدينية والدنيوية، والحث عليها، مع الاستعانة بالله، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: (إحرص على ما ينفعك واستعن بالله).

ومنها جواز استعمال الحيل والمكائد التي يُتوصَّل بها إلى حقٍّ من الحقوق الواجبة والمستحبة أو الجائزة، كما استعمل يوسف ذلك مع أخيه، حيث وضع السقاية في رحل أخيه، ثم أذَّن مؤذِّنٌ بعد رحيلهم:

﴿أيتها العيرُ إنكم لسارقون ـ إلى قوله ـ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كِدْنا ليوسُفَ ما كان لِيأخُذَ أخاهُ في دِينِ المَلِكِ﴾ [الآيات: ٧٠ ـ ٧٥]

فعمل مع أخيه هذا العمل ليتوصل به إلى بقائه عنده من غير شعور منهم. فلما تقرر عندهم أنه هو الذي أخذ الصواع استفتاهم عن حكم السارق في دينهم فقالوا:

﴿جزاؤه من وجد في رَحْلِهِ فهو جزاؤه﴾ [الآية ٧٥]

أي جزاء السارق أن يتملكه المسروق منه؛ فحكموا على أنفسهم هذا الحكم الذي هو المقصود ليوسف. ولو أجرى عليه حكم ملك مصر لكان له حكم آخر. فيسّر الله هذا العمل وهذا الحكم ليبقى أخوه عنده. فالحيل التي على هذا النوع لا حَرَج فيها وإنما المحرمُ الحيلُ والمكائدُ التي يُتوصل بها إلى إحلال المحرَّمات أو إسقاط الواجبات.

ومنها استعمال المعاريض عند الحاجة إليها؛ فإن في المعاريض مندوحةً عن الكذب، وذلك من وجوه، منها قوله:

﴿ثمَّ استخرجها من وعاءِ أخيه﴾ [الآية ٧٥]

ولم يقل سرقها؛ وكذلك قوله: ﴿معاذَ اللَّهِ أَنْ نأخُذَ إلاَّ مَنْ وَجَدْنا متاعَنا عندَه﴾ [الآية ٧٩]

ولم يقل: «من سرق متاعنا». وإذا قيل: إن هذا اتّهام للبريء. قيل: إنما فعل ذلك بإذن أخيه ورضاه؛ وإذا رضي زال المحذور.

ومنها أن الإنسان لا يحلّ له أن يشهد إلاَّ بما يعلم لقولهم:

﴿وما شهدنا إلاّ بما علمنا﴾ [الآية ٨١]

وإن العلم يحصل بإقرار الإنسان على نفسه، وبوجود المسروق ونحوه معه وفي يده أو رحله.

وفيها أن وجود المسروق بيد السارق بيِّنة وقرينة على أنه السارق، ولذلك حكم وحكموا على أخي يوسف بحكم السارق.

ومنها هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيَّه وصفيه يعقوب عليه

السلام، حيث قضى بالفراق، بينه وبين يوسف، هذه المدة الطويلة التي يغلب على الظن أنها تبلغ ثلاثين سنة فأكثر، من ذلك أنه بقي مدة في بيت العزيز قبل السجن في الإمكان أن تكون من سبع السنين إلى العشر أو نحو ذلك، على وجه الحرص والحزر، ثم مكث بضع سنين في السجن، والأكثر أنها سبع سنين، ثم بعد خروجه دخلت السبع السنين المخصبات، فهذه نحو إحدى وعشرين سنة، ثم دخلت السبع المجدبات وتردد إخوة يوسف إليه مرات، والظاهر أن اللقاء كان في آخرها، فهذه تقارب الثلاثين ونحوها؛ وهو في هذه المدة لم يفارِق الحزنُ قلبه، وهو دائم البكاء حتى آبيضت عيناه من الحزن وفقد بصره وهو صابر لأمر الله، محتسب الثواب عند الله، قد وعد من نفسه الصبر، ولا شك أنه وفى بذلك. ولا ينافي ذلك قوله:

﴿إنما أشكو بثِّي وحزني إلى الله﴾ [الآية ٨٦]

فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما ينافي الصبر الشكوى إلى المخلوق.

ومنها: إن الفرج مع الكرب. فإنه لما اشتد الكرب بيعقوب وقال: يا أسفي على يوسف، قال:

﴿يا بَنِيَّ آذهبوا فتحسَّسُوا مِنْ يوسُفَ وأخيهِ ولا تيأسوا من رَوْحِ الله إنَّه لا ييأسُ من روحِ الله إلاّ القومُ الكافرون﴾ [الآية ٨٧]

وهم حين دخلوا على يوسف وقفوا بين يديه موقف المضطر، فقالوا:

﴿يا أيها العزيزُ مسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ [أي قليلة حقيرة لا تقع الموقع] فَأَوْفِ لنا الكيلَ وتصدَّقْ علينا إنَّ الله يَجْزِي المتصدِّقين﴾ [الآية ٨٨]

فحينئذ لما بلغ الضر منتهاه من كل وجه، عرّفهم بنفسه، فحصل بذلك البشارة الكبرى لأبويه وإخوته وأهلهم، وزال عنهم الضُّرُّ والبأساءُ، وخَلَفَه السرور والفرح والرخاء.

ومنها أن الله يبتلي أنبياءه وأصفياءه بالشدة والرخاء، والسرور والحزن، واليسر والعسر، ليستخرج منهم عبوديته في الحالين بالشكر عند الرخاء والصبر عند الشدة والبلاء، فتتم عليهم بذلك النعماء كما ابتلى يعقوبَ ويوسفَ، وكذلك غيرهم من أنبيائه وأصفيائه.

ومنها جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر أو غيرهما على غير وجه التسخط، لقول إخوة يوسف: مسَّنا وأهلنا الضُّر ـ وأقرهم يوسف على ذلك.

ومنها فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثارهما، وأن عاقبة أهلهما أحسنُ العواقب، لقوله:

﴿قد مَنَّ اللَّهُ علينا إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ ويصبِرْ فإنَّ اللَّهَ لا يُضيِّعُ أجر المحسنين﴾ [الآية ٩٠]

وإن إخبار العبد من نفسه بحصول التقوى والصبر إذا كان صدقاً وفي ذلك مصلحة من باب التحدث بنعمة الله. قال الله تعالى:

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ [سورة الضحى: الآية ١١]

تشمل نِعَم الدنيا ونِعَم الدين، وأن الله يجمع للمتقين بين خير الدنيا والآخرة، كما في هذه الآية والآية السابقة وهي قوله:

﴿نصيبُ برحمتنا مَنْ نَشاءُ ولا نُضيعُ أجرَ المحسنين * ولَأجْرُ الآخِرةِ خيرٌ للَّذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [الآيتان ٥٦، ٥٧]

وأنه ينبغي على العبد أن يتذكر في حال الرخاء والسرور حالةَ الحزن والشدة، ليزداد شكره وثناؤه على الله. ولهذا قال يوسف:

﴿وقد أحسن بي إذْ أخرجني من السجن وجاءَ بكم من البَدْو﴾

[الآية ١٠٠]

ومنها أنه ينبغي للعبد أن يتضرع إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل

الأسباب لذلك: يسأل الله حسنَ الخاتمة وتمام النعمة، ويتوسل بنعمه الحاصلة إلى ربه أن يُتمها عليه، ويحسن له العاقبة، كما قال يوسف ﷺ:

﴿ربِّ قد آتيتني من المُلك وعلَّمتَنِي مِنْ تأويلِ الأحاديثِ فاطِرَ السَّمٰواتِ والأرضِ أنتَ وَلِيِّي في الدنيا والآخرة توفَّني مُسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [الآية ١٠١]

وليس هذا من يوسف تمنِّياً للموت، كما ظَنَّه بعضُهم، بل هو دعاء لله أن يحسن خاتمته ويتوفاه على الإسلام، كما يسأل العبد ربَّه ذلك كل وقت.

ومنها ما مَنَّ الله به على يوسف من حسن عَفْوه عن إخوته، وأنه عفا عمّا مضى ووعد في المستقبل أن لا يُثَرِّب عليهم، ولا يذكر منه شيئاً لأنه يجرحهم ويحزنهم وقد أبدوا الندامة التامة ولأجل هذا قال:

﴿مِنْ بعدِ أنْ نَزَغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي﴾ [الآية ١٠٠]

ولم يقل: من بعد أن نزغهم، بل أضاف الفعل إلى الشيطان، الذي فرَّق بينه وبين إخوته. وهذا من كمال الفتوة وتمام المروءة.

ومنها ما في هذه القصة العظيمة من البراهين على رسالة محمد ﷺ حيث قَصَّها على الوجه المطابق، وهو لم يقرأ من الكتب السابقة شيئاً، ولا جالَسَ مَنْ لَهُ معرفةٌ بها، ولا تعلّم من أحدٍ، إنْ هو إلّا وحي أوحاه الله إليه. ولهذا قال:

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلَمُها أنتَ ولا قومُك مِنْ قَبلِ هذا﴾ [سورة هود: الآية ٤٩]

كما ذكر الله هذا المعنى في قصته وغيره من الأنبياء، لأن الغيوب نوعان؛ أمور سابقة قد آندرس علمها نبَّأه الله بها، وأمور مستقبلة قد نبَّأه الله بها قبل أن تقع، فوقعت، ولا تزال تقع شيئاً بعد شيء مطابقةً لما أخبر به ﷺ في كتاب الله وفي سنة رسوله، وكلها براهين على رسالته.

الفصل السابع

وفي قوله تعالى: ﴿إن النفس لَأمَّارةٌ بالسوء إلاّ ما رَحِمَ ربـي﴾ [الآية ٥٣]

دليل على أن هذا وصف النفس من حيث هي، وأنها لا تخرج عن هذا الوصف إلاَّ برحمة من الله وعناية منه، لأن النفس ظالمة جاهلة، والظلم والجهل لا يأتي منهما إلا كل شر، فإن رحم الله العبد ومَنَّ عليه بالعلم النافـع وسلوك طريق العدل في أخلاقه وأعماله خرجت نفسه من هذا الوصف، وصارت مطمئنة إلى طاعة الله وذكره، ولم تأمر صاحبها إلاّ بالخير، ويكون مآلها إلى فضل الله وثوابه. قال تعالى:

﴿يا أيتها النفسُ المطمئنةُ * ارجِعِي إلى ربِّكِ راضيةً مَرضِيَّة * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾ [سورة الفجر: الآيات ٢٧ ــ ٣٠]

فعلى العبد أن يسعى في إصلاح نفسه وإخراجها من هذا الوصف المذموم، وهو أنها أمَّارة بالسوء، وذلك بالاجتهاد وتخلُّقها بأحسن الأخلاق وسؤال الله على الدوام، وأن يكثر من الدعاء المأثور: اللهم اهدني لأحسن الأعمال والأخـلاق، لا يهدي لأحسنهـا إلا أنت، وآصـرف عني سيِّـىء الأعمـال والأخلاق، لا يصرفُ عني سيِّئها إلا أنت.

وفي تضاعيف القصة فضيلة العلم من وجوه كثيرة، وبيان أنه سبب الرفعة في الدنيا والآخرة، وسبب صلاح الدين والدنيا. فيوسف ﷺ لم ينل ما نال إلاّ بالعلم، ولهذا قال له أبوه:

﴿وكذلك يَجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ [الآية ٦]
وامتنَّ عليه وقت مكثه عند عزيز مصر بالتجرد للعلم، وحاز مقام الإحسان بالعلم، وخرج من السجن في حال العز والكرامة بالعلم، وتمكن عند ملك مصر واستخلصه لنفسه حين كلّمه وعَرَف ما عنده من العلم ودبّر أحوال الخلق في الممالك المصرية بإصلاح دنياهم وحُسن تدبيره في حفظ خزائن الأرض وتصريفها وتوزيعها بالعلم، وعند نهاية أمره توسّل إلى ربه أن يتولاه في الدنيا بالعلم، حيث قال:

﴿ربِّ قد آتيتني من المُلْكِ وعلمتني من تأويلِ الأحاديث، فاطِرَ السمواتِ والأرضِ أنتَ وَلِيِّي في الدنيا والآخرة تَوفَّني مُسلماً وأَلحِقْني بالصالحين﴾ [الآية ١٠١]
ففضائل العلم وثمراته الجليلة العاجلة والآجلة لا تعد ولا تحصى.

وفيها أن شفاء الأمراض، كما يكون بالأدوية الحسية يكون بأسباب ربانية، بل يحصل بهذا النوع من أنواع الشفاء ما لا يحصل بغيره. فيعقوب عليه السلام، قد ابيضت عيناه من الحزن وذهب بصره، فجعل الله شفاءه وإبصارَه بقميص يوسف حين ألقاه على وجهه، فارتد بصيراً لِمَا كان فيه من رائحة يوسف الذي كان داء عينيه من حزنه عليه، فصار شفاؤه الوحيد مع لطف الله في قميص جسده. ومن قال: إن القميص من الجنة فليس عنده بذلك دليل، والله قادر على أن يشفِيَه من دون سبب، ولكنه حكيم، جعل الأمور تجري بأسبابٍ ونظامات قد تهتدي العقول إلى معرفتها وقد لا تهتدي. ونظير ذلك أيوب ﷺ؛ وصل به المرض والضُّرُّ إلى حالةٍ تعذّر منها الشفاء وأعيت الأطباء، فحيث أراد الله شفاءه أمره أن يركض برجله الأرض فأنبع له عيناً باردة وأمره أن يشرب منها ويغتسل، فأذهب الله ما في باطنه وظاهره من هذا الضرر، وعاد كأحسن ما أنت راءٍ. قال تعالى:

﴿اركُضْ بِرجلِكَ هذا مُغتسلٌ باردٌ وشراب﴾ [سورة صَ: الآية ٤٢]

فهو تعالى يشفي العباد بأدوية وأسباب حسِّية وبأسباب ربّانية معنوية:

﴿وإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضُرٍّ فلا كاشِفَ لَهُ إلاَّ هو﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٧]

كما أنه تعالى يوجِد الأشياء بأسباب حسّية معلومةٍ وبأسباب ربّانية لا تهتدي العقول إليها، كما في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وآياته النفسية والكونية، وهو المحمود على هذا وعلى هذا.

ومنها جواز سؤال الخلق، خصوصاً الملوك عند الضرورة لقول إخوة يوسف:

﴿يا أيها العزيز مسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ وجئنا ببضاعةٍ مُزجاةٍ فأوفِ لنا الكيلَ وتصدَّقْ علينا إنَّ اللَّهَ يَجزِي المتصدِّقين﴾ [الآية ٨٨]

فإنهم سألوا المحاباة في المعاملة والصدقة بدون عوض، وإنما قلت: خصوصاً الملوك لأن الملوك لا يُسألون من أموالهم الخاصة وإنما يسألون من بيت المال الذي هو للمصالح العمومية، وأهم المصالح دفع ضرورة المضطرين.

ومن فوائد القصة أن الجهل ــ كما يطلق على عدم العلم ــ فإنه يطلق على عدم الحِلم، وعلى ارتكاب الذنب، لقوله تعالى:

﴿وإلاَّ تَصْرِفْ عني كيدَهُنَّ أَصْبُ إلَيْهِنَّ وأَكُنْ من الجاهلين﴾

[الآية ٣٣]

وقوله: ﴿هل علمتمْ ما فعلتُمْ بيوسُفَ وأخيهِ إذْ أنتُم جاهلون﴾ [الآية ٨٩]

ليس المعنى في ذلك عدم العلم وإنما هو عدم العمل به، واقتحام الذنوب، ومنه قول موسى ﷺ:

﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٧]

وقوله: ﴿إنما التوبةُ على اللَّهِ لِلَّذين يعملون السوءَ بجهالةٍ ثم يَتُوبون من قريب﴾ [سورة النساء: الآية ١٧]

وكل من عصى الله فهو جاهل باعتبار عدم العمل بالعلم، لأن العلم الحقيقي ما زال الجهل به وأوجب العمل.

ومنها قوله تعالى: ﴿ولمن جاء به حِملُ بعيرٍ وأنا به زعيم﴾

[الآية ٧٢]

استدل به على ثلاثة أبواب من أبواب العلم: باب الجعالة، وباب الضمان، وباب الكفالة. لأن قوله: ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ من نوع الجعالة، وهو أن يجعل شيئاً معلوماً أو مقارباً للمعلوم كحمل البعير، لأنه متعارفٌ لمن يعمل له عملاً معلوماً وعملاً مجهولاً وهي جائزة لما فيها من مصلحة الجاعل والعامل، وقوله: ﴿وأنا به زعيم﴾ أي ضامن وكفيل، وهي من عقود التوثقة بالحقوق التي يتم بها توسيع المعاملات وإصلاحها.

ومنها: أن العمل بالشريعة فيه إصلاح الأرض والبلاد، واستقامة الأمور؛ والعمل بالمعاصي من سرقة وغيرها فيها فساد ذلك؛ لقولهم:

﴿تاللَّهِ لقدْ علمتُم ما جِئنا لنُفْسِد في الأرض وما كنا سارقين﴾

[الآية ٧٣]

وكم في القرآن من التصريح أن العمل بالمعاصي ومخالفة الرسل فساد للأرض، ومتابعة الرسل هو الصلاح المطلق، صلاح الدين والدنيا.

ومنها الدلالة على الأصل الكبير الذي أعاده الله وأبداه في كتابه: أن لكل نفس ما كسبت من الخير والثواب، وعليها ما اكتسبت من الشر والعقاب، وأنه لا تَزِر وازرة وزرَ أخرى، لقوله:

﴿معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وجَدْنا متاعَنا عنده إنَّا إذاً لظالمون﴾

[الآية ٧٩]

ومنها الحث على فعل الأسباب الجالبة للخيرات والحافظة من الكريهات؛ وفي القصة مواضع تدل على هذا الأصل الكبير؛ وتمام ذلك أن يقوم بالأسباب مستعيناً بالله، واثقاً به؛ وقد عمل يعقوب عليه السلام الأسباب التي

يقدر عليها في استحفاظ أولاده ليوسف، ثم لأخيه حين أرسله معهم، وقال مع ذلك:

﴿فاللَّهُ خيرٌ حافظاً وَهُوَ أرحمُ الراحمين﴾ [الآية ٦٤]

وكذلك على العبد إذا هَمَّته المصائب وحلت به النكبات عليه أن يصبر ويستعين بالله على ذلك. قال يعقوب ﷺ حين عمل إخوة يوسف ما عملوا بيوسف، وحلت به المصيبة الكبرى:

﴿واللَّهُ المستعانُ على ما تصفون﴾ [الآية ١٨]

وذلك أن الصبر على الطاعات والصبر عن المحرمات والصبر على المصيبات لا يتمّ وينجح صاحبه إلَّا الاستعانة بالله، وأن لا يتكل العبد على نفسه. قال يوسف:

﴿وإلَّا تَصْرِفْ عني كيدَهنَّ أَصْبُ إلَيهِنَّ وأَكُنْ مِنَ الجاهلين﴾ [الآية ٣٣]

الفصل الثامن

ومن فوائد القصة الإرشاد إلى طريق نافع من طرق الجدال، والمقابلة بين الحق والباطل، وهو بيان ما في الحق من الخير والمنافع العاجلة والآجلة، وما في الباطل من ضد ذلك. قال تعالى في دعوة يوسف للتوحيد:

﴿يا صاحِبَي السِّجْنِ أأرباب متفرِّقونَ خيرٌ أمِ اللَّهُ الواحدُ القَهَّارُ﴾
[الآية ٣٩]

فذكر ما في الشرك من القبح وسوء الحال واتّباع الظنون الباطلة، وأن كل طائفة من الشرك لهم معبودٌ، إمّا نارٌ أو صنمٌ أو قبر أو ميت، أو غير ذلك من المعبودات المتفرقة التي لا تملك لنفسها ولا لأهلها نفعاً ولا ضُرّاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نُشوراً. وكل طائفة تُضَلِّل الأخرى، وكلهم ضالّون هالكون، فهل هذه الأرباب والمعبودات خيرٌ أم الله الواحدُ القهّار؟ فذكر له ثلاثة أوصاف عامة عظيمة: أنه الله الذي له الأسماء والصفات العليا، ومنه النعم كلها وبذلك استحق أن يكون الله المألوه، إلـه أهل الأرض وأهل السماء، وهو الذي في السماء إلـه وفي الأرض إلـه وأنه الواحد المتفرد بكل صفة كمال، المتوحِّد بنعوت الجلال والجمال، الذي لا شريك له في شيء من الأفعال؛ وأنه القهار لكل شيء؛ فجميع العالم العلوي والسفلي كلهم مقهورون بقدرته، خاضعون لعظمته، متذلِّلون لعزَّته وجبروته، فَمَنْ هذه صفاتُه العظيمة هو الذي لا تنبغي العبادة إلّا له وحدَه، لا شريك له.

ومنها: أن الدين المستقيم، الذي عليه جميعُ الرُّسل وأتباعُهم هو عبادة الله وحدَه لا شريك له، لقوله:

﴿إنِ الحُكمُ إلاَّ لله أمَرَ ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيَّاه ذلكَ الدينُ القَيِّم﴾
[الآية ٤٠]

فهو الدين المستقيم، المقيم للعقائد والأخلاق والأعمال، الذي لا تستقيم أمور الدين والدنيا إلاّ به.

ومنها وجوب الاعتراف بنعم الله الدينية والدنيوية، لقوله:

﴿ذلك مِن فضلِ الله علينا﴾ [الآية ٣٨]

فهو الذي مَنَّ بالعافية والرزق وتوابعِ ذلك، وهو الذي مَنَّ بنعمة الإسلام والإيمان والطاعة وتوابع ذلك، فعلى العبد أن يعترف بها بقلبه، ويتحدَّث بها ويستعين بها على طاعة المنعم.

ومنها أن الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى العباد سبب ينال به العلم وتنال به خيرات الدنيا والآخرة؛ لقوله:

﴿ولما بلغَ أشُدَّه آتيناه حُكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾
[الآية ٢٢]

وقوله: ﴿نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * وَلَأجْرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [الآيتان ٥٦، ٥٧]

فجعل الله الإحسان سبباً لنيل هذه المراتب العالية.

ومنها أن النظر إلى الغايات المحبوبة يهوِّن المشاق المعترضة في وسائلها، فمتى علم العبد عاقبة الأمر وما يؤول إليه من خير الدنيا والآخرة هانت عليه المشقة، وتسلى بالغاية، لقوله تعالى:

﴿وأوحينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ [الآية ١٥]

فأوحى إلى يوسف في هذه الحال المزعجة أن الأمر سيكون إلى خير وسعة، وبعد هذه الإهانة الصادرة من إخوتك لك ستكون لك الأثرة عليهم والعاقبة الحميدة؛ وفي هذا من اللطف والتسلية وتخفيف البلاء ما هو من أعظم نِعَم

الله على العبد، ولهذا المعنى الجليل يذكِّر الله عباده عند المشاق والأمور المزعجة ما يترتب على ذلك من الثواب والخير والطمع في فضله. قال تعالى:

﴿إنْ تكونوا تألَمُونَ فإنهم يألَمون كما تألمونَ وترجونَ من الله ما لا يَرْجُون﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

وقوله تعالى: ﴿وأجمعوا أنْ يجعلوه في غَيَابةِ الجُبِّ﴾ [الآية ١٥]

دليلٌ على رجوعهم كلِّهم إلى رأي من قال:

﴿لا تقتُلُوا يوسُفَ وألقُوهُ في غيابَةِ الجب﴾ [الآية ١٠]

كما أن قوله: ﴿وإلاّ تَصْرِفْ عَنّي كيدَهُنّ أَصْبُ إلَيهِنَّ وأكُنْ من الجاهلين * فاستجاب له ربُّه فصرف عنه كيدَهن﴾ [الآيتان: ٣٣، ٣٤]

دليل على أن النسوة ساعدن امرأة العزيز على يوسف، وجعلن يُغْرِينه بهذا العمل، فبعد ما رأَين من جمال يوسف الباهر ما رأين أصبحنَ لِامرأةِ العزيز مساعداتٍ بعد أن كُنَّ قبل ذلك عاتباتٍ عليها بقولهن:

﴿امرأةُ العزيزِ تُراودُ فتاها عن نفسِهِ قد شَغَفَها حُبّاً إنّا لَنَراها في ضلال مبين﴾ [الآية ٣٠]

ومنها أن العقود تنعقد بما يدل عليها من قولٍ وفعلٍ، لا فرقَ بين عقودِ التبرُّعات وعقود المعاوضات، لأن يوسف ﷺ ملَّك إخوته بضاعتهم التي اشتروا بها ميرتهم من حيث لا يشعرون، ولما فَتَحُوا متاعَهُم وجدوا بِضَاعتهم في رحالهم، الآية، وذلك من دون إيجاب وقبول قولي، لأن الفعل والرضى يدلّ على ذلك.

الفصل التاسع

إذا قيل: كيف خفي موضع يوسف على يعقوب وما بينه وبينه إلّا مسافة قليلة مع طول المدة وقوة الداعي المُلِحِّ وعلمه أنه على الوجود وحرصه الشديد على لقياه؟ فالجواب: ليس ذلك بغريب على قدرة الله، فإن الأسباب، وإن قويت جداً، لا خروج لها عن قضاء الله وقدره؛ فإن الله تعالى أراد ألَّا يحصل الاجتماع إلَّا في الوقت الذي أجَّله والحالة التي أرادها، لما له في ذلك من الحِكَمِ العظيمة، ومتى أراد الله شيئاً في وقت مخصوص قَدَّر من الأسباب الحسّية أو المعنوية ما يمنع حصوله قبل ميقاته، كما يقدر من الأسباب ما يحصل به ما أراد؛ فالأسباب بيد العزيز الحكيم.

وليس هذا بأغرب من قضية بني إسرائيل في التيه، وهم أمة عظيمة، والتيه مسافة قصيرة، وهم بين أظهري قرى ومدن كثيرة. والمدة أربعون سنة، لم يهتدوا طريقاً إلى مقصدهم، ولم يتيسَّر لهم من يرشدهم إلى قصدهم.

وكذلك أصحاب الكهف مكثوا في كهفهم ثلثمائة وتسع سنين وهم في غار قريب من مدينة عظيمة لم يصل إليهم أحد في هذه المدة الطويلة لأمرٍ يُريده الله. فهذه الأمور وما أشبهها دليل على كمال قدرة الله وحكمته، مع أن يوسف ﷺ بقي مدةً اللَّهُ عَلِمَ بها وهو في بيت العزيز، ثم مدةً وهو في السجن، ثم ترقَّى إلى تدبير الملك. ومتى يخطر ببال أحد أن ينتقل من الرق والسجن إلى الملك العظيم؟ ثم إنه وقت تولّيه يغلب على الظن أنه اشتهر عند الناس باسم المنصب والوزير للملك، ولا يكاد أحد يعرف اسمه، كما هو الغالب على الملوك وأشباههم، ولهذا تردد إخوته عليه فعرفهم وهم

لا يعرفونه، لما هو فيه من بهجة الولاية؛ وأيضاً قد فارقوه وهو صغير ولم يروه إلا بعد ما كبر. ومعلوم أن أوصاف الإنسان تتغير إذا وصل إلى سن الكهولة، واللَّهُ أعلم.

هذا من جهة يعقوب وأولاده، أما من جهة يوسف فإنه قد علم وقصد التأخير ليبلـغ الكتاب أَجَلَه، ولهذا تردد عليه إخوته وقد عرفهم ولم يعرِّفْهم بنفسه، ولم يستدعِ بأبويه وأهله إلاّ في نهاية الأمر.

الفصل العاشر

قوله تعالى عن يعقوب ـ في أول ما صنع أبناؤه بأخيهم يوسف ـ :

﴿بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ واللَّهُ المستعانُ على ما تصفون﴾ [الآية ١٨]

وقوله عندما اشتد به الأمر، حين احتبس الابن الآخر، :

﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ عسى الله أن يأتِيَني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾ [الآية ٨٣]

في هذا دليل على أن أصفياء الله إذا نزلت بهم الكوارث والمصيبات قابلوها في أول الأمر بالصبر والاستعانة بالمولى، وعند ما ينتهي وتبلغ الشدة منهاها، يقابلونها بالصبر والطمع في الفرج والرجاء فيوفقهم الله للقيام بعبوديته في الحالتين؛ ثم إذا كشف عنهم البلاء قابلوا ذلك بالشكر والثناء على الله وزيادة المعرفة بلطفه لقول يوسف:

﴿يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ مِنْ قَبْلُ قد جعلها ربي حقًّا وقد أحسن بي إذْ أخرجني من السجن وجاءَ بكمْ مِنَ البَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي إنَّ ربي لطيفٌ لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾ [الآية ١٠٠]

ومنها قوله تعالى: ﴿معاذَ اللَّهِ أَنْ نأخذَ إلاَّ مَنْ وجدنا متاعَنا عندَه إنَّا إذاً لظالمون﴾ [الآية ٧٩]

يدل على أنه لا تزر وازرة وزر أخرى؛ ويؤخذ منه مسألة دقيقة، وهو أن الإحسان إنما يكون إحساناً إذا لم يتضمن فعل محرَّمٍ أو تركَ واجب، فإنهم

طلبوا من يوسف أن يُحسن إليهم بترك هذا الأخ أن يذهب إلى أبيه ويأخُذَ أحدهم بَدَلَه؛ فأمتنـع وقال:

﴿معاذ الله أن نأخذ إلّا من وجدنا متاعنا عنده إنّا إذاً لظالمون﴾

[الآية ٧٩]

فالإحسان إذا تضمَّن تركَ العدل كان ظلماً، ولهذا كان تخصيص بعض الأولاد على بعض، وبعض الزوجات على بعض ـ وإن كان إحساناً إلى المخَصَّص والمفضَّل ـ لا يجوز لأنه تركٌ للعدْل، وكذلك ما أشبه ذلك، والله أعلم.

ومنها أن آيات الله أَيَّما ينتفـع بها السائل المستهدي الذي قَصْدُه معرفة الحق واتباعه لقوله:

﴿لقد كان في يوسُفَ وإخوته آياتٌ للسائلين﴾ [الآية ٧]

أما الغافلون المعرِضون أو المعارضون المعانِدون فإنه يصدق عليهم قوله تعالى:

﴿إن الذين حقَّت عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آية حتَّى يَرَوُا العذاب الأليم﴾ [سورة يونس: الآيتان ٩٦، ٩٧]

فالنظر في آيات الله المتلُوَّة وآيات الله الكونية تنفـع من قَصْدُه الحق، كما قال تعالى:

﴿يهدي به اللّهُ مَنِ اتَّبـع رضوانَه سُبُلَ السَّلام﴾

[سورة المائدة: الآية ١٦]

وكم في القرآن تقييد الانتفاع بهذا القيد مثل: إن في ذلك لآيات للمؤمنين، لآيات للموقنين، لآيات لأولي الألباب، لأولي الألباب والأبصار.

ومنها أن المشاورة نافعة في كل شيء حتى في تخفيف الشر؛ لهذا تشاور إخوة يوسف فيما يعملون به: قتل أو طرح في الأرض، ثم قَرَّ رأيهم على رأي من أشار عليهم بإلقائه في الجب ليلتقطه بعض السيارة. ففيه شاهد

للقاعدة المشهورة: ارتكاب أخف المفسدتين أولى من أغلظهما. ولما قَرَّ القرار على أخذ من وجد الصواع في رحله وعالجوا يوسف على أخذ بدله لأجل ما يعلمون من مشقة أبيهم فامتنع خَلُصوا نجيا يتشاورون فقرَّ رأيهم على رأي كبيرهم أن يبقى هو في مصر يلاحظ مسألة أخيه وهم يذهبون يميرون أهلهم ويخبرون أباهم بالقضية وتفصيلها. ولا شك أن بقاءه في مصر أهون على يعقوب وأرجى لتحصيل المطلوب وفيه نوع مواساة منه بأخويه يوسف وبنيامين، ولهذا قال:

﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾

[الآية ٨٣]

الفصل الحادي عشر

إنما لم يصدق يعقوب بنيه حين قالوا: أكله الذئب، وعملوا تلك القرائن المبرِّرة لقولهم لأن المعلوم لا يعارضه الشك والوهم، فإنه قد علم برؤيا يوسف، وربما بغيرها ما يؤول إليه حال يوسف من تمام النعمة التي تشمله وتشمل آل يعقوب؛ وفيها أيضاً أنه لا ينبغي أن يغترَّ بمجرد صورة القرائن. ولما أتي إلى شريح امرأة مع خصمها أرسلت عينيها بالبكاء فقال لشريح بعض الحاضرين: ما أظن البائسة إلاَّ مظلومة. فقال شريح: ألم تسمع قصة إخوة يوسف إذ أتوا أباهم عشاء يبكون، هل كانوا مظلومين أو ظالمين؟ فكم حصل بمثل هذه التمويهات من الاغترار وقلب الحقائق. لهذا كان الأذكياء يجعلون كل احتمال على بالهم، وينظرون إلى الأمور من جميع جهاتها ونواحيها.

وتدل القصة على أن الولايات الكبار والصغار لا بدَّ لمتولِّيها أن يكون كُفُواً في قوته وأمانته وعلمه بأمور الولاية، لأن المَلِك لما كلَّم يوسف ورأى من علمه وخبرته بالأمور وحسن نظره استخلصه لنفسه وقال:

﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ [الآية ٥٤]

وقال يوسف: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ [الآية ٥٥]

فعلل ذلك بكمال حفظه لما تحت يده وتصرفه، وكمال علمه بوجوه المستخرج والمنصرف، وحسن التدبير، وليس في هذا طلب الولاية ابتداءً كما قاله كثير من أهل العلم، بل إنه لما رأى الملكَ استخلصه ومكَّنه من

الأمور، وأن الأمور كلُّها تحت طوعه وتدبيره، طلب من الملك تولِّي خزائن الأرض، فقط لأنها أهم، ولأنه يعلم أن ولايته لها أنفـع للملك وللخلق، وهذا من كمال نصحه وصدق نظره.

الفصل الثاني عشر

لما قص الله تعالى علينا هذه القصة العجيبة بتفاصيلها قال في آخرها:

﴿ما كان حديثاً يُفترى ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ كلِّ شيء وهُدًى ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ [الآية ١١١]

فنفى عن هذا القرآن الكذبَ والخطأَ من جميع الوجوه، ووصفه بثلاث صفات، كل واحدة منها فيها أكبر برهان على أنه من عند الله، وأنه الحق الذي لا ريب فيه.

الصفة الأولى: أنه تصديق الذي بين يديه أيٍّ من الكتب المنزلة من السماء ومن كلام الرسل المعصومين الذي أوحى الله إليهم، كما قال تعالى:

﴿بل جاء بالحق وصدَّق المُرسَلين﴾ [سورة الصافات: الآية ٣٧]

فهذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ جاء بالحق وهو الصدق في إخباره عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر، وعن جميع الغيوب السابقة واللاحقة، العدل في أحكامه، فلا يأمر إلَّا بخير ولا ينهى إلَّا عن الشر، كما قال تعالى:

﴿وتمَّت كلمةُ ربِّك صِدقاً وعدلاً﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

صدقاً في أخبارها عدلاً في أحكامها وأوامرها ونواهيها.

وأيضاً، فإن هذا القرآن صدَّق جميع ما جاءت به الرسل وهيمن عليها، واتفق منها على الأصول العظيمة والشرائع الكبار العامة الشاملة؛ وأيضاً فإن

الرسل أخبروا وبشَّروا بمحمد ﷺ وبما جاء به محمد ﷺ فصدق مخبرها وحقت بشارتها.

الصفة الثانية: أنه تفصيل لكل شيء، وهذا شامل لجميع ما يحتاجه الخلق في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وفي دينهم ودنياهم، فقد شرح الله به وفصَّل التوحيد والرسالة والجزاء، وجميع العقائد الصادقة الصحيحة شرحاً وتفصيلاً عظيماً لا يساويه في ذلك أي كتاب كان. وفصَّل فيه الحثَّ على حقائق الإيمان، وعلى التخلّق بالأخلاق الجميلة والتنزّه من الأخلاق الرذيلة، وبيَّن الطريق والأسباب التي يحصل حسنها والتي يدفع به سيِّئها؛ كما فصَّل الشرائع الظاهرة والأعمال الصالحة والحلال والحرام والخير والشر. وفصَّل فيه جميع المقاصد والغايات النافعة، الدينية والدنيوية؛ وفصَّل ما يتوصل به إليها؛ وفصَّل فيه البراهين العقلية، كما فصل فيه البراهين السمعية.

الصفة الثالثة: أنه هُدًى ورحمةٌ لقوم يؤمنون؛ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام. إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، أي لكل حالة قويمة وطريقة مستقيمة؛ يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي لمصالح الدين كلها، ومنافع الدنيا التي بها يقوم الدين وتتم السعادة. والفرق بين الهدى والرحمة أن الهدى هو الوسائل والطرق الموصلة إلى خيرات الدنيا والآخرة، والرحمة هي نفس الخيرات والثواب العاجل والآجل. فسعادة الدنيا والآخرة متوقفة على اتِّباع هذا القرآن علماً وعملاً. وخص الله المؤمنين بالهدى والرحمة لأنهم هم المنتفعون على الحقيقة، وبإيمانهم اهتدوا وزادهم الله هدى ورحمة؛ فهذا القرآن بصائر للناس كلهم، بصَّرهم جميع ما يحتاجون إليه، فلم يبق خير إلاَّ دلَّهم عليه، ولا شرٌّ إلاّ حذَّرهم منه، فقامت به الحجة على كل أحد. ولكنه هدى ورحمة لقوم يؤمنون. اللهم تفضَّل علينا

بالإيمان الصادق، واجعل هذا القرآن لنا هدًى ورحمة، إنك أنت القريب المجيب. وصلَّى الله على محمد وسلَّم.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله، عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين آمين.

وافق الفراغ منه في صفر سنة ١٣٧٥ هجرية.





الجهاد في سبيل الله

أو واجب المسلمين



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم: علي الحمد الصالحي

في كل يوم من تاريخنا تبرز مآثر أسلافنا الأفاضل الذين كرّسوا جهودهم ومقدراتِهم على النصح لله ولعبادِه. والـذين سَمَت نفوسهم إلى معـالي الأخلاق، فأصبحت آثارهم كالنجوم في الهداية والإشراق. وهكذا ينبغي أن تكون همم الرجال والله يختص برحمته من يشاء.

نزفّ إليك أيها القارىء الكريم هذه الرسالة التي تعتبر في الحقيقة (سياسة شرعية) لسلوك الأمة والفرد في الجهاد والمشورة وفوائدها. ورسم الخطة في الاستعداد الداخلي والخارجي. وفيها بيان واجب أهل العلم. وأوضحت وسائل التعاون والعدالة والعهود، وأسباب النصر والعزة، وكشفت أسباب أمراض المسلمين المعنوية وخاصة الشباب، وبينت أسباب صلاحهم، وحثّت على تولية الأكفاء وذكرت صفات القواد وغير ذلك من بيان محاسن الإسلام بالدعوة إليه، وبينت أن الدعوة إلى الدين أعظم سلاح وأكبر جيش وشرحت فوائد الدعوة: فهي بحق واضحة المعاني، قوية المباني، مشعل وضاء ينير الطريق، ومجهر كاشفٌ ما فيه أكثر المسلمين من جهل مركّب عميق، فمن تَرَسَّم ما دعت إليه فقد حالفه التوفيق، ومن تنكّبه وسار في ركاب الهواء، واستجاب لدعاة السوء والحاقدين وأذناب المستعمرين فقد ترك جادة الصواب، ومآله المحتوم إلى المكان السحيق.

هذه الرسالة من كتابات الشيخ العلامة (عبد الرحمن الناصر بن السعدي) وجدها أبناؤه ضمن أوراقه بخطّه وهي غير مؤرخة.

كان رحمة الله عليه كثير الكتابة، يكتب كل ما يدور بخاطره على ضوء الكتاب والسنّة فتحول دون إبراز ما كتبه ظروف قاهرة.

ذلك لأنه كان مثال العفة والورع في زمانه.

وليس بنا حاجة إلى تعداد فضائله فهو معروف لدى الجميع بما قدّمه في حياته وبما خلّفه بعد وفاته.

وها نحن الآن ننشر هذه الرسالة النادرة الوجود في مغزاها. وحاجة الناس اليوم إلى العمل بها كحاجة الأرض العطشى إلى الماء، فهي جديرة بأن تكتب بماء الذهب. ولو كانت فكرة القومية العربية موجودة في وقته لقلنا إنه يرد عليها من طرف خفي.

أما وقد كانت هذه الفكرة الكاذبة الخاطئة قد جاءت بعد وفاته.. وأرغى دعاتها وأزبدوا وملأوا الجو صياحاً وعويلاً. ثم لم يلبثوا أمام عواطف الحق إلّا قليلاً فكانت نهايتهم الانهزام أمام الحجج القواطع وبالتالي عرف الناس مضرتها بذاتها، وعرفوا أيضاً أهداف دعاتها. وصدق الله العظيم

﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨١].

أيها القارىء؛ بين يديك هذه الرسالة النيرة التي تدعو إلى الوحدة الإسلامية بين حكومات المسلمين وأفرادهم، وتخطط لهم المخططات التي توصلهم إلى ساحل النجاة، والسعادة، على ضوء قول الله تعالى:

﴿واعتصِموا بحبلِ اللَّهِ جميعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

﴿ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا مِنْ بَعدِ ما جاءَهُمُ البيِّنات﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٠٥]

﴿ولا تَنَازَعوا فتفشَلوا وتذهبَ ريحُكُم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٦]

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم﴾
[سورة الأنفال: الآية ٢٤]

ولئن كانت هذه الرسالة مسوَّدة غير منقحة. فهي نجم الهداية لطلاب الحق، وحسن النهاية في أمر الدين والدنيا.

ولا يسعنا إلاّ أنْ نبرزها على ما هي عليه لأن العلم أمانة.

والله المسؤول أن يجزي كاتبها عن الأمة الإسلامية خير الجزاء بما أبداه من النصح، وأن يوفقنا جميعاً لقبول نصحه جماعاتٍ وأفراداً، وأن ينصر الأمة الإسلامية، وأن يقيض لها الزعماء الناصحين لدينهم وأمتهم، وأن ينصر من في نصره نصرةُ الإسلام، والمسلمين، ويخذل من في خذلانه صلاح الإسلام والمسلمين، إنه سميع الدعاء.

وصلى الله على هادينا ونبينا سيد الأولين والآخرين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً

الجهاد في سبيل الله

أو واجب المسلمين، وما فرضه الله عليهم في كتابه نحو دينهم، وهيئتهم، الاجتماعية

قد أوجب الله على المؤمنين الجهاد في سبيله والاعتصام بدينه الذي هو حبلُه، والدعوة إلى ذلك، والألفة، والاجتماع، والتعاون على الخير والبِر والتقوى والاستعانة بالله في جميع أمورهم، وقوة التوكل عليه والقيام بالمستطاع المقدور عليه من الدين والتقوى، وتعلُّمَ ما يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم من العلوم والفنون النافعة التي يحصل بها قيام الدين والأمة، والتمرن على القوة المعنوية، والشجاعة الإيمانية، وبالأسباب المقوية للإيمان كلها، وبالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة المبطلين والضالّين بالتي هي أحسن، والجهاد في الله حق جهاده.

فهذه الأوامر الإلّهية في القرآن في مواضع كثيرة، وكلها داخلة في الجهاد في سبيله، لأن معنى الجهاد في سبيل الله بذلُ المجهود في تقوية المسلمين، تقوية معنوية، وتقوية مادية. وبذل المجهود في مقاومة الأعداء. وفي سلوك كل طريق يحصل به دفع شرهم والنكاية بهم، فعلى هذا يكون مجموع أصول الجهاد نوعين:

أحدهما، السعي الحثيث في تقوية المسلمين، والسعي في إزالة الضغائن والعدوات الواقعة بين أفرادهم وجماعاتهم وحكوماتهم بالدعايات والمواعظ المناسبة للحال.

وأن يكون صوت المسلمين واحداً يتكلم ويدعو إليه العلماء والكبراء وجميع طبقات الناس كلهم يتفقون لهذه الدعوة بحسب إمكانهم.

ومما يسهّل عليهم هذا الأمر مع صعوبته في بادىء الأمر، أن يعلموا أن هذا السعي والدعوة إلى جمع المسلمين وإلى إصلاح ذات بينهم هو أفضل الأعمال، وأنه أفضل من استغراق الزمان بالصوم والصلاة، وأنه من أعظم وأجلِّ الجهاد في سبيل الله، فإن أصل الجهاد الذي لا يستقيم إلاّ به اتفاقُ الكلمة وارتباط المسلمين بالأخوة الدينية ارتباطاً وثيقاً قال تعالى:

﴿إنّما المؤمنون إخوةٌ فأصلِحُوا بين أخَويْكُم﴾
[سورة الحجرات: الآية ١٠]

وبه يحصل أسباب النصر؛ قال تعالى:

﴿هو الذي أيَّدكَ بنصره وبالمؤمنين * وألَّف بين قلوبِهِم لو أنْفَقْتَ ما في الأرضِ جميعاً ما ألَّفتَ بينَ قُلوبِهِم ولكِنَّ اللَّهَ ألَّف بينهم﴾
[سورة الأنفال: الآيتان ٦٢، ٦٣]

فبيّن أنه يجب على المؤمنين الارتباط بالأُخوَّة الدينية، وإن تحقيق هذا الأمر من مقتضيات الإيمان وشروطه، وإنه كلما قوي إيمان العبد عرف مقدار نفع هذا الأمر وعمل واجتهد عليه، وإن الله نصر نبيه بأمرين:

أمر سماوي، وهو نصره الذي ينزله على المتقين القائمين بدينهم.

وأمر معنوي، وهو اجتماع المسلمين وتآلف قلوبهم وحصول التحابِّ الذي يوجب لكل منهم أن يرى مصلحته ومصلحة إخوانه واحدة والغاية واحدة.

فالواجب على جميع طبقات الأمة ـ لا سيما الرؤساء، رؤساء الدين ورؤساء الدنيا ـ أن يجاهدوا أنفسهم وإخوانهم المسلمين لتحقيق الأُخوّة الإيمانية؛ وإذا سلكت طرقه وأبوابه التي تسهله، وشعر كل واحد بما يجب عليه لربه ودينه ولإخوانه، واستعانوا بالله ولم يخلدوا إلى الكسل والخور واليأس، أفلحوا.

فإن هذين الأمرين أعظم الموانع لحصول المصالح ودفع المضار.

فإنّ الكسل والخَوَرَ ينافي الرغبة في الدين، وينافي الجهاد الحقيقي؛ وأما اليأس من حصول المصالح ومن دفع المضار فإنه الهلاك بعينه. وهل أَخَّر المسلمين عن الأمم، إلّا تفرقهم وكسلهم وجبنهم وخورهم ويأسهم من القيام بشؤونهم حتى صاروا بذلك عالة على غيرهم.

ودينهم قد حذّرهم عن هذه الأمور أشد التحذير.

وأمرهم أن يكونوا في مقدمة الخلق في القوة، والشجاعة، والصبر، والملازمة للسعي في كل أمر نافع، والعزم، والحزم، والرجاء وحسن الثقة بالله في تحقيق مطالبهم. والدواعي لهم في ذلك متوفرة، فإن مجرد السعي في ذلك بحسب الإمكان من أفضل الأعمال المقرِّبة إلى الله.

والقوة الإيمانية والأُخوّة الدينية ووجوب النصيحة وارتقاب مواعيد المولى الصادقة التي لا تتخلف عن أسبابها، حيث وعد المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان بالعون والنصر والتسديد والتأييد.

كل واحد من هذه الأمور يكفي وحدَه في حث المؤمنين على القيام بشؤونهم ومصالحهم الكلية. فكيف وهي كلها حاصلة؟

ثم إن الكسلان الذي مَلَكَهُ الخَوَرُ واليأس، أيَّ شيء يرتَقِبُ وأيَّ خير ينتظر؟ أليس الوهن والضعف والجبن أكبر سلاح للأعداء، وهي الطريق الوحيد للذل والإهانة والسقوط إلى أسفل سافلين من تسفل النفس وهبوط

الأخلاق؟ فأين الأنفة النفسية وأين الحمية الدينية، وأين الشهامة الإنسانية؟ فوالله إن موت هؤلاء خير من حياتهم حياة الذُّلِّ وموت الأخلاق الطيبة. أليس هذا ميراثنا تلقَّوه عن المنافقين الذين قال الله عنهم:

﴿وإذْ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ ورسولُهُ إلَّا غُروراً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ١٢]

أين هؤلاء ممن قال فيهم وفي نفوسهم الجميلة والجليلة:

﴿مِنَ المؤمنين رجالٌ صَدَقُوا ما عاهدوا اللَّهَ عليهِ فمنهُم من قضى نحبَه ومنهمْ مَنْ ينتظرُ وما بَدَّلُوا تبديلاً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٣]

ولكل قوم وارث، فقد ورثهم في الأرض رجال من المؤمنين من ملوكهم، ورؤسائهم وعلمائهم وأشرافهم وذوي النجدات منهم، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، حيث عاهدوا ربهم على التمسك بدينه والقيام به أتم القيام والجهاد في سبيله.

فمنهم الباذل لنفسه، ومنهم الباذل لماله.

ومنهم الحاثُّ لإخوانه المسلمين على القيام بما يقدرون عليه.

ومنهم الساعي بينهم النصيحةَ والتأليفَ.
ومنهم المنشِّط للمؤمنين بقوله وماله وجاهه.
ومنهم الفذُّ الجامع لذلك كله.

فهؤلاء رجالات المؤمنين وخيار المسلمين الذين بهم قام الدين وبه قاموا، وهم الرواسي في إيمانهم وجهادهم، ولا يردهم عن مرادهم رادّ. ولا يصدُّهم عن المضي في سبيلهم صادّ. لا تزعزعهم الحوادث، ولا تفزعهم الكوارث، تتوالى عليهم المصائب فيثبتون لها ثبوت الجبال، وتتتابعهم الأهوال المفظعة فيتلقَّوْنها بصدور منشرحة وأنفس مطمئنة فعلَ الكُمَّلِ من الرجال.

فواها لهؤلاء الأبطال، ما أعلى قدرهم، ولله درُّهُم ما أعظم ثوابهم، وأجزل أجرهم.

ومما يجب على المؤمنين أن يحذروا غاية الحذر من المخذلين المرجفين ومن المفسدين بينهم في السعي في الفتن والتفريق بينهم؛ إنّ هؤلاء أضرٌّ عليهم من العدو المحارب، قال تعالى في وصف أمثال هؤلاء:

﴿لَوْ خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُم يَبْغُونَكُمُ الفتنةَ وفيكُمْ سمَّاعونَ لهم﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٧]

أي مستجيبون لهؤلاء المفسدين لا يفهمون مغزى مرادهم فيغترّون بهم، فتحصل الفرقة بين المؤمنين.

فعلى المؤمنين أن ينتبهوا لهؤلاء المفسدين.

وعلى المسلمين أيضاً أن لا يجعلوا الاختلاف بينهم في الأقوال والمذاهب وفي الملك، والسياسات والأغراض الشخصية حائلاً يحول بينهم وبين تحقيق الأُخوَّة الدينية الدينية والرابطة الإيمانية، بل يجعلون الخلافات كلها والأغراض الجزئية تبعاً لهذا الأصل الكبير، لأن مصلحة ذلك الكلية وما يطلبهم دينهم منهم من الوحدة والأُلفة وما يمنعهم منه من التفرق المفكك لوحدتهم وقوتهم يأتي على ذلك أجمع، ويُقَدَّم على كل شيء.

فالمصالح الكلية تتدرج فيه الأغراض الجزئية، فمتى صار الغرض الوحيد المصالح العامة تبعتها المصالح الخاصة.

قال تعالى:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المنافقون والذينَ في قلوبهم مَرَضٌ والمُرْجِفُون في المدينةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِم﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٦٠]

فهذه الآية: وما اشبهها من الآيات بيَّنت أن أمثال هؤلاء المرجفين

ضررهم عظيم، وشرهم مُستطير، وما أكثر وراَئهم في هذه الأوقات التي اضطُر المسلمون فيها إلى نُصرة الأولياء حيث يوجد طائفة من الناس يثبِّطون عن الجهاد في سبيله، ومقاومة الأعداء، ويخذِّرون أعصابهم ويؤيسون المسلمين، ويوهمونهم أن كل عمل يعملونه لا فائدة فيه، فهؤلاء لا خير فيهم؛ لا دين صحيح، ولا مروءة ولا إنسانية، ولا حمية قومية وطنية.

ومع ذلك فهم صاروا أضرَّ على المسلمين من الأعداء.

فليعلمْ أمثال هؤلاء ومن يستجيبُ لهم أن الله لم يكلِّف المؤمنين إلّا وسعهم وطاقتهم، وأن لهم في رسول الله أسوة حسنة.

فقد كان ﷺ له حالان في الجهاد والدعوة.

أَمَر في كل حال بما يليق بها ويناسبها.

أمر لما كان في مكة والمسلمون قليل والقوة ضعيفة والأعداء كثيرون بالاقتصار على الدعوة إلى الدين وبيان محاسنه وجذب الناس إليه وجهادهم بالدعوة.

وأمر أن يكف يده عن القتال باليد لما فيه من الضرر وخلاف الحكمة كما هو ظاهر لكل أحد، وأن يُسَالِمَ الأعداءَ ويستدفع ضررهم بكل طريق ويتحمل كثيراً مما يعملون معه ومع الإسلام.

فلما هاجر إلى المدينة وقوي المسلمون وكثروا وعظمت وطأة الأعداء ومقاوماتهم العنيفة للإسلام والمسلمين، أمر بجهاد اليد مع جهاد الدعوة. فللمسلمين برسول الله أسوة حسنة. من كانت المصلحة تقتضي مهادنتهم ومسالمتهم من الأعداء سالموه وهادنوه، وتحمّلوا أضرارهم القليلة لدفع ما هو أعظمُ منها، ومن تعينت المصلحة في قتالهم بالسلاح لعدوانهم وشرِّهم وضررهم الكبير قاوموه بالسلاح والقوة، فيتبعون ما تعينت مصلحته الدينية ويستعينون على المضي في أحد الأمرين بالمشاورة والمراودة.

والمشاورة أحد أصول السياسة الدينية بل هي أهم قواعدها، كما قال تعالى:

﴿وأَمْرُهُم شُورَىٰ بينَهُم﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

﴿وشاوِرْهم في الأمر﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وهذا من أهم ما فَرَضَه الله على المؤمنين في إصلاح وتدبير أمورهم الكلية، وله من الفوائد ما لا يُحصى.

منها: امتثال أمر الله والاقتداء برسول الله ﷺ إذ كان يشاور أصحابه في كل أمر مهمّ.

ومنها: أن المشاورة من أكبر الأسباب لإصابة الصواب وسلوك الطرق النافعة لاجتماع آراء المؤمنين وأفكارهم، وتنقيحها وتصفيتها، مع أن الله معهم في هذه الحال يسددهم ويؤيدهم.

ومنها: أن المشاورة تتنوَّر فيها الأفكار وتترقَّى فيها العقول والآراء لأنها تمرين للأذهان، واستعمالٌ للقوة العقلية فيما خُلقت له وهيئت، واقتباسٌ بعضهم من آراء بعض.

ومنها: أنه قد يكون الصواب من مجموع رأيين أو ثلاثة أو عدة آراء ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمشاورة.

ومنها أن المشاورة من أسباب المحبة بين المؤمنين، وتآلف قلوبهم وشعور جميعهم أن مصلحتهم واحدة، وتنبُّه الأذهان للفكر في ذلك، فإن من لا يشاور في الغالب فإنه لا يعمل فكره في هذه الأمور فضلاً عن أن يهتدي إلى الصواب.

ففتح باب المشاورة بين المؤمنين في تعيين مصالحهم الكلية ودفع مضارهم، وفي أنسب الوسائل، والطرق التي يسلكونها لتحصيل ذلك عون كبير على القوة والصلاح والفلاح والنجاح.

وقد آتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى.

فالمسلمون قد أرشدهم الله أن يسعَوْا إلى مصالحهم، وعلّمهم كيفية الوصول إليها بإعمالهم لأفكارهم مجتمعين، فإذا تعينت المصلحة في طريقٍ سلكوه، وإذا ظهرت المضرَّةُ في أمر من الأمور سَعَوْا إلى دفعها ومدافعتها، وإذا اشتبهت المصالح بما ينافيها من المضار وتعارضت قدّموا راجحها على مرجوحها، فلا يدعون مصلحة داخلية ولا خارجية صغيرة ولا كبيرة إلاّ تشاوروا فيها وقدموا ما تقتضيه المصلحة.

وقد أوجب الله على المسلمين أمرين عظيمين عليهما مدار الجهاد.

الاستعداد لعدوهم بما يستطيعون من قوة عقلية ومعنوية ومادية.

ويدخل في ذلك تعلم الفنون الحربية من الرمي والركوب وعمل السلاح المناسب للوقت والمكان، وبما لا تتم هذه الأمور إلاّ به من تعلُّم الصناعات المعينة على هذا الأمر.

وأَمَرَهُم بأخذ الحذر من عدوهم وهو التحرز والتحصن منهم.

وأن يكونوا منهم أبداً على حذر في وقت السلم فضلاً عن وقت الحرب، وأن تكون لنا العيون والأرصاد عليهم لنعلم كل حركاتهم العلمية والحربية حتى لا يسبقونا إلى الأعمال والصنائع النافعة، فإن ضعف المسلمين وقصورهم وجهلهم بالصنائع وعمل الأسلحة من فرص الأعداء. فلنأخذ عليهم هذا الطريق الذي منه يدخلون علينا. لعل الله أن يَكُفَّ بأسَ الذين كفروا. ولا نكون عالة فيها وفي غيرها عليهم، فإنهم بذلك يتمكنون مما يريدون. فإنّ لله في هذه الدنيا سُنَنًا لا تتغير، وإن الحياة العزيزة لا تكون لمن أذلَّ نفسه وخَذَلَها وتسوَّل غيره.

ولئن قال متحذلق مُخْذِل، إنّ أمة المسلمين الآن متعذر عليهم أن

يسلكوا هذا الطريق فذاك من جهله وجبنه وخَوَره، فالله تعالى حكيم، وأمرنا بسلوك طرق الحكمة وليست الأمور العظيمة يقفز إليها قفزاً.

وقد علّمنا تعالى أن نبدأ بما نقدر عليه. ولا نتركَ المقدور لعجزنا عن الكمال. فمتى أَدَّينا ما علينا وقمنا بما فرض علينا وما نستطيعه، كنا مجاهدين ومحمودين وعزيزين، فإن مَنْ يسعى لعزه ولغاية مجده فطريقه وإن كان ضعيفاً فهو طريق المجد وطريق الحزم وطريق القوة والشجاعة.

فرحم الله من أعان على الإسلام ولو بشطر كلمة.

وقد أمر الله بالجهاد بالنفس، والمال وبالأقوال، والأفعال وبالمباشرة وإعانة المباشرين بالمال، والدعوة، والتشجيع، والتحريض؛ فكل من لم يَغْزُ ولم يحدِّثْ نفسه بالغزو مات على شُعبةٍ من النفاق، كما صح الحديث بذلك.

فأهل الحَلِّ والعقد والرياسة من الملوك، والأمراء، والوزراء، ورجال الدول الإسلامية عليهم أن يسعوا أحثَّ السعي لتحصيل القوتين، القوة المعنوية، والقوة المادية، بإزالة جميع الحواجز، والموانع التي حالت بين المسلمين وبين اتفاقهم واجتماع كلمتهم، وتآلف قلوبهم، وأن يفهموا الأسباب التي فَرَّقَتْهم من الأغراض الشخصية والمطامع والأغراض الردية، والأيدي الأجنبية، فإنهم متى فهموها حقَّ الفهم عرفوا أنها تنافي مصالحهم الدينية والدنيوية، ومنافعهم الكلية، وتنافي ما يحثُّ عليه العقل والحزم من وجوب تقديم المصالح العامة على الأغراض الخاصة.

وقد قال تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كان آباؤكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اَقْتَرَفْتُمُوها وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كسادَها ومساكنُ تَرْضَوْنها أَحبَّ إليكُم مِنَ اللَّهِ ورسولِه، وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتى يأتيَ اللَّه بِأَمْره واللَّهُ لا يهدي القومَ الفاسِقين﴾. [سورة التوبة: الآية ٢٤]

فتوعَّدَ اللَّهُ مَنْ كانت هذه الأمور أحبَّ إليه من الله ورسوله ومَنَعَتْهُ من الجهاد في سبيله وقدمها عليه.

وهذه المذكورات في هذه الآية الكريمة هي الموانع والحواجز عن القيام بالجهاد في سبيله قولاً وفعلاً. ومن أكبر أسباب الجبن، فلا يتحقق الإيمان إلّا بتقديم حبِّ الله ورسوله والجهاد في سبيله عليها. فإن الله قد وعد على الجهاد في سبيله مغفرة الذنوب والسيئات وحصول الخيرات ودخول الجنات والفتح في الدنيا والعز والنصر القريب.

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا هلْ أدلُّكم على تجارةٍ تُنجِيكمْ مِنْ عذابٍ أليم﴾ إلى قوله ﴿وبشر المؤمنين﴾ [سورة الصف: الآيات ١٠ ـ ١٣]

فأخبر تعالى أنّ من قام بالإيمان والجهاد فقد حصَّل التجارة الرابحة وأدرك الصفقة والغنيمة والخيرات المتتابعة.

تالله لقد حرم الناكلون عن الجهاد خيراً كثيراً، ولقد سَعَوْا فيما يُكْسِب الذُّل وخَسِروا خُسراناً كبيراً، فأين الشهامة الدينية وأين الغارية الإيمانية، وأين الرغبة في الخير؟..

يا عجباً لمؤمن يرى أهل الباطل يجهدون ويألمون في نصر باطلهم، وهم لا غاية لهم شريفة يطلبونها، وهو مُخْلِدٌ إلى الكسل عن نَصْر الحق الذي يترتب على نَصرِهِ من الخيرات العاجلة والآجلة ما لا يمكن التعبير عنه، كل ذلك خوفاً من المشقة وزهداً في إعانة إخوانه المسلمين في ماله أو بدنه وقوله وفعله، بل زهداً في مصالح نفسه الحقيقية.

قال تعالى:

﴿إنْ تكونوا تألَمونَ فإنّهم يألَمونَ كما تَألَمونَ وتَرجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لاَ يَرْجون﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

وعلى أهل العلم من بيان فضل الجهاد ووجوبه وتبيين منافعه ومصالحه الضرورية وحضّ الناس على ذلك أعظمُ مما على غيرهم.

وعليهم أن يوضحوا للمسلمين أن جميع حركاتهم وسكناتهم، وأقوالهم وأفعالهم ونفقاتهم المقوِّية للدين ودفع ضرر الأعداء، كلها داخلة في هذا الواجب العظيم. وأن يفهموهم أن الاختلاف في المذاهب والتباين في المشارب لا يمنع من اتفاقهم جميعاً على هذا الأصل الذي يجمع قاصيهم لدانيهم. وأن المصالح العامة الكلية مقدمة على الأغراض الجزئية والمنافع الشخصية وأن هذا العمل مصلح لدين المسلمين ودنياهم.

ثم على كل فرد أن يبدي مجهوده في نصر الدين وتقوية المسلمين بما استطاع من نفقة أو قول أن ينهض المسلمين ويقوي عزائمهم ويبعث هممهم.

وعلى الرؤساء، والمرؤوسين الترغيب في تعلم الفنون الحربية والصناعات النافعة، وعمل الأسلحة والحصون الواقية واستجلاب ما تعذرت صناعته، والسعي في تنمية المصالح والمنافع الاقتصادية بالعمل بالأسباب الميسَّرة لها، المُعِينَة على تحصيلها، فإن المصالح الاقتصادية هي العون على المصالح الدينية، فكل ما فيه تقوية المسلمين ودفع الأضرار والشرور من الأعدا عنهم فهو من الجهاد.

وعليهم أن يدرسوا أحوال الأمم الأجنبية وسياساتهم فإن معرفة ذلك من أسباب أخذ الحذر منهم والتوقِّي لشرهم.

وعليهم مع فعل الأسباب النافعة أن يتوكَّلوا على الله ويستعينوا به ولا يتَّكِلوا على حولهم وقوتهم، ولا يغتروا بحالهم ويعجبوا بأنفسهم ولا يستهينوا بأعدائهم بل يحسبون لهم كل حساب.

ومن أعظم الجهاد، الجهاد المالي. والله تعالى قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس. فإن النفقة في سبيل الله أفضل النفقات على الإطلاق وبها

يستعان على قتال الأعداء بتحصيل الأسلحة وصناعتها. والمراكب المناسبة لزمانهم. وإقامة جميع مؤن الجهاد.

حتى إن دفع المال الذي يدفع للأعداء لوقاية شرهم من الجهاد بالمال. فبذل المال للأجانب، عند الاضطرار، مقدَّمٌ على ما هو أخطر منه وأشد ضرراً.

وقد أمرهم الله أن يتعاونوا على البر والتقوى.

فالبِرُّ اسم جامع لفعل الخير كله ووسائله وطرقه.

كما أن التقوى اسم جامع للتعاون على اتقاء ما يخشى ضرره في الدين والدنيا والآخرة. أي تعاونوا على فعل الخيرات وعلى ترك المنكرات. وتعاونوا على كل وسيلة تعين على ذلك. فالعالم بوعظه وتذكيره وتعليمه. والغني بماله. وذي السداد برأيه وعقله وتدبيره وسياسته. وأهل النجدة والشهامة بقوتهم وتحضيضهم لغيرهم والعامل بعمله وصناعته، وكل فرد يُعين بنفسه ورعايته وتشجيعه وصاحب الجاه بجاهه. فيكون المؤمنون كالجسد الواحد والبنيان الذي يشد بعضه بعضاً قال تعالى:

﴿فاتَّقوا اللَّهَ ما آسْتطعتُم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وهذا يشمل جميع الأوامر الدينية، فليس لأحدٍ عذرٌ في القيام بالمستطاع منها.

وقال تعالى:

﴿وجاهِدوا في الله حقَّ جهادِه هو آجْتباكُم وما جعلَ عليكُم في الدينِ من حرجٍ﴾

[سورة الحج: الآية ٧٨]

فإنه لما أمر بالجهاد أخبر بالطريق التي تسهِّله، والدواعي التي تدعو إليه، فَكَوْنُ الله آختارَ المؤمنين وآجْتَبَاهُم وآختارَ لهم هذا الدينَ العظيم الذي

هو دينه الذي يوصل إليه وإلى كل كرامة، وهذا من أكبر الدواعي إلى الجهاد حيث كان هذا العمل الجليل يوصل إلى كل خير ويدفعُ كلَّ شر، ومع ذلك فما جعل عليكم في الدين من حرج، فلم تُكَلَّفوا من الجهاد إلّا ما تستطيعون ويَهونُ عليكم، كلٌّ على قدر حالِه ومقدرتِه.

وقد أمرهم الله بالقيام بالقسط والوفاء بالعهود قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامينَ بالقِسطِ شُهداءَ للَّهِ﴾

[سورة النساء: الآية ١٣٥]

﴿وأَوْفُوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كانَ مسْؤُولاً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٤]

فهذان الأصلان العظيمان وهما:

القيام بالقسط، الذي هو العدل التام على الأنفس والأقربين والأبعدين..

والوفاء بالعهود كلها من أكبر أصول الدين ومصالحه، وبالقيام بهما يتم الدين وتحصل الهداية والإعانة من الله والنصر والمدافعة، فما ارتفع أحد إلّا بالعدل والوفاء، ولا سقط أحد إلّا بالظلم والجور والغدر.

وهذه الأمور كلها مضطرة إلى قوة التوكل على الله والاقتداء بسيد المرسلين فيه، فهو سيد المتوكلين، ومع ذلك فقد كان يعمل بجميع الأسباب النافعة ويحض عليها. فالتوكُّل هو الثقة بالله والاعتماد على قوته وحوله في تيسير الأمور التي يباشرها العبد، والالتجاء إلى الله في حصولها، وطمأنينة القلب فيكون المتوكل يعمل بجدٍّ واجتهاد، مطمئنًا بالله واثقاً به لا يخاف سواه، ولا يرجو غيره؛ لا يملكه اليأس، ولا يساوره القنوط، غير هياب ولا وَجِل ولا متردِّد لأنه يعلم أن الأمور بيد الله، وأن نواصِي العباد وأزمَّة أمورهم تحت تدبيره ومشيئته فإنّه القوي العزيز.

بهذا التوكل نال المسلمون الأوَّلون العز والشرف والسلطان وصلاح الأحوال، ولم يكن زادهم في مضيهم في سبيلهم إلّا قوة التوكل على الله.

فهذه حال المسلمين، لا الخور والمهانةوالتواكل والتخاذل والإخلاد إلى البطالة، فإنه ينافي التوكل كل المنافاة، كحال كثير من الناس في هذه الأوقات: يرون عدوَّهم يحاربُهم وهم ساكتون لا يدفعونه بوسيلة من الوسائل، ولا يقاومونه فتكون النتيجة ضياع استقلالهم، وذهاب ملكهم وأموالهم، وحلول المصائب المتنوعة عليهم من كل جانب، ويزعمون أنهم متوكلون! كلاً والله..

ومن أعظم وسائل الجهاد في هذه الأوقات عقد المعاهدات بين الحكومات الإسلامية، المحتوية على كمال الصداقة، وعدم الاعتداء، واحتفاظ كل حكومة بشخصيتها الدولية، وإدارتها داخلاً وخارجاً، والتكافل بينها والتضامن، وأن يكونوا يداً واحدة على من تعدَّى عليهم أو على حقوقهم؛ وتسهيل الأمور الاقتصادية فيما بينهم طلباً لمصلحة الكل، وتقريباً لقلوبهم، وأن يعملوا لهذه الأسس والأصول أعمالها اللائقة بها، والمناسبة لها، ويسعَوْا أحثَّ السعي لتحقيقه وإزالة العقبات الحائلة دونه، وهذه وإن كانت في بادىء الرأي صعبة فإنها يسيرة بتيسير الله والتوكُّل عليه.

واليوم، وإن كان المسلمون مصابين بضعفٍ شديد، والأعداء يتربَّصُون بهم الدوائر ـ هذه الحالة أوجدت من بينهم أناساً ضعيفي الإيمان ضعيفي الرأي والقوة، يتشاءمون أن الأمل في رِفعة الإسلام قد ضاع، وأن المسلمين إلى ذهابٍ واضمحلال، ولقد غلطوا في هذا أعظم غلط فإن هذا الضعف عارض، له أسباب، وبالسعي في زوال أسبابه تعود صحة الإسلام كما كانت، كما تعود إليه قوته التي فقدها منذ أجيال.

ما ضَعُف المسلمون إلّا لأنَّهم خالفوا كتابَ ربهم وسُنَّة نبيهم ﷺ وتنكبوا

السُّنن الكونية التي جعلها الله مادة حياة الأمم ورقيِّها، فإذا رجعوا إلى ما مَهَّده لهم دينُهم فإنهم لا بدَّ أن يصلوا إلى الغاية، كلِّها أو بعضها.

وهذا المذهب المهين، وهو التشاؤم والكسل، لا يعرفه الإسلام، ولا يرتضيه، بل يحذِّر عنه أشد تحذير، ويبين للناس أن النجاح مأمول وأن مع العسر يسراً، وأنه سيجعل الله بعد عسر يسراً، ويبين أنه لا أضر عليهم من اليأس والقنوط.

فَلْيَتَّقِ هؤلاء المتشائمون ربَّهم، ولْيَعْلَموا أن المسلمين أقربُ الأمم إلى النجاح الحقيقي.

ويقابل هؤلاء طائفة يؤمّلون آمالاً عظيمة، ويقولون ولا يفعلون، فتراهم يتحدّثون بمجد الإسلام ورفعته، وأن له العاقبة الحميدة. وأن الرجوع إلى تعاليمه وهدايته هو السبب الوحيد لعلو أهله ورفعتهم، ولكن لا يقدمون لدينهم أدنى منفعة، بدنية ولا مالية، ولا يقدِّمون مساعدة جدِّية لتحقيق ما يقولون؛ فإن الأقوال لا تقوم إلّا إذا قارنتها الأفعال.

ويا طوبى لطائفةٍ هُم غُرةُ المسلمين، وهم رجال الدنيا والدين، قَرَنوا الأقوال والأفعال، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وبأقوالهم وبإنهاض إخوانهم، وتبرأوا من مذهب المتشائمين ومن أهل الأقوال دون الأفعال، فهؤلاء هم الذين يُناط بهم الأمل، وتُدْرك المطالب العالية بمساعيهم المشكورة وأعمالهم المبرورة.

ومن أعظم أصول الجهاد والتربية، الاعتناء والاهتمام التام بشبان الأمة، فإنهم محل رجائها وموضع أملها ومادة قوتها وعزتها؛ وبصلاح تربيتهم تصلح الأحوال كلها، فعليهم أن يعتنوا بتربيتهم العالية، وأن يبثُّوا فيهم روح الدين وأخلاقَه الجميلة والحزمَ والعزمَ، وجميعَ مبادىء الرجولة، وتدريبهم على المصاعب والمشاق والصبر على الأمور النافعة والثبات عليها، وتحذيرهم من

الجبن والخور والسير وراء المادة والطمع، والانطلاق في المجون والهزل والدعة، فإن ذلك مدعاة للتأخر العظيم. وشباب الحاضر هم رجال المستقبل؛ وبهم تعقد الآمال، وتدرك الأمور المهمة. فاجتهدوا أن يكونوا في خصال الخير والفضائل المثل الأعلى، وبأوصاف الحزم والمروءة والكمال القدوة المثلى.

ومن أهم أمور الجهاد، وخصوصاً في هذه الأوقات، التعاونُ بين المسلمين في جميع شؤونهم: الدينية، والسياسية، والاقتصادية، واتصال بعضهم ببعض في تحقيق ذلك، لأن عددهم كثير وأعداؤهم جادون في الحيلولة بينهم في هذه الأمور، وقد تفننوا في تفريقهم وأقاموا الحواجز والسدود في اتصال بعضهم ببعض، حتى أوهنوا قُواهم وساءت حالهم وهم مجدون في هذا الأمر.

فمن أكبر الجهاد السعيُ في الأسباب التي بها يتعارف المسلمون ويتفاهمون، حتى يعرفوا كيف يتعاونون على الحصول على حقوقهم، ودفع المعتدين عنهم بكل وسيلة؛ ولا ينبغي إذا رأوا أنهم لا يدركون كلَّ ما يريدون أن يضعفوا عن بعض ما ينفعهم ويحصل به الدفاع؛ فمن جد واجتهد واستعان بالله فلا بد له من النجاح.

ومن أهم الجهاد السعي في إصلاح التعليم، وأن تكون المدارس يُعَلَّمُ فيها الأهم فالأهم من العلوم النافعة للدنيا والدين، وأن يكون الدين هو الأصل الأعظم فيها والأساس الأقوم، وأن يكون غيره وسيلة وتبعاً له، وأن يكون الغرض الوحيد من الناجحين فيها المتخرجين أن يكونوا صالحين في أنفسهم، مصلحين لغيرهم، مُتَرَبِّين بالأخلاق النافعة، مهتمِّين بتربية الأمة؛ فإن أكثر المدارس الآن إنما هي بالعكس من هذا الأمر: الفنون الدنيوية هي الأصل، وعلوم الدين يجعل لها جزء ضعيف من التعليم، ولا يُعتنى بأخلاق التلاميذ وآدابهم. وإنما الغرض منها المادة، وأن يخرج منها تلاميذ يصلحون للوظائف الدنيوية المادية البحتة، وهذا أكبر نقص، وأكبر الدواعي للضعف والانحلال.

ولا شك أن السعي في إصلاح التعليم من أهم الأمور، وبه ترتفع الأمة الإسلامية وتنتفع بعلمائها وعلومها، فالتعاليم النافعة والتربية الصالحة تقود المسلمين إلى كل خير وفلاح، وتكون للعلوم مقصوداً، بها حصول المنافع والصلاح والإصلاح.

ومن أهم أمور الجهاد، بل هو أصله وقاعدته، أنه كما يلزم الاستعداد بالحصون المنيعة والسلاح القوي والجيوش العاملة والأُهَبِ الوافرة، فينبغي أن تُوَلى الأكفاء من ذوي الرأي والحكمة والخبرة والتدبير والحزم والحذق. وأن يكونوا أهل دين وأصل راسخ يقومون على شؤون المملكة. يوطئون بساط الأمن وطرق الراحة، ويرفعون بناء الملك على طريق العدل، ويوقفون الرعية على حدود الشريعة، ويراقبون مع ذلك روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا المنزلة التي تليق بها بالمعاهدات السلمية والاقتصادية وغيرها.

ومن أكبر الخيانات تولية غير أهل الحمية الناصحين، أوغير الأكفاء الخبيرين قال تعالى:

﴿إنّ اللّهَ يأمُرُكم أَنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهلها﴾

[سورة النساء: الآية ٥٨]

وأعظم الأمانات أمانةُ الولايات كلِّها، صغيرها وكبيرها.

والحذر من تولية الأجانب، فإنهم إذا ائتُمِنوا خَانُوا وإذا عَزُّوا أَهانوا، يقابلون الإحسان بضدِّه ويتحيَّنون الفرص ويكُونُون أعواناً لأبناء قومهم عند أول حادث:

﴿قَدْ بَدَتِ البغضاءُ مِنْ أفواهِهِم وما تُخفِي صُدورُهُم أكبرُ﴾

[سورة آل عمران: الآية ١١٨]

وأهم صفات قواد المسلمين الاقتداء بنبيهم ﷺ والاهتداء بسنَّته وهَدْيه

في الجد الكامل لتقوية الإسلام والمسلمين وتكوين الأمة، وتربية أخلاقهم وأن يكون على جانب من العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعرفةٍ بتاريخ الإسلام ورجاله، ومعرفة الأسباب المضعِفة للأمة والسعي في إزالتها وتحقيقها حسب الإمكان، والسعي في طرق الإصلاح كلها.

وأن يكون ذا قوة وأمل ورجاء واسع، لا يملكه اليأس ولا يتطرقه الفتور. وأن يتصل بأفراد المسلمين، وجميع طبقاتهم اتصالاً وثيقاً، ويتعرف شؤونهم ويسأل عن أحوالهم ويأخذ بآرائهم الصائبة، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويكرَه لهم ما يكرَهُ لنفسه، وأن يكون ذا فكر ثاقب وسياسة تامة، وانتهاز للفرص النافعة، وأن لا يزال نُصْبَ عينيه نفعُ المسلمين وإصلاح دينهم ودنياهم، ودفع الشر عنهم بكل طريق؛ وأن يكون خالياً من الطمع والجشع، موصوفاً بالكرم والجود في محله، في إعلاء كلمة الحق ورفعة الإسلام، وأن يكون حسن العلاقات مع جميع العاملين من المسلمين في أنحاء العالم، يبدي لهم ودَّه، ويستشيرُهم ويأخذ بالناضج من آرائهم.

وأن يكون بصيراً بسياسات الأجانب، عارفاً لحقوقهم آخذاً الحذرَ من مَكْرِهم وخِداعهم، يعامِلُهم لمصلحة المسلمين، ويأخذ حذره منهم خوف الضرر.

وأن يكون في ذلك كله مخلصاً لله، مستعيناً به، متوكِّلاً عليه.

ومن أعظم وأجلِّ الجهاد في سبيل الله الدعوةُ إلى الدين والإسلام، بشرح محاسنه وإظهار جماله، في عقائده، وأخلاقه، وآدابه، وتعاليمه العالية الراقية؛ فإن في ذلك قوةً معنوية للمسلمين، فإنهم كلما فهموا دينهم وعرفوا ما يحتوي عليه من المحاسن التي تفوق الحد والإحصاء، ازداد إيمانهم وقوي يقينُهم واندفعت عنهم شبه الملحدين، وعَظُمَ تمسكهم التام به، وعلموا أن السعادة والفوز منوط بإرشاداته وهدايته، وكان ذلك أيضاً جهاداً للأعداء من جهتين:

إحداهما: أن المنصف منهم أو مَنْ لم يملكه التعصُّب الشديد إذا أبصر حقائق الدين وهدايته، التي فاقت كل هداية، وصلاحه وإصلاحَه للبشر كان من أكبر الدواعي لدخوله به إذا لم يحصل له موانـع قوية.

الثانية: أن في ذلك إقامة الحجة على المعاندين من الأجانب وعلى الملحدين، الذين قلّدوهم وخضعوا لهم، وفي ذلك من كفِّ شرِّهم كله أو بعضه من المصالـح ما لا يعد ولا يحصى.

فأكبر الجهاد الجهاد بالدين وهو أعظم سلاح للمسلمين، وأكبر جيش، إليه يلجأون، وبه يعتصمون، تبين أصوله الكلية ومصالحه العامة، وأنه يدعو إلى كل خير وصلاح وسعادة في المعاش والمعاد، وفي الظاهر والباطن، ويحثّ على إقامة العدل والقسط بكل طريق، ينهى عن كل شر وضرر وفساد، ويدعو إلى المقاصد النافعة، وإلى جميـع وسائلها، وأن جميـع أصوله وفروعه في غاية الإحكام والحُسْنِ

﴿ومن أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقومٍ يُوقِنُون﴾

[سورة المائدة: الآية ٥٠]

ومن تتبـع أصول الدين وفروعه وآدابه وأخلاقه وتعاليمه وإرشاداته العالية وَجَدَها تدعو إلى كل خير وصلاح وفلاح، وعرف أنه لا يمكن الصـلاح والإصلاح البشري إلاّ بالدين، وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميـع المسلمين.



وجوب التعاون بين المسلمين

وموضوع الجهاد الديني



وجوب التعاون بين المسلمين

وموضوع الجهاد الديني



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين * أحمده على ما له من صفات العظمة والكبرياء والجلال * وأشكره على نعمه الظاهرة والباطنة في جميع الأوقات، وفي الغدوّ والآصال * وأصلي على محمد أكمل الخلق في جميع الخصال * اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه خير صحب وأشرف آل * وعلى التابعين لهم في العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال * وسلم تسليماً.

أما بعد، فهذه رسالة تتضمن التنبيه على واجب المسلمين نحو دينهم، ووجوب التعاون بينهم في جميع المصالح والمنافع الكلية الدينية والدنيوية، وعلى موضوع الجهاد الشرعي، وعلى تفصيل الضوابط الكلية في هذه المواضيع النافعة الضرورية، وعلى البراهين اليقينية في أن الدين عند الله هو دين الإسلام.

عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي

وجوب التعاون على جميع المنافع الكلية وخصوصاً الجهاد

قال الله تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

فالبر اسم جامع لكل ما أمر الله به ورسوله، وأحبه الله ورسوله، من التحقق بعقائد الدين وأخلاقه، والعمل بآدابه وأقواله وأفعاله، من الشرائع الظاهرة والباطنة، ومن القيام بحقوق الله وحقوق عباده، ومن التعاون على الجهاد في سبيله إجمالاً وتفصيلاً، فكل هذا داخل في التعاون على البر.

ومن التعاون على التقوى التعاون على اجتناب وتوقّي ما نهى الله ورسوله عنه من الفواحش الظاهرة والباطنة، ومن الإثم والبغي بغير الحق، والقول على الله بلا علم، بل على ترك الكفر والفسوق والعصيان. ويدخل في ذلك التعاون على جميع الوسائل والأسباب التي يُتّقى بها ضرر الأعداء، من الاستعداد بالأسلحة المناسبة للوقت، وتعلم الصنائع المعينة على ذلك، والسعي في تكميل القوة المعنوية والمادّية المعينة على ذلك. قال تعالى:

﴿**وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّة**﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذركم**﴾

[سورة النساء: الآية ٧١]

فيدخل في هذا الاستعدادُ بكل المستطاع من قوة عقلية وسياسية وصناعية، وتعلم الآداب العسكرية، والنظام النافع، والرمي والركوب، والتحرُّز من الأعداء بكل وسيلة يدركها المسلمون، واتخاذ الحصون الواقية. وقد أمر الله

ورسوله بجهاد الكفار المعتدين ـ في آيات كثيرة وأحاديث متنوعة ـ بالنفس والمال والرأي، وفي حال الاجتماع، وفي كل الأحوال. والأمر بذلك أمر به وبكل أمر يعين عليه ويقوّيه ويقوّمه، وأخبر بما للمجاهدين في سبيله من الأجر والثواب العاجل والآجل، وما يدفع الله به من أصناف الشرور، وما يحصل به من العزّ والتمكين والرفعة، وما في تركه والزهد فيه من الذلّ والضرر العظيم؛ وتوعد الناكلين عنه بالخذلان والسقوط الحسي والمعنوي؛ وبَيَّـنَ لهم الطرق التي يسلكونها في تقوية معنويتهم، فإنه حثهم على التآلف والاجتماع، ونهاهم عن التباغض والتعادي والافتراق. وذلك أن حقيقة الجهاد هو الجد والاجتهاد في كل أمر يقوّي المسلمين ويصلحهم ويلمّ شعثهم، ويضم متفرّقهم ويدفع عنهم عدوان الأعداء أو يخففه بكل طريق ووسيلة.

أقسام الجهاد وأنواعه

الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية والعملية، وهذا النوع هو أصل الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهادٌ يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين ومقاومتهم. وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان.

هذا مجمل أنواعه على وجه التأصيل. أما التفصيل فنقول:

الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة واتفاق الكلمة

قال تعالى: ﴿وٱعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا، وٱذكروا نعمة الله عليكم إِذْ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبِكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

وقال تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألّف بين قلوبهم، لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبِهم ولكِنَّ اللَّهَ ألَّف بينهم﴾
[سورة الأنفال: الآيتان: ٦٢، ٦٣]

وقال: ﴿وإنْ طائفتانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فأَصلِحُوا بينهما، فإِنْ بغتْ إحداهُما على الأخرى فقاتلوا التي تبغِي حتى تفيءَ إلى أمر الله، فإِنْ فاءتْ فأَصلِحوا بينَهما بالعدلِ وأَقْسِطوا إنَّ اللَّهَ يحبُّ المقسطين * إنّما المؤمنون إخوةٌ فأَصلِحوا بين أخويكم﴾ [سورة الحجرات: الآيتان ٩، ١٠]

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: (وكونوا عبادَ الله إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يخذله)؛ وقال: (مَثَل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد) إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالّة على هذا الأصل العظيم، فإنّ من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية، في جمع أفرادهم وشعوبهم، وفي ربط الصداقة والمعاهدات بين حكوماتهم بكل وسيلة.

ومن أنفع الأمور أن يتصدّى لهذا الأمر جميعُ طبقات المسلمين من العلماء والأمراء والكبراء وسائر الأفراد منهم، كل أحد يجدُّ بحسب إمكانه. فمتى كانت غاية المسلمين واحدة وهي (الوحدة الإسلامية) وسلكوا السبل الموصلة إليها، ودافعوا جميع الموانع المعوقة والحائلة دونها، فلا بد أن يصلوا إلى النجاح والفلاح.

ومما يُعين على هذا الإخلاصُ وحسنُ القصد فيما عند الله من الخير والثواب، وأن يعلموا أن كل سعي في هذا الأمر من الجهاد، وفي سبيل الله ومما يقرب إليه وإلى ثوابه. وأن المصلحةِ في ذلك مشتركة، فالمصالح الكليات العامة تقدم على المصالح الجزئيات الخاصة. ولهذا يتعين عليهم أن لا يجعلوا الاختلاف في المذاهب أو الأنساب أو الأوطان داعياً إلى التفرق

والاختلاف؛ فالرب واحد، والدين واحد، والطريق لإصلاح الدين وصلاح جميع طبقات المسلمين واحد، والرسول المرشد للعباد واحد، فلهذا يتعين أن تكون الغاية المقصودة واحدة. فالواجب على جميع المسلمين السعي التام لتحقيق الأخوّة الدينية والرابطة الإيمانية، فمتى علموا وتحققوا ذلك، وسعى كل منهم بحسب مقدوره، واستعانوا بالله وتوكلوا عليه، وسلكوا طرق المنافع وأبوابها، ولم يخلدوا إلى الكسل والخوَر واليأس، نجحوا وأفلحوا. فإن الكسل والخور واليأس من أعظم موانع الخير، فإنها منافية للدين وللجهاد الحقيقي. فمن استولى عليه الكسل والخور لم ينهض لمكرمة. ومن أيس من تحصيل مطالبه انشلّت حركاته ومات وهو حي. وهل أخّر المسلمين في هذه الأوقات إلّا تفرقهم، والتعادي بينهم، وخوَرهم، وتقاعدهم عن مصالحهم والقيام بشؤونهم، حتى صاروا عالة على غيرهم؟ ودينهم قد حذّرهم عن هذا أشد التحذير، وحثهم على أن يكونوا في مقدمة الأمم في القوّة والشجاعة، والصبر والمصابرة، والمثابرة على الخير، والطمع في إدراكه، وقوة الثقة بالله في تحقيق مطالبهم، ودفع مضارّهم، وكمال التصديق بوعد الله لهم بالنصر إذا نصروه، وبالنجاح إذا سلكوا سبله، وبالإعانة والتسديد إذا كمل اعتمادهم عليه:

﴿إنْ تكونوا تألَمون فإنهم يألَمون كما تألَمون، وتـرجُون من اللَّهِ ما لا يرجُون﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

الفرق العظيم بين رجال الدين وبين المخذِّلين المرجفين

قال تعالى: **﴿مِنَ المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا اللَّهَ عليه، فمنهُم مَنْ قضى نحبَه ومنهُم من ينتظرُ، وما بَدَّلوا تبديلا﴾**

[سورة الأحزاب: الآية ٢٣]

هذا نعتُ رجال الدين: الصدقُ الكامل فيما عاهدوا الله عليه، من القيام بدينه

وإنهاض أهله، ونصره بكل ما يقدرون عليه، من مقالٍ ومالٍ وبَدَنٍ وظاهر وباطن. ومن وصفهم الثباتُ التامُّ على الشجاعة والصبر، والمضيُّ في كل وسيلة بها نصرُ الدين. فمنهم الباذل لنفسه، ومنهم الباذل لماله، ومنهم الحاثُّ لإخوانه على القيام بكل مستطاع من شؤون الدين، والساعي بينهم بالنصيحة والتأليف والاجتماع، ومنهم المنشِّط بقوله وجاهه وحاله، ومنهم الفذُّ الجامعُ لذلك كله، فهؤلاء رجال الدين وخيار المسلمين: بهم قام الدين وبه قاموا، وهم الجبال الرواسي في إيمانهم وصبرهم وجهادهم، لا يردُّهم عن هذا المطلب رادٌّ، ولا يصدُّهم عن سلوك سبيله صادٌّ؛ تتوالى عليهم المصائب والكوارث، فيتلقَّونها بقلوب ثابتة، وصدور منشرحة لعلمهم بما يترتب على ذلك من الخير والثواب والفلاح والنجاح.

وأما الآخرون، وهم الجبناء المرجفون، فبعكس حال هؤلاء. لا ترى منهم إعانة قولية ولا فعلية ولا جدّية؛ قد ملكهم البخل والجبن واليأس، وفيهم الساعي بين المسلمين بإيقاع العداوات والفتن والتفريق. فهذه الطائفة أضرّ على المسلمين من العدوّ الظاهر المحارب، بل هم سلاح الأعداء على الحقيقة. قال تعالى فيهم وفي أشباههم:

﴿لَوْ خَرَجوا فيكم ما زادوكمْ إلاَّ خَبالاً، وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُم يَبغُونكم الفتنةَ، وفيكم سمَّاعون لهم﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٧]

أي يستجيبون لهم تغريراً أو اغتراراً. فعلى المسلمين الحذرُ من هؤلاء المفسدين، فإن ضررهم كبير وشرهم خطير، وما أكثرَهم في هذه الأوقات، التي اضطر فيها المسلمون إلى التعلّق بكل صلاح وإصلاح، وإلى من يُعينهم وينشِّطهم. فهؤلاء المفسدون يثبِّطون عن الجهاد في سبيل الله ومقاومة الأعداء، ويخدّرون أعصاب المسلمين ويؤيسونهم من مجاراة الأمم في أسباب الرقي، ويوهمونهم أن كل عمل يعملونه لا يفيد شيئاً ولا يجدي نفعاً. فهؤلاء لا خيرَ فيهم بوجه من الوجوه. لا دين صحيحاً، ولا شهامة دينية، ولا

قومية ولا وطنية. لا دين صحيحاً، ولا عقل رجيحاً. فليعلم هؤلاء ومن يستجيب لهم أن الله لم يكلفِ الناس إلّا وسعهم وطاقتهم، وأن للمؤمنين برسول الله أسوةً حسنة، فقد كان له ﷺ حالان في الدعوة والجهاد: أُمِر في كل حال بما يليق بها ويناسبها؛ أُمِرَ في حال ضعف المسلمين وتسلط الأعداء بالمدافعة، والاقتصار على الدعوة إلى الدين، وأن يكفَّ عن قتال اليد، لما في ذلك من الضرر المرْبي على المصلحة. وأُمِرَ في الحالة الأخرى أن يستدفع شرور الأعداء بكل أنواع القوَّة، وأن يسالم من تقتضي المصلحة مسالمته، ويقاومَ المعتدين الذين تقتضي المصلحة، بل الضرورة، محاربتهم. فعلى المسلمين الاقتداء بنبيهم في ذلك، وهو عين الصلاح والفلاح.

وجوب المشاورة في كل الأمور الكلية وفوائدها

قال تعالى: ﴿**وشاورْهم في الأمر**﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وقال في وصف المؤمنين:

﴿**وأَمرُهم شُورَى بينهم**﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

وهذا يشمل جميع الأمور التي يحتاجونها، وتتعلق بها منافعهم الدينية والدنيوية. فعلى المسلمين أن يتشاوروا في تقرير المصالح والمنافع، وفي كيفية الوصول إليها، وفي تقرير الخطط التي يتعين سلوكها في صلاح أحوالهم الداخلية، وإصلاحها بحسب الإمكان، وفي الحذر من أعدائهم، ومقاومتهم، وسلوك الطرق السلمية أو الحربية بحسب ما تقتضيه المصلحة وبحسب الأحوال والظروف الحاضرة، وأن يعدُّوا لكل أمر عدَّته، وتجتمع قواهم كلها وعزائمهم على ما اتفقت آراؤهم على نفعه ومصلحته، فإن المشاورة من أعظم الأصول والسياسات الدينية، وفيها من الفوائد: امتثالُ أمرِ الله، وسلوك الطريق التي يحبها الله حيث نعت المؤمنين بها، وفيها الاقتداء برسول الله ﷺ فإنه ـ

مـع كمال عقله ورأيه وتأييده بالوحي ـ كان يشاور أصحابَه في الأمور المهمة.

ومن فوائد المشاورة أنها من أكبر الأسباب لإصابة الصواب، وسلوك الوسائل النافعة لاجتماع آراء الأمة وأفكارها، وتنقيحها وتصفيتها. مـع أن الله يُعينهم في هذه الحال التي فعلوا فيها ما أَمَرهم به ويسدّدهم ويؤيدهم * ومنها أن المشاورة تتنوَّر فيها الأفكار، وتترقّى المعارف والعقول، فإنها تمرين للقوة العقلية وتربية لها، وتلقيـح للأذهان واقتباس لبعضهم من آراء بعض * ومنها أنه قد يكون الصواب من مجموع رأيين أو ثلاثة أو أكثر، وإذا تقابل الصواب والخطأ ووزنتها العقول السليمة بـالموازين العقليـة التي لا تركن إلاّ إلى الحقائق الصحيحة ظهر الفرق بين الأمرين، ولا سبيل لذلك إلا بالمشاورة * ومنها أن المشاورة من أسباب الألفة والمحبة بين المؤمنين، وشعور جميعهم أن مصالحهم واحدة مشتركة، وتنبيه للأفكار والآراء على النافـع والأنفـع، وعلى الصالـح والأصلـح، فإن ترك المشاورة يخمد الأفكار ويضيـع الفرص التي يضر تضييعها. ففتـح باب المشاورة عون كبير في إصلاح الأمور وإكمالها وتجنب المضار.

وقد اتفق العقلاء على أن الطريق الوحيد لتحقيق الصلاح الـديني والدنيوي هو طريق الشورى؛ والله قد أرشد المسلمين إلى هذا الطريق، وأن يسعوا في ترقية أحوالهم بها. وعلّمهم كيفية الوصول إلى كل أمر نافـع، فإذا تعينت المصلحة في أمرٍ سلكوه، وإذا ظهرت المضرّة في طريق تركوه، وإذا تشابهت عليهم المسالك وتقابلت المنـافـع والمضارُّ رجَّحـوا ما تـرجَّحت مصلحته من فِعلٍ وتَرك، فلا يَدَعون مصلحة داخلية ولا خارجية إلاّ بحثوا فيها وتشـاوروا عليها وعملوا على مـا اتفقت عليه آراؤهم، وبـذلك يحمـدون ويشكرون ويفلحون.

وجوب الاستعداد للأعداء بكل قوة وأخذ الحذر منهم

قال تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومِن رِباطِ الخيل تُرهِبون به عدوَّ الله وعدوَّكم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذْركم فانفِرُوا ثُباتٍ أو انفِرُوا جميعاً﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

تضمنت هاتان الآيتان جميع ما يلزم المسلمين في مدافعة الأعداء ومقاومتهم، وذلك بالاستعداد بالمستطاع من قوة عقلية وسياسية ومعنوية ومادية، فدخل في ذلك تعلمُ أنواع الفنون الحربية، والنظامُ السياسي والعسكري، والاستعدادُ بالقوّاد المحنّكين المدرّبين، وصناعة الأسلحة، وتعلمُ الرمي والركوبُ بما يناسب الزمان، وبأخذ الحذر من الأعداء بالتحرز والتحصن، وأخذ الوقاية من شرهم، ومعرفة مداخلهم ومخارجهم، ومقاصدهم وسياساتهم، وعمل الأسباب والاحتياطات للوقاية من شرّهم وضررهم وأن نكون منهم دائماً على حذر في وقت السلم فضلاً عن وقت الحرب، فإنَّ جهل المسلمين بشيء من المذكورات نقص كبير فيهم، وقوة لعدوّهم، وإغراء له بهم. فعلى المسلمين الأخذ بكل معنى من معاني الحذر، وبكل وسيلة من وسائل القوَّة والاستعداد، عسى الله أن يكفَّ بأس الذين كفروا. فإنَّ جهل المسلمين بشيء من ذلك وكسلهم عن العمل ضرره كبير، وبذلك يكونون عالة على غيرهم، وهذا عنوان الذل، فإنّ لله سنناً كونية جعلها وسائل للعزّ والرقي، مَنْ سَلَكها نجح، ودين الإسلام يحثّ عليها غاية الحث.

الوجوب يتعلق بقَدْرِ القدرة والاستطاعة

قال تعالى: ﴿فاتَّقوا اللَّهَ ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وقال ﷺ: (إذا أمرتكم بأمر فأْتوا منه ما استطعتم). فالله تعالى أمر بالجهاد بالنفس والمال، وبالأقوال والأفعال، وبالمباشرة وإعانة المباشرين، وبالدعوة والتحريض والتشجيع. وقد صح عنه ﷺ أنه قال (من لم يغزُ ولم يحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق) فكلُّ مَنْ في قلبه إيمانٌ فلا بد أن يكون له نصيب من هذا الجهاد، وكل أحد فُرِض عليه أن يقوم بما يستطيعه من ذلك، ولا يكلِّف الله نفساً إلاّ وسعها. فأهل الحل والعقد والرياسة من الملوك والأمراء والوزراء ورجال الدول الإسلامية عليهم أن يسعوا أحثَّ السعي لتحصيل القوتين: القوة المعنوية والقوة المادية، وذلك بالسعي لإزالة الموانـع والحواجز التي حالت بين المسلمين وبين اتفاقهم واجتماع كلمتهم، وأن يفهموا العوامل التي فرّقتهم والأغراض المتباينة التي شتَّتَتْهم، وأن الأيدي الأجنبية تتوسل بذلك لتحصيل أغراضها، فمتى فهموها وعملوا على إزالتها بجدٍّ واجتهاد فلهم نصيب وافر من الجهاد في سبيل الله.

وعلى أهلِ العلم من بيان فضـل الجهاد ووجـوبه، وتبيين منـافعه الضرورية، وحضّ الناس عليه، والوعظ العام والخاص، أعظمُ مما على غيرهم. وعليهم أن يبيِّنوا للناس أن جميـع حركاتهم وأقوالهم وأفعـالهم ونفقاتهم المقوية للدين المعينة للمسلمين في دفـع اعتداء المعتدى، كل ذلك، داخلٌ في الجهاد في سبيل الله؛ فمتى عرف المؤمنون موضوع الجهاد، وأنه اسم جامـع لسلوك كل سبب ووسيلة في إعلاء كلمة الدين، وفي مقاومة الأعداء والحذر والتحرّز منهم، نشطوا للقيام به وأخلصوا لله فيه والعمل الخالص نفعه كبير، وأجره عظيم.

وكذلك يجب على كل فرد من أفراد المسلمين أن يبدي مجهوده في نصر المسلمين بما يقدر عليه من قول وفعل ودعاية وحض لإخوانه عليه ❋

وكل أحد عليه من القيام بوظيفته الخاصة ما ليس على الآخر: فالملوك والأمراء وقواد الجيوش: عليهم من الواجبات بحسب مراتبهم ومقاماتهم، والجيوش العاملة عليها النهوض بوظيفتها والتزام القوة والشجاعة والصبر؛ وعلى أهل الأموال بذل ما يحتاج المسلمون إليه في المنافع الكلية، وعلى أهل الصنائع النصح والجد في تعليم الصناعات النافعة للجهاد، فمتى قام كل أحد بوظيفته لم يزالوا في رقي وصعود في دينهم ودنياهم، وعزهم وشرفهم.

وجوب الاجتهاد في فعل الأسباب النافعة مع التوكل على الله والاستعانة به

قد أمر الله في عدة آيات بالقيام بجميع الأسباب النافعة، والسعي في كل وسيلة فيها صلاح الأحوال. كما أمر في عدة آيات بالتوكُّل عليه والاعتماد على حوله وقوته. فبالقيام بهذين الأصلين العظيمين تقوم الأمور كلها وتتمّ وتكمل. والنقص والقصور إنما يجيء من الإخلال بهما أو بأحدهما، فالتوكل الذي لا يصحبه جدٌّ واجتهاد ليس بتوكل، وإنما هو إخلاد إلى الكسل وتقاعد عن الأمور النافعة؛ كما أن العمل بالأسباب من دون اعتماد وتوكّل على مسبِّبها واستعانة به مآله الخسار والزهو والإعجاب بالنفس والخذلان. فالجمع بين التوكّل على الله وبين الاجتهاد في فعل الأسباب هو الذي حثّ عليه الدين، وهو الذي كان عليه سيد المرسلين، وبهما يتحقق الإيمان، وتقوى دعائم الدين، وبهما تقوى معنوية المسلمين، حيث اعتمدوا على رب العباد، وأدَّوا ما في مقدورهم من جد واجتهاد.

معرفة أحوال الأمم ودرسها ومعرفة سياساتها داخل في الجهاد

قد عُلم من قواعد الدين أن ما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب، وأن الوسائل لها أحكام المقاصد. ولا يخفى أنه لا يتم التحرّز من أضرار الأمم الأجنبية والتوقّي لشرورها إلّا بالوقوف على مقاصدهم، ودرس أحوالهم وسياساتهم، وخصوصاً السياسة الموجهة منهم للمسلمين؛ فإن السياسة الدولية قد أسست على المكر والخداع، وعدم الوفاء، واستعباد الأمم الضعيفة بكل وسائل الاستعباد؛ فجهل المسلمين بها نقص كبير وضرر خطير؛ ومعرفتها والوقوف على مقاصدها وغاياتها التي ترمي إليها نفعه عظيم، وفيه دفع للشر أو تخفيفه، وبه يعرف المسلمون كيف يقابلون كل خطر. ولهذا كان من أركان السياسة والقيادة المعرفةُ والوقوفُ التامُّ على أحوال الأعداء، فالسياسة الداخلية لا تتم إلا بأحكام السياسة الخارجية.

من الجهاد القيام بالقسط والوفاء بالعهود

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط﴾
[سورة النساء: الآية ١٣٥]

﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ [سورة المائدة: الآية ١]

﴿ولا تكونوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بعدِ قُوةٍ أنكاثاً﴾
[سورة النحل: الآية ٩٢]

فهذان الأصلان العظيمان ــ وهما القيام بالقسط الذي هو العدل التام، على الأنفس والأقربين والأبعدين والأصدقاء والمعادين، والوفاء بالعهود والمعاقدات كلها من أكبر أصول الدين ومصالحه، وبها يتم الدين، ويستقيم طريق الجهاد الحقيقي، وتحصل الهداية والإعانة من الله تعالى، والنصر والمدافعة. فما

ارتفـع أحد إلّا بالعدل والوفاء، ولا سقط أحد إلّا بالظلم والجور والغدر. وبهذين الأمرين ـ مـع بقية أصول الدين ـ حصل للدين الإسلامي من العزّ والشرف والرقي وقهر الأمم الطاغية ما لم يحصل لغيره.

وبهذه الروح ـ روح الرحمة والعدل والوفاء ـ وصل الدين الإسلامي إلى مشارق الأرض ومغاربها، ودانت منه الأمم المتباينة طوعاً وانقياداً ورغبة، وبتركه انتقض الأمر، ولم يزل الهبوط مستمرًا، إلّا أنه يحصل نفحات في بعض الأوقات بها ينتعش الدين إذا تشبثوا بشيء من هذه المقوّمات النافعة. ولهذا تجد القوّاتِ والحضاراتِ الهائلةَ، التي يزعم أهلها أنها راقية في كل أحوالها لما كانت مبنية على الظلم والجشـع والطمـع وعدم المبالاة في ظلم الأمم الضعيفة، وكانت إذا قطعت عهودها ونفذت معاهداتها لم تبالِ بعد ذلك وفّت أو غدرت، وإنما تلاحظ أطماعها الخاصة وأغراضها الردية ولسان حالهم يقول: السياسة مبنية على المكر والخدع والختر والغدر. لما كانت مـع قوتها الهائلة مبنية على هذه الأصول المنهارة كانت هذه المدنية المزعومة والحضارة المدَّعاة مهدّدة كل وقت بالفناء والهلاك والتدمير؛ والواقـع أكبر شاهد على ذلـك؛ فلو أنها بنيت على الـدين الحـق والعدل واتبـاع الحق والـوفـاء بالمعاقدات ونصر المظلومين لكانت مدنية آمنة، ولكنها في الحقيقة مادية محضة، والقوة المادية إذا لم تبن على الحق فإنها منهارة لا محالة، وربما كان سلاحها الفتاك هو مادة هلاكها وعقوبتها.

والمقصـود، أن المسلمين بالمعنى الحقيقي لا يغتـرّون بقوة هؤلاء الماديين، وإنما يقومون بالعدل التام في جميـع أمورهم، وبالوفاء الكامل في حق الصديق والعدو. وهذه الأمور كلهـا مضطرة إلى التـوكل على الله، والاعتماد على حوله وقوته، وكمال الثقة به في تيسير الأمور وتذليل الصعاب، فيكون المتوكل يعمل بجدّ واجتهاد، مطمئنا بالله، واثقاً بوعده وكفـايته، لا يرجو غيره ولا يخاف سواه، لا يملكه اليأس ولا يساوره القنوط؛ غير هياب

ولا وجل ولا متردّد، لأنه يعلم أن الأمور بيد الله، وأن نواصي الخليقة في قبضته وتحت تدبيره.

بهذا التوكل التام والعمل الكامل نال المسلمون الأولون العزّ والشرف والسلطان وصلاح الأحوال. وهذا الذي يجب أن يكون عليه المسلمون الآن، وأن يكون العمل والتوكل نصب أعينهم، فلا يميلوا إلى التواكل والتخاذل والإخلاد إلى البطالة والكسل، فإن هذا ينافي التوكل الحقيقي غاية المنافاة؛ كحال كثير من الناس في هذه الأوقات: يشاهدون عدوّهم يحاربهم، ويسلبهم حقوقهم، وهم ساكتون لا يدفعونه بوسيلة من الوسائل، ولا يبدون ما يقدرون عليه من مقاومته التي لا يُعذرون عن القيام بها، فتكون النتيجة من هذا السكوت والتقاعد الضارّ ضياع استقلالهم، وذهاب ملكهم وأموالهم، والسيطرة على حقوقهم وحلول المصائب المتنوعة بهم من كل جانب، ويقولون: نحن متوكلون. كلاّ والله، بل هم كسالى متواكلون، قد استولى عليهم الخور، وأعقبه الذل واستعباد الأجانب لهم.

ربط الصداقات وعقد المعاهدات بين الحكومات الإسلامية من الجهاد في سبيل الله

قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾

[سورة الحجرات: الآية ١٠]

فمن أهم مسائل الجهاد في هذه الأوقات عقد المعاهدات، وتوثيق المودّة والصداقة بين الحكومات الإسلامية، مع احتفاظ كل حكومة بشخصيتها وحقوقها الدولية وإدارتها داخلاً وخارجاً، والتكافل بينها والتضامن، وأن يكونوا يداً واحدة على من تعدّى عليهم أو على شيء من حقوقهم، وأن يكون صوتهم واحداً، وتسهيل الأمور الاقتصادية فيما بينهم طلباً لمصلحة الكل وتقريب بعضهم من بعض، وأن يعملوا لهذا الموضوع أعماله اللائقة به،

المناسبة للظروف الحاضرة، وأنْ يسعَوْا كل السعي لتحقيق هذا وإزالة جميع العقبات الحائلة دونه، والمعوقة له.

وهذه الأمور وإن كانت في بادىء الرأي صعبة، وقد وضع الأعداء لها العراقيل المعوّقة، فإنها يسيرة بتيسير الله وقوة العمل مع التوكل عليه. واليوم وإن كان المسلمون مصابين بضعف شديد، والأعداء يتربصون بهم الدوائر، وهذه الحالة قد أوجدت في المسلمين أناساً ضعيفي الإيمان، ضعيفي الرأي والقوة والشجاعة، قد ملكهم اليأس والخور، يتشاءمون بأن الأمل في رفعة الإسلام قد ضاع، وأن المسلمين يتنقلون من ضعف إلى ضعف، فهؤلاء قد غلطوا أشد الغلط، فإن هذا الضعف عارض، له أسباب، وبالسعي في زوال أسبابه تعود صحة الإسلام كما كانت، وتعود إليه قوته التي فقدها منذ أجيال.

ما ضعف المسلمون إلا لأنهم خالفوا كتاب ربهم وسنة نبيه ﷺ، وتنكّبوا السنن الكونية التي جعلها الله بحكمته مادة لحياة الأمم ورقيها في هذه الحياة. فإذا رجعوا إلى ما مهّده لهم دينهم، وإلى تعاليمه النافعة وإرشاداته العالية، فلا بد أن يصلوا إلى الغاية كلها أو بعضها. وهذا المذهب المهين ـ مذهب التشاؤم ـ لا يرتضيه الإسلام، بل يحذّر عنه أشد التحذير، ويبين للناس أن النجاح مأمول، وأن مع العسر يسراً، وأن المسلمين إذا عملوا بتقوى الله وبالأسباب التي أرشدهم الله إليها واقتدوا بنبيهم فيها، وصبروا، فلا بد أن يفلحوا وينجحوا. فليتق الله هؤلاء المتشائمون، وليعلموا أن المسلمين أقرب الأمم إلى النجاح الحقيقي والرقيّ الصحيح، لأن دينهم كله عروج وصعود في عقائده وآدابه، وأخلاقه ومقاصده وأسبابه، وجمعه بين مصالح الدنيا والآخرة، ومنافع الروح والجسد.

ويقابل هؤلاء طائفة يؤملون الآمال بلا قوة ولا أعمال، ويقولون ولا يفعلون، فتراهم يتحدثون بمجد الإسلام ورفعته، وأن الرجاء والطمع في ذلك غير بعيد، ولكنها أقوال بلا أفعال، ولا يصحبها سعي لا قوي ولا

ضعيف، ولا يقدّمون لدينهم منفعة بدنية ولا مالية، ولا يساعدون على مصلحة عامة كلية. وهذا كله غرور واغترار، ويترتب عليه أنواع من الشرور والمضارّ.
وأما رجال الدين الذين هم غرة المسلمين، وهم رجال الدنيا والدين، فهم الذين أبدوا جدهم واجتهادهم، وقرنوا بين الأقوال والأفعال، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأقوالهم ودعاياتهم، وإنهاض إخوانهم، وتبرأوا من مذهب المتشائمين، ومن أهل الأقوال الخالية من الأعمال. قد نهضوا بأمتهم، وقصدوا في سعيهم الغايات الحميدة، وسلكوا طريق المجد. فهؤلاء الرجال الذين يناط بهم الأمل، وتدرك المطالب العالية بمساعيهم المشكورة وأعمالهم المبرورة.

الاعتناء بالتربية والتعليم من أصول الجهاد

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهلِيكُم ناراً﴾
[سورة التحريم: الآية ٦]

وذلك بالتعليم والتأديب والتربية؛ وقال تعالى:
﴿قُلْ هل يستوي الذين يعلمونَ والذين لا يعلمون﴾
[سورة الزُّمر: الآية ٩]

وذلك أن من أعظم أصول الإصلاح والجهاد التربيةُ الدينية والاهتمام التام والاعتناءُ الكامل بشباب الأمة، فإنهم محل رجائها وموضع أملها، ومادّة قوتها وعزها. وبإصلاح تربيتهم تصلح الأحوال، ويكون المستقبل خيراً مما قبله. فعليهم أن يربوهم تربية عالية، ويبثوا فيهم روح الدين وأخلاقَه الجميلة، والحزمَ والعزم، وجميعَ مبادىء الرجولة والفتوّة والمروّة، وأن يدرّبوهم على الصبر وتحمل المشاق الذي يفضي إلى النجاح والمثابرة في كل عمل نافع، ويحذروهم من الجبن والكسل، والسير وراء الطمع والمادة، والانطلاق في المجون والهزل والدعة، فإن ذلك مدعاة للتأخر الخطير. وشباب الحاضر هم

رجال المستقبل، وبهم تعقد الآمال وتدرك الأمور المهمة، فعليهم أن يجتهدوا ليكونوا في خصال الخير والفضائل المثل الأعلى، وبأوصاف الحزم والمروّة والكمال القدوة المثلى.

ومن أعظم أركان التربية العامة النافعة إصلاح التعليم، والاعتناء بالمدارس العلمية، وأن يختار لها الأكفاء من المعلمين والأساتذة الصالحين الذين يتعلم التلاميذ من أخلاقهم الفاضلة قبل ما يتلقون من معلوماتهم العالية. ويختار لها من فنون العلم الأهم فالأهم من العلوم النافعة الدينية والدنيوية المؤيدة للدين. وأن تكون العلوم الدينية هي الأصل والأساس الأقوم، ويكون غيرها تبعاً لها ووسيلة إليها؛ وأن يكون الغرض الوحيد من المتخرجين في المدارس الناجحين في علومها أن يكونوا صالحين في أنفسهم وأخلاقهم وآدابهم، مصلحين لغيرهم، راشدين مرشدين، مهتمين بتربية الأمة. فإن كثيراً من المدارس الآن التعليمُ فيها قاصرٌ جداً، لا يُعتَنى فيه بأخلاق التلاميذ، ويكون تعليم الدين فيها ضعيفاً، ويكون الغرض منها المادة، وأن يخرج منها تلاميذ يصلحون للوظائف الدنيوية المادية البحتة؛ وهذا ضرره كبير، وسبب للضعف والانحلال. ولا ريب أن السعي في إصلاح التعليم من أهم المهمات، وبه ترتفع الأمة وتنتفع بعلمائها وعلومهم، فالتعاليم النافعة، والتربية الصالحة، تقود المسلمين إلى كل خير وفلاح، وتكون العلوم مقصوداً بها الصلاح والإصلاح.

من الجهاد ورعاية الأمانة تخيُّرُ الأكفاء من الرجال في الولايات والأعمال

قال الله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها﴾
[سورة النساء: الآية ٥٨]

وقال: ﴿إنَّ خيرَ مَنِ استأجرتَ القويُّ الأمينُ﴾
[سورة القَصص: الآية ٢٦]

وأعظم وأَوْلى ما يدخل في الأمانات الولاياتُ كلها، كبيرة كانت أو صغيرة؛ وتخيُّر الرجال الكُمَّل من أعظم التعاون على البر والتقوى، ومن قواعد الجهاد وأصوله؛ فإنه لا يتم الجهاد إلاّ بذلك، بل لا تتم الأحوال كلها إلاّ بذلك. وكما أنه يلزم الاعتناء والاستعداد بالحصون المنيعة والسلاح القوي والجيوش المنظّمة العاملة والأهب الوافرة فكذلك يلزم الاستعداد بالرجال الأكفاء على جميع الأعمال، وأن يولى في الولايات كلها أهل القوة والكفاءة والعقل، والرأي والسياسة والحزم والعزم، والتدبير الموفق والدين القوي والنصح الكامل، وأن يكونوا من أصل راسخ في الكمال، ومن أهل الشجاعة التامة؛ وإذا لم يدرَك الرجل الكامل في هذه الأوصاف فيختار الأمثل فالأمثل. فهؤلاء الرجال هم الذين يقومون بشؤون المملكة، ويوطِّئون بساط الأمن وطرق الراحة، ويرفعون بناء الملك على طريق العدل، ويوقفون الرعية على حدود الشريعة، ويراقبون مع ذلك روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية، ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها، بالمعاهدات السلمية والاقتصادية وغيرها.

ومن أكبر الخيانة والخطر تولية غير الناصحين أو غير الأكفاء العارفين، فإن تمام الولاية مجموع بشيئين: أحدهما، الخبرة والكفاية التامة بالقيام بشؤون ذلك العمل، أيَّ عمل كانِ، فيولى في كل عمل أكملُ من يحصل به مقصود تلك الولاية، وإن كان ناقصاً في غير ذلك العمل. الثاني، الأمانة والنصح، فمتى اجتمع الأمران ــ القوة على ذلك العمل، والأمانة التامة ــ

تمت الأمور، واستقامت الأحوال. ومتى فقد الأمران أو أحدهما وقـع النقص والخلل بحسب ما نقص منهما.

وتتعين المشاورة في انتخاب الرجال الكُمّل الذين أخصُّ صفـاتِهم الاقتداءُ بنبيهم، والاهتداءُ بسيرته وهديه، في الجد الكامل لتقوية الإسلام والمسلمين وتكوين الأمة وتربية أخلاقها، وأن يكونوا على جانب من العلم بكتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ، ومعرفة تاريـخ الدول الإسلامية ورجالها، والعلم بأسباب الضعف والانحلال الداخل على الأمة، والسعي بإزالتها أو تخفيفها، مهما أمكن الأمر. وأن يكونوا ذوي قوة وأمل ورجاء واسـع، لا يملكهم اليأس ولا يتطرق إليهم الفتور. وأن يكونوا متّصلين بأفراد المسلمين وجميـع طبقاتهم اتصالاً وثيقاً، ويتعرفون بشؤونهم ويسألون عن أحوالهم ويأخذون بآرائهم الصائبة ويستمدون من عقولهم القوية. وأن يحبوا لهم من الخير ما يحبون لأنفسهم، ويسعوا في ذلك الخير لهم. وأن يكونوا أصحاب فكر ثاقب، وسياسة وخبرة، وانتهاز للفرص النافعة، وكثرة مشاورة للرجال الناصحين. وأن لهم علاقات مـع جميـع العاملين من المسلمين في أنحاء العالم: يبدون لهم ودّهم، ويستشيرونهم، ويستنيرون بآرائهم، ويأخـذون بالنـاضـج المصيب منها. وأن يكونوا مـع ذلك عارفين بسياسات الأجانب، عارفين بحقوقهم، آخذين الحذر من مكرهم وكيدهم وخداعهم، يعاملونهم لمصلحة المسلمين، ويأخذون الحذر منهم خوف الضرر على المسلمين، عملهم كله لمصلحة الإسلام والمسلمين وهم مـع ذلك كله مخلصون لله متوكلون عليه معتمدون في جميـع أمورهم عليه.

فهذه أوصاف الرجال الذين ينبغي تخيرهم؛ والواحد من أمثال هؤلاء يعدل أمة. وعلى أهل الحل والعقد أن يتقوا الله ما استطاعوا، ويولُّوا الأكملَ فالأكمل. والله أعلم.

شرح محاسن الدين الإسلامي وبيان عقائده وأخلاقه، وأحكامه وإصلاحه، من أعظم الجهاد

قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبيُّ جاهِدِ الكفّارَ والمنافقين﴾
[سورة التوبة: الآية ٧٣]

وقال تعالى: ﴿وجاهِدْهُم به جهاداً كبيراً﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٢]

أي بهذا القرآن، وبما جئت به من الدين، وذلك بالدعوة إليه وتبيين أنه دين العدل والرحمة والحكمة والخير والصلاح، للظاهر والباطن، والدين والدنيا.

وأعظم جهاد النبي ﷺ للخلق بهذا النوع، فإنه مكث مدة طويلة يدعو إلى الله، ويبين للعباد محاسن الدين، ويقابل بينه وبين ضدّه من أديان أهل الأرض المنحرفة، ومن جاهليتهم الجهلاء، حتى دخل الخلق العظيم فيه متبصّرين، مقتنعين أنه الدين الحق، وأن ما سواه باطل، بالبراهين العقلية والفطرية، والآيات الأفقية والنفسية. قال تعالى:

﴿سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يَتَبَيَّنَ لهم أنَّه الحقُّ﴾
[سورة فُصِّلت: الآية ٥٣]

وهذا الجهاد هو الأصل، وقتال اليد والسلاح تَبَعٌ لهذا لكل معتدٍ على الدين. قال تعالى:

﴿وقاتِلُوهم حتى لا تكون فتنةٌ، ويكونَ الدينُ كلُّه لله﴾
[سورة الأنفال: الآية ٣٩]

فهذا الدين الإسلامي، بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأعماله، وما جاء به من القرآن، أكبرُ البراهين القواطع الضرورية الدالّة على أن الله هو الحق، ورسوله حق، ودينه حق، وما عارض ذلك هو الباطل. وهو بنفسه جذّاب لكل من قصدُه الحق ومعه إنصاف. فإنه إذا نظر وحقّق عقائده فإنه يدعو إلى الإيمان الصحيح بالله، وبأوصافه العظيمة، وأسمائه الحسنى، وبكل كتاب

أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، وبكل حق أخبر الله به ورسوله. وبذلك تمتلىء القلوب إيماناً ويقيناً ونوراً وطمأنينة بالله، وقوة توكل واعتماد عليه.

وذلك يوجب كمال الإخلاص لله، والقيام بعبوديته الظاهرة والباطنة والتبري من الشرك كبيره وصغيره. وإذا نظر إلى أخلاق الإسلام وجدّه رآه يحث على كل خلق جميل، ويحذّر عن كل خلق رذيل، ويدعو إلى القيام بحقوق الله وحقوق عباده وبالمعاملة الحسنة. وإذا نظر إلى تعاليمه وإرشاداته العالية رآه يحث على كل علم نافع مُزَكٍّ للقلوب، مطهّر للأخلاق، نافع للدين والدنيا، وأنه مرشد إلى كل صلاح وإصلاح. فشرحُ هذه الأمور للناس من أعظم الجهاد، فإنه يقوّي إيمان المؤمنين، وتزداد به بصائرهم ورغبتهم، ويحمدون الله الذي منَّ عليهم بهذا الدين الكامل الذي حوى كل خير علمي وعملي، وكل هداية ورحمة، وهو السبب الوحيد إلى سعادة الدنيا والآخرة. وكذلك هو أكبر داع لمن وقف على حقيقته من الأجانب، وخصوصاً المنصفين منهم: فمُريدُ الحق إذا وقف على حقيقته لم يتوقف في تفضيله على كل دين، والمكابر يزلزل عقيدته ويخفف شرّه، وبه تندفع شُبَه المبطلين من الملحدين وغيرهم، فإن الحق يستولي على القلوب ويزهق الباطل، فإنه من عرف الحق معرفة صحيحة امتنع أن يقوم بقلبه باطل يقدّمه عليه، إلا إذا عارض ذلك غرض فاسد من كبر أو حسد أو رياسة أو تعصب أو غيرها.

ومن تأمل هذا الدين رآه يدعو إلى الصلاح والرشد والفلاح، والكتاب والسنة كفيلان ببيان ذلك كفالة تامة، فيهما الآيات والبراهين على أنه محال أن يحصل الصلاح الحقيقي، ولا سبيل للبشر إلى الإصلاح والخير والسعادة إلّا بهذا الدين، فإنه ما من مصلحة دقيقة ولا جليلة إلا أرشد إليها هذا الدين، ولا خير إلّا دلّ عليه، ولا شرٌ إلّا حذّر عنه: يأمر بتوحيد الله والإيمان به، ويحثّ على العلم والمعرفة والإذعان، ويأمر بالعدل والصدق في الأقوال والأفعال، وبالبر والصلة والإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب والمعاملين وجميع

الخلق، وينهى عن الكذب، والظلم والقسوة، والعقوق والبخل، وسوء الخلق مع الأولاد والأهل والأصحاب وغيرهم، ويأمر بالوفاء بالعقود والعهود والمحالفات، وينهى عن النكث والغدر، ويأمر بالنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، وينهى عن الغش يأمر بالاجتماع والتآلف والتحابب والاتفاق، وينهى عن التعادي والتباغض والافتراق. يأمر بالمعاملات الحسنة وأن توفِّي ما عليك كاملاً موفَّرًا لا بخس فيه ولا نقص ولا مماطلة، وينهى عن المعاملات السيئة والمطل والغش والبخس والتطفيف وأكل المال بالباطل وبغير حق. يأمر بأداء الحقوق الخاصة والمشتركة، ينهى عن ضدها، وعن التعدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم بغير حق. يأمر بكل معروف وطيب ونافع ومستحسن شرعاً وعقلاً وفطرة. يبيح كل طيب، ويحرم كل خبيث. يأمر بالتعاون على البر والتقوى، وينهى عن التعاون على الإثم والعدوان. يأمر بعبادة الله وحده، وخوفه ورجائه وحده، والطمع في جوده وفضله، والتنوّع في فعل الأسباب المحصلة لخيره وثوابه، وينهى عن التعلق بالمخلوقين والعمل لأجلهم. يأمر بنبذ الوثنيات والخرافات المفسدة للعقول والأديان.

وبالجملة يأمر بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وضرر فشرح الدين على نحو هذه الطريقة شرحاً وافياً، وتطبيق تعاليمه وهدايته على أحوال البشر، وبيان أنها صالحة لكل زمان ومكان ولكل أمة، وأن الانحراف والشرّ والضرر إنما يكون بفقد روح الدين أو نقصها، وكذلك شرح أوصاف النبي ﷺ ونعوته وأخلاقه التي من تدبَّرها وعَرَفها وفهمها حق الفهم علم أنه ﷺ أعلى الخلق في كل صفة كمال، وأن كل صفة كمال له منها أعلاها وأكملها، وأن الكمالات الموجودة في الرسل، صلى الله عليهم وسلم، قد جمعت فيه على الوجه الذي لا يماثله فيه أحد، وبذلك صار سيدَ الخلق ومقدَّمَهم وإمامَهم وأرفعَهم عند الله قدراً وأعظمهم جاهاً.

نبذة من أخلاقه وأوصافه ﷺ
وشيء من سيرته الدالّة على أنه رسول الله حقًّا
وأنَّ ما جاء به من الدين هو الحق على وجه الإيجاز

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ الله على المؤمنين إذْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبل لَفِي ضلالٍ مبين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

وقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [سورة القلم: الآية ٤]

ومن نظر إلى سيرته ﷺ في مبدأ أمره ومنتهاه وبين ذلك وتطورات أحواله، وما حصل بذلك من الأحوال والانقلاب العجيب في العقائد والأخلاق والآداب والتشريع العادل الرحيم والخير والرحمة مما لم يعهد له نظير في تاريخ البشر، وبعد ما كانت الأرض مملوءة من الشرك والوثنية المستولية على عقول أكثر الخلق، والإلحاد والظلم والشر والفساد وسفك الدماء وقطيعة الأرحام والمعاملات السيئة بكل وجوهها، استبدلت بأضدادها من عبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بعبوديته التي خلق لها الخلق، وبالقسط والعدل في جميع الحقوق، وبصلة الأرحام، والإحسان إلى جميع طبقات الخلق ــ عَرَفَ أن هذا من أكبر براهين رسالته ﷺ، وكمال دينه وشريعته، وأنه أعظم مرشد ومصلح للبشر على الإطلاق.

فقد كان ﷺ معروفاً بين قومه بشرف النسب، وأن بيته أعظم بيوت العرب وخيرها. وكان معروفاً بين قومه قبل بعثته بالصدق الكامل، والأمانة التامة، والبر والعدل ومكارم الأخلاق، مترِّبياً على الأخلاق الجميلة، متنزهاً عن الأخلاق الرذيلة، لا يعرف له شيء يعاب به لا قليل ولا كثير، ولا جُرِّب عليه كذبة واحدة ولا خيانة ولا ميل في شيء من أقواله وأفعاله. وكان نقي القلب، ناصحاً للقريب والبعيد، وَصُولاً للأرحام، موفِّياً بالعهد والذمام، حاملاً للكلّ، معيناً على نوائب الحق، متواضعاً لله ولعباد الله. حليماً صبوراً

عفوّاً محسناً، كامل العقل والرأي، حازماً مسدِّداً موفَّقاً في حركاته وسكناته، مع أنه قد نشأ مع أمة أمية لا تعرف الكتب ولا تدرس الشرائع، وهو في نفسه لا يقرأ ولا يكتب:

﴿وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تَخُطُّهُ بيمينك، إذاً لارتاب المُبْطِلون﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٨]

﴿وما كنتَ ترجو أن يُلقى إليك الكتابُ إلاّ رحمةً من ربك﴾
[سورة القصص: الآية ٨٦]

فلم يزل محبباً له الخير، فعّالاً له، متنزهاً عن جميع الشرور، حتى فاجأته الرسالة والوحي من الله تعالى، ورحم الله به الخلق فجاءهم برسالة عظيمة عامة فيها صلاح البشر كلهم وسعادتهم، وجاءهم بكتاب كريم لم يطرق العالم كتاب أعظم منه ولا أجلّ ولا أجمع لكل خير ولا أغزر علماً منه. وأخبرهم بأمور عظيمة وتفاصيل جمة لم يكن في قومه من كان يعرفها، ولا في الأرض أحد عنده علم صحيح ينافيها وينكرها. وأعلن بهذه الرسالة غاية الإعلان لعلمه اليقيني الذي لا ريب فيه أنها الحق، واعتماده على الحق، ووثوقه بوعد الله بالظهور. مع كثرة الأعداء وتوفر المعارضين، من أهل الكتاب والأميين وغيرهم، فبادأهم وصرّح لهم بإنكار ما هم عليه من الشرك والشرور والأخلاق الرذيلة، وأن شريعته نسخت جميع الكتب، وهيمنت على كل الشرائع السابقة. فرماه الجميع بقوس العداوة، وجدّوا واجتهدوا في ردّ ما جاء به، ونصر باطلهم. وتحدَّى قاصيهم ودانيهم وأولهم وآخرهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فما استطاعوا ذلك، ولا قدروا على ردّ شيء من دينه، مع أنهم مكروا مكراً كباراً، وأتوا بكل وسيلة وحيلة، فرجعوا منهزمين أمام الحق خائبين، والمنصف منهم لم يجد بُـدًّا من الاعتراف، والجاهد المكابر طفق ينصر باطله، فلم يبد حجة ولا برهاناً، بل ولا شبهة يتكىء عليها. ومن أكبر أدلة الحق معرفة ما قاله أعداؤه ومعرفة حججهم التي لا تغني من الحق شيئاً.

وجاء ﷺ للخلق وحده، لم يكن له في أول الأمر أعوان ولا أنصار، إلا الحق الذي هو نعم العونِ على الأمور كلها، فلم يزل يتبعه الواحد بعد الواحد من أولي البصائر والألباب والعقول الرزينة، على شدة عظيمة، ومقاومات من الأعداء عنيفة، فلم تزعجهم الكوارث، ولا عوّقهم عن قبول الحق خوف ولا ضغط من الأعداء، وأعداؤه هم أهل الرياسة ولهم السيطرة، فعادوه وعادوا أتباعه، وآذوهم أشد الأذية، وحرصوا على صرفهم عن دينهم، فلم يكن لهم بذلك طاقة ولا اقتدار، لأن إيمانهم صحيح ويقينهم تام لم يؤمنوا لرغبة بذلها الرسول ولا رهبة، وإنما الرغبة والرهبة في ذلك الوقت عند أعدائه، ولكن هو الإيمان الحق متى وقر في القلوب لم يرتدّ عنه صاحبه سخطة له، بل يراه أحب الأشياء إليه، وألذها لقلبه، وأعظمها فوزاً وسعادة.

فلم يزل ﷺ يدعو إلى هذا الدين بعزم صادق، وهمة لا تني ولا تضعف، ويقين وثقة بوعد الله، مع قوة المعارضات وشدة المقاومات من جميع الأعداء، ويتتبع العرب في مواسم الحج وغيره في منازلهم يدعوهم إلى الله وإلى دينه، والمتبع له إذ ذاك أفراد من الموفقين أولي البصائر، وأكثرهم معرضون ومعارضون مقاومون، وهو صامد لأمر الله، مصمم على الدعوة لعباد الله، مستقيم على أكمل طريقة من الصدق والعدل، والوفاء بالعهد، لا يتزعزع عن الاستقامة والأخلاق الفاضلة، والنصح والقوة في أمر الله، والشجاعة التي لا نظير لها في الأولين والآخرين، مع اختلاف الأحوال عليه من خوف وأمن، وفقر وغنى، ويسر وعسر، وضيق وسعة.

فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في مكة مع الضغط العظيم، وانتشر في المدينة أكثر من ذلك، فأذن لأصحابه في الهجرة إلى المدينة ليتمكنوا من إقامة دينهم، فجعلوا يهاجرون إليها أفراداً وجماعات. وفي ذلك الوقت عقد الرؤساء من قومه المجالس المتعدّدة للإيقاع به، وإطفاء النور الذي جاء به، ومكروا المكرات العظيمة، والله يكلؤه ويحفظه. وحين

بلـغ الأمر أشدَّه، وعزموا على الإيقاع والفتك به، ورتّبوا أمرهم وأجمعوا كيدهم أذن الله له بالهجرة فخرج في تلك الحال الحرجة إلى الغار هو وأبو بكر مختفيين وبوعد الله واثقين.

واشتدَّ الطلب، وعز التخلص والهرب، ولكن لطف الله ونصر الله فوق مكر الماكرين، قال تعالى:

﴿وإذْ يمكُرُ بك الذين كفروا ليُثْبتوك أو يقْتُلوك أو يُخْرِجوك، ويمكرونَ ويمكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خيرُ الماكرين﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٠]

﴿إلَّا تنصُروهُ فقد نصره اللَّهُ إذْ أخرجَهُ الذين كفروا ثانيَ آثنينِ إذْ هُما في الغارِ إذْ يقولُ لصاحبه: لا تحزنْ إنَّ اللَّهَ معنا فأنزلَ اللَّهُ سكينتَهُ عليه وأيَّدَهُ بجنودٍ لم تَرَوْها﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠]

وهذا النصر من أكبر الآيات والبراهين على عناية الله به وحفظه إياه ووعده الصادق بتمام أمره ودينه. ثم هاجر إلى المدينة وعناية الله تصحبه، وحفظه وتوفيقه يرافقه، فتلقاه المسلمون، وكل قبيلة من قبائل الأنصار تدعوه إلى النزول عندها وتقول: هلمَّ يا رسول الله إلى العدد والعديد، فاختار الله له ذلك المنزل الذي بركت فيه ناقتُه ليكون مسجداً له ومساكن لنسائه، فاختطَّ مسجده هناك، وعمل فيه مـع المسلمين، وبنى مساكن زوجاته بجوارِه، وسُرَّ المسلمون بقدومه. ولم يزل الله يشرع له الشرائـع الكبار شريعة بعد أخرى بحسب المناسبات، ثم أذن له في القتال لما اشتدت مقاومات الأعداء بكل طريق، فلم يزل معهم يُدال عليهم ويدالون عليه حتى صارت له العاقبة والنصر عليهم.

ودخل الناس في دين الله أفواجاً حين شاهدوا أنوار الإسلام وهداية القرآن وإرشادات الدين، وكان دينه الحق وما جاء به من أكبر الأسباب لدخول الخلق في الدين، فإنه يدعوهم بنفس الحق الذي جاء به، والذي تنقاد له القلوب السليمة والعقول الصحيحة، وتلين له الصعاب، ويختاره أولو البصائر

والألباب الرزينة والآراء الصائبة، لما يرون من إصلاحه العقائد والأخلاق والأعمال كلها، ودعوته للصلاح المطلق بكل وجه واعتبار. وهذا وجه إدخاله في الجهاد، إذ هو أصله وأساسه، فإن الغرض من الجهاد انقياد الخلق للحق، ودخولهم في الدين الحق، وأكبر وسيلة لذلك معرفة ما جاء به الرسول، والوقوف التام على حقائق الدين.

وما زال ﷺ يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وبكل طريق يوصل إلى الهداية، ويجادل المبطلين بالتي هي أحسن، حتى أكمل الله به الدين وأتم به النعمة على المؤمنين، وجمع الله به أمماً متباينة وقلوباً متفرقة وأهواء متشتتة، وأصلح الله به الظواهر والبواطن وكل أمر فاسد. وبعد ما كانت الأرض مملوءة من جميع أصناف الشرور، محقها الحق الذي جاء به، حتى امتلأت من الحق والعدل والرحمة والخير والنور، فمحا الظلمات المتراكمة، وحق الحق، واضمحل الباطل وزهق، إن الباطل كان زهوقا. فمعرفة الآثار والمنافع العامة العظيمة التي حصلت لأهل الأرض برسالته ودينه من أكبر البراهين الدالة على رسالته، وصحة ما جاء به من الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، وهو دين جميع الرسل وأتباعهم، فهو الدين الذي أخباره في أعلى درجات الصدق، وهو الذي ما أمر بشيء فقال العقل ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته أمر به، بل لو اجتمعت عقول الحكماء وسائر العقلاء على اقتراح دين أحسن منه وأصلح وأنفع للعباد لعجزت أفكارهم عن أن تصل إلى ما يقاربه. وأكمل الناس عقلاً من حصلت له به الهداية والرشاد، فإنه تنزيل من حكيم حميد. ولهذا سمى الله ما أنزل على رسوله هدىً ورحمةً ونوراً وحكمةً ورَشَداً، وحثّ فيه على كل إصلاح في أصوله وفروعه، وأرشد إلى المنافع الدينية والدنيوية.

ثم إنك إذا تأملت أحوال النبي ﷺ وتنقّلاته في دعوة الخلق ومعاملاتهم من أوليائه وأعدائه رأيت فيها الهدى الكامل والنصح التام، ورأيت

آثار دعوته ملأت قلوب المسلمين علماً ويقيناً ومعارف ربانية، واهتدَوْا بها إلى كل خلق جميل وتنزَّهوا عن كل خلق رذيل، فكما كانت آثار رسالته في نفسه أكمل الآثار فتجمعت فيه أصناف الفضائل والكمالات على أكمل وجه، وصار بذلك أكمل البشر في كل الأمور مطلقاً، فكذلك كانت آثار رسالته في أصحابه وأمته أكمل الآثار وأفضلها وأجلها، فلم يصل أحد من الأمم إلى ما وصل إليه أصحابه وأئمة الهدى من أمته وطبقات أهل العلم والإيمان من المعارف الصحيحة، والعلوم النافعة، والمعارف الربانية، والإيمان الصحيح، واليقين الكامل، والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه، والرحمة بالخلق، والإحسان والعدل، وهذا من براهين صدقه وصحة ما جاء به.

وكذلك من براهين رسالته أنه في هذه المدة القصيرة مكّنه الله وبارك في عمره الشريف حتى أسس هذا الدين الذي هو أكمل الأديان وأعمها وأهداها للخلق، فقرر أصوله وفروعه، وحصل به صلاح الدين وصلاح الدنيا، وصار المثل الأعلى والقدوة للخلق فيما يأتون وما يذرون، وما يقولون ويفعلون. إنْ حُققت العقائد الصحيحة، والأخلاق الرجيحة النافعة المصلحة للقلوب، جُعل الميزان فيها عقيدته وأخلاقه، وإنْ فُصلت علوم الشريعة على سعتها وتنوعها كانت كلها مأخوذة من شريعته وتعليمه، وإنْ أريد الوصول إلى علم السياسة وفنون الحرب والسلم ومعاملة الأعداء من جميع الوجوه كان المدار فيها على هديه وعمله وإرشاده، وإنْ طلب علم الولايات كلها صغارها وكبارها: من الإمامة العظمى إلى ولاية الإنسان على عائلته وأهل بيته لم يوجد أكمل من طريقته فيها، وإن حصل البحث في أحوال القلوب ووسائل إصلاحها ودائها ودوائها لم يكن لذلك سبيل إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها. فلا يوجد علم صحيح ولا عمل ظاهر ولا باطن إلا وقد هدى الخلق إليه وأرشدهم إليه.

فهذه جمل مختصرة تدل على رسالته ﷺ، وصحة دينه، وأنه الدين

الحق الذي لا يصلح البشر غيره، وأنه لا دين إلا دينه، ولا طريق إلا طريقه، ولا تصلح الأمور كلها إلا باتباعه.

ذكر البراهين من الكتاب والسنة الدالة على ربوبية الله ووحدانيته وصدق رسوله وصحة دينه

لما كان توحيد الباري أعظمَ الأمور وأكملها وأفرضها وأفضلها، وضرورة العباد إليه وحاجتهم فوق كل ضرورة تقدر، فإن صلاحهم وفلاحهم وسعادتهم تتوقف عليه، نوَّع الله الأدلة والبراهين عليه، وكانت أدلةً واضحات وبراهين ساطعات.

فمن أوضح ذلك وأجلاه لكل أحد الاستدلال باعتراف الخلق بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، فإنهم يعترفون أن الله هو الخالق الرازق المالك للعالم العلوي والسفلي، المدبِّر لجميع الأمور، كما ذكر الله ذلك عنهم في آيات من القرآن كثيرة كقوله:

﴿ولئن سألتهم مَنْ خلَق السمواتِ والأرضَ ليقولُنَّ اللّهُ﴾

[سورة لقمان: الآية ٢٥]

فإنه برهان واضح ينتقل الذهن منه بأول وهلة بأن من هذا شأنه وعظمته أنه هو المنفرد بالوحدانية الذي لا تصلح العبادة إلاّ له. وفي مقابلة ذلك يخبر أن من سواه مخلوق فقير عاجز غاية العجز، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا ينفع من دعاه في الدنيا ولا في الآخرة، بل يضره أعظم الضرر، وآثار الخلق والفقر التام على الخليقة كلها ظاهرة لكل أحد، وبذلك يعلم افتقارَ جميعهم إلى عبودية الله وإخلاص العمل له، كما كانوا مفتقرين في وجودهم وما به يكمل وجودهم إلى الله غاية الافتقار.

ومن براهين التوحيد ما يشاهده العباد من كرمه وجوده وإحسانه المتنوع، وأنه ما بالعباد نعمة دينية ولا دنيوية ظاهرة أو باطنة إلا من الله، وأنه لا يأتي بالحسنات إلاّ هو، ولا يدفع السيئات إلاّ هو. فمن كان هذا فضله وكرمه فهو المستحق للحب الكامل، والذل والعبودية، والثناء والحمد، والشكر المتنوع بالقلب واللسان والجوارح.

ومن براهين توحيد الله وصدق رسله ـ وهو دليل على البعث والجزاء بالأعمال ـ آياته في عباده المتبعين للرسل والمكذِّبين لهم: يبعث رسولاً إلى قبيلة عظيمة، فيدعوهم إلى توحيد الله وإخلاص العمل له، وينهاهم عن الشرك وأصناف الشرور، ويبعث على يديه من البراهين ما على مثله يؤمن البشر، فيؤمن به القليل منهم، ويكفر أكثرهم ويعاندون، ويتوعدهم بالعقوبات الدنيوية، قبل الأخروية، فإذا تم طغيانهم وتمرّدهم على الله وعلى رسله، أرسل عليهم عقوبات متنوعة: إما طوفان يغرقهم، أو ريح تحصبهم، أو صيحة تهلكهم، أو ظلة تحرقهم، أو يفلق البحر فيغرقهم، أو يقلب عليهم ديارهم ويمطر عليهم الحجارة التي تهلكهم، فلا يبقى من المكذّبين باقية، وينجو الرسول ومن تبعه:

﴿إن في ذلك لآية، وما كان أكثرُهُم مؤمنين * وإنّ ربَّك لهو العزيزُ الرَّحيم﴾ [سورة الشعراء: الآيتان ٨، ٩]

وخاتمة ذلك ما نَصَر به خاتَمهم وإمامَهم محمداً ﷺ حيث بعثه بما بعث به الرسل من التوحيد الخالص، والنهي عن الشرك والشرور. فقاومه أهل الأرض كلهم قريبهم وبعيدهم، ومكروا في نصر باطلهم وردّ ما جاء به محمد ﷺ مكراً عظيماً، فخذلهم ونصر نبيه، وأظهر دينه على الدين كله نصراً لا مثيل له، حتى وصل هذا الدين إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولا يزال هذا النصر الرباني من الله لأمته بحسب تمسكهم بما جاء به، إن في ذلك لآية على أن دين الله الذي هو الإيمان والتوحيد هو الحق، وأن ما عارضه باطل، وأن كل ما جاء به حق.

من براهين الدين الإسلامي ما أخبر به من الغيوب المتنوعة

وقد قصّ الله في كتابه كثيراً من أنباء الغيب الماضية والحاضرة والمستقبلة المتعلقة بالخالق والمتعلقة بالخلق، وهي كلها حق وصدق مطابقة للواقع.

فمن ذلك ما أخبر به عن تفصيل الوقائع العظيمة الماضية، في قصص الرسل في أنفسهم، ومع أقوامهم من أتباعهم وأعدائهم، تفصيلاً تامًّا ليس لأحد طريق إلى الوصول إليه إلاّ من جهة الوحي الذي جاء به محمد ﷺ؛ ونهاية ما عند خواص أهل الكتاب من هذه الأمور نتف وقطع يسيرة لا يحصل منها قريب مما يحصل بالقرآن. ولهذا يخبر في أثناء هذه القصص المفصلة المبسوطة أن إتيان الرسول بها دليل على رسالته، كقوله عند ما ذكر قصة موسى مبسوطة:

﴿وما كنتَ بجانب الغربيِّ إذْ قضينا إلى موسى الأمرَ وما كنتَ من الشاهدين * ولـكِنَّا أنشأنا قُرُوناً فَتطاوَلَ عليهِمُ العُمُرُ، وما كنتَ ثاوياً في أهلِ مَدْيَنَ تَتْلو عليهم آياتِنا ولـكِنَّا كُنَّا مُرسِلِين﴾

[سورة القصص: الآيتان ٤٤، ٤٥]

أي إنه لا سبيل إلى معرفة هذه الأمور مفصّلة بتلقٍّ عن أحد، ولا وصول لك إليها إلاّ بالوحي رحمة من الله بعباده. وكذلك ذكر الله هذا المعنى في قصة يوسف المطوّلة في قوله:

﴿وما كنتَ لديهم إذْ أجمعوا أمرهم﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٢]

وفي قصة زكريا مع مريم:

﴿وما كنتَ لديهم إذْ يلْقُون أقلامَهم أَيُّهُمْ يكفُلُ مريمَ وما كنتَ لديهم إذْ يختصِمون﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٤]

وحين جاء ﷺ بهذه القصص مفصلة مبسوطة موافقة للواقع بطريق لا يُدرك إلاّ بالوحي عُلِم أنه رسول الله حقًّا وأن ما جاء به حق.

ومثل ذلك خبره عن الملائكة والملأ الأعلى وقصة آدم وسجود الملائكة له بعد تلك المراجعات بينهم وبين ربهم قال:

﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾

[سورة صٓ: الآية ٦٩]

وأعظم من ذلك كله وأجلُّ إخبارُه عن الرب العظيم وأسمائه وصفاته مفصلة، بحيث جاء هذا القرآن بما لم يأتِ به كتاب قبله، وأخبر عن الله أخباراً عظيمة تعجز قُدَرُ الأوَّلين والآخرين وعلومهم ومعارفهم أن يأتوا بما يقاربها أو ينقضها أو بعضها، فجميع الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء والمأثور عنهم كل ما في ذلك فإنه في القرآن، وفي القرآن زيادات عظيمة وتوضيحات تدلّ أكبر دلالة وأقواها على أن من جاء بها إمامُ الرسل وسيد الخلق، وأن هذا القرآن مهيمن على ما قبله من الكتب. وأن كل حق قاله أو تكلم به أحد من الخلق فهو في ضمن القرآن ودلالته.

فإن قيل: كيف تجعلون هذا البرهان الذي هو خبر عن الله وأسمائه وصفاته من براهين هذا الدين، وحقية رسالة محمد ﷺ، وأدلة التوحيد والبراهين لا بد أن يعترف بها الموافق والمخالف، وتكون مبنية على الأصول التي يعترف بها العقلاء؟ قيل: الجواب عن هذا الإيراد يتضح بأمور:

منها أن الذي جاء به رجل أمِّي لا يقرأ ولا يكتب، وقد نشأ بين أمة أميين، لم يجالس أحداً من أهل العلم، ولم يدرس كتاباً، ولم يزل على هذا الوصف حتى جاء بهذا القرآن العظيم، الذي معظمه هذه الإخبارات العظيمة المحكمة المتناسبة. فمجرد النظر إلى هذه الحال التي هو عليها، ومجيئه بهذا الكتاب المحتوي على هذه العلوم، برهان قويٌّ يضطر الناظر إليه ويعترف أنه حق، وأنه لا سبيل إليه إلّا بالوحي والرسالة.

ثانياً أنه صدَّق المرسلين والكتب السابقة، فالذي جاء به موافق ومطابق لخبر الله وخبر رسله، شاهد له مهيمن عليه مع وصفه ﷺ بالأمية.

ثالثاً أن ما فيه من الأسماء الحسنى والصفات العليا كلها متناسبة متصادقة، لأن كل اسم منها ووصفٍ يدلّ على الكمال المطلق بكل وجه واعتبار كمال لا يقاربه كمال، ولا يمكن لعقول العقلاء أن تحيط بمعنى واحد من تلك المعاني والأوصاف العظيمة، فهو أكبر دليل على التوحيد والرسالة.

رابعها أن آثارها ومتعلقاتها في الوجود والخلق والأمر مشهودة محسوسة: آثار ما أخبر به من العظمة والملك والسلطان، وآثار ما أخبر به من الحكمة الشاملة والعلم المحيط، وآثار ما أخبر به من الرحمة والجود والكرم، وآثار ما أخبر به من إجابة الدعوات وتفريج الكربات وإزالة الشدّات، وآثار ما أخبر به من شمول القدرة ونفوذ الإرادة وكمال التصرف والتدبير، إلى غير ذلك مما أخبر به عن الله، فإن آثار ذلك في الخلق مشهودة لكل أحد، لا ينكرها أو يتوقف فيها إلا مكابر مباهت. وكذلك آثارها في الأمر والشرائع فهو ﷺ يخبر عن أمر محكم، وغيب مشاهدة آثاره، محسوسة مقتضياته. وذلك يدل دلالة قاطعة أنه حق، وأن من جاء به هو النبي الصادق المصدوق.

خامساً هذه النعوت التي أخبر بها عن الله لا يمكن التعبير عن آثار كنه معرفتها في قلوب العارفين بها من التعظيم والإجلال الذي ليس له نظير، ومن الود والسرور والابتهاج الذي لذّات الدنيا بأسرها بالنسبة إليه أقل من قطرة بالنسبة إلى البحر، وهم خلق لا يُحصي عددهم إلاَّ الله، وهم خلاصة الخلق، والطبقة العالية من الناس، وأكملهم أخلاقاً واداباً، وأرجحهم عقولاً وأصوبهم آراء وأتمهم علوماً ومعارف، وقد اتفقوا على هذا الأمر العظيم ليس اتفاقاً اعتقادياً علمياً فحسب، بل اتفاق علمي يقيني وجدانيّ ضروري، فهذا الاتفاق الذي ليس له نظير، وهو من أعظم البراهين على رسالته، وصحة ما جاء به من التوحيد والحق، وهو من آثار ما أخبر به ونتائجه وثمراته الجليلة.
فإن قلت إنه قد يتفق طوائف من الخلق على بعض الأمور التي ليست بحق، ويكثرون جِدًّا، وقد لا يكون حقًّا إن لم يكن لهم بذلك برهان علمي،

فالجواب: أن الأمر كذلك، فكم يتفق على الباطل أمم لا يحصيهم إلا الله، ولكن ما ذكرنا من اتفاق أهل المعرفة بالله الموصوفين بأعلى الصفات لا يشبهه شيء من تواطؤ الطوائف واتفاقها، لأن هذا مبنى على علم يقيني واتفاق وجداني صادر من هؤلاء الكمل الذين هم أرفع البشر في كل فضيلة وخصلة كمال، وذلك عن بصيرة تامة وذوق كامل، ولهذا استشهد الله بهؤلاء على توحيده وصدق رسله فقال:

﴿شهِدَ اللَّهُ أنه لا إلهَ إلاَّ هُوَ والملائكةُ وأولو العلم قائماً بالقسط لا إلَهَ إلاّ هو العزيز الحكيم * إنَّ الدينَ عند الله الإسلامُ﴾

[سورة آل عمران: الآيتان ١٨، ١٩]

فذكرَ شهادة أولي البصائر من الأنبياء والعلماء الربانيين وأئمة الهدى ومصابيح الدجى على توحيده وعلى العدل، فدلّ أن هذا من البراهين الواضحة. وكذلك أخبر عن الملائكة وأحوال الملأ الأعلى وعن الجنة والنار وصفاتهما وصفات أهلهما والأعمال الموصلة إلى كل منهما بأمور يستحيل أن يأتي بها إلاّ نبـي صادق بوحي من الله إليه، فإن معارف الخلق وعلومهم تقصر غاية القصور عن معرفة تفاصيل ذلك وبيانه، ولكنها رحمة الله وهدايته لعباده بعثها على يد خاتم الرسل وأكملهم رسالة.

نوع من الإخبار بالغيوب

وأما الغيوب الحاضرة والمستقبلة الدالّ كل واحد منها على صدق الرسول وحقّية ما جاء به من الدين، فكيف بجميعها، فكيف إذا انضمت إلى براهين رسالته التي لا تحصى أجناسها فضلاً عن أفرادها.

فمن ذلك ما في القرآن من وعده لرسوله ﷺ أن يتم أمره، وينصره ويُعلي دينه ويظهرَه على الدين كله، ويخذل أعداءه ويجعلهم مقهورين أذلين. وهو كثير جداً مثل قوله تعالى:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهُدَى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٣]

﴿واللَّهُ مُتـمُّ نورِهِ ولو كرِه الكافرون﴾ [سورة الصف: الآية ٨]

﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ [سورة الفتح: الآية ٣]

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكونَ الدينُ كله لله﴾
[سورة البقرة: الآية ١٩٣]

﴿قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنمَ وبئسَ المِهاد﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٢]

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصُدُّوا عن سبيل الله فسيُنْفِقُونها ثم تكونُ عليهم حسرةً ثم يُغْلبون﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٦]

﴿يا أيها النبـي حسبُك اللَّهُ ومَنِ اتَّبعك من المؤمنين﴾
[سورة الأنفال: الآية ٦٤]

﴿سَيُهْزَمُ الجَمْـعُ ويُوَلُّون الدُّبُر﴾ [سورة القمر: الآية ٤٥]

إلى غير ذلك من الوعود الصادقة التي وقعت طبق ما أخبر الله به، وأكثرها نزل قبل الهجرة والمؤمنون في غاية الضعف والقلة، كما قال تعالى:

﴿واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن يَتَخَطَّفَكُمُ الناسُ فآواكم وأيَّدَكُم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾
[سورة الأنفال: الآية ٢٦]

وكذلك قوله تعالى:

﴿يا أيها النبـي قل لمن في أيدِيكم من الأسرى إنْ يَعلَمِ اللَّهُ في قلوبكم خيراً يُؤْتِكُم خَيراً مما أُخِذ مِنكم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٧٠]

الآية. وقد فعل ذلك، وقوله:

﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجَّلَ لكم هذه وكفَّ أيدِيَ الناس عنكم﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٠]

وقد فعل ذلك وله الحمد وأخبر أن صلح الحديبية فتح مبين مع ما حصل فيه من تلك الشروط التي كرهها كثير من المؤمنين ثم تبين لكل أحد بعد ذلك ما فيه من المصالح للإسلام والمسلمين مما لا يمكن حصره، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يَقْربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامِهِم هذا، وإنْ خِفتُمْ عَيْلَةً فسوفَ يُغنيكُمُ اللَّهُ من فضله إن شاءَ إنّ اللَّهَ عليمٌ حكيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٨]

وقد وقع كل ذلك. وأخبر أنه سيتوب على كثير من أئمة الكفر وينصر عباده عليهم كقوله:

﴿قاتِلُوهم يعذبْهُمُ اللَّهُ بأيدِيكُم ويُخْزِهِم وينصُرْكم عليهم ويشفِ صدورَ قومٍ مؤمنينَ * ويُذهبْ غيظَ قلوبِهِم ويتوبُ اللَّهُ على من يشاءُ واللَّهُ عليم حكيم﴾ [سورة التوبة: الآيتان ١٤، ١٥]

﴿عسى اللَّهُ أنْ يجعلَ بينَكم وبينَ الذين عاديتم منهم مودةً واللَّهُ قديرٌ والله غفور رحيم﴾ [سورة الممتحنة: الآية ٧]

وقد فعل ذلك وقوله:

﴿سيقول السفهاءُ من الناس ما ولَّاهم عن قِبْلتهم التي كانوا عليها﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٢]

وقد قالوا ذلك وقوله:

﴿فسيكفيكَهُمُ الله﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٧]

﴿والله يعصمك من الناس﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧]

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٦]

﴿وإذْ يمكُرُ بك الذين كفروا لِيُثْبِتُوكَ أو يقتلوك أويُخرِجوك ويمكرون ويمكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خير الماكرين﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٠]

﴿إنهم يكيدون كيداً * وأكيدُ كيداً * فمهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ [سورة الطارق: الآيات ١٥ ــ ١٧]

وقد أوقـع بهم من الأخذات مصداق ذلك، وقوله:

﴿ولَلْآخِرَةُ خيرٌ لك مِنَ الأولى﴾ [سورة الضحى: الآية ٤]

أي كل حالة متأخرة من أحوالك خير لك من سابقتها، ومن تتبَّـع سيرته وأحواله ﷺ وجد ذلك عياناً في كل وقت من أوقاته، يزداد قوة وتمكيناً وتكميلاً، حتى قال له في آخر حياته:

﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ دِيناً﴾ [سورة المائدة: الآية ٣]

وقال تعالى: ﴿ألم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون * في بِضْـع سنينَ﴾ [سورة الروم: الآيات ١ ـ ٤]

وقد وقـع ذلك كما أخبر، وقال تعالى:

﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنْقَلِبون﴾ [سورة الشعراء الآية ٢٢٧]

﴿وسيعلم الكفار لِمَنْ عُقبى الدار﴾ [سورة الرعد: الآية ٤٢]

وقد وقـع ما توعدهم به من العواقب الوخيمة، وقال:

﴿فستبصرُ ويبصرون * بأيِّكم المفتون﴾ [سورة القلم: الآيتان ٥، ٦]

وقد أبصر الجميـع أنهم المفتونون، وقوله:

﴿فإنّ مـع العُسرِ يُسراً * إنَّ مَـعَ العُسْرِ يُسراً﴾

[سورة الشرح: الآيتان ٥، ٦]

﴿سيجعـل اللَّهُ بعد عُسرٍ يُسْراً﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

وقد يَسَّر الله الأمور بعد عسرها ووسعها بعد ضيقها وشدتها، وقال تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كمـا استخلف الـذين من قبلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الـذي آرتضى لهم وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعدِ خوفهم أَمناً يعبُدُونني لا يُشرِكون بـي شيئاً﴾

[سورة النور: الآية ٥٥]

وقد أنجز وعده ولله الحمد. وقال:

﴿ولقد كتبنا في الـزَّبُور مِنْ بعـدِ الذِّكـرِ أَنَّ الأرضَ يَرِثُها عباديَ الصالحون﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٥]

وقال: **﴿وَلَينصُـرَنَّ اللَّهُ من ينصُرُهُ إن اللَّهَ لقويٌّ عزيز﴾**
[سورة الحج: الآية ٤٠]

﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تَنصُروا اللَّهَ يَنصُرْكم ويثبتْ أقدامَكم﴾
[سورة محمد: الآية ٧]

وقد أنجز لمن قام بالشرط هذا الوعد، وقال:

﴿قلْ للمخلَّفِين من الأعراب ستُدعَون إلى قومٍ أولي بأس شـديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ [سورة الفتـح: الآية ١٦]

وقد دُعوا لذلك في وقت الخلفاء الراشدين ومَنْ بعدَهم من ملوك الإسلام الصالحين. وقال تعالى:

﴿إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأَشهاد﴾
[سورة غافر: الآية ٥١]

﴿وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧]

﴿أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإِنّ اللَّهَ على نصرهم لقدير﴾
[سورة الحج: الآية ٣٩]

﴿لقد صَدَقَ اللَّهُ رسولَه الرؤيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللَّهُ آمنينَ مُحَلِّقين رؤوسَكم ومُقَصِّرين لا تخافون، فَعَلِم ما لَم تَعْلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ [سورة الفتـح: الآية ٢٧]

فحصلت هذه الأمور كلها. وقال تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَا أبـي لهبٍ وتبَّ * ما أغنى عنه مالُهُ وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأَتُهُ حمَّالَةَ الحطبِ * في جيدِها حبلٌ من مَسَدٍ﴾
[سورة المسد: الآيات ١ ـ ٥]

وقوله: **﴿ذَرْني ومَنْ خلقتُ وحيداً * وجعلتُ له مالاً ممدوداً﴾**
[سورة المدَّثر: الآيتان ١١، ١٢]

الآيات، إلى قوله:

﴿سأصليه سقر﴾ [سورة المدّثر: الآية ٢٦]

فأخبر عن أبـي لهب وامرأته وهذا الوحيد يَصْلى النار ومن لازم ذلك بقاؤهم على التكذيب والكفر إلى الهلاك فبقُوا على ذلك حتى هلكوا. وقوله:

﴿إنّا كَفَيْناك المستهزِئين﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٥]

فكفاه إياهم وأوقـع بهم العقوبات المتنوعة، وهي معروفة بين أهل السير. ولما ذكر مكر رؤساء الأحزاب والكُفر قال:

﴿جندٌ ما هنالك مهزومٌ من الأحزاب﴾ [سورة صّ: الآية ١١]

﴿فَذَرْهُم يَخُوضوا ويلعَبُوا حتّى يُلاقُوا يومَهُمُ الذي يوعدون﴾
[سورة الزخرف: الآية ٨٣]

فوقـع ما أخبر الله به.

فصل

ومن ذلك تحدّيه للخلق كلهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سُوَر منه أو سورة واحدة، وأنه لو اجتمعت الإنس والجِن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؛ فلم يقدرْ ولن يقدرَ أحدٌ من الأولين والآخرين على شيء من ذلك، مـع كثرة الأعداء وجدِّهم البليـغ في إطفاء نور الله، وردّ ما جاء به الرسول، ومن نزول القرآن وإلى أن تقوم الساعة والتحدِّي قائم، والبشر عاجز وفي غاية العجز عن ذلك؛ ومن طفق من بعض المكابرين أن يجاريه أو يعارضه أو يأتي بمثله ظهر عيُّه وصار ضحكة لأولي البصائر والألباب، وقال:

﴿قُلْ إنْ كانت لكمُ الدَّارُ الآخرةُ عندَ اللَّهِ خالصةً مِنْ دونِ الناسِ فتمنَّوُا الموتَ إنْ كنتم صادِقين * ولن يتمنَّوْهُ أَبداً بما قدَّمت أيديهم﴾
[سورة البقرة: الآيتان ٩٤، ٩٥]

فلم يقعْ منهم هذا التمنّي في وقت التحدّي الدالّ عليه السياق؛ وقوله في دعوة النصارى إلى المباهلة حين كابروا وجحدوا وعاندوا:

﴿فمن حاجَّك فيه مِنْ بعدِ ما جاءك من العلم فقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفسَنا وأنفسَكم ثم نَبتهلْ فنجعلْ لعنةَ اللَّهَ على الكاذبين﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦١]

الآيات، وقال:

﴿إذا جاء نصرُ اللَّهِ والفتح * ورأيتَ الناسَ يدخلون في دينِ اللَّهِ أفواجاً * فسبِّحْ بحمدِ ربِّك واستغفره إنّه كان توّاباً﴾
[سورة النصر: الآيات ١ ــ ٣]

فأخبر عن هذه الأشياء فوقعت كما أخبر. وقال تعالى:

﴿إنّا أعطيناكَ الكَوْثَرَ * فَصَلِّ لربك وٱنْحَرْ * إنّ شانِئَكَ هو الأبْتر﴾
[سورة الكوثر: الآيات ١ ــ ٣]

أي مقطوع الذكر الجميل، مقطوع من الخير، عواقبه وخيمة. فوقع ذلك بشانئيه. وقوله:

﴿وقُلْ جاءَ الحقُّ وَزَهَقَ الباطلُ إنّ الباطل كان زهوقاً﴾
[سورة الإسراء: الآية ٨١]

﴿وقلْ ربِّ أدخلني مُدخَل صِدقٍ وأخرجني مُخرَجَ صِدق وٱجعلْ لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٠]

وقد فعل الله ذلك. وقوله:

﴿إنّا نحن نَزَّلنا الذِّكرَ وإنَّا له لحافظون﴾، [سورة الحِجر: الآية ٩]

وهذا شامل لحفظ ألفاظه ومعانيه، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا مشاهد محسوس. وقوله:

﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي اللَّهُ بقومٍ يحبهم ويحبونه أذِلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤]

وقد فعل ذلك.

فصل

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وآيةٌ لهم أنَّا حملنا ذريَّتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مِثْله ما يركبون﴾

[سورة يٓس: الآيتان ٤١، ٤٢]

وقال: ﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لِتَرْكبوها وزينةً، ويخلق ما لا تعلمون﴾ [سورة النحل: الآية ٨]

وهذا شامل لكل ما يخلقه الله ويحدِثُه مما خلقه وعلَّمه الإنسان من أصناف المخترعات التي لا تزال تحدث: من المراكب البحرية والبرية والهوائية، ومن المخترعات الكهربائية والمغناطيسية، الحاملة للأصوات من الأماكن الشاسعة، وللأنوار والأثقال المرقية للصناعات ونحوها؛ فكل ما يحدث من دقيق وجليل فإنه داخل في هذه الآية ونحوها. قال تعالى:

﴿وأنزلنا الحديدَ فيه بأس شديد ومنافعُ للناس﴾

[سورة الحديد: الآية ٢٥]

﴿عَلّم الإنسانَ ما لم يعلم﴾ [سورة العلق: الآية ٥]

﴿واللَّهُ خلقكم وما تعملون﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦]

وإنما لم يصرح القرآن بمثل أسماء هذه الأشياء وأوصافها الخاصة لأنه لا فائدة في ذلك في ذلك الوقت، بل فيه مضرّة، لأن الناس لم يشاهدوا لها نظيراً، والنفوس مولعة بالتكذيب والإنكار لما لم يشاهدوه أو يشاهدوا نظيره، قال تعالى:

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أَرَيْناكَ إلّا فتنةً للناسِ والشجرةَ الملعونةَ في القرآنِ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦٠]

فإنه لما أخبرهم بالإسراء إلى بيت المقدس من المسجد الحرام وبالمعراج

إلى الله وبأن في النار شجرةً تخرج في أصل الجحيم حصل بذلك فتنة، مع أنها من المعجزات، وبعضها من أمور الغيب المتقرر مخالفتها لما يعرف الناس، فكيف لو صرح لهم وأخبرهم أن الناس سيطيرون في الهواء ويغوصون في البحار ويتخاطبون في مشارق الأرض ومغاربها، ونحو ذلك من الأمور الواقعة المدهشة، لو أخبرهم ببعضه لسمعت من الإنكار والتكذيب شيئاً كثيراً، ولكن أتى بكلمات جوامع يدخل فيها كل ما سيحدث إلى قيام الساعة، حتى إذا وقعت تبين دخولها في دلالة القرآن فازداد المؤمنون بذلك إيماناً، وقامت الحجة على المعاندين. ولهذا كلما توسعت معارف الناس في علوم الكون والطبيعة عرفوا من دقيق حكمة اللهوعظيم قدرته وحسن خلقه ونظامه العجيب في تدبير المخلوقات ومطابقة ذلك لما أخبر به شيئاً عظيماً. ولكن أبى المتمرِّدون إلا عتوًّا ونفوراً. وهذا من آيات الله، حيث تجد أناساً في غاية المهارة والذكاء في المخترعات وعلوم الكيمياء والطبيعة ونظام الكون، ومع ذلك لم ينتفعوا بعقولهم في أظهر الأشياء، ولم يهتدوا بها إلى أجل المعارف، وهو معرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة دينه ورسوله وعبوديته الظاهرة والباطنة التي علومهم كلها من أولها إلى آخرها لا نسبة لها بوجه من الوجوه، ونهاية الأمر أن تكون من الوسائل:

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [سورة الروم: الآية ٧]

مع أنك تشاهد فيهم من الكبر والزهو واحتقار الرسل وعلومهم ما يدلك أكبر دلالة أن الأمر كله لله، وأن من تكبر على الله وعلى رسله وتاه بعقله وكل إلى نفسه وعقله، فلم ينتفع إلا بأمور ضئيلة دنيوية حاضرة، وهذا مصداق قوله تعالى:

﴿فلمّا جاءتهم رُسُلُهم بالبينات فَرِحوا بما عندهم من العلم وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

وقال تعالى: ﴿قُلْ هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقِكم أوْ مِنْ تحتِ أرجلكم أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويذيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ﴾
[سورة الأنعام: الآية ٦٥]

وقد وقع العذاب من فوقهم بالقنابل المهلكة والدخان الخانق، ومن تحت أرجلهم بالديناميت الناسف المهلك والألغام المتلفة وما أشبه ذلك. ولنذكر هنا آية كبرى تشتمل على آيات فيها مصداق ما أخبر الله به وأخبر رسوله من التوحيد والرسالة والمعاد وأمور الغيب، وفيها أخذ الخناق بالمكذبين الماديين الملحدين فنقول:

الكهرباء وأعمالها ونتائجها

قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّنَ لهم أَنَّهُ الحقُّ﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٥٣]

وقال تعالى: ﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ [سورة العلق: الآية ٥]

لم تزل حقيقة الكهرباء ونتائجها الباهرة وأعمالها العجيبة في طي الخفاء والكتمان، ولم يصل إليها في غابر الزمان علم الإنسان، حتى ترقّت معارف الناس في العلوم الطبيعية والكيماوية وعلوم الكون، فوصلوا إلى هذا العلم العظيم والكنز الثمين. وهو استخراج الكهرباء من المواد الأرضية والمائية والنارية وغيرها من المواد المتنوعة. فحققوا علمها، وفرّعوا أعمالها ونتائجها، بعد ما أتقنوا أصولها، فأوجدوا بها الصنائع المتنوعة والمخترعات الباهرة وأوصلوا بها الأنوار والأصوات من المحال المتباعدة الشاسعة في أسرع من لمح البصر. وما زالوا ولا يزالون في ترقية مخترعاتها وتفريعها. أفليس الذي علّم الإنسان ما كان ناقصاً في علمه، ناقصاً في إرادته وقدرته وعمله وجميع أحواله، أليس الذي علّمه هذه الأمور التي لم تكن تخطر ببال أحد من البشر بقادر على أن يحيي الموتى، وأن يجمع الأولين والآخرين بنفخة واحدة؟

﴿ما خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إلّا كنفسٍ واحدة﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٨]

لم تزل كتب الله المنزلة على رسله، ولم تزل الرسل الكرام، تقرّر التوحيد والمعاد وأمور الغيب بأنواع البراهين والأدلة المتنوعة التي تجعلها من الأمور التي هي أعلى درجات اليقين، فلا تقبل ريباً وشكًّا بوجه من الوجوه. وأعداؤهم المكذّبون برسالاتهم ليس عندهم ما يعارض هذه الأمور العظيمة إلّا مجرّد استبعادات استبعدوها بعقولهم القاصرة وآرائهم الكاسدة. يقولون: كما أنّ هذه الأمور متعذرة على قُدَر المخلوقين فكذلك هي متعذرة على الخالق.

هذا حاصل ما ردّوا به ما جاءت به الرسل من أمور الغيب والمعاد. ولم تزل هذه الطائفة المادية في نموّ وازدياد حتى طم بحرُهم في هذه الأوقات الأخيرة وانسلخوا عن أديان الرسل بالكلية، وكذّبوا ما جاءت به الرسل من أمور الغيب بهذه الشبهة وفشا الإلحاد وطغى الماديون الذين ينكرون بجهلهم وسفاهة عقولهم ما لم تصل إليه حواسهم، فأظهر الله هذه الآية الكبرى والحجة العظمى الدالّة دلالة يقينية عينيّة على صدق ما أخبرت به الرسل ونزل به الوحي من أمور الغيب والمعاد فرأى كل من عنده أدنى عقل وإنصاف أنّ ما جاء به الرسول ونزل به القرآن هو الحق الصريح، الذي صدقت له الآيات الأفقية الكونية، فكل شبهة يُدلي بها المنكرون لما جاءت به الرسل يستندون فيها إلى المشاهدات الحسّية فقط، وأن الذي جاءت به الرسل يخالف ما زعموه من المحسوسات فيتعين في زعمهم إنكارُه، بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه. وهذه الآية من أكبر ما يزلزل شبهتهم ويدحض باطلهم ويردهم على أعقابهم مقهورين مغلوبين بالحق المؤيد بالمنقول والمعقول والمحسوس، فهذه المخترعات الناشئة عن الكهرباء ونحوها قد كان الرسل، صلى الله عليهم وسلم، يخبرون من أمور الغيب بما هو دونها أو فوقها أو مثلها، فيظل هؤلاء الضُّلّال يسخرون بها وبمن أخبر بها، فأراهم الله من عمل الآدميين ما لم يكن لهم في بال ولا حساب:

﴿وَقُلْ جاءَ الحقُّ وَزَهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زَهُوقاً﴾

[سورة الإسراء: الآية ٨١]

فالمؤمنون يزدادون بها إيماناً ويعلمون أن الذي أقدرَ الآدميين ـ على ضعفهم ونقصهم من كل وجه ـ على مثل هذه الأمور قادر على كل شيء، لا يُعجِزه شيء ولا يفوته شيء، وأن جميع ما أخبر به وأخبرت به رسله فهو الحق، والله له المثل الأعلى. فكل علم وقدرة في المخلوقين فالله هو الذي علّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرَهم على ما لم يكونوا عليه قادرين، وبذلك تقوم الحجة التي لا يستطيع أحد إنكارها على الجاحدين، وأن تكذيبهم الرسل محضُ مكابرة واستكبار صِرف، وأنه لا شبهة لهم فضلاً عن أن تكون لهم حجة.. أليس الذي أقدر البشر على هذه المقدورات ـ مع أن قدرة جميع الخليقة ليس لها نسبة إلى قدرة الخلاق العليم ـ قادراً على أن يحيي الموتى ويجمع الأولين والآخرين ويعلم ما تفرق من أوصالهم وما تلاشى من أجزائهم في أسرع من لمح البصر؟ أليس التنادي والتخاطب الذي ذكره الله في القرآن بين أهل الجنة وأهل النار مع البعد العظيم الذي كان المنكرون في ذلك الوقت يرونه محالاً ممتنعاً فجاءهم ما لا قِبَلَ لهم بدفعه؟ إلى غير ذلك من أمور الغيب التي قرّبتها للجاحدين بها هذه المخترعات غاية التقريب، ولكنهم كما قال تعالى:

﴿إن الذين حقَّت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آية حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾ [سورة يُونُس: الآيتان ٩٦، ٩٧]

فالمؤمن ينظر إلى هذه الآيات بنور إيمانه ويستفيد بها هدى ورحمة وإيقاناً:

﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأمَّا الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجْساً إلى رِجْسهم﴾

[سورة التوبة: الآيتان ١٢٤، ١٢٥]

فصل

ومن ذلك إخباره أن سنته في خليقته في نظام العالم وفي الأسباب والمسببات والجزاء بالحسنى للمحسنين وبالسُّوْءى للمسيئين لا تتغير ولا تتبدل، وهي كلها جارية على مقتضى الحكمة التي يحمد عليها؛ وهذا مشاهد في الشرع وفي الخلق والقدر. وقد يغيِّر الله بعض الأسباب عن نظامها المعتاد ليعرِّف العباد أنه المتفرد بالقدرة والتصرف، وأن جميع الحوادث خاضعة لمشيئته وقدرته، وأن ما أخبرت به الرسل من أمور الغيب حقّ، ومفردات هذا النوع من معجزاته ﷺ وكرامة أوليائه لا تُعد ولا تحصى، ولكن أبى الجاحدون إلّا أن يُنكروا ما أخبر الله به على ألسنة رسله مما صاروا الآن يفعلون نظيره، فآمنوا بقدرة الإنسان وكفروا بقدرة من هو على كل شيء قدير، فانقلب الأمر عليهم، وقلب الله قلوبهم كما لم يؤمنوا به أول مرة، واستكبروا بعقولهم عن الحق فسلبت خاصيتها وفضيلتها الحقيقية.

فصل

ومن أعظم علوم الغيب التي أخبر بها الله ورسوله بما أبداه الله وأعاده في كتابه وسنة رسوله أنه لا سبيل إلى هداية البشر وصلاحهم وسعادتهم الحقيقية إلّا بآتِّباع هذا الدين والأخذ بإرشاداته وتعاليمه. وهذا أمر لا يستريب فيه منصف، وهو مشاهد محسوس، فإن هذه الأمة في عصر الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين لما كانوا مهتدين بعلمه وإرشاده وتربيته الخاصة والعامة صَلُحَت دنياهم كما صَلُح دينهم، وصاروا المثل الكامل في العزة والقوة، والعدل والرحمة، وجميع الكمالات المستعد لها البشر، ثم لما ضيَّعوا هدايته العلمية والعملية لم يزالوا في نقص وضعف وذل مُطَّرد لا يزول ذلك حتى يراجعوا دينهم ويرجعوا إلى العمل بهدايته كلها، فهو الذي فيه الشفاء التام من هذا الداء العضال.

ثم في مقابلة ذلك، من العجب العجيب الذي ليس بغريب، أن الأمم الأخرى ارتقت في هذه الأوقات في الصناعات الضخمة والمخترعات المدهشة والسلاح الفتاك والقوة والسياسة والفنون العلمية المادية التي لم يشاهد الخلق لها نظيراً، وأنهم لم يزدادوا بها إلاّ شقاء وهلاكاً وتدميراً، حتى صارت حضارتهم التي يعجبون بها ويخضع لها غيرهم مهدّدةً كل وقت بالتدمير العام، وجميع علمائهم وساستهم في حيرة من تلافي هذا الخطر، فهو خطر واقع ما له من دافع، ولن يتلافى ويدفع إلاّ باتباع ما جاء به دين محمد ﷺ، المهيمن على جميع الأديان، الكفيل بكل خير وسعادة وفلاح، الجامع بين العلم والعمل، وبين سعادة الدنيا والآخرة. فالعلوم والفنون المادية والقوة المادية المحصنة التي لم تؤسس وتبن على الدين الحق خطرها عظيم، وشرها مستطير. فانظر أحوال الأمم تر العجائب. فهذا الارتقاء المادي الذي لم يشاهِدِ الخلق له نظيراً لما خلا من روح الدين كان هو الحبوطَ والهبوط، والسقوطَ الحقيقيَّ في الدنيا والآخرة، بل هو الشقاء والعذاب. والدنيا الآن كلها في خطر مزعج لا يعلم مدى ضرره وفظائعه إلاّ الله، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله.

فصل

ومن البراهين على أن دين الإسلام هو الحق، وأن ما سواه باطلٌ، أن تعاليمه العالية وتربيته السامية في أقصر مدة قد جمعت بين أمم متباينة وطوائف متعادية، وألَّفت بين قلوبهم، وجمعت قاصِيَهم لدانِيهم، حتى صاروا إخواناً متحابِّين، وقُرَناء وأصفياء متعاونين، فحملوا بهذا الدين وبهذه الروح العظيمة المعنوية التي نفخ فيها الروح هذا القرآن على الأمم الضخمة والدول الكبرى والملوك الجبابرة فمزّقوا الجميع كل ممزّق، واحتلُّوا ممالكهم المملوءة بالظلم والعدوان والشرور، وملأوها بالعدل والرحمة والخير، فهذا من أعظم

براهين القرآن المشاهدة، ودين الإسلام مع ذلك يدعو إلى كل علم نافع في الدين والدنيا، ويدعو إلى كل خلق كامل وأدب جميل، كالإخلاص لله والنصح لعباد الله والتوكل على الله والالتجاء إليه في جميع النوائب، والطمأنينة بذكره، والشكر له على آلائه ونعمه، والصدق التام، والقيام بالقسط في حقوق الله وحقوق عباده، والندب إلى الفضل والإحسان الزائد عن الفرض، والشجاعة والكرم، والوفاء بالعهود والعقود، وحسن المعاملة وسلوك طريق التوسط في الأمور كلها، والعفو وحسن الخلق، وتربية الأهل والأولاد وكل من للمسلم عليهم ولاية، وينهى عن أضداد ذلك. فمعرفة ما يدعو إليه هذا الدين ويحثّ الخَلْقَ عليه من البراهين على أنه الحق.

فصل

ومن براهينه التي وقعت مطابِقةً للواقع والمشاهدة، أنه أخبر أنه آيات لأولي الألباب، لقوم يعقلون، للموقنين. وهي آيات كثيرة تبين أن أهل العقول الوافية والبصائر النافذة بقدر ما أعطوا من هذه النعمة الكبرى واللب الكامل يكون حظهم من هدايته وإرشاداته ومقدار الانتفاع به، فتأملْ هداةَ هذه الأمة ومُرشِدِيها، هل تجد أكمل منهم عقولاً وألباباً، وأصوب آراء؟ وتأمّلْ هل تجد مسألة أصولية أو فروعية في هذا الدين قد شهد أحد من المعتبرين على فسادها أو ضعفها أو مخالفتها للواقع؟ وكل من قدح في شيء منها بُيِّن بالبراهين المعترف بها بين العقلاء أن الخلل في دينه وعقله وفهمه أو في سوء إرادته.

وإذا أردت تفصيل هذه الجملة الكبيرة فاقرأ كتاب «العقل والنقل» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكيف بين بالبراهين الواضحة العقلية على ضعف عقول القادحين في شيء من مسائل هذا الدين، وأن الذي زعموه عقلياتٍ هو جهلٌ وضلالاتٌ. وقد تحدّى الباري الخلقَ أن يأتوا بمثل كتابه أو ببعض مثله.

وهذا هو عين هذه المشكلة. فَلْيُرِنَا المنكِرون مسألة واحدة منه خارجة عن الحق والعدل والصلاح والرحمة والحكمة إن كانوا صادقين. .

فهذا الدين هو الذي يُصلح الأمم إصلاحاً حقيقيًّا، ولا يصلحهم سواه أبداً، وقد أكمل الله هذا الدين: فليس فيه نقص بوجه من وجوهه، لا في عقائده وأصوله، ولا في أخلاقه وآدابه، ولا في أعماله ومنافعه المتنوّعة، ولا في شرائعه وأحكامه وحكمه بين الخلق، ولا في ظاهره ولا في باطنه. فكل ضرر أو قصور أو تقصير أو إسراف ومجاوزة فَلِفَقْدِهِ أو نقصه. وهذه الأصول والجمل العظيمة نتحدَّى بها جميع البشر، وأنه محال أن يجدوا فيما جاء به الرسول نقصاً أو خللاً بوجه من الوجوه، فإنه جمع المحاسن والكمالات والمنافع كلها، ونهى عن القبائح والمضارِّ والمفاسد كلها، فليأتوا بمثال واحد يسلمه العقلاء مخالفاً لهذه الأصول التي أسَّسها هذا الدين، وجعلها قواعد خالدة نافعة يرجع إليها البشر في هدايتهم ورشدهم.

فصل

ومن براهين القرآن وهذا الدين إخباره المتنوع بما تفعله هداية الكتاب والسنة في القلوب والأرواح والأخلاق، وأن الأمور المذكورة لا تَكْمُلُ ولا تتم ولا تصلح ولا ترقى إلا بهدايته، فوجد مخبره كما وصف. فهذا معروف لا ينكر، يشهد به أولو الألباب والبصائر، وهم أذكى الناس وأزكاهم وأصدقُهم وأورعُهم وأصحهم علوماً ومعارفَ وأذواقاً صحيحة، وأعدلُهم شهادة عن علم ويقين ووجدان، وذوق صحيح موافق للعلم واليقين. قال تعالى:

﴿يَهدي به اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَه سُبُلَ السَّلام﴾

[سورة المائدة: الآية ١٦]

﴿والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٩]

فكل من قصد رضوان الله واجتهد في معرفته واتباعه هداه سُبُل السلام التي

أضافها إلى نفسه، لأنه الذي نصبها لوصول سالكها إلى الله عـز وجل. والهداية المذكورة في الآيتين وغيرهما تشمل الهداية العلمية لكل علم نافـع صحيـح، والهداية العمل لسلوك طريق الصلاح باطناً وظاهراً. قال تعالى:

﴿من عمل صالحاً مِنْ ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحْيِينَّهُ حيـاةً طيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهم أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

وأصل الحياة الطيبة طيب القلب وراحته وسروره، والقناعة والرضى عن الله، وهذا مشاهد أن من حقق الإيمان والعمل الصالـح حصل له ذلك بحسب كمال ما قام به من الوصفين أو نقصه، فإن المؤمن الصادق لو كان في أضيق عيش وأشقِّ حالة فإن هذه الحياة الطيبة حاصلة له بوعد الله الذي لا يخلف الميعاد. وقال تعالى:

﴿ألَا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٨]

وهذه الطمأنينة بذكر الله هي ما يجده أهل الإيمان والإحسان الصادقين من ذوق حلاوة الإيمان وحقائق اليقين والأنس بالله وانشراح القلب لطاعته وخدمته، والأحوال الزكية التي هي أحلى في قلوبهم من كل لذة يجدها الناس؛ وهذه براهين ذوقية وجدانية تكون في حقِّ هؤلاء، حق اليقين، وهي أعلى من عين اليقين. وقال تعالى:

﴿ومن يؤمنْ بالله يَهْدِ قلبَه﴾ [سورة التغابن: الآية ١١]

فقد تكفل الله بهداية القلوب لكل من حقق الإيمان بصدق، فإن إيمانه بالمأمور يقتضي فعله. وإيمانه بالمحظور وخوفه التام يقتضي تركه، وإيمانه بالمقدور الذي لا يلائم النفوس بأن يعلم أنه من عند الله فيرضى ويسلّم لأمره. فهذه الهداية التامة في هذه الأمور مشاهدة لمن حقق الإيمان، وهذا أمر معلوم مشاهد بالبصائر والأبصار.

فصــل

ومن ذلك ما تواترت بـه نصوص السُّنـة من إخباره ﷺ عن الأمـور المستقبلة، فوقعت طبق ما أخبر، ولا تزال بقيتها تحدث شيئاً فشيئاً، ولا بدَّ أن يقـع كل ما أخبر به، فإنه أخبر بالخلافة بعده، وأنها تكون ثلاثين سنة، ثم يعقبها المُلْكُ الذي فيه خير وشر وصلاح وفساد. وإخباره بأن الله زوى له الأرض، مشارقَها ومغاربَها، وأن مُلْكَ أمته سيبلـغ ما زوى له منها، فوصلت الفتوحات الإسلامية إلى المحيط الغربـي وإلى الشرق الأقصى من حدود الصين. وإخباره بما يقـع بعده من الفتن التي في صدر الإسلام وبعده. وإخباره بأن خير القرون قرنُه، ثم الذين يلونهم، فوجد مصداق ذلك في علومهم وأعمالهم وثمرات أعمالهم وإخباره بأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق لا يضرهم مَنْ خَذَلَهم ولا من خالفهم حتى يأتيَ أمرُ الله، وظهر مصداق ذلك. وإخباره بفشوّ الزنا والخمر والحرير والذهب والجهل وقلة العلم وكثرة الهرج والمرج وتداعي الأمم على المسلمين كتداعي الأَكَلَةِ على الصحفة مـع كثرة المسلمين، ولكنهم غثاءٌ كغُثاء السَّيل لتفرُّقهم وتعادِيهم وذلِّهم وخضوعهم واستعبادهم للأجانب وفقد معنويتهم لإعراضهم عن هداية دينهم. وإخباره بتقارب الزمان، الذي من لازِمِه تقاربُ المكان، فكان هذا عين ما وقـع من قرب المواصلات الزمانية والمكانية بالمخترعات الحادثة. كما أن إخباره بمواقيت المناسك للأقطار قبل فتحها فيه الإخبار بفتحها، وأن أهلها سيُسلمون ويحجون؛ وتصريحه بأن أمته سيهزمون الأكاسرة والقياصرة، وتنفق خزائنها في سبيل الله. وإخباره بالكذابين المتنبئين بعده وأنهم سيبلغون ثلاثين كذّاباً فوقـع كل ذلك.

وإخباره بقتال أمته للترك، وأن أمته ستركب البحر غزاة في سبيل الله. وإخباره بأن أمته ستفترق ثلاثاً وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، والمراد هنا أمة الإجابة الذين آمنوا بالرسول وأجابوا دعوته، فمنهم اثنتان وسبعون فرقة

أهل بدع وواحدة أهل سُنة متمسكون بما عليه النبي ﷺ وأصحابه؛ وإخباره بخروج الخوارج المارقين، ووصفه لهم بالصفات المتعددة المطابقة لأحوالهم، وإخباره بظهور الخيانة، وفقد الأمانة، وأن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وإخباره بقتال أمته لليهود، وأن العاقبة لهم وقد ظهرت مبادىء ذلك، وأنه لا تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً، وقد بدت مبادئ ذلك ولا بد أن يتم ذلك كله، وأنه لا تقوم الساعة حتى يقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون قيم خمسين امرأة رجل واحد، وقد وقعت أوائل ذلك بالحروب العالمية المهلكة، وأخبر بوجود خليفة في آخر الزمان يحثو المال حثياً ولا يعدُّه عدًّا، وأخبر عن النار التي تخرج في الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى فوقعت منذ مئين من السنين، وإخباره أنه لا بد أن يكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله، ويخبره فخذه بما فعله أهله بعده، ومصداقه ما ظهر من الأعمال الكهربائية والمخاطبات التليفونية والهوائية والراديات المتنوعة التي لا تزال في نمو وازدياد، إلى غير ذلك من الإخبارات عن الوقائع في أحاديث صحيحة متعددة، وهي أحاديث معروفة لا يمكن إحصاؤها في هذا الموضع، وهذا من براهين الرسالة وآيات نبوته ﷺ.

وأما معجزاته التي شاهدها أصحابه في حياته من انشقاق القمر، وتسليم الجمادات والحيوانات عليه ومخاطبتها إياه، وإجابة دعواته الخاصة والعامة، وحصول بركة الطعام والشراب بملابسته، ونبع الماء من بين أصابعه في قضايا متعددة وشفاء المرضى وغير ذلك فقد صنفت فيها التصانيف الكثيرة وذكرت أجناسها وأنواعها وأفرادها، وكل واحد منها برهان على رسالته فكيف بجميعها، والعلم الضروري اليقيني حاصل ببعض تلك الآيات، وليس قصدنا في هذه الرسالة، وإنما مقصودنا بيان البراهين المشتركة التي بقيت مشاهدةً إلى يوم القيامة لتكون آية وبصيرة للمؤمنين وحجة على المعاندين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

فصـــل

قال الله تعالى: ﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل * لأَخَذْنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوَتِين﴾ [سورة الحاقَّة: الآيات: ٤٤ ـ ٤٦]

وهذا من أعظم براهين رسالته ﷺ أن الله أخبر أنه لو تقوَّل عليه بعض الأقاويل ـ أي افترى على الله الكذب ـ أنه لا بد أن يهلكه، فإذا كان قد ادعى هذا الدعوى العظيمة أنه أرسل إلى الإنس والجن، وأن شريعته كاملة نسخت وهيمنت على شرائع الأنبياء قبله، وأن من خالفه فهو ضالٌّ غاوٍ، وعاداه على ذلك أهل الأرض عربُهم وعَجَمُهم، ورموه عن قوس العداوة، وأبدَوْا من مقاوماته القولية والفعلية ما انتهت إليه قُدَرُهم واستحل بذلك دماءهم وأموالهم، والله مع ذلك يؤيده بقوله وبفعله، وبنصره وخذلان أعدائه، حتى أظهر الله دينه الحق على سائر الأديان، فكانت هذه الحالة العظيمة أعظم وأكبر شهادة من الله شهد بها الحس والعيان، واضطرت العقول إلى العلم اليقين أنه رسول الله حقًّا، فإن الله بحكمته وقدرته ورحمته لا يؤيد الكذّاب المفتري عليه، فكيف والله قد أيده بتأييد ونصر لم يحصل لأحد من الأولين والآخرين، ويظهر صدقه بالآيات الأفقية والنفسية التي شهدها أولُ هذه الأمة وآخرُها، وشهد بها وسَمِعَها الموافقُ والمخالِف، قال تعالى:

﴿قُلْ أيُ شيءٍ أكبرُ شهادةً قُلِ اللَّهُ شهيدٌ بيني وبينَكم﴾

[سورة الأنعام: الآية ١٩]

هذا بقطع النظر عن حالته الخاصة مع قومه وأهل بلده ونحوهم ممن كانوا لا يشكون في صدقه وأمانته وكمال أوصافه، التي لا يماثله ولا يقاربه فيها أحد، فإنهم لا يستريبون في ذلك قبل أن يقول لهم إني رسول الله، فلما قال ذلك كذَّبوه بل كذّبوا بها جَحداً منهم لآيات ربهم واستكباراً عن الانقياد لها، كما قال تعالى:

﴿فإنهم لا يكذِّبونك ولـكِنَّ الظالمين بآياتِ اللَّهِ يجحَدُون﴾

[سورة الأنعام: الآية ٣٣]

فأراهم الله خاصة وأرى الخلق عامة من آيات رسوله وبراهين دينه آيات بينات وبراهين قاطعات، اضمحلت معها كل مقاومة قولية أو فعلية من كل معارض ومعاند وجاحد وملحد، وهي باقية قائمة على الدوام، تزول السموات والأرض والجبال وهي لا تزول، وتتحول كل حال من الأحوال وهي مستمرة لا تتحول ولا تحول.

فصــــل

قال تعالى: ﴿ولا يأتونك بمَثَلٍ إلَّا جئناك بالحقِّ وأحسَنَ تفسيراً﴾
[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

وهذا من آيات الله وبراهينه على صدق رسوله وصحة ما جاء به من هذا الدين المحفوظ في معانيه وألفاظه؛ فكما أن معاني الكتاب والسنة يستحيل أن يقوم دليل صحيح على كذب شيء من أخبارها، أو فساد ومنافاة للحكمة والعدل والرحمة في أوامرها ونواهيها ـ كما هو مقرر مبسوط في جميع أصول الدين وفروعه ـ فكذلك ألفاظ الكتاب والسنة معصومة جامعة بين دلالتها على الحق والوضوح التام، وأنه يتعذر أن يوجد في كلام أصناف الخلق مثلها في الإحكام والإتقان، وصلاحيتها لكل زمان ومكان وحال من الأحوال، ومتى ذكرت وبينت معانيها بياناً شافياً فإنها تجمع كل ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة، وفيها زيادات عظيمة لا توجد في كلام الخلق، وهي محفوظة مما دخل في كلامهم من الباطل، وفيها من دلائل الوحدانية والنبوة والمعاد ما لا يوجد في كلام أحد من الناس، ففيها أصول الدين المفيدة لليقين، وهذا أمر يعرفه من تتبع الكتاب والسنة وعرف ما قاله الناس من أصناف الكلام، فإنه يرى من النقص والزيادة والاختلاف والتناقض العجب العجاب.

فصـــل

ومن أعظم براهين الدين الإسلامي التي لا يمكن إنكارها ولا المكابرة في ثبوتها أنه حكيم، محكم في أصوله وفروعه، لا فيه نقص ولا فساد ولا تناقض ولا اختلاف، قال تعالى:

﴿أفلا يتدبَّرون القرآنَ ولوْ كان من عندِ غيرِ اللَّهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [سورة النساء: الآية ٨٢]

فانظر إلى إخباراته المتنوعة عما لله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العليا والأفعال الحميدة على تنوُّعِها وتصريفِها في كل أسلوب ومعنى من المعاني تجدْها كلَّها متوافقةً متصادقة دلَّت كلها على غاية الكمال الذي تقصِّر الأفكار عن تصور كنهه، والألسن عن التعبير عنه ووصفه، وأنه كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده، وكذلك أخباره عن الآخرة وما فيها من الحساب والثواب والعقاب وأصناف النعيم والعذاب، وأخباره عن أنبيائه وقصصهم المختصرة والمبسوطة، كلها متشابهة في الحسن والصدق والاتفاق وعدم التناقض والاختلاف، قال تعالى:

﴿ومَنْ أصدقُ مِنَ الله قيلاً﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٢]

وكذلك إذا نظرت إلى الشريعة في أصولها وفروعها، ظاهرها وباطنها، رأيت ما تأمر به كلُّه خيرٌ وإصلاحٌ للقلوب والأرواح والأبدان، وكلها خيرات ومنافع ومصالح. وما تنهى عنه فهو بضد ذلك شر وضرر. وإذا تعارضت المصالح والمفاسد قدم الشارع أهمها وأرجحها، وهذا من أعظم الآيات وأكبر البراهين. فتتبعِ الدينَ كلَّه مسألةً مسألةً تجدْهُ على هذا الوصف المحكم المتقن الذي قصد به سعادة البشر في معاشهم ومعادهم، وأن يزول عنهم الشقاء والضرر، قال تعالى:

﴿أَفَحكمَ الجاهليةِ يبغُونَ ومنْ أحسنُ من اللَّهِ حُكماً لِقَومٍ يُوقِنون﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

وإذا أردت تحقيق هذا الأمر الكلي فانظرْ كل إصلاح موجود واقع من أحد من

البشر، سواء من الموافقين أو من المخالفين: إصلاح في الأخلاق أو الآداب أو العلوم أو العمل أو الدنيا أو غير ذلك مما هو إصلاح.. انظرْ من أين مصدره، ومن أي طريق وصل إليهم، تجدْه بلا ريب من هذا الدين الكامل، وإنْ صَبَغَه الأعداء بغير صبغته، وغيروا وجهته، فليقولوا عن شيء من الإصلاح إنه ليس من دين الإسلام إن كانوا صادقين، كما أنه لا يوجد فساد وضرر وظلم وقبيح وسقوط إلّا ودين الإسلام أبعد شيء عنه، وهو يحذر عنه غاية التحذير.

وإذا أردت زيادة إيضاح لهذا فاعلم أن دين الإسلام أَمَرَ بكل ما فيه ترقية للعقائد والأخلاق والآداب التي تكمل بها القلوب والأرواح وتحصل السعادة الكاملة، ويأمر أيضاً بكل ما يُرقِّي الأمم من أصناف العلوم والأعمال النافعة، فما من منفعة وخير ديني ولا دنيوي إلَّا جاء به وأرشد إليه وحثَّ عليه بكل وسيلة، فمن قام بالأمرين سَعد في معاشه ومعاده، وتم له الفلاح والصلاح والكمال المتنوع، وسلم من كل شرٍّ وضرر، ونقصٍ عاجل وآجل، ومن فقد الأمرين ـ الرقي الروحي والدنيوي ـ حصل له الشقاء التام وخسر الدنيا والآخرة، ومن اعتنى بالرقي الدنيوي المادّي وحدَه ولم يبن رقيَّهُ على الحق والدين الصحيح فإن مادّته كثيراً ما تكون هي مادة ضرره العاجل، كما يشاهده البشر من أمم الحضارة المادية المحضة كيف وقع بها من الهلاك والفناء والتدمير ما لم يوجد له مثيل ولا نظير، وذلك بأيديها وأعمالها، وهي مجدة كل وقت في الاستعداد لإهلاك بعضهم بعضاً واستعباد الأمم الضعيفة، وهم مهددون بالحروب التي تقضي القضاء التام على هذه الحضارة المزعومة المزخرفة المزوقة بالأقوال الكاذبة والأفعال المزورة التي يظهرون أنها صلاح وإصلاح وهي عين الشرّ والضرر، فلو أنها بنيت على الدين الحق الذي هو دين الإسلام، وصار العدلُ والحكمة والرحمة روحَها، وطلبُ التقرُّب إلى الله والقيام بعبوديته التي خلقوا لأجلها، والاستعانة بالنعم الجسيمة على طاعة من أنعم بها، واحترام حقوق البشر، لو أنها كانت كذلك لسعد بها البشر

سعادة لا شقاء فيها، ولحصلت لهم الحياة الطيبة واطمأنوا من الأخطار الفادحة، والشرور المدلهمة المتنوعة، والقوارع التي تنتابهم في كل ساعة، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون!..

فصل

قال تعالى: **﴿شَرَعَ لكم من الدين ما وصَّى به نُوحاً والذي أوحَينا إليكَ وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسَى وعِيسى أنْ أَقِيموا الدِّين﴾**
[سورة الشورى: الآية ١٣]

وقال: **﴿قولوا آمنَّا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ واسمٰعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبيون مِنْ رَبِّهِمْ لا نفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾** [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

فمِنْ أعظمِ الأدلة على رسالة محمد ﷺ، وأنَّ دينَه هو الحق أنه أمر بالإيمان بجميع الرسل، وبكل ما أوتوه من الله من الكتب والشرائع والحق، مع تضمُّنِه الاستسلام الكامل والإخلاص التام لله، وهو مصدِّق لجميع الأنبياء، وشريعته وكتابه مهيمنٌ على الكتب والشرائع كلها شاهداً عليها وحاكماً مؤتَمناً، شهد بمثل ما فيها من الأخبار الصادقة، وقرر ما فيها من أصول الدين وشرائعه الجامعة التي اتفقت عليها الرسل، وهي صالحة لكل زمان ومكان، وجاء بالأصول الكلية التي يهتدي بها جميع طبقات البشر إلى مصالحهم. فهذا القرآن وهذه السنة كفيلان بذلك كفالة تامة.

وقد تتبع المحققون المنصفون ذلك فوجدوا جميع أصول الإصلاح التام مذكورةً وموضحة في الكتاب والسنة، منها ما هو منصوص عليه بعينه، ومنها ما جعلت له القواعد والأصول التي لا يمكن تحصيل الإصلاح ولا حصوله إلاَّ بها. مثال ذلك على وجه التقريب أنها أصلحت العقائد الإصلاح

الأكبر بمعرفة الله معرفة تفصيلية تملأ القلوب تعظيماً وإجلالاً ومحبة وتألُّهاً لله وإيماناً به ويقيناً وإخلاصاً؛ وأصلحت الأخلاق والآداب بأمرها بكل خلق جميل، كالصبر والعفة والحياء والكرم والشجاعة وحسن الخلق، والعفوِ عن المسيئين والإحسان المتنوع إلى جميع الخلق، وصلةِ الأرحام والقيام بحقوق الأصحاب والجيران والمعاملين وجميع من بينك وبينه معاملة أو صحبة أو اتصال؛ وأصلحت الأحكام الكلية والجزئية بالأمر بالقسط والعدل في حق الكبير والصغير والقوي والضعيف، والنهي عن الظلم من كل وجه، وقمعت المجرمين والمفسدين بالحدود المناسبة للجرائم بحسبها، وكفلت الحياة الزوجية والمنزلية بإيجابها للحقوق المتنوعة التي لا تتم الراحة والحياة الطيبة إلّا بها.

وأصلحت السياسة وتدبير الأمة بالأمر بالشورى والحثِّ عليها، والأمر بردّ الأمر الذي تخشى عواقبه إلى أهل الحل والعقد لينظروا فيه ويقرروا ما ثبتت مصلحته، ويدفعوا ما ظهرت مفسدته، وبالأمر بالاستعداد الممكن والتحرز التام من كيد الأعداء والتحصن من أضرارهم، وبقوة الإيمان بالله والتوكل على الله في دفع الأعداء ومقاومة جميع الشرور، مع الصبر والطاعة لأولى الأمر، ونهت عن كل ما ينافي ذلك من التفرق والتعادي والكسل والخوَر والجبن واختلال النظام الطيب، كما أمرت أن ينتدب لكل أمر مهم من جمع بين الكفاءة والأمانة، وكما أمرت بالمعاهدات السلمية النافعة الدافعة، وأمرت بالوفاء وأداء الأمانة والصدق في كل معاملة عامة أو خاصة، وبمكافأة المحسنين من كل أحد على قدر إحسانهم قولاً وفعلاً، وأمرت بالتوسط في الأمور كلها، ونهت عما يضادّ ذلك من غلو وتقصير ومن إسراف أو تقتير، وأباحت كل طيب من مآكل ومشارب وملابس ومناكح وغيرها، وحرمت كل خبيث منها.

ومما يبين هذا أن دين الإسلام كلما نظر فيه الناظر وناظر عنه المناظر

ظهرت براهينه وقوي يقينه وازداد نوره وقوي به إيمان المؤمنين؛ وإذا قابله ما يضادُّه من كل باطل ظهر فساده وقبحه وبناؤه على ظنون وشبهات لا تسمن ولا تغني من جوع، وظهر الكذب في أخباره والباطل في أحكامه، فإن الحق والباطل ضِدّان ونقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان. قال تعالى:

﴿فماذا بعد الحقِّ إلاّ الضلال﴾ [سورة يونُس: الآية ٣٢]

﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمَغُهُ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٨]

وهذا النوع الذي هو الاستدلال بنفس ما جاء به النبي ﷺ وأنه آيات وبراهين على رسالته وصحة ما جاء به أبلغ بكثير من دلالة المعجزات الظاهرة المتنوعة، فإن هذا برهان عظيم يخضع له جميع العقلاء، ولهذا كان في دعوة النبي ﷺ وأصحابه إلى هذا الدين بيان ما يدعو إليه وما يأمر به وينهى عنه، كما استدل الصحابة رضي الله عنهم بذلك عند ملك الحبشة لما دعاهم وسألهم عما يدعو إليه محمد ﷺ فأخبروه أنه كان ينهى عن عبادة الأوثان، وعن الفواحش والظلم وقطيعة الأرحام، وأنه يأمر بعبادة الله وحدَه وبصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، وبالزكاة والصلاة والصيام فصدّقهم بذلك واعترف برسالته وآمن به.

وكذلك هرقل ملك الروم الذي هو من أعلم النصارى في وقته لما جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام سأل أبا سفيان بن حرب ومعه قومه عن صفات النبي ﷺ فأخبره بها فأقرّ واعترف أنها صفات الأنبياء، وأن مَنْ هذا وصْفُه فلا بد أن يظهر دينُه، فقال هرقل لأبي سفيان في جوابه عن أسئلته: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها؛ وسألتك: هل قال أحد قبله هذا القول؟ فذكرت: أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت هذا رجل يتأسّى بقول قيل قبله.. إلى أن قال: وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: أن لا؛ فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ فذكرت أنَّ ضعفاءَهم اتَّبعوه وهم أتباع

الرسل، أي في أول دعوتهم لمخالفتهم لأغراضهم، ولا ينافي بعد ما يقوم دين الرسل اتباع الأشراف له كما هو الواقع؛ وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكرت: أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ؛ وسألتك: أَٱرْتَدَّ أحد سخطة عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا؟ وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. فذكر من علامات النبوَّة زيادة الإيمان وزيادة الداخلين فيه ومحبة أهله له وإيثارهم إياه على كل ما سواه إذا ذاقوا حلاوته وخالط نوره قلوبهم. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا؛ وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت: أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فعرف بهذه الخصال أنه رسول الله، فإنها من أبلغ الأدلة وأجلى البراهين على ذلك، وكذلك ملك مصر وغيره من الملوك الذين عرفوا صحة نبوته وكمال دينه بكمال ما يدعو إليه من كل خلق حميد وفعل سديد وعمل رشيد، ونهيه عما يضادّ ذلك أو يكون فيه ضرر على العبيد.

فصل

قال تعالى: ﴿بل جاء بالحق وصدَّق المرسلين﴾

[سورة الصَّافَّات: الآية ٣٧]

وأخبر في عدة آيات عن هذا المعنى، وهذا من أكبر براهين رسالته ﷺ، فإن جميع النبوات لا يمكن إثباتها بطريق من الطرق العلمية إلّا بعد إثبات نبوة محمد ﷺ، فمن زعم أنه مصدِّق ومتَّبِع لأحد من الأنبياء، كموسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء الكرام، مع تكذيبه لمحمد ﷺ فإنه يقال له: بأي طريق وأي برهان أثبت به نبوة هذا الذي آمنت به؟ فإنه لا يذكر طريقاً ودليلاً على ما يقول إلّا ومثلُه وأعظمُ منه يدل على نبوة محمد ﷺ؛ فإن طرد دليله لزمه حتماً أن يعترف بمحمد ﷺ، وإن قال: اثبتُّ بهذا الدليل نبوة الرسول الذي آمنت به دون إثباتي به نبوة محمد، ظهر عناده ومكابرته واتباعه هواه، وأن

تكذيبه لمحمد ﷺ في الحقيقة تكذيب للرسول الذي يزعم أنه مؤمن به، فإذا قال: علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا، قيل لهم: معجزات محمد ﷺ أعظم وتواترها أكثر والكتاب الذي جاء به محمد ﷺ أكمل وأمته أفضل وشرائع دينه أحسن، وموسى شريعته مبنية على العدل وعيسى جاء بتكميلها بالفضل، ومحمد، صلى الله عليه وعليهم، قد جمع في شريعته بين العدل والفضل، فكل برهان أيد به رسالة النبيين الكريمين فبراهين رسالة محمد ﷺ أكمل وأقوى وأجلى، وكل شبهة وجهها أهل الكتاب على رسالة محمد ﷺ يلزمهم ما هو أبلغ منها في توجيهها إلى رسالة النبيين الكريمين، فمن لم يؤمن بمحمد ﷺ لم يصح له إيمان بأحد من الرسل لا نقلاً ولا عقلاً، فرسالته ﷺ أيدت رسالة المرسلين وصدَّقَتها وثبَّتتها، فإثبات الفرع بدون أصل محال وممتنع.

فصل

ومن براهين الأديان ومحاسنها عموماً وبراهين الإسلام ومحاسنه خصوصاً أنها أخبرت عن أمور الغيب أخباراً مفصّلة عظيمة ينتفع بها الخلق في عقائدهم وإيمانهم ويقينهم وفي إصلاح أخلاقهم، أخباراً تفيد القطع واليقين كالأخبار عن الله ونعوته وأفعاله، وعن الملائكة والجن وعن اليوم الآخر والجنة والنار، وفرضت على الخلق اليقين التام بكل ما أخبر الله به وما أخبرت به رسله، وأن يقفوا عند ذلك ولا يتجاوزوه، وبين لهم أنه لا طريق لهم إلى معرفة كُنه ذلك وحقيقته، ونهى عن التكلّف بطلب معرفة كُنْهِ ذلك، وأنه لا سبيل للبشر إليه في هذه الدار التي هي دار الابتلاء والامتحان ودار العمل، فإن مقصود الإيمان بالله وبكتبه ورسله لا يتم إلا بالإيمان بالغيب، وتسليم أمور الغيب وتفاصيلها إلى ما ذكره الله في كتابه وأخبر به رسوله، فإن الكتاب والسنة يحويان من أمور الغيب ما لا يوجد ما يقاربه في جميع العلوم المأثورة عن الأنبياء، وبالوقوف على ذلك وعدم تعدّيه يحصل المقصود من التكليف

والامتحان بالشرائع، ولو صار الغيب مشاهَداً ومعروفاً للناس في هذه الدار زال هذا المقصود الأعظم ولم يحصل الإيمان الاختياري المثمر للسعادة الأبدية، ومهما ارتقت معارف البشر في علوم الكون فلن يصلوا إلى معرفة حقيقة هذا الغيب، قال تعالى:

﴿عالِمُ الغيبِ فلا يُظهِرُ على غيبه أحداً * إلاّ من ارتضى من رسول﴾
[سورة الجنّ: الآيتان ٢٦، ٢٧]

وبهذا يعرف أن أمور الغيب خارجة عن طور المحسوسات، وأنه لا سبيل للعقول إلى التوصل لإدراكها، وأنه يجب التسليم التام فيها إلى الشارع بلا قيد ولا شرط. وبهذا نعرف أن من شرط في الإيمان بهذا النوع أنه لا بد أن يدخل في علوم البشر وفنون المعارف الكونية والمادية فهو في الحقيقة لم يؤمن بالأنبياء وبما أوتوه من الله، ونعرف بذلك غلط المجارين للماديين من العلماء العصريين واعتذارهم بأن قصدهم التقريب للأمور الغيبية من الأمور المادية المدركة بالحواس اعتذار فيه خطل وغلط كبير، فإن الماديين الذين لا يؤمنون بغير المادة والطبيعة هم منكرون للرب ولرسله ولليوم الآخر، فالواجب التكلم مع أمثال هؤلاء في براهين التوحيد والرسالة والمعاد، وبراهين وجوب تصديق الأنبياء في كل ما أخبروا به، وفيه من الأضرار أنه يضر المسلمين ولا ينفع في مجادلة المعطلين، أما ضرره في حق المؤمنين فإنه يُضعف الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله إضعافاً ظاهراً، فإن من لا يقنع بخبر الله وخبر رسله في أمور الغيب حتى يقوم عنده وبزعمه دليل عقلي على ذلك فهذا فتح لباب الاستغناء عن الرسل ومشابهة لمن قال الله فيهم:

﴿لَن نؤمن حتى نُؤتَى مثلَ ما أوتيَ رُسُلُ اللّهِ﴾
[سورة الأنعام: الآية ١٢٤]

﴿فلما جاءتهم رُسُلُهم بالبيناتِ فَرِحوا بما عندهم مِن العلم﴾
[سورة غافر: الآية ٨٣]

فكل من لم يؤمن بالرسول إيماناً تامًّا ــ سواء قام عنده دليل عقلي أو حسي على ما قاله الرسول أو لم يقم ــ فليس بمؤمن إيماناً صحيحاً. وأما المنكرون

المعطِّلون فالدخول معهم في هذه المباحث والانهماك في تمثيل أمور الغيب بأمور المادة معهم إغراءٌ لهم على لزوم ما هم عليه من الإنكار، لأن هذا الذي يزعم أنه ينصر الدين نهاية ما يصل إليه أن يجعله تابعاً لعلومهم، وقد خالف إجماع المسلمين والسلف الماضين فإنهم أجمعوا على أن أمور الغيب يجب على الخلق فيها أن ينتهوا فيها إلى ما عرَّفهم الله منها وما عرَّفهم رسوله، وأن يكونوا بذلك موقنين، وأن لا يتكلفوا معرفة الوقوف على الكُنه والكيفية والتفاصيل الخارجة عن خبر الله وخبر رسوله، وإنما الواجب أن يُجعل الكتاب والسنة أصلاً والعلوم العقلية والطبيعية والكونية تابعة، وبذلك يحصل الإيمان الصحيح ويعلم أن جميع العلوم تابعة له وأنه لا يرد شيء من العلوم الصحيحة مناقضاً للكتاب والسنة، بل جميع الحقائق الصحيحة والعلوم الناضجة والمعارف التي اتفقت عقول العقلاء عليها كلها تابعة وخاضعة لعلوم الدين، وقد تتبع المحققون ذلك مسألة مسألة فوجدوها كلها كذلك، والله أعلم.

ومن غرائب الجهل الفاضح حصر كثير من الماديين السنن الإلّهية التي يسمّونها سنن الطبيعة في نوع ماديٍّ محض، يدخل تحت علومهم وإدراكاتهم التي هي في غاية القصور، وأنها كلها مندرجة تحت التفاعل بين المواد والجواهر الكيماوية والتجارب المكررة، وبهذا الطريق الجهلي لا العلمي نَفَوْا أمور الغيب، ونَفَوْا معجزات الأنبياء، ونفوا تغيير الباري للأسباب عن نظامها الذي يعرفون، وهذا من أعظم مضارّ الجهل وقبائحه؛ وقد دلّت البراهين اليقينية والكتب السماوية كلها، بل والمحسوسات والمشاهدات التي لا يمكن إنكارها، على أن لله سنناً متنوعة، وأن عناصر العلم العلوي والسفلي منقادةٌ لإرادة الله وحكمته وعلمه المحيط، وأنه يُجري المقادير والحوادثَ على سنن حكيمة متنوعة، فقد تُعقل أسبابها، وقد لا يَعقل من العباد أسبابَها إلاّ من ارتضاهم الله لرسالته واختصهم بوحيه، فيطلعهم على ما شاء منها، كما أشهد

عباده ما فعله بأنبيائه وأتباعهم من أصناف الإكرام والنجاة الدنيوية، وكما فعل بأعدائه من العقوبات المتنوعة.

وجميع معجزات الأنبياء وبراهين رسالاتهم من سنن إلٓهية ونوع غير النوع الذي تجري عليه الأمور العادية وآثار الأعمال، وكما جعل الأدعية من أكبر الأسباب لحصول المطالب ودفع المكاره وجعل النار بَرْداً وسلاماً على إبراهيم، وفلق البحر لموسى وقومِه، فأخذوا منه طريقاً للنجاة وسلكه فرعون وجنوده فأدّى بهم إلى الهلاك، وكما جعل على يد عيسى إبـراءَ الْأَكْمَهِ والأَبرص وإحياء الموتى، وشق القمر آية لنبيه محمد ﷺ، وكلّمته الجمادات، وحصل على يديه من المعجزات المتنوعة أمور كثيرة لا يمكن إحصاؤها ليعرف العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه حكيم عليم، وأنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون.

فصل

قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نُوحي إليه أنه لا إلٓه إلاّ أنا فاعبدونِ﴾** [سورة الأنبياء: الآية ٢٥]

وقال تعالى: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبينات والزُّبُر﴾** [سورة النحل: الآيتان ٤٣، ٤٤]

وغيرها من الآيات الدالة على أن ما أتى به محمد ﷺ من أصول الدين والشرائع العامة هو ما جاءت به الرسل، وأنه متقرر ذلك عند كل عارف منصف من أهل الكتاب، وهذا من البراهين على أنه رسول الله حقًّا، فالكتب السابقة والرسل متفقة على الأمر بعبادة الله وحدَه والنهي عن الشِّرْك به، وعلى أن الدين عند الله الإسلام المحتوي على الأمر بإخلاص الدين لله، والصدق والعدل، وبِرِّ الوالدين وصلة الأرحام، والنهي عن الظلم والفواحش والمحرّمات القولية والفعلية، ومتفقة أيضاً على أن جميع الرسل بشرٌ

لا ملائكة، وأن ما جرى لهم مع أممهم من التكذيب وإنكار دعوتهم وتنويع الأقوال فيهم وكانت لهم العاقبة في الدنيا والآخرة جرى أعظم منها لسيِّدهم وإمامهم محمد ﷺ، ومتفقة على أن محمداً موصوف بما وُصف به الأنبياء من جميع الكمالات اللائقة بالرسل، وله منها أكملها وأتمها، وقد تواترت البشارات والشهادات بنبوّة محمد ﷺ، وقد ذكرها أهل العلم بألفاظها ومعانيها من الكتب السابقة وشهادة المنصفين من علمائهم الراسخين حتى من لم يُسْلِمْ منهم ذَكَرَ أهل العلم من شهاداتهم واعترافهم بالنقول الثابتة شيئاً كثيراً لا يمكن حصره، والله أعلم.

فصل

قال تعالى: ﴿كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس﴾

[سورة آل عمران: الآية ١١٠]

من براهين رسالة محمد ﷺ وأن دينه هو الحق النعوتُ والأوصافُ التي منَّ الله بها على أمته واختصهم بخصائص، وفضَّلهم بفضائل لم تكن لغيرهم، فإنَّ مَنْ وَقَفَ على أحوال الأمم تماماً عرف يقيناً أنّ أمة محمد ﷺ أعظمُ الأمم عقولاً وأفهاماً، وأتمُّهم معرفةً وبياناً، وأحسنُ قصداً وديانةً وإخلاصاً لله وتحرِّياً للصدق والعدل، وأنه لم يحصل في النوع الإنساني أمة أكمل منهم، ولا ناموس من الناموس الذي جاء به نبيهم، وقد جمع الله لهم طرق المعارف الإنسانية كلها، فإن العلوم والمعارف تُنال بالوحي والوحي الذي جاء به نبيهم أكمل شريعة طرقت العالم، والعلوم النبوية لم تدع أصلاً ولا فرعاً إلّا فيها بيانه، ولا أبقت شيئاً يحتاجه العباد إلّا وضحته؛ وتنالُ المعارفُ والعلوم أيضاً بالحس والعقل والفطرة ولهذه الأمة منها أكملُها وأصحها، وعلومهم كلها تحتوي على توضيح جميع الحقائق النافعة، وتشتمل على هداية الخلائق لما يحتاجونه. هذا مع ما لهم من الأخلاق والآداب العالية والمناقب الكاملة والتفوق في كل خصلة حميدة؛ وهم إنما نالوا ذلك كلَّه، وحصل لهم من جهة

رسولهم ودينهم، فالرسول والدين الذي هذه آثاره في أمة محمد ﷺ في علومهم وأعمالهم وأخلاقهم وجميع أوصافهم هو رسول الله حقًّا، ودينه الحق صدقاً، فالآثار تدل على المؤثر. ولما كانوا في القرون الفاضلة وصدر الإسلام على هذا الوصف ترتب على الكمال الروحي والرقي في الدين والأخلاق الرقيُّ الدنيوي، إذ خضعت لهم الأمم وأخضعوهم بالعدل لا بالظلم، وبالرحمة والحكمة لا بالقسوة والطمع والجشع واختلال النظام، فلما تناقصت الأمور وضعف تمسكُهم الحقيقي بالدين تبع ذلك التدهور وتسلط الأمم الأجنبية، وهذا أيضاً من الآيات، وهو أن الرقي المطلق في كل شيء روحي ومعنوي، وما يتبعه من القوة، تبعٌ لاتِّباع ما جاء به دين الإسلام من العلوم والهدى والرشاد والإصلاح في كل شيء، والعكس بالعكس.

فصل

قال الله تعالى: ﴿إنَّا نحن نزَّلنا الذكرَ وإنَّا له لحافظون﴾
[سورة الحجر: الآية ٩]

وهذا شامل لتكَفُّله تعالى بحفظ ألفاظ القرآن ومعانيه؛ وهذا من أعظم براهين الدين الإسلامي، فإن هذا الحفظ الذي تكفل الله به قد تقرر عند الخلق لهذا الكتاب العظيم ولمعانيه ولأحكامه الكلية، فالقرآن نقله المسلمون، نقلوا ألفاظه ومعانِيَهُ نقلاً متواتراً، قَرْناً بعد قرن، يحفظه المسلمون حفظاً يستغنون به عن المصاحف، كما ثبت في صحيح مسلم مرفوعاً (إن ربي قال لي إني منزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأه نائماً ويقظاناً) يقول ولو غسل بالماء من المصاحف لم يغسل من القلوب كالكتب المتقدمة، فإنها لو عدمت نسخها لم يوجد من ينقلها نقلاً متواتراً، ولم تكن محفوظة في الصدور؛ والقرآن كان محفوظاً في الصدور نقلاً متواتراً حتى لو أراد مريد أن يغير شيئاً من المصاحف وعرض ذلك على صبيان المسلمين لعرفوا أنه قد غيّر المصحف، لحفظهم للقرآن من غير أن يقابلوه بمصحف وأنكروا ذلك.

ومن خصائص المسلمين أن لهم الأسانيد المتصلة بنقل العدول الثقات لدقيق الدين وجليله، وكليات دينهم وضرورياته من الواجبات والفرائض والمحرمات، قد نقلت بالتواتر واشترك في علمها العالم والجاهل والصغير والكبير. وأمة محمد ﷺ إجماعُهم حجةٌ قاطعة، فلا تجتمع ولله الحمد إلاّ على الحق في باب الأخبار وفي باب الأحكام، وفيهم أئمة الهدى ومصابيح الدجى العلماء الربانيون الذين تضمحل علوم غيرهم إذا نسبت لعلمهم، قد جمع الله لهم أصناف المعارف وفنون الكرامات وزكّاهم بالأخلاق الفاضلة وأنواع الكمالات.

فصل

قال الله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾
[سورة الزمر: الآية ٦٢]

﴿أمْ خُلِقوا من غيرِ شيء أم هُمُ الخالقون﴾ [سورة الطور: الآية ٣٥]

﴿وكلُّ شيء عندَه بمقدار﴾ [سورة الرعد: الآية ٨]

﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ [سورة يسٓ: الآية ١٢]

قالت الملائكة والرسل أفضل الخلق وأعلمهم:

﴿سبحانَك لا عِلمَ لنا إلاّ ما علمتنا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٢]

من كمال هذا الدين وعظمته وإحاطته، وأن القرآن ما فرط الله فيه من شيء، وأنه تبيان لكل شيء ـ قد تقدم في الفصول السابقة ما يشتمل عليه من علوم التوحيد والعقائد الصحيحة والأخلاق والآداب الكاملة والكمال المطلق الذي لا يقال فيه «لولا» و«لوما» وأنه المسيطر على الحق والصدق، بحيث لا يعارضه معارض إلاّ اضمحلت معارضته، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وأن العلوم العقلية والنقلية والحسية الصحيحة محال وممتنع أن ترد بما يخالف هذا الدين بوجه من الوجوه.

وفي هذه الأوقات توسّعت المخترعات وتوسّعت علوم الطبيعة والرياضيات، وشاعت بين أهل الفلسفة كثير من النظريات التي تشبه الفوضى، وكثر تعظيمُ الملحدين وتقليدُهم في منتهى نظرياتهم التي بنوها على ظنونٍ وتخرُّصات وقياسات وتجارب يكثر خطأها، وهم في تلك النظريات مضطربون حائرون بل هم فيها متناقضون؛ ومن وقف على نظرياتهم الخاطئة أخذه العجب من كثرة اضطرابها وتناقضها؛ ويرى فريق منهم رأياً ثم يأتي فريق وينقضه ويثبت له نظرية غيرَها، ثم يأتي غيره ويبطل نظريته وحدسه. ومن العجب أنه لم يتفق منهم أحد على نظرية واحدة، تخالف ما دل عليه الكتاب والسنة.

وغاية ما يصل إليه الملحدون المنكرون المعطِّلون وصولهم إلى علل بعض الموجودات، أو ما يسمُّونه أسباباً أو موادَّ أو أصولاً، فمتى وصلوا إليها بعد الكد والتعب وإتعاب الأفكار ظنوا أنهم وصلوا إلى جميع علل الموجودات، وأنه ما بعد ذلك شيء، فأنكروا الخالق واستولت عليهم الطبيعة. وعند التحقيق تجد هؤلاء القوم وإن مهروا في علوم الطبيعة وحذقوا في الرياضيات فمنتهى ما وصلوا إليه من العلم الصحيح في هذه الأشياء هو من جملة مخلوقات الله الذي خلق جميع العالم العلوي والسفلي بنظام وحِكَمٍ تقصر عقول الخلائق عن الإحاطة بحكمة الله فيها.

وكلما أمعن الفكر الصحيح في حِكَمه وحُسن نظامه رأى من كمال النظام واقتران الأسباب بمسبباتها والعلل بمعلولاتها ما يدله على الخضوع لله والانكسار لعظمته؛ ولكن هؤلاء ما زادهم هذا النظر إلاّ عُتُوًّا ونفوراً، والسبب الذي أدّاهم إلى هذا معروفٌ، وهو استكبارهم عن الحق واحتقارهم للخلق، وأنهم لما جاءتهم رسلهم بالبينات في المسائل والدلائل والبراهين اليقينية فرحوا بما عندهم من العلوم الطبيعية التي لا تُرَقِّي القلوب والأرواح، ولا تزكِّي

الأخلاق، فقصور هؤلاء واقتصار علومهم وانتهاؤها إلى ما ذكرنا من بعض علوم الطبيعة وعجبهم بأنفسهم هو الذي صيرهم إلى هذا الإلحاد.

هذا في علومهم الصحيحة، وأما النظريات المخالفة للكتاب والسنة فلم يتفقوا ولله الحمد على نظرية واحدة منها بل تجدهم فيها متناقضين يرد بعضهم على بعض، وهذا شأن الباطل:

﴿بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مَرِيـج﴾

[سورة قٓ: الآية ٥]

وأما جميـع الحقائق التي دلّ عليها دين الإسلام فهي كلها حق وصدق، ثابتة لا تغيرها الأوقات ولا تقدح فيها الشُّبه، بل كلما عُورضت ظهر من حقها ونورها وبرهانها أمرٌ عظيم يبيِّـن أنها من عند مَنْ هُو بكل شيء محيط، ويبين أن جميـع الحقائق الثابتة الصحيحة مندرجة في ضمن الدين الإسلامي.

فصل

ومن براهين شريعة دين الإسلام أنها الشريعة التي جاءت بـالعدل والقسط بين الناس في جميـع الحقوق والمعاملات المتنوعة، ونَدَبت وحثَّت على الإحسان والفضل، كما قال تعالى:

﴿وأقسطوا إن الله يحب المُقسطين﴾ [سورة الحجرات: الآية ٩]

وقال: ﴿والذين إذا أصابهم البغيُ هُمْ ينتصرون * وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها فمن عفا وأصلـح فأجره على الله إنه لا يحبّ الظالمين * وَلَمَنِ انتصر بعد ظُلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنّما السبيلُ على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * وَلَمَنْ صبر وغفر إنَّ ذلك لَمِنْ عزم الأمور﴾ [سورة الشورى: الآيات ٣٩ ـ ٤٣]

فهذا أحسن شرع وأجمله، يرغب في الصبر والعفو والإصلاح بغاية الترغيب، ويذكر ما فيه من الفضائل والمحاسن وحميد العاقبة، ويرفـع عن المنتصف

ممن ظلمه الملام، ويبين أنه لا حرج عليه ولا سبيل إذا انتصر بعد ما ظُلم، ويذكر الحق الواجب اللازم ثم يقول:

﴿ولا تَنْسَوُا الفضلَ بينكم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

فيذكّر العباد أن يجعلوا للفضل والإحسان في معاملاتهم موضعاً ومحلاً لينالوا بذلك حسن الجزاء، ويتصفوا بأكمل الأخلاق، ويتودَّدوا إلى من بينهم وبينهم علقة حق من أي وجه كان، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

فصل

قال شيخ الإسلام والمسلمين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: وسيرة الرسول ﷺ من آياته، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعِلمُ أمته ودينُهم من آياته، وكرامات صالحي أمته من آياته. وذلك يظهر بتدبُّر سيرته من حين وُلِد إلى أن بُعث، ومن حين بُعث إلى أن مات، وتدبُّر نسبه وبلده وأصله وفصله، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً، من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يأت نبيٌّ من بعد إبراهيم إلّا من ذريته، وجعل له ابنين اسمعيل وإسحاق، وذكر في التوراة هذا، وهذا وبشر في التوراة بما يكون من ولد اسمعيل، ولم يكن في ولد اسمعيل من ظهر فيما بشرت به النبوات غيره، ودعا إبراهيم لذرية اسمعيل أن يبعث فيهم رسولاً منهم ثم من قريش صفوة بني إبراهيم، ثم من بني هاشم صفوة قريش، ومن مكة أم القرى، وبلده البيت الذي بناه إبراهيم، ودعا الناس إلى حِجه، ولم يزل محجوجاً من عهد إبراهيم، مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف.

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق وترك الفواحش والظلم وكل وصف مذموم، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة ممن آمن وكفر، لا يعرف له شيء يعاب به

لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه، ولا جُرِّبت له كذبة قط، ولا ظلمٌ لأحد ولا فاحشة، وكان خلقه وصورته من أحسن الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله.

وكان أمِّيًا من قوم أميين، لا يعرف لا هو ولا هم ما يعرفه أهل الكتاب التوراة والإنجيل، ولم يعرف شيئاً من علوم الناس، ولا جالس أهلها ولم يدّع نبوة إلى أن أكمل الله له أربعين سنة فأتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره، وأخبر بأمور لم يكن في بلده وقومه من يعرف مثلَها ولم يعرف قبله ولا بعده في مصر من الأمصار ولا في عصر من الأعصار من أتى بمثل ما أتى به، ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته، ولا من ظهر دينه على الأديان بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره.

ثم إنه اتَّبَعَه أَتباعُ الأنبياء وهم ضعفاء الناس، وكذّبه أهل الرياسة وعادَوه وسعَوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأَتْباعهم، والذين اتّبعوه لم يتّبعوه لرغبة ولا لرهبة فإنه لم يكن عنده مالٌ يعطيهم ولا جهاتٌ يولِّيهم إياها، ولا كان له سيف بل كان السيف والجاه والمال مع أعدائه، وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى وهم صابرون محتسِبون، لا يرتدّون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة.

وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم فتجتمع في الموسم قبائل العرب، فيخرج إليهم يبلّغهم الرسالة، ويدعوهم إلى الله صابراً على ما يلقاه من تكذيب المكذّب وجفاء الجافي وإعراض المعرض، إلى أن اجتمع بأهل يثرب، وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخبارَه منهم وعرفوه، فلما دعاهم علِموا أنه النبي المنتظر الذي تخبرهم به اليهود، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته، فإن أَمْره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم وعلى الجهاد معه، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة وبها المهاجرون والأنصار ليس فيهم من آمن برغبة

دنيوية ولا برهبة إلا قليلاً من الأنصار أسلموا في الظاهر ثم حسن إسلام بعضهم.

ثم أُذِن له في الجهاد، ثم أُمِر به، ولم يزل قائماً بأمر الله على أحسن طريقة وأكملها وأتمها من الصدق والعدل والوفاء، لا يحفظ له كذبة واحدة ولا ظلمٌ لأحد ولا غدر بأحد، بل كان أصدق الناس وأعدلَهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم وأمن وخوف وغنى وفقر وقلة وكثرة وظهوره على العدو تارة وظهور العدو عليه تارة، وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمها، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام، لا يعرفون آخرة ولا معاداً، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم، حتى أن النصارى لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء، وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين، وهو ﷺ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال مات ولم يخلف درهماً ولا ديناراً، ولا شاة ولا بعيراً ولا متاعاً، إلا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونةٌ عند يهودي على ثلاثين وَسْقاً من شعير ابتاعها لأهله، وكان بيده عقار ينفق منه على أهله والباقي يصرفه في مصالح المسلمين فحكم بأنه لا يُوَرِّث ولا يأخذ ورثته شيئاً من ذلك.

وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويشرع الشريعة شيئاً بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بعث به وجاءت شريعته أكمل شريعة لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلاّ نهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء

فقيل ليته لم ينه عنه، وأحل الطيبات لم يحرم شيئاً منها كما حرّم في شرع غيره، وحرم الخبائث لم يُحلَّ منها شيئاً كما استحله غيرُه.

وجمع محاسن ما عليه الأمم، فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب، فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل، وقضاء بفصل، وندب إلى الفضائل، وترغيب في الحسنات، إلاّ وقد جاء به وبما هو أحسن منه.

وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شَرَعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجحانها، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع.

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإن قيس شجاعتهم وقتالهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجعُ قلوباً، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلّموها، وهو الذي أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله، كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة، فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوات وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا لما غيروا دين المسيح في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح.

وأما أمة محمد ﷺ، فلم يكونوا قبله يقرأون كتاباً، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود والتوراة والإنجيل والزبور إلاّ من جهته، فهو الذي

أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقرُّوا بجميع الكتب المنزلة من عند الله فقال:

﴿قولوا آمنا بالله﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

و﴿آمن الرسول..﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥]

إلى آخرها. وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئاً من الدين من غير ما جاء به، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله، لكن ما قصه الله عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم اعتبروا به، وما حدّثهم به أهل الكتاب موافقاً لما عندهم صدّقوه، وما لم يعلموا صدقه ولا كذبه أمسكوا عنه، وما عرفوا أنه باطل كذّبوه، ومن أَدْخَلَ في الدين ما ليس منه من أقوال متفلسفة الهند والفرس أو اليونان أو غيرهم كان عندهم من أهل الإلحاد والابتداع.

وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وهو الذي عليه أئمة المسلمين الذين لهم في الأمة لسان صدق، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم، ومن خرج عن ذلك كان مذموماً مدحوراً عند الجماعة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة. إلى أن قال: ولما بعث الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق تلقى ذلك عنه المسلمون أمته، فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمته أخذوه عن نبيهم مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية، ومعلوم أن كل كمال في الفرع فهو من الأصل المعلم، وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علماً وديناً، وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقاً في قوله إني رسول الله إليكم جميعاً. انتهى ما أردنا نقله من كلام شيخ الإسلام، فإنه نفيس جداً.

فصل آخر من كلام شيخ الإسلام
من «الجواب الصحيح . .» بسطه فلخصنا منه ما يلي:

لما ذكر الأحاديث الكثيرة في آيات النبي ﷺ ومعجزاته وبراهين رسالته، وما أخبر به من العيوب الماضية والمستقبلة، وما حصل بسببه من أصناف القدرة وأنواع الأفعال وإجابة الدعوات وغيرها قال: وعامة ما ذكرناه من آيات النبي ﷺ التي في الصحاح هي من موارد إجماعهم المستفيضة عندهم التي يجزمون بصدقها، ليست من موارد نزاعهم، فهذا طريق يسلكه من عرفه من العلماء، ويعلم خيرة أهله من كان خبيراً بهم. فهذه طريقان في تصديق هذه الآثار: التواتر العام والتواتر الخاص. الطريق الثالث: التواتر المعنوي، وهذا مما اتفق على معرفته عامة الطوائف، فإن الناس قد يسمعون أخباراً متفرقة يشترك مجموعها في أمر واحد.

ثم مثّل بالأخبار عن مشاهير الرجال المتقدمين والمتأخرين ثم قال:

فهذه الأحاديث وأضعاف أضعافها هي أضعاف أضعاف ما ينقل عن الواحد من هؤلاء المشاهير، ونقلتها أجل وأكثر وأفضل من نقلة هؤلاء، وهي كلها تتضمن أن محمد بنَ عبد الله ﷺ كان يجري على يديه من الآيات الخارقة للعادة والعجائب العظيمة ما لا يُعرف نظيرُه عن أحد من الناس، وعِلمُ المسلمين بهذا أعظم من علم أهل الكتاب بما ينقلونه عن آيات موسى وعيسى وغيرهما، فإن نقلة آيات محمد ﷺ غير القرآن أضعاف أضعاف نقلة التوراة والإنجيل فضلاً عن غيرهما من أخبار الأنبياء.

ثم ذكر الطريق الرابع، وأن كثيراً من هذه الآيات تكون بمحضر الخلق الكثير، كتكثير الطعام يوم الخندق، ونبع الماء من بين أصابعه يوم الحديبية، وتكثير الماء والطعام في غزوة خيبر وفي تبوك، وكانوا ألوفاً مؤلفة، وكانوا يتناقلونها متفقين عليها مصدّقين لها من غير إنكار أحد منهم لذلك، فعُلم قطعاً

أن القوم كانوا متفقين على نقل ذلك كما هم متفقون على نقل القرآن والشريعة المتواترة.

ثم ذكر الطريق الخامس، وهو أن مصنفات أهل العلم من أهل التفسير والحديث والفقه والسير والتواريخ مشحون كل منها بذكر الآيات متواتر فيها، ونقل كل طائفة من هذه الطوائف يفيد العلم اليقيني، فكيف بما ينقله كل طائفة من هذه الطوائف.. وهذه الطريق وغيرها يستدل بها تارة على تواتر الجنس العام للآيات الخارقة للعادة وهذا أقل ما يكون، ويستدل بها على تواتر جنس جنس كتواتر تكثير الطعام وتواتر تكثير الطهور والشراب، وعلى تواتر نوع نوع منها كتواتر نبع الماء من بين أصابعه وتواتر إشباع الخلق العظيم من الطعام القليل، وتواتر شخص شخص منها كتواتر حنين الجذع إليه وأمثال ذلك، وكلما أمعن الإنسان في ذلك النظر واعتبر ذلك بأمثاله وأعطاه حقه من النظر والاستدلال ازداد بذلك علماً ويقيناً، وتبين له أن العلم بذلك أظهر من جميع ما يطلب من العلم بالأخبار المتواترة، فليس في الدنيا علم مطلوب بالأخبار المتواترة إلا والعلم بآيات الرسول وشرائع دينه أظهر من ذلك، وما من حال أحد من الأنبياء والملوك والعلماء والمشايخ المتقدمين وأقواله وأفعاله وسيرته إلا والعلم بأحوال محمد ﷺ أظهر من العلم به وأبين، ونقله أكمل وأتم، وهذا مما يبين أنه ليس في الوجود أمر يعلم بالنقول المتواترة إلا وآيات الرسول وشرائعه تعلم بالنقول المتواترة أعظم مما يعلم ذلك الأمر تحقيقاً لقوله:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهُدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٨]

وظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان إنما هو بما يظهره من آياته وبراهينه، وذلك إنما يتم بما ينقل عن محمد ﷺ من آياته التي هي الأدلة، وشرائعه التي هي المدلول المقصود بالأدلة، فهذا قد أظهره علماً وحجة وبياناً

على كل دين، كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً على كل دين، كما أنه ما من دليل عقلي يستدل به على مدلول إلا والأدلة على آيات الرب أكثر وأكثر.

ثم ذكر الطريق السادسة أن العلماء قد صنفوا مصنفات كثيرة في آياته وبراهينه المنقولة في الأخبار وجردوا لذلك كتباً وذكر طائفة منها، إلى أن قال: والمقصود هنا أن تواتر أنواع آياته المستفيضة في الأحاديث أعظم من تواتر أمور كثيرة هي متواترة عند الأمة أو عند علمائها وعلماء أهل الحديث، وهذا غير الآيات والبراهين المستفادة من القرآن، فإن تلك قد تجرد لها طوائف من المسلمين ذكروا من أنواعها وصفاتها ما هو مبسوط في غير هذا الموضع، حتى بيّنوا أن ما في القرآن من الآيات يزيد على عشرات ألوف من الآيات، وهذان غير ما في كتب أهل الكتاب من الإخبار به، وهذه الأجناس الثلاثة غير ما في شريعته التي بعث بها وغير صفات أمته وغير ما يدل من المعرفة بسيرته وأخلاقه وصفاته وأحواله وهذا كله غير نصر الله وإكرامه لمن آمن به، وعقوبته وانتقامه ممن كفر به، كما فعل بالأنبياء المتقدمين، فإن تعداد أعيان دلائل النبوة مما لا يمكن لبشرٍ الإحاطة به، إذ كان الإيمان به واجباً على كل أحد، فبين الله لكل قوم بل لكل شخص من الآيات والبراهين ما لا يبين لقوم آخرين، كما أن دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول. وأطال الكلام، فمن أراد بسط هذه المواضع فليرجع إليه في (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) فإنه بسط فيه الكلام وشرحه شرحاً تامًّا رحمه الله.

فصـــل

قال الله تعالى: ﴿ولا يأتونَكَ بمَثَلٍ إلاّ جئناك بالحقِّ وأحسَنَ تفسيراً﴾
[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

وقال تعالى: ﴿وتمت كلمةُ ربك صدقاً وعدلاً﴾
[سورة الأنعام: الآية ١١٥]

﴿والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤]

والآيات في هذا كثيرة، وهذا من أعظم براهين الدين وأنه كله حق وأن مسائله الأصولية والفروعية حق ومحتوية على الحق، وأن دلائله وبراهينه تهدي السبيل وتوضح الحقائق، وأن النقل فيه هو أعلى درجات الصدق، خبر الله وخبر رسوله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى. وقد تواتر نقل كتاب الله تواتراً لا نظير له بحيث نقلته الأمة كلها كل قرن أدّاه إلى القرن الذي بعده محفوظاً لا تغيير فيه بوجه من الوجوه، وتواترت عن النبي ﷺ أصول الدين كلها والشرائع الكبار، والنقلة أصدق الخلق وأعظمهم تحرياً للصدق وأبلغهم معرفة بطرق الصدق من الكذب، ولهم من العناية التامة في معرفة الصحيح من الضعيف والحق من الباطل والخبرة والمعرفة ما لا يقاربهم فيه أحد، فهذا نقل هذا الدين.

وأما نظريات هذا الدين فكلها حقائق ثابتة حقة اتفق عليها النقل والعقل الصحيح، فجميع الحقائق الثابتة في دين الإسلام لا يستريب أهل العقول الصحيحة في صحتها، ومن ظن سوى ذلك بيِّـن بالأدلة الصحيحة فساد نظره وعقله. ومن تتبع هذا الأصل في جميع موارده ومصادره في أصول الدين وفروعه وتأمله حق تأمله عرف بذلك عظمة هذا الدين وأنه الحق في مسائله وبراهينه، وأنه محكم متقن لا اختلاف فيه ولا تناقض، بل يصدّق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، ومن امترى في هذا أو كابر فليأت بمثال واحد من حقائق هذا الدين يخالف هذا الأصل، ولن يستطيع إلى ذلك سبيلاً.

وأما الأمور المناقضة لهذا الدين فإنها إما نقول كاذبة، وإما نظريات خاطئة. واعتبر هذا بجميع النظريات التي راجت في هذه الأوقات في التكلم عن سلسلة الموجودات بمجرد الخرص والقياسات المختلّة والتجارب التي تطرد ثم تنتقض، هل تجد فيها نظرية واحدة استقر عليها رأى جميع العقلاء، بل يقولها المبتدىء لها ظنًّا واستنباطاً، ويتلقاها المقلدون له المعظمون له لا عن بصيرة، ثم يأتي من بعدهم فيفنّدها ويحدث له نظرية من هذا القبيل، وهكذا تنتهي بهم هذه الأفكار إلى المكابرة والسفسطة، وهذا شأن كل ما خالف الحق. قال تعالى:

﴿بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾ [سورة ق: الآية ٥]

وهذه النظريات التي ابتكروها والتحليلات التي ابتدعوها وعارضوا بها ما جاءت به الرسل من البراهين القطعية من أكبر ما يدل على جهلهم البليغ ومكابرتهم للمعلومات، وهي من أكبر الأساسات التي تعود على علومهم بالإبطال، فإن من بعدهم يأتي على نظرياتهم التي إذا وجه إليها أدنى نظر فيبطلها فلا يبقى للعلوم قيمة ولا للحقائق الصحيحة قدر، وتصير المعلومات فوضى تقذف بها زبد الأفكار ولا يستقر لها قرار، وهذا معروف بالتتبع والاستقراء.

أما حقائق ما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم من أصول الدين وفروعه فإنها ثابتة الأصول محكمة، دلت عليها البراهين القطعية المتنوعة، ووجّه الله عقول العقلاء وذوي الألباب والبصائر إلى النظر فيها، فازدادت بها معارفهم ورجحت عقولهم، واطمأنت قلوبهم بما عرفوا من الحق، وعلموا علم اليقين إجمالاً وتفصيلاً أنَّهُ مستحيل أن يرد الشرع بما يخالف العقل وينافيه أو توجد المحسوسات والمعقولات مناقضة لما أخبر الله به في كتابه، وأخبر به رسوله محمد ﷺ الذي هيمنت شريعته على جميع الشرائع واحتوت على جميع الحق الذي فيها وأبطلت ما حرّف منها وزيد ونقص، وصدّقت

جميع المرسلين، وصار أكبر طريق حصل به تصديق الرسل وصحة رسالتهم هو ما جاء به إمامهم وسيدهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين، وتَبَيَّنَ لكل عارف منصف أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق في أخباره وأحكامه، فكما أن جميع أخباره صدق وحق ويقين، فأحكامه كلها حق وعدل وقسط وصلاح للدنيا والدين، قال تعالى:

﴿وتمت كلمة ربك صِدقاً وعدلاً﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

﴿ومن أصدقُ من اللَّه حديثاً﴾ [سورة النساء: الآية ٨٧]

﴿ومن أصدقُ من الله قيلاً﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٢]

﴿ومن أحسن من الله حُكماً لقوم يوقنون﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

والحمد لله الذي جعل كتابه وشريعته هدى من الجهالات، وشفاءً من أمراض الشكوك والشبهات والشهوات، ورحمة تحصل بها جميع الخيرات، وتبياناً لكل شيء يحتاجه البشر في الأمور الجليات والخفيات.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله في كل أحواله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين. ببلدة عنيزة من الديار النجدية في ٢٠ رمضان سنة ١٣٦٧.

الدَّلائِل القرآنيَّة

في أن العُلوم والأعمال النافِعَة العَصريَّة

داخِل في الدِّين الإسْلامي

الدَّلائِل القرآنيَّة

في أن العُلوم والأعمال النافِعَة العَصريَّة داخِل في الدِّين الإسْلامي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا؛ من يهدِ اللَّهُ فلا مُضلّ له، ومن يضلَلْ فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إلٓه غير الله، وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، ﷺ تسليماً.

أما بعد، فهذه رسالة تتضمن البراهين القواطع الدالّة على أنّ الدين الإسلامي وعلومَه وأعمالَه وتوجيهاتِه جمعتْ كلَّ خير ورحمة وهداية، وصلاحٍ وإصلاحٍ مطلقٍ لجميع الأحوال، وأن العلوم الكونية والفنون العصرية الصحيحة النافعة داخلة في ضمن علوم الدين، وأعماله ليست منافية لها، كما زعم الجاهلون والمادِّيون، ولا جاءت الفنون العصرية النافعة بشيء جديد، كما ظنَّه الجاهلون أو المتجاهلون، بل النافع منها للدين والدنيا وللجماعات والأفراد داخل في الدين، والدين قد دلّ عليه وأرشد الخَلْقَ إليه وإلى كل أمر نافع إلى أن تقوم الساعة؛ وبيان أن الفنون العصرية ـ إذا لم تبن على الدين وتربط به ـ فضررها أكثر من نفعها، وشرُّها أكبرُ من خيرها، ولكن هذا الأصل الكبير يحتاج إلى أمرين: أحدهما معرفة ما دل عليه الكتاب والسُّنة إجمالاً وتفصيلاً. والثاني معرفة بالأمور الواقعة والحقائق الصحيحة التي يعرفها ويعترف بها العقلاء المنصفون؛ فمتى عرف الإنسان الأمرين عرف أنه لا يشذُّ عن علوم الدين الإسلامي، وأعماله وفنونه شيءٌ فيه خيرٌ وصلاح أصلاً،

واستدل العارف بكلٍّ من الأمرين على الآخر، وعرف أن النقص بالإخلال بهما أو بأحدهما، ومتى عرفت الأصول الكلية ردت إليها الجزئيات، ومتى تكلم متكلم بشيء من الجزئيات قَبْلَ أن يعرف الكليات حصل الغلط الفاحش وقامت الشُّبَهُ التي لا تروج إلّا على الجاهلين، أو يروِّجها المعاندون.

عبد الرحمـٰن بن الناصر بن سعدي

فصل

معنى قوله: ﴿والله يقول الحق﴾

قال الله تعالى: ﴿واللَّهُ يقولُ الحقَّ وَهُوَ يَهدِي السَّبيلَ﴾
[سورة الأحزاب: الآية ٤]

فهذه الآية الكريمة صرّحت بأن الله تعالى يقول الحق، وهو الصدق واليقين في أخباره، والعدل والحكمة في أوامره ونواهيه، فكلُّ ما أخبر به فهو حق وصدق، ونافع للعباد في إصلاح عقائدهم وأخلاقهم، ودينهم ودنياهم، وكلُّ ما أمر به فهو بِرٌّ وخيرٌ وإحسان ونفع وبركة؛ وكلُّ ما نهى عنه فهو شر وضرر وفساد، لا فرق في هذا بين الأمور الدينية والدنيوية. وشريعة الإسلام كلُّها تفصيل لهذا الأصل العظيم، الذي ذكره الله في هذه الآية وغيرها.

ثم قال: ﴿وهو يهدي السبيل﴾
وهو الطريق الموصل إلى الحق الذي يقوله ويحكم به، فتكفَّل الله لعباده أنه لا بد أن يبيِّن لهم هذا الحق النافع بالأدلة الواضحة العقلية والنقلية، كما قال في الآية الأخرى:

﴿سَنُريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم حتى يتبيَّن لَهُم أنَّه الحقُّ﴾
[سورة فصلت: الآية ٥٣]

فإنه تعالى لما أخبر بتوحيده وتفرده بالكمال المطلق من جميع الوجوه، وأمر بعبادته وحدَه لا شريك له، وإخلاص الدين له، وإن قوله حق ووعدَه ووعيدَه حقٌّ، ورسولَه وكتابَه حقٌّ، أخبر أنه لا بد أن يريَهُم من الآيات في أنفسهم وفي الآفاق ما يتبين لهم أنه الحق وأن ما سواه باطل؛ فالآيات الأفقية الكونية

والآيات النفسية كلها تحقق هذه الأصول العظيمة ويعرف بها أن الله هو الحق.

وقوله وكتابه ودينه حق فالآيات الأفقية مثل قوله تعالى:

﴿إنّ في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأُولي الألباب﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩٠]

وفي قوله تعالى: **﴿إنّ في خلقِ السَّمٰوٰتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ الَّتي تَجرِي في البَحْرِ بما يَنفَعُ الناسَ وما أنزلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ من ماءٍ فأحيا به الأرضَ بعدَ موتِها وبَثَّ فيها من كلِّ دابَّة وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المسخَّرِ بين السماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلون﴾**
[سورة البقرة: الآية ١٦٤]

وآيات كثيرة يخبر فيها عن أحوال الكون، وأنه آيات وأدلة على وحدانية الله وصدقه، وصدق رسله؛ فالذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، بهذه الأوصاف البديعة، وعلى هذا النظام العجيب والخلق الكامل والإحكام والحُسن، هو المتفرد بالربوبية والإلٰهية، واسع الرحمة والحكمة، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً؛ ومن كان هذا شأنه فهو الذي يجب أن يُعبد وحدَه لا شريكَ له، ويشكر ويذكر لما له من عميم الإحسان وسوابغ النعم فما فيها من عظيم الخلق دالٌ على كمال قدرته وعظمة سلطانه، وما فيها من النظام البديع الحُسْن والخلق الكامل دالٌ على شمول حكمته وحمدِه، وما فيها من التخصيصات المتنوعة دالٌ على نفوذ مشيئته وإرادته، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، التي لا يمكن إحصاؤها ولا تعداد أجناسها، فضلاً عن أنواعها، فضلاً عن أفرادِها، دليلٌ على سعة رحمته وعموم فضله وكرمه وجوده وإحسانه؛ وكل ذلك دليل على وجوب عبادته وإخلاص العمل له، وأن الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة قادر على أن يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

الآيات النفسية والأفقية

وأما الآيات النفسية فإن الله قال:

﴿وفي أنفسكم أَفَلَا تبصرون﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١]

﴿أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أَنَّا خلقناهُ مِنْ نُطفةٍ فإذا هو خَصِيمٌ مُبين﴾

[سورة يس: الآية ٧٧]

﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ﴾

[سورة الطارق: الآيتان ٥، ٦]

ونحوها من الآيات التي ينبّه الله فيها الإنسان على التأمل والنظر في ابتداء خلقه، وتطوره، وكيف تنقّلت به الأحوال من النطفة إلى أن صار إنساناً كاملاً في بدنه وفي عقله، وكيف أحسن الله خلقَه ونَظَمَه هذا النظام العجيب فوضع فيه كل عضو يحتاج إليه في منافعه كلها، ووضع كل عضو في محله اللائق به، الذي لا يحسن ولا يليق أن يوضع إلاَّ في محله، ثم ليتأمل في غذائه، وما أودع الله فيه من قوة الشهوة للطعام والشراب وتوابعها، وما وضع فيه من الآلات المعينة على الأكل والشرب، وما أودع فيه من الحرارة العظيمة التي تطبخ الأطعمة الغليظة والخفيفة، ثم تنفذها إلى جميع أجزاء البدن، فيأتي كل عضو وحاسة حظها ونصيبها من الغذاء، الذي لولاه لتلاشى الإنسان وهلك، وجعل الله لثفل الأغذية وما لا ينفع في الغذاء مجارِيَهُ تندفع إليها وتخرج من البدن لئلا تبقى فيه فتضره أو تهلكه.

ثم لينظر الإنسان ما وضع الله فيه من العقل، الذي يتميز به عن الحيوانات كلها، وهدى الله فيه الإنسان إلى هدايات دينية ودنيوية لا يمكن عدُّها ولا إحصاؤها؛ وكما هداه بالعقل إلى الانقياد لعلوم الرسل وأديانهم هداه به إلى تسخير المواد الكونية والمعادن والمخترعات والصناعات، التي لا تزال تتجدد كل وقت. وقد أخبر تعالى أنه سخَّرَ لنا جميع ما في السموات والأرض، ننتفع بآياتها ونستخرج منافعها وكنوزها ونشكره على ذلك التسخير والهداية والنعم، التي لولا فضله وكرمه لم يحصل لنا منها شيء.

ومن آياته الأفقية النفسية إخباره تعالى أنه سخّر للإنسان جميع ما في السموات والأرض ومعادن الكون وعناصره، ثم إخباره بأنه أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد وآلات العلم وعلّمه ما لم يكن يعلم فحمل بهذا التسخير وبهذا التعليم ــ من فنون العلم وفنون المخترعات الباهرة ــ ما هو مشاهد معلوم، ترقّت به الصناعات، وتوسّعت به المخترعات، وتنوّعت به المنافع وتقاربت به الأقطار الشاسعة، وتخاطب به أهل المشارق والمغارب.

أما يدل ذلك دلالة قاطعة على كمال قدرة الله وصدق ما أخبر به من الغيوب التي كان المكذبون ينكرونها استبعاداً لها، وقياساً منهم لقدرة من يقول للشيء كن فيكون، على قدرة الآدمي الضعيف: في علمه وفي قدرته وفي أحواله كلها، فأراهم الله من آثار قدرته على يد هذا الآدمي ما دلهم على كمال قدرة خالقه ومعلمه وعَلَى وحدانيته وصدق رسله، وهو لا يزال يريهم آياتِه شيئاً فشيئاً في الآفاق وفي أنفسهم فانتفع بذلك الذين يريدون الحق واتِّباعه وقامت الحجة البالغة على المعاندين المكابرين وصار علمُهم وَبَالاً عليهم إِذْ تكبَّرُوا به وامتلأوا غروراً باطلاً، فالله الذي خلق الإنسان وأعدّه وأمدّه بكل وسيلة يدرك بها أنواعَ العلومِ النافعة والفنون المتنوعة الدينية والدنيوية، وربط هذا بهذا فأمر بالقيام بالدين والاستعانة بهذه الوسائل على قيام الدين والدنيا قال تعالى:

﴿يا أيها الرسلُ كُلُوا مِنَ الطَّيباتِ واعملوا صالحاً﴾
[سورة المؤمنون: الآية ٥١]

وأمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:
﴿يا أيها الذين آمنوا كُلُوا من طيبات ما رزقناكُمْ واَشْكُروا لِلَّهِ إنْ كنتمْ إياه تَعْبُدون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٢]

وقال تعالى: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللَّهِ التي أخرجَ لعبادِهِ والطيباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هي للذين آمنوا في الحياةِ الدُّنيا خالصةً يومَ القيامةِ﴾**
[سورة الأعراف: الآية ٣٢]

فالمؤمنون تَمَّتْ عليهم النعمة في الدنيا والآخرة، واستعانوا بالطيبات وأصناف المنافع التي لا تحصى على عبادة الله وطاعته، وصار اشتغالهم بهذه المنافع التي يُتَوَسَّلُ بها إلى إصلاح الدين والدنيا، عبادةً من العبادات وقربةً من القربات. وأما من سواهم من الماديين والضالين الغافلين، فإنهم عرفوا ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون. واشتغلوا بالدنيا عن الدين ونسوا الله فأنساهم أنفسهم وأنساهم مصالحها فتمتعوا فيها تمتع الأنعام السائمة، فخسروا الدنيا والآخرة، أَلَا ذلكَ هُو الخسرانُ المبينُ، فانقطعوا بالأسباب عن مسبِّبها، وانقطعت صلتهم بالله حين قام الكِبْرُ في قلوبهم كما قال الله عنهم:

﴿إن الذين يجادلون في آياتِ اللَّهِ بغيرِ سُلطانٍ أتاهم إنْ في صدورهم إلَّا كِبْرٌ ما هم ببالِغِيهِ فاستعِذْ باللَّهِ إنه هو السميع البصير﴾
[سورة غافر: الآية ٥٦]

استعذ بالله من هذا الكِبرِ الذي حال بين الإنسان وبين سعادته:
﴿فلما جاءتهُمْ رُسُلُهُمْ بالبيِّناتِ فَرِحوا بما عِنْدَهم مِنَ العِلمِ وحاقَ بهم ما كانوا به يَسْتَهْزِئون﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

فصل

التفكير في كيفية جريان الطعام والشراب

وإذا فكر العبد في قُوتِه، طعامِه وشرابِه، كيف يدخل من مدخل واحد ويستقرُّ في موضع واحد، وهو المعدة، فيقيض الله له في ذلك الموضع من الحرارة والأسباب الأُخَرِ ما يُنْضِجه ويتميز جوهره وصافيه ونافعه، فيتفرق في

جميع أجزاء البدن لتغذيتها وتنميتها وما يبقى من الثفل، جعل له مخارجَ يخرج منها لئلا يبقى فيضر ويقتل؛ ولا يزال هذا المعمل العظيم يعمل عمله بإذن الله ويؤدي مهماته: فهل هذا من مقتضى الطبيعة والمصادفة، كما يقوله الماديون، أم هذا تقدير العزيز العليم الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل له السمع والأبصار والأفئدة فتبارك الله أحسن الخالقين؟

وقد نبه الله على البعث بالتفكر في أطوار الإنسان وتنقلاته فقال:

﴿يا أيها الناسُ إنْ كنتم في ريبٍ مِنَ البعث فإنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطفةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقةٍ ثُمَّ مِنْ مُضغةٍ مُخَلَّقةٍ وغيرِ مُخَلَّقةٍ لِنُبَيِّنَ لكم ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أجلٍ مسمًّى ثمّ نُخرِجُكُمْ طِفلاً ثم لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكم ومنكُم مَنْ يُتوفَّى ومنكُم مَنْ يُردُّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ لكيْ لا يعلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلمٍ شيئاً وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّتْ وَرَبَتْ وأنبتتْ مِنْ كلِّ زوجٍ بهيجٍ * ذلك بأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحقُّ وأَنَّهُ يُحْيِي الموتى وأنَّه على كل شيء قدير * وأَنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها وأَنَّ اللَّهَ يبعثُ مَنْ في القُبُورِ﴾

[سورة الحج: الآيات ٥ ــ ٧]

فجعل الله تَنَقُّلَ الإنسانِ في هذه الأطوار وإحياءَهُ الأرضَ بعد موتها دليلاً وبرهاناً على هذه الأمور الخمسة التي يتميز بها المؤمنون ويثبتونها تصديقاً لله ولِرُسُله وآستدلالاً بهذه البراهين العقلية الحسية.

فصل

نعم الله الظاهرة والباطنة

قال الله تعالى: ﴿وما بِكُم مِنْ نعمةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثمَّ إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فإليه تَجْأَرون﴾ [سورة النحل: الآية ٥٣]

وعَدَّدَ اللَّهُ على العبادِ في كتابه أصنافَ النِّعم وأجناسَها وقال:

﴿يعرفونَ نعمةَ اللَّهِ ثم ينكرونها وأكثرُهُم الكافرون﴾

[سورة النحل: الآية ٨٣]

فالنعم الظاهرة والباطنة كلها من الله الحاصلة بغير سبب منهم، والحاصلة بالأسباب التي هداهم إليها ويسَّرها لهم، وهو الذي أوجدها وأوجد أسبابها ووسائلها، وذلك شامل لِنِعَم الدين ونِعَم الدنيا، فعلوم الكون وفنونه كلها من نِعَمه وتيسيره، وهو الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم، وأقدره على ما لم يقدر عليه لولا إقداره، فعليه أن يشكره على ذلك كلِّه، ومن الشكر اعترافه أنها من الله ومن تيسيره، والاستعانة بها على ما خلق له العبد.

فصل

قال الله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم آلر كتابٌ أنزلناه إليكَ لتُخْرِجَ الناسَ مِنَ الظُّلماتِ إلى النورِ بإذنِ ربِّهم إلى صِراط العزيز الحَميد * اللَّهِ الذي له ما في السمٰواتِ وما في الأرضِ وويلٌ للكافرين من عذابٍ شديد﴾ [سورة إبراهيم: الآيتان ١، ٢]

أخبر تعالى أنه أنزل القرآن على رسوله محمد ﷺ في وقت تراكم فيه الجهلُ والظلم والظلمات، وأنواع الشرور، ليُخرِجَ الناسَ به من هذه الظلمات المتراكمة فيعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون، ويحرِّكَ عزائمهم ويثيرَ هِمَمَهم وحواسَّهم إلى الخير، وإلى الإيمان به وبرسله، وطاعته وطاعة رسوله، فتستنير معارفهم وتتضح طريقهم ويستقيم سلوكهم، وتتم لهم بذلك الخيرات،

وتندفع عنهم الشرور والمضرات، فمن تلقَّى هذا الكتاب الذي هو أكبر النعم بفهم وقبول وانقياد لأوامره وإرشاداته المتفرعة المصلِحة للدين والدنيا، فقد استقام على الصراط المستقيم، ومن أعرض عنه أو عارضه فهو الكافر الذي فسدت أحواله، وويل للكافرين من عذاب شديد؛ فإنه لم يكن كفرهم عن اشتباه وخفاء للحق أو اتباع طريق هُدى، بل كُفْرُهم صَدَرَ عن رغبة في الترف وحبِّ الدنيا الذي صدّهم عن الهدى والحق فاستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، أولئك في ضلال بعيد. وأي ضلال أعظم من ضلالِ مَنْ آثَرَ الهوى على الهدى والشقاء على السعادة والشر على الخير ـ وقال تعالى:

﴿إنّ في ذلك لَذِكرَى لمن كان له قلبٌ أوْ ألقى السمعَ وهو شهيد﴾
[سورة قٓ: الآية ٣٧]

وذلك أن العقل وحدَه لا يستقلُّ بمعرفة الله، ولا يعرف عبادته وتفاصيلها، ولا تفاصيل يوم الآخر، حتى يهتديَ بنور الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله، ويكون له قلب يجعل الأفكار والتصورات إراداتٍ وهمماً تحثُّ صاحبَها على اختيار النافع على الضارّ، والخير على الشر، والهدى على الضلال، والأخلاق الجميلة على ضدها، فالقلب الحي إذا نظر في الوحي، وتأمَّل ما جاء به الرسل من الحق في عقائده وأخلاقه وأعماله لم يؤثر على ذلك شيئاً، فإنه يعلم أنه ليس بعد الحق إلّا الضلال، فالتصورات والعلوم وحدَها بلا قلب يتطلع إلى الخير والحق لا تكفي وحدَها، بل قد يكون ضررها كثيراً لخلوها عن الإيمان، وخلوها عن التوجيهات الصحيحة، ولتكبُّر أهلها بها، كما قال الله عن أمثال هؤلاء:

﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً فما أغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهم من شيءٍ إذْ كانوا يجحَدُون بآياتِ اللّهِ وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٦]

فَجَحْدُهُم لآيات الله واستكبارُهم عنها واستهزاؤهم بها واحتقارهم لأهلها أوجب لهم فَقْدَ الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم، فلم يزل هذا دأبهم

حتى حقَّ عليهم العقاب، فانظر كيف كانت علومهم التي لم تُبن على الإيمان وإنما هي علوم جافة منحرفة صارت سبباً لمعارضتهم الرسل، وبقائهم على ما هم عليه من الكفر والتكذيب بالحق؛ فنعوذ بالله من علم لا ينفـع.

فصل
الله أعطى كل شيء خلقه

وقال الله تعالى: ﴿قالَ ربُّنا الذي أَعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمّ هدى﴾
[سورة طه: الآية ٥٠]

أي أعطى كل مخلوق خِلْقَتَه اللائقة به، المناسبة لحاله، ثم بعد هذا الخلق هَدَى كل مخلوق لما خُلِق له؛ وهذا يشمل أنواع الهدايات كلها: فالحيوانات غير الإنسان هدى كل صنف منه إلى ما يناسبه مما لا تتم حياته الحيوانية إلاّ به، من جلب المنافـع الخاصة، ودفـع المضار عن نفسه؛ وأما الإنسان فهداه الله هذه الهداية، واختصَّه بهدايات أُخَرَ استكمل بها دينَه ودنياه إذا استعملها كلَّها، وأمّا إذا استعملها في غير ما خُلقت له فهذا قد استحبَّ واختار العَمَى على الهدى. كما قال تعالى:

﴿وأَمَّا ثمودُ فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾
[سورة فُصِّلت: الآية ١٧]

وبهذه الهداية الخاصة بالإنسان سخر له جميـع ما وصلت إليه قدرته من علوم الكون، وهذه الهداية تشمل الهداية المجمَلة والمفصَّلة في علوم الشرع وأعماله، وفي علوم الكون وأعمالـه، فعلّمه العلوم الشـرعية وهـداه إلى معرفتها، ثم إلى العمل بها، وعلّمه علوم الكون، ثم يسَّر له سبلها فسلكها، وكل أحد أعطاه من هذه الأمور ما هو اللائق به، وما تقتضيه حكمته التي منها إنْ عَرَف الأمور النافعة وحرص عليها وعلى اتباع الحق، واستعان الله عليها، يسّرها عليه وفتـح عليه منها بحسب حاله وقوته وكفاءته كما قال ﷺ (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز) وهذا الحديث في الصحيـح؛ فقوله

(احرص على ما ينفعك) دخلت فيه الأمور الدينية والدنيوية، فمن حرص عليها واجتهد في تحصيلها وسلك الطرق الموصلة إليها واستعان الله عليها تمَّ له ما أراد؛ ومن لم يحرص على الأمور النافعة، أو لم يستعن بالله في تحصيلها، خاب وخسر. وقد أخبر الله في عدة آيات أن القرآن هدي للناس، وأنه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ويهدي للتي هي أقوم، فكلُّ أمر فيه خير وصلاح ونفع فالقرآن يهدي إليه، ويرشد العباد إليه.

فصل

إرسال الرسل بالبينات وإنزال الكتاب والميزان والحديد

وقال تعالى: **﴿لقدْ أرسلْنا رسلَنا بالبيناتِ وأنزلنا معهُمُ الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس وليعلَمَ اللَّهُ مَنْ ينصرُهُ ورسلَه بالغيبِ إنّ الله قويٌّ عزيزٌ﴾** [سورة الحديد: الآية ٢٥]

فأخبر تعالى أنه أرسل الرسل لهداية الخلق وأيّدهم بالآيات البينات، المبيِّنة للحقائق، الدالَّة على صدقهم وحقيقة ما جاؤوا به؛ وأنزل معهم الكتابَ الذي فيه الهدى والرحمة، وأنزل معهم أيضاً الميزان الذي هو العدل وما يعرف به العدل من أصول العدل وفروعه، وذلك ليقوم الناس بالقسط إذا عملوا بها في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وسلوكهم وجميع أمورهم، فمتى عملوا بما أنزله الله من الكتاب والميزان صلحت منهم هذه الأمور واستقامت أحوالهم.

وأخبر تعالى أنه أنزل الحديد، فيه بأس شديد ومنافع للناس، فخص منافعه في أمور الحرب ثم عممها في سائر الأمور؛ فالحديد أنزله الله لهذه المنافع الضرورية والكمالية، الخاصة والعامة، فجميع الأشياء إلّا النادر منها تحتاج إلى الحديد؛ وقد ساقها الله في سياق الامتنان على العباد بها، ومقتضى ذلك الأمر باستخراج هذه المنافع بكل وسيلة، وذلك يقتضي تعلُّم الفنون العسكرية والحربية، وصناعة الأسلحة وتوابعها والمراكب البحرية

والبرية والهوائية، وغير ذلك مما ينتفع به العباد في دينهم ودنياهم. كما قال تعالى:

﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدو الله وعدوكم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وقال تعالى: **﴿وخُذوا حِذركم﴾** [سورة النساء: الآية ١٠٢]

فهذا يتناول الأمر بإعداد المستطاع من القوة العقلية والسياسية والمادية والمعنوية، وأخذ الحِذر من الأعداء بكل وسيلة وبكل طريق، فجميع الصناعات الدقيقة والجليلة والمخترعات والأسلحة والتحصنات داخلةٌ في هذا العموم؛ فهذا الدين الإسلامي يحثّ على الرقي الصحح، والقوة من جميع الوجوه، عكس ما افتراه أعداؤه أَنه مخدِّر مفتِر وهم يعلمون كذبهم وافتراءهم عنه، ولكن المباهتات والمكابرات سَهُلت عليهم وظنوا من جهلهم أنها تروج على العقلاء، وكل عاقل يعلم كذبهم وافتراءهم، وإنما يغتر بهم الجاهلون الضالّون، الذين لا يعرفون عن الإسلام لا قليلاً ولا كثيراً، بل يصوِّر لهم هؤلاء الأعداءُ الإسلامَ بصور شنيعة ليروِّجوا ما يقولونه من الباطل، وإلّا فمن عرف الإسلام معرفة صحيحة عرف أنه لا يستقيم أمور البشر دينُها ودنيويُّها إلّا به، وأن تعاليمه الحكيمة أكبرُ برهان على أنه تنزيل من حكيم حميد، عالم بالغيب والشهادة، رحيم بعباده، حيث شرع لهم هذا الدين الذي قال فيه:

﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياتِه ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا من قَبْلُ لفي ضلالٍ مبين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

وقال: **﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلامَ ديناً﴾** [سورة المائدة: الآية ٣]

وقال تعالى: **﴿إنّ الدينَ عندَ اللّهِ الإسلام﴾**

[سورة آل عمران: الآية ١٩]

وقال: ﴿وَمَنْ يبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يُقبلَ منه﴾
[سورة آل عمران: الآية ٨٥]

وقال تعالى: ﴿ومَنْ أحسنُ مِنَ اللّهِ حُكماً لقومٍ يُوقِنون﴾
[سورة المائدة: الآية ٥٠]

وقال في وصف النبي محمد ﷺ ووصف ما جاء به من الدين:

﴿الذين يتَّبعون الرسول النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يجدونه مكتوباً عندَهم في التوراة والإنجيل يأمُرُهم بالمعروفِ وينهاهم عنِ المنكر ويُحلُّ لهم الطيباتِ ويحرِّمُ عليهم الخبائثَ ويضعُ عنهم إصرَهم والأَغلالَ التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعَزَّرُوه ونَصَرُوه واتَّبَعوا النورَ الذي أُنزِلَ معه أولئك هم المُفْلِحون﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

فأخبر أنه لم يبق معروف عقلاً وشرعاً إلا أمر به، ولا منكر إلاّ نهى عنه، ولا طيب نافع إلا أَحلَّه ولا خبيث ضار إلاّ نهى عنه، وأنه مع ذلك سهلٌ ميسرٌ قد وضعت عن أهله الآصار والأغلال وأنواع المشاقّ، وأنَّ من التزمه وآمن به واتبع النور الذي أنزل معه فهو المفلح في دينه ودنياه. والفَلَاح هو الفوز بكل مطلوب مرغوب والنجاة من كل هلاك ومرهوب، لأنه يهدي للتي هي أقوم من الأخلاق والأعمال وصالح الأحوال. وقال تعالى:

﴿وقل جاء الحق وزَهَقَ الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾
[سورة الإسراء: الآية ٨١]

فالحق هو ما جاء به الرسول ﷺ في أصول الدين وفروعه، وفي أمور الدين والدنيا؛ والباطل ما خالفه وناقضه؛ فكل ما خالف الدين الإسلامي فهو باطل لا يثبت للحق عند المقابلة، وإنما يروج إذا غاب الحق عنه عند الجهال بدين الإسلام، وإلاّ فمتى عرف الدين الإسلامي على ما هو عليه فإن أهل العقول الوافية والألباب الصافية لا يبتغون به بدلاً ولا يختارون عليه سواه، لأنه يدعو إلى سعادة الدنيا والدين، فيجمع بين السعادتين. فهؤلاء يقولون: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وهم الذين وصفهم الله بقوله:

﴿مَنْ عمل صالحاً مِنْ ذَكرٍ أَوْ أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

﴿وعدَ اللَّهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كما ٱسْتَخْلَفَ الذين مِنْ قبلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهُمُ الذي ارتضى لهم وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بعدِ خوفِهِم أمناً يعبُدُونَنِي لا يُشْرِكونَ بي شيئاً﴾
[سورة النور: الآية ٥٥]

وهم حين قاموا بالإيمان والعمل الصالح الذي يشمل شرائع الدين كلِّها أنجز لهم ما وعدهم من الاستخلاف في الأرض، والتمكين والعز والكمال، وحين قَصّروا في ذلك عُوقِبوا بتسلط الأعداء، فكان هذا العز إذْ قاموا بدينهم وهذا الذلّ الذي أصابهم حين ضيَّعوه أكبرَ برهان على أن الدين هو الحق، وأنه مدار السعادة والفوز في الدنيا والآخرة، وأن الشقاء والخذلان بتضييعه، وأما ما حصل لأعدائه من عزٍّ موقّت على وجه الاستدراج فكما قال الله عنهم:

﴿لا يَغُرَّنَّكَ تقلّبُ الذين كفروا في البلاد * متاعٌ قليلٌ ثمَّ مأواهُمْ جهنمُ وبِئْسَ المِهاد﴾ [سورة آل عمران: الآيتان ١٩٦، ١٩٧]

﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا به فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء حتَّى إذا فرِحوا بما أُوتُوا أخذناهُم بَغتةً فإذا هم مُبْلِسون * فقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظَلَموا والحمدُ للَّهِ رب العالمين﴾ [سورة الأنعام: الآيتان ٤٤، ٤٥]

فصل

أمر الله بالتفكر والتدبر

وقد أمر الله بالتفكر والتدبُّر في السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وحثَّ على استعمال الفكر في آياته المخلوقة وفي آياته القرآنية:

﴿قُل ٱنْظُروا ماذا في السمواتِ والأرضِ﴾
[سورة يونُس: الآية ١٠١]

﴿قُلْ سِيروا في الأرضِ فانظروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذينَ مِن قَبْلُ﴾
[سورة الروم: الآية ٤٢]

﴿كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ليدَّبَّروا آياتِه ولِيتذكَّرَ أولو الألباب﴾
[سورة صٓ: الآية ٢٩]

فقد أمر باستعمال العقل والفكر في آياته المخلوقة وفي آياته المتلُوَّة ليدرك العبد بعقله ما في المخلوقات من المنافع والآيات فيفقهها، ويستعملها وينتفع بها بحسب أحوالها؛ وأخبر أنها آيات لقوم يؤمنون، ولقوم يعقلون، ولقوم يوقنون؛ فأهل الإيمان والعقل الصحيح واليقين الصادق تفكّروا فيها وانتفعوا وارتفعوا في الدنيا والآخرة:

﴿وما تُغني الآياتُ والنُّذرُ عنْ قومٍ لا يؤمنون﴾ [سورة هود: الآية ١٠١]

فالذين لا ينتفعون بآيات الله إمّا رجل في غاية الجهل والضلال، قد حُرم نعمة العقل والفهم، وإما رجل معاند مكابرٌ قد غرّه عقله وذكاؤه، وتكبَّر عن آيات الله؛ فالعاقل الموفَّق كلما تفكر في الكون وفهم أسراره وحِكَمه امتلأ قلبه إيماناً ويقيناً؛ وقال: سبحان الله عن أن يخلق شيئاً عبثاً أو سدى، وسبحانه أن تكون أفعاله البديعة خاليةً من الحِكَم والغايات الحميدة، وسبحان من خلق هذا الكون العجيب المحكم في نظامه واتساقه وارتباط بعضه ببعض ما بين أرضه وسمائه وإنسانه وحيوانه ونباته فعرف أن خالقها ومدبِّرها ربٌّ واحد وإلّه واحد فتوجه إليه بالإيمان والاعتراف والشكر والطاعة، وخضع لحكمته وعظمته وسلطانه، ولم يكن ككثير ممن انقطعوا بالمخلوقات عن خالقها، وبالمسببات عن مسببها، ولم ينفذوا في علمهم من السبب إلى المسبب، ومن الخلق إلى الخالق، كحالة أكبر المادّيين القاصرين في علمهم وعقلهم، والعاقل يحمد الله على العافية من هذا الداء العضال الذي هلك فيه كثير من الخلق.

فصل

أمر الله بالمشورة

قال الله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمتَ فتوكَّلْ على الله﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وقال عن المؤمنين:

﴿وأمرُهم شُورَى بينهم﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

وهذا الأمر الذي أمر الله نبيَّهُ فيه بالمشاورة وأخبر عن المؤمنين أنهم يتشاورون فيه يشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية المتعلقة بهم وبغيرهم، فدل ذلك أن الأمور، التي توضحت مصلحتها ومنفعتها، تتعين المبادرة إلى فعلها؛ وما وَضُحَت مضرته يتعين البعد عنه؛ وما اشتبه منها يستعينون عليه بالمشاورة والمراودة حتى يتضح فيه الصواب، ويتبين فيه النفع أو الضرر. ولا يستريب عاقل أن هذا الأصل العظيم الذي أمر الله به ومدحه، وهو المشاورة في الأمور، هو السبيل الوحيد لصلاح الأحوال كلِّها، وأنه كما تدخل فيه العلوم والأعمال الشرعية فكذلك العلوم والأعمال المادية، وكما تدخل فيه أمور الأفراد تدخل فيه أمور الجماعات. وفوائد المشاورة الضرورية والكمالية لا تُعدُّ ولا تُحصى، وتوقُّف كثير من الأمور عليها أمر معلوم لكل أحد، وكل أمر من الأمور يشاور فيه أهله وأهل الخبرة به والمعرفة والقوة عليه. وقال تعالى:

﴿وإنك لَتَدْعوهُم إلى صراطٍ مستقيم * وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ [سورة المؤمنون: الآيتان ٧٣، ٧٤]

﴿وإنك لتهدي إلى صِراطٍ مُستقيم﴾ [سورة الشورى: الآية ٥٢]

والصراط المستقيم الذي يدعو إليه الرسول محمد ﷺ ويدعو إليه هذا القرآن العظيم هو الطريق المعتدل الذي يتضمن استقامة العقائد والأخلاق والأعمال المصلِحة للدين والدنيا، وللأفراد والأمة، وهي تتضمن العلوم والأعمال

الشرعية والكونية، لأن جميعها لا تتم الاستقامة إلّا بها؛ وأمور المادة وحدها لا تغني شيئاً وضررها أكبر من نفعها ولهذا قال:

﴿وإنّ الذينَ لا يُؤمنون بالآخرة عن الصِّراط لناكبون﴾

[سورة المؤمنون: الآية ٧٣]

فصل

ضلال الملحدين القائلين بوجود الحوادث صدفة

إذا أردت أن تعرف ضلال الملحدين الماديين الذين يقولون: وُجِدت الموجودات والحوادث مصادفةً بلا خالق خلقها، ولا مبتدع أحدثها، وأنهم مع ضلالهم المبين في حمق وجنون لا يخفى إلّا على من ليس له عقل ولا سمع ولا بصر.. إذا أردت أن تعرف ذلك منهم، وتعرف أن الأمور كلّها بخلق الله وتقديره وتدبيره، فانظرْ إلى هذا العالم العظيم: شمسِه وقمرِه وكواكبِه وأرضِه وما فيها من الحوادث، وتأملْها ببصرك وبصيرتك تجدْها كلَّها في غاية الحُسن والإحكام، والنظام البديع الدّال دلالةً قاطعة أن خالقها واحدٌ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ، حكيم عليم وأنه على كل شيء قدير، وأن العقول والألباب لَتَحارُ إذا توجهت إلى حكمته وبديع نظامه في بعض مخلوقاته، فضلاً عن جميعها، فتبارك الذي أحسن كل شيء خَلَقه وقدَّره تقديراً. انظر إلى الشمس والقمر ومقدار بعدِهما من الأرض، وأنهما لو قربتا من الأرض زيادةً عن هذا الواقع أو بعدتا كذلك لحدثَ الضررُ الكثير في الأبدان والنباتات، وجميع ما على وجه الأرض؛ وانظر ما يترتب على سيرهما من تعاقب الفصول الأربعة، المضطر إليها الإنسان والحيوان والنبت، وما فيها من منافع الضوء والإنضاج والمنافع الأُخَر، وانظر إلى نفسك وما فيها من العبر العظيمة، وكيف وضع كل عضو في موضعه اللائق به بحيث لو وضع في غيره لتشوشت الخلقة وفاتت المنفعة، وكذلك جميع الحيوانات بهذا الوصف، فهل يتصور أن يكون ذلك مصادفة بلا خالق خلقها؟ ولا مبتدع ابتدعها؟

إن تناسب عناصر الحياة وأنها كلَّها بوزن ومقدار لو زاد أو نقص لاختلّت الحياة لأكبرُ دليل على توحيد الباري وعلى إبطال مذهب الماديين ــ وأن الذي أوجد الحياة في الأشياء الحية وجعل من آثارها ما جعل لهو على كل شيء قدير. ومن نظر إلى الحيوانات الكبار والصغار، وإلهامِ الله لها كلَّ ما تحتاجه وتحيُّلِها على مصالحها وما أعطاها من الفطنة والذكاء والأعمال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان، عرف بذلك أن هذا لا يصدر إلّا من إلهام من أعطى كل شيء خَلَقه ثُمّ هَدى.

فصل

الإصلاح والصلاح

قال الله تعالى: ﴿إنّا لا نُضِيع أجرَ المصلحين﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٧٠]

﴿فمنْ آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾
[سورة الأنعام: الآية ٤٨]

﴿إنْ أريدُ إلَّا الإصلاحَ ما استطعتُ﴾ [سورة هود: الآية ٨٨]

والآيات في الثناء على الصلاح والإصلاح والأمر به كثيرة، وكذلك في النهي عن الفساد وذم المفسدين في الأرض بعد إصلاحها؛ والإصلاح يشمل إصلاح الأمور الدينية والدنيوية؛ فكل أمر هو صلاح وإصلاح أو يتوسل به إلى ذلك فهو داخل في هذه النصوص، كما أن ضده الإفساد: يدخل فيه النهي عن الشر والفساد والضرر في الدين والدنيا، والأعمال كلها؛ ونظير ذلك قوله تعالى:

﴿إنّ هذا القرآنَ يَهدي للتي هي أقومُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]

وقال تعالى: ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾ [سورة طه: الآية ١١٤]

﴿قلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾
[سورة الزمر: الآية ٩]

وغير ذلك وحيث أطلق العلم شمل العلوم الشرعية وهي الأصل وهي أشرف العلمين وشمل العلوم الكونية فكل علم نافع في الدين أو في الدنيا فهو داخل في مدح العلم وأهله.

فصل

جلال أحكام الشرع وعدالتها

قال الله تعالى في بيان جلال أحكام الشرع وحُسنها وعدالتها ورحمتها:

﴿إنّ اللّهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغي يَعِظُكم لعلّكم تَذَكَّرون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]

وقال تعالى: **﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربُّكم عليكُم ألّا تُشْرِكوا به شيئاً ــ إلى قوله ــ لعلكم تتقون﴾** [سورة الأنعام: الآيات ١٥٠ ــ ١٥٣]

﴿قلْ أَمَرَ ربِّي بالقسطِ وأَقِيمُوا وجوهَكم عندَ كلِّ مسجدٍ وآدْعُوهُ مُخلصينَ لَهُ الدين﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩]

وقال تعالى: **﴿وآعْبدُوا اللّهَ وَلاَ تُشْرِكوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾**
[سورة النساء: الآية ٣٦]

وقوله: **﴿إنّ اللّهَ لا يُحبُّ منْ كانَ خَوَّاناً أثيماً﴾**
[سورة النساء: الآية ١٠٧]

وقال تعالى: **﴿ليس البِرَّ أنْ تُولُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولكنَّ البِرَّ مَنْ آمنَ باللّهِ ــ إلى قوله ــ وأولئك هم المتقون﴾**
[سورة البقرة: الآية ١٧٧]

إلى غير ذلك من الآيات المفصِّلة للأحكام الشرعية، المأمور بها والمنهى عنها، وبيان أن اللّهَ ما أمر إلّا بالأوامر النافعة، المحتوية على كل خير وبركة ورحمة، ولا نَهى إلاّ عن كل خبيثٍ ضارٍّ ليس فيه نفـع. وتَتَبُّعُ أوامِـر الشريعة، من الكتاب والسنة، وتأمُّلُ حكمِها وحسنِها من أكبر البراهين على أن

الدين الإسلامي هو الدين الحق الصحيح، حيث أمر بما هو حسن نافع طيب، ونهى عن ضِدّه وقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبُتُوا واذكُروا اللَّهَ كثيراً لعلّكم تُفلحون * وأطيعوا اللَّهَ ورسولَه ولا تنازَعوا فتفشَلوا وتذهبَ ريحكُم واصبِرُوا إن اللَّهَ مع الصابرين﴾ [سورة الأنفال: الآيتان ٤٥، ٤٦]

وقال في الاقتصاد:

﴿وَكُلُوا وٱشْرَبُوا ولا تُسْرفُوا إنَّه لا يُحبُّ المُسْرِفِين﴾
[سورة الأعراف: الآية ٣١]

﴿والذين إذا أنفَقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكانَ بينَ ذلكَ قَوَاماً﴾
[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

وقال في الجمع بين مصلحة الدين والدنيا:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاةِ مِنْ يَومِ الجُمُعَةِ فاسعَوْا إلى ذكرِ اللَّهِ وذَرُوا البيعَ ذلكُمْ خيرٌ لَكُم إنْ كنتمْ تعلمون * فإذا قُضِيتِ الصلاةُ فٱنتشِروا في الأرضِ وابتَغُوا مِن فضلِ اللَّهِ واذكُروا اللَّهَ كثيراً لعلّكم تُفلحون﴾
[سورة الجمعة: الآيتان ٩، ١٠]

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم. . .﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢]

فصل

قال الله تعالى: **﴿اللَّهُ الذي يرسل الرياح فتثيرُ سحاباً﴾**
[سورة الروم: الآية ٤٨]

﴿سبحانَ الذي خلق الأزواجَ كلَّها مما تنبتُ الأرضَ ومن أَنفسِهم ومِما لا يعلمون﴾ [سورة يٓس: الآية ٣٦]

﴿وأرسلْنا الرِّياحَ لَوَاقِحَ فأنزلنا من السماء ماءً فأَسقيناكُمُوهُ وما أنتم له بخازنين﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٢]

وقال: **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾** [سورة البقرة: الآية ٢٩]

﴿ألم تَرَوْا أنَّ اللَّهَ سخَّرَ لَكُم ما في السمواتِ وما في الأرضِ وأسبَغَ عليكُم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٠]

وقال: ﴿اللَّهُ الذي سخَّرَ لَكم البحر لتجريَ الفلكُ فيه بأمرِه﴾

[سورة الجاثية: الآية ١٢]

﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً ويخلقُ ما لا تعلمون﴾

[سورة النحل: الآية ٨]

فهذه الآيات الكريمات وغيرها مما يشبهها إذا تأملها العبد، وعرف ما دلّت عليه وما شملته من العلوم الشرعية والكونية وأعمالها، وعرف سُنَّة النبي ﷺ الجارية مجرى التفسيرلكتاب الله، وتأمل هديَه في جميع شؤون حياته، عرف أنه لا يشذ عن دين الإسلام مصلحةٌ من المصالح ومنفعة وخير وصلاح وعُرفٌ. إن القرآن تبيانٌ لكل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وإن الأمور إذا بنيت عليه تمت مصلحتها، وكلُّ أمر فَقَدَهُ فَسَدَ ونقص، والواقع يشهد بذلك؛ وقد دلّت أيضاً هذه الآيات وغيرها أن العقل الصحيح مؤيدٌ للشرع وشاهد له، وأن مَنْ خالف الشرع فقد خالفه بغير عقل صحيح، بل بجهل وضلال، كما قال تعالى عن جميع من حكم عليهم بالخلود في النار ممن عاندوا الشرع أنهم قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير؛ فأخبر أنهم فقدوا السمع، وهو الأدلة النقلية، وفقدوا العقل، وكيف يكون له عقل من أشرك بالله الخالق الرازقِ المدبرِ للأمور كلها، المتفردِ بكل كمال أحداً من المخلوقين الناقصين من كل وجه؟ بل كيف يكون عقلٌ لمن حجّه الباري الذي لو شكَّ الإنسان بكل شيء من المحسوسات والمعقولات لم يكن له أن يستجيز عقله الشك في الله؟ ولهذا قالت الرسل لأممهم: أفي الله شك فاطر السموات والأرض؟ وهذا استفهام إنكار، متقرر عند كل من له مسكة من عقل، أن الشكر في الله حمق وجنون ومكابرة، ليس أكبر منها مكابرة.

وقول بعضهم: إذا تعارض العقل والشرع قدَّمنا العقل.. هذا جهل عظيم بما دلت عليه عقول العقلاء، فإن العقل مؤيِّد للشرع، شاهد له، وهل

يظن العاقل أن الشارع الحكيم يحكم بأحكام تخالف العقل الصحيح، فضلاً عن أن يخبر بأخبار ينافيها الواقع؟ سبحانك هذا بهتان عظيم؛ ولهذا ينبه الله العقول والفطر على المطالب العظيمة والتوحيد والنبوة والمعاد مثل قوله تعالى:

﴿قلِ آدعُوا الذين زعمتم مِنْ دونِ اللَّهِ لا يملِكُون مثقالَ ذرةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ وما لهم فيهما مِنْ شِرْكٍ وما لَهُ منهمْ من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عندَه إلّا لِمنْ أَذِنَ له﴾ [سورة سبأ: الآيتان ٢٢، ٢٣]

فنبه العقول على أمر تعرفه ولا تُنكره، وهو أن كلَّ ما عُبِد من دونه ليس له ملكٌ ولا شِركةٌ في الملك، ولا مظاهرة ولا شفاعة. وإذا انتفت هذه الأمور الأربعة ثَبُتَ بطلان عبادة مَن سوى الله؛ وكذلك قوله تعالى:

﴿ومنْ أضلُّ مِمَّنْ يدعُو مِنْ دونِ اللَّهِ مَنْ لَا يستجيبُ لهُ إلى يومِ القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذَا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [سورة الأحقاف: الآيتان ٥، ٦]

وكذلك قوله تعالى:

﴿ما آتخذَ اللَّهُ من ولدٍ وما كان معه من إلّه إذاً لَذَهَبَ كلُّ إِلّهٍ بما خَلَقَ ولَعَلَا بعضُهم على بعض سبحانَ اللَّهِ عما يصفون﴾

[سورة المؤمنون: الآية ٩١]

كما نبه على تفرده بالخلق والربوبية والوحدانية بقوله:

﴿أمْ خُلقوا من غير شيء أمْ همُ الخالقون * أم خَلَقُوا السمواتِ والأرضَ بل لا يوقنون﴾ [سورة الطور: الآيتان ٣٤، ٣٥]

وكما نبّه على المعاد بالخلق الأول وخلقِه السمواتِ والأرضَ التي هي أكبر من خلق الناس، وبإحياء اللَّهِ الأرضَ بعد موتها، وكما برهن على صدق الرسول، وما جاء به من القرآن بتحدِّيه الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعَشر سورٍ مثلِه أو بسورة واحدة، واحتج على الخلق بحسن ما جاء به الرسول من

أخباره الصادقة وأحكامه العادلة وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً، وإن كنت في ريب من ذلك فتتبع كل خبر أخبر الله به في كتابه أو أخبر به رسوله محمد ﷺ تجدها أعلى درجات الصدق، وأنفع ما يكون للعباد، فإن تصديقها واعتقاد مخبرها من أكبر مغذيات الإيمان؛ وتأمل ثانياً: هل في خبر الله وخبر رسوله شيء يخالف الحسَّ والواقعَ والعقلَ الصحيح، أم تجد هذه الأمور من أكبر الشواهد على تحقيق خبر الله ورسوله؟ وتأمّل ثالثاً: هل تجد في أحكام الله ورسوله الأوامرِ منها والنواهي شيئاً ينافي الحكمة والمصلحة للعباد؟ أم تجدها هي الغاية في كمال الخَلْق وعلوِّ مراتبهم وتخلُّقهم بالأخلاق الجميلة وتنزُّههم من الأخلاق الرذيلة؟ فهي التي ترفع أهلها إلى أعلى مراتب الكمال، ولا يكون النقص والضرر إلّا بالإخلال بها أو ببعضها؛ وقد اعترف بذلك الأولياء وألقى شبهة روجها على الجاهلين بالإسلام وبالواقع متى فعل ذلك في بعض فروعه النادرة ظهر كذبه وافتراؤه، وظهرت المصلحة للخلق والفوائد الكثيرة في القول الذي دلت عليه شريعة الإسلام، لأنها شريعة أحكم الحاكمين عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم من مصالح عباده ما لا يعلمون، وشرع لهم ما يصلحهم في كل زمان ومكان: في دينهم ودنياهم، وهو الحكيم العليم الرحيم.

فصل

من أدلة القرآن العقلية والنقلية

ومن الأدلة العقلية النقلية الأمثال التي ضربها الله في القرآن، فإنها كلَّها تنبِّه العقول وتوضح البراهين العقلية على وحدانية الله وتوحيده، وعلى صدق رسوله وصحة ما جاء به؛ فمن زعم أن شيئاً من الأدلة العقلية التي يسلمها العقلاء تخالف ما جاء به محمد ﷺ فهو مغترٌّ، وليأتِ بمثالٍ واحد ولن يستطيع ذلك. نعم، قد يأتي بنظريات وخيالات إذا حُقِّقت عقلاً وُجِدَت

جهليَّات وضلالاً مبيناً. مثل قول كثير من الملحدين: إن العقوبات والحدودَ التي جاء بها دين الإسلام على الجرائم غير لائقة ولا مناسبة للقوانين. والأحسن عندهم أن يستبدل بها الحبسُ والغرامة المالية. وهذا سفسطة ومكابرة للواقع، فإن القوانين التي يسنُّها الملحدون ومَنْ قلَّدهم على الجرائم لم تُغْنِ شيئاً، وظهرَ نقصُها وفشلُها العظيم، وأنه لا أثر لها في ردع المجرمين، وأن السبب الوحيد لردع كل مجرم تطبيقُ الحدود الشرعية والعقوبات الدينية، فهي الكفيلة بردع المجرمين، إذ هي عقوباتٌ ونكال وموعظة لو طُبقت في قطر من الأقطار لصَلُحت أحوالهم وقلَّ الجناة والمجرمون وحصل الأمن على الدماء والأموال والأعراض، لأنها تشريعٌ من حكيمٍ بأحوال العباد وما يصلحهم ويقيهم الشرور.

ومثل قول كثير من الماديِّين الملحدين ومن قلّدهم تقليداً أعمى: إنه يجب أن تكون الأفكار حرة، وأن لكل أحد حريته في الرأي الذي يرتئيه، والاقتراح الذي يبديه على أي حال يكون، وهذا قد ظهر أيضاً ضرره العظيم، وأن حرية الأفكار وإعطاء كل أحد حريته فيها قد تبين أنها السبب الوحيد في الفوضوية، وأنها أعظم من حرية الأفعال، بل هي أصلها فإنه متى أعطي الناس حريتهم فيها انحلّت أخلاقهم وعقائدهم، ومَرَجت أعمالهم وصارت البهائمُ أحسنَ حالاً منهم. وهذا هو الواقع في كل قطر أطلقت فيه الحريات، ولم تقيد بالقيود الشرعية العقلية، فإن النفوس أمَّارة بالسوء، وطبيعتها الأشر والبطر والانطلاق خلف كل شهوة ضرت الأفراد والجماعات أَوْلم تضرَّهم، فكما أن إطلاق الحريات في الأفعال مطلقاً لا يمكن البقاء معه ــ فلو ترك لكل أحد حريته، وأن له أن يقتل أو يجرح أو يضرب أو يأخذ أموال الناس وأعراضهم لفسدت الأحوال، واختلت الدنيا، ووقع الهرج والمرج، والضرر الكبير. فكذلك حريات الأفكار: متى أطلقت، أتت بالمنكرات والفظائع الشنيعة، وكان من ثمرتها الخبيثة الاستغناء عن الدين وعن الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وإنكار ما جاءوا به، وكذلك إنكار ما دلت عليه العقول

الصحيحة من وجوب التقيُّد والتحرُّز عن الأمـور الضارة في الاعتقـادات والأخلاق والأعمال.

ومن جرّاء حريات الأفكار ما تسمعه في الصحف الإلحادية والصحف الخليعة من المقالات التي تقشعر منها قلوب العقلاء وقد ضَرَّت ضرراً كبيراً في العقائد والأخلاق، بل ضرت الحكومات والجماعات والأفراد. أما شريعة الإسلام فإنها ولله الحمد جاءت بتنبيه العقول، والحثِّ على التفكر في الأمور التي ينفـع التفكير فيها: كآيات الله المخلوقة وآياته المتلوَّة، وسلكت في تفكرها ونظرها المسالك الصحيحة فأقرت العلوم النافعة والمعارف الصادقة والحثّ على كل خلق جميل والحذر عن كل خلق رذيل، وجعلت للأفكار حدًّا صحيحاً إنْ تجاوزَتْـه وقعتْ في المهالك وأنواع الضلالات. فالأفكار إن لم تقيِّدها العقولُ الصحيحة والدين الصحيـح الذي وضعه الله للعباد ــ فيه صلاح شؤونهم وكمال أحوالهم ــ فإنها تُحدث الفوضى والخطأ، والضلال والشقاء والحمق والجنون.

وكذلك ما افتراه كثير من أعداء الإسلام والمنافقين أن الإيمان بقضاء الله وقَدَره يحدث الفتور والاستسلام وعدم الحركة؛ وهذا الزعم منهم افتراء ظاهر وكذب صريـح؛ فإن الدين الإسلامي قد أمر بأصْلَين عظيمين لا تتمُّ الأمور كلُّها إلّا باجتماعهما؛ أحدهما: الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن الأمورَ كلَّها والأسباب مربوطةٌ بالقضاء والقدر، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ الأصل الثاني: الأمر بالأعمال النافعة في الدين والدنيا، والبعد عن الأسباب الضارّة. وكل واحد من الأصلين يُمِدُّ الآخر؛ فالإيمان بالقضاء والقدر يُمد العاملين وينشِّطهم ويوجب لهم اقتحام الأمور الصعبة اتِّكالاً على الله واستمداداً مِنْ حَوْلِهِ وقوَّته، ويُزيل من قلوبهم خوفَ المخلوقين، الـذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضُرًّا، والسعي والعمل هو من قضاء الله وقَدَره، فإنه أخبر أنه يُوجِد الأشياء بأسبابها، ولهذا يجمـع الله بين الأصلين في مواضـع كثيرة من كتابه مثل قوله:

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤون إلاّ أنْ يشاءَ اللَّهُ ربُّ العالمين﴾ [سورة التكوير: الآيتان ٢٨، ٢٩]

وقوله: ﴿إنَّهُ تذكرةٌ * فمنْ شاءَ ذَكَرَه * وما يَذْكُرُون إلاّ أَنْ يشاءَ اللَّهُ﴾
[سورة المدّثّر: الآيات ٥٤ ــ ٥٦]

وقوله تعالى: ﴿فأمّا من أعطى واتَّقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسِّره لليُسرى * وأمّا من بَخِلَ وآستغنى * وكذّب بالحسنى * فسنيسِّره للعُسرى﴾
[سورة الليل: الآيات ٥ ــ ١٠]

فأَمَرَ بالأعمال ورغَّب فيها، وَوَعَدَ التيسيرَ لليُسرى لمن قام بالأسباب النافعة، والتيسيرَ للعُسرى لمن ترك الأسباب النافعة.

وثبت عنه ﷺ أنه قال: (احرص على ما ينفعك، وآستعِنْ باللَّهِ ولا تعجز) وهذا شامل للحرص على الأمور النافعة في الدين والدنيا، فعُلم أن دين الإسلام يكذِّب ما افتراه عليه أعداؤه من أنه مثبِّط مخدِّر، وإنما هو منشِّط وحاثٌّ على كل عمل نافـع، وأن الإيمان بالقَدَر من أعظم المنشِّطات لكل عمل نافـع، وأعظم المسهِّلات لها؛ ولهذا قال ﷺ: (اعملوا، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِق له؛ أمّا من كان من أهل السعادة فسيُيَسَّر لعمل أهل السعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاوة فسيُيَسَّر لعمل أهل الشقاوة) وتلا ﷺ عند ذلك هذه الآية: ﴿فأمّا من أعطى واتّقى، وصدَّق بالحسنى﴾ الآيات. ولهذا كان الدين الإسلامي يعتبِرُ من يترك العمل اتِّكالاً على القَدَر أحمقَ مجنوناً، ويُنكِرُ على المشركين الذي يحتجون على تركهم الأمور النافعة بالقَدَر والمشيئة، ويخبر أنّ الاحتجاج بذلك دأْبُ الأمم الطاغية، الذين عُوقبوا بأنواع المثلات، فما من عمل نافـع دقيق أو جليل إلاّ حثَّ الشارع عليه وعلى وسائله ومكمِّلاته، ولا عملَ ضارًا وكسل وتقاعد إلاّ حذّر عنه غاية التحذير؛ ونصوص الشرع في هذا الأصل لا تُعدُّ ولا تحصى، ومن أنكر ذلك فهو مكابر مباهت وهو من أعظم الناس ضلالاً.

فصل

العلوم المخالفة للدين

ومما روّج به الملحدون باطلَهم وعلومَهم المخالفةَ للدين أنهم زخرفوا لها العبارات فسمَّوْها تجديداً ورقياً وتقدماً، ونحوها من الأسماء التي يغرِّرون بها من لا بصيرةَ عنده؛ وتسميتهم للحق الذي جاء به الرسول محمد ﷺ جموداً ورجعية وتحذيراً ورجوعاً إلى الوراء، كما قال تعالى عن أسلافهم:

﴿وكذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا شياطينَ الإنسِ والجِنِّ يوحِي بعضُهُم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُروراً ـ إلى قوله ـ ولِتَصْغَى إليه أفئدةُ الذين لا يُؤمنونَ بالآخرةِ ولِيَرْضَوْه ولِيَقْتَرِفُوا ما هم مُقْتَرِفُون﴾

[سورة الأنعام: الآيتان ١١٢، ١١٣]

فأخبر تعالى: أن هذا دأب أعداء الرسل في كل زمان، وأنهم يزخرفون العبارات لتحسين باطلهم وتقبيح ما جاءت به الرسل، وأنهم يتواصَوْن بذلك ويفترون على الله الكذب، وأنه يغترُّ به من لا علم له ولا بصيرة ولا إيمان فهؤلاء أخذوا كلَّ ما افتراه الأولون من أسلافهم المكذِّبين، وزادوا زيادات كم اصطادوا بها ضعفاء البصائر. وليس ما جاء به الرسول جحوداً ولا رجوعاً إلى الوراء، وإنما هو الحق والنور، والحياة والرشد الذي لا حياة للوجود ولا للقلوب ولا للدنيا إلّا به، ولا نور إلّا باقتباس نوره، وهو الموقِظ للهمم والعزائم.. إلى كل خصلة حميدة وإلى كل رقي صحيح وتقدُّم نافع، فإن من أصول الشريعة الكبرى وجوب العمل بالأسباب النافعة مقاصدها ووسائلها، والحثّ على كل عمل صالح ومصلحة، والاستعانة بالله في تحقيق ذلك مع بذل الجهد. ومن المعلوم أن من تحقق بهذه الأصلين بذل المجهود في كل أمر نافع والاستعانة بالمعبود فإنه لا يزال في تقدم ورقيّ مطّرد في إصلاح الدين وفي إصلاح الدنيا المعينة على الدين كما قال ﷺ (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله) وكم في كتاب الله وسنة الرسول من الأمر بكل عمل نافع والحث على التقدم الصحيح النافع للأفراد والجماعات والشّعب

والحكومات. وأما العلوم المادية الخالية من روح الدين ورحمته فإنها تقدم إلى الهلاك والدمار، وتقدِّم إلى هدم كل خلق جميل والاتّصاف بكل خلق رذيل، والمشاهدة والحس أكبر شاهد على ذلك. فإنه محال أن يحصل التقدم الصحيح إلّا إذا صحبه الدين الصحيح الملازم للحق، فإن الباطل، وإن كان له نوع صولة فعاقبته الزوال والاضمحلال، ومنتهاه الخسارة والهلاك. فعند هؤلاء الملحدين أن التجديد والرقي هو الاندماج في معنوية الأجانب، أعداء الأديان كلها، وزوال شخصياتهم في شخصيات أولئك، والتشبُّه بهم في أخلاقهم ولباسهم، وحركاتهم وعوائدهم الدقيقة والجليلة، فيرون الانسلاخ من دين الله، الذي هو الحق، ومن أخلاقه الجميلة هو التقدم والرقي فاستبدلوا الأدنى الخسيس بالأعلى الكامل النفيس، وصاروا مع أعدائهم في ظاهرهم وباطنهم، وكانوا بذلك أكبر سلاح للأعداء على دينهم وقومهم، ولهذا كانوا يقلّدون الأجانب في الأمور الضارّة. وأمّا ما عندهم من الأمور التي تنفع إذا انضم إليها الدين فهم أبعدُ الناس عنها، كما هو معروف من أحوالهم.

فصل

من ترويج المنحرفين عن الحق

ومما يروِّج به المنحرفون باطلَهم لهجُهُمُ الشديد بالثقافة العصرية، زاعمين أن الأخلاق لا تتهذب ولا تتعدل إلّا بها. ويطنبون في مدحها ومدح المثقفين فيها، وفي ذمِّ من لم تكن له هذه الثقافة، والسخرية منهم؛ وهم يفسِّرونها تفاسير متباينة منحرفة: كلٌّ يتكلم بما يخطر له، لأن العلوم إذا كانت فوضى والأخلاق تتبعها، هكذا يكون أهلها: لا يتفقون في آرائهم ونظرياتهم على شيء، وكل أقوالهم ترجع إلى هبوط الدين والأخلاق، وإنما الثقافة الصحيحة والتهذيب النافع هو ما جاء به الدين الإسلامي الذي هذّب العقائد عن الشِّرك والوثنيات، وهذّب الأخلاق عن كل خُلُقٍ رذيل، وهذّب الأعمال

والآداب حتى استقامت بها الأمور، وصَلُحت بها الأحوال، وجَمَعَتْ بين الدين والدنيا، وبين تقويم المعنويات النافعة والماديات المعينة عليها.

وذلك أن المشاهدة شاهدة بما ذكرنا. فإن العلوم العصرية والمخترعات ـ مع توسُّعها وتبحّرها ـ حيث كانت خالية من الدين عجزت كل العجز عن إصلاح الأخلاق واكتسابها للفضائل الصحيحة، وعن ترفّعها عن الرذائل، وإنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح ويتولَّى هذا التهذيب النافع، ويوجِّه إلى كل خيرٍ ويزجُر عن كل شرٍّ هو دين الإسلام؛ فإنه مصلحٌ للظاهر والباطن، لأمور الدين والدنيا، ومَنْ نظر إلى أصوله وفروعه، وإلى ما دعا إليه وحثَّ، وإلى ما زجر عنه، وجد الأمر كما ذكرنا، بل فوق ذلك والله الموفق.

ولا تنظر إلى من تسمى بالإسلام ونبذ أخلاقه وراء ظهره وتحتجَّ به على الإسلام والمسلمين، في ضعته وجموده وهبوط أخلاقه، فإن الإسلام بريء ممن هذه حاله، وإن تسمّى بالإسلام فليس له منه إلا رسمه، فإن دين الإسلام دين الرِّفعة والرقي الصحيح، فتعاليمه وإرشاداته وأخلاقه وأعماله كلها في غاية الإحكام والانتظام، في وسائلها ومقاصِدها، وهي الغاية في توجيه المتصفين بها إلى كل خير وصلاح وإصلاح، كما هو معروف من حال أول هذه الأمة القائمين به حقيقة، الذين ملأوا الدنيا عدلاً ورحمة وصلاحاً وإصلاحاً، للأحوال كلها، وبهم يضرب المثل في الكمال الإنساني، فمن أراد أن يعرف آثار الدين فلينظر إلى أمثال هؤلاء، وأما من أراد المكابرة والتغرير فله نظر آخر.

فصل

قول بعض الناس: هذا وقت العلم والمعارف

يقول كثير من الناس: هذا وقت العلم والمعارف والرقي؛ ومقصودهم بهذا: الإعراضُ عن الماضي، وعن علوم الدين والتزهيد فيها؛ وقد صدقوا من جهة، وكذبوا من جهات أُخَر: قد صدقوا أنه وقت ترقَّت فيه علوم الصناعات والمخترعات، وما يرجع إلى الماديات والطبيعيات، وقد كذَبوا أفظعَ الكَذِب حيث حصروا العلم بهذا النوع، ولم يعلموا أن العلم الحقيقي النافع هو العلم بما جاء به الكتاب والسّنة، الكفيلُ بكل خير ديني ودنيوي وأخروي. والعلم النافع من علوم الصناعات والمخترعات داخلٌ في ضمن هذا، بل العلم الديني هو الذي يصيِّر العلوم الطبيعية والصناعية نافعة نفعاً صحيحاً، وهو الذي يوجهها إلى نفع النوع الإنساني ويمنعها من التهور المهلك. ولهذا نقول: وقد كذبوا أيضاً من جهة أن هذه العلوم التي افتخروا بها لم يوجهوها التوجيه النافع، بل استعملوها فيما يضر الخلق في الإهلاك والإفناء والتدمير؛ فهي من أعظم النِّعَم ولكنها باستعمالهم إياها كانت من أكبر النكبات والنِّقَم وهذا من المعلوم الذي لا ريب فيه أن الشيء الذي لا يتولى الدين الصحيح توجيهه فهو منعكس، ضرره أكبر من نفعه.

وقد صدقوا أنه زمان ترقِّي الماديات الجافة، وقد كَذَبوا في إطلاقهم الترقي فيظُنُّ الظانُّ أنه ترقٍّ في كل شيء، وهو إنما هو تَرَقٍّ في الصناعات والمخترعات، لا في الأخلاق الفاضلة والديانات، فلا ينفع الترقِّي في الماديات إذا هبطت الأخلاق التي عليها المدار في كل شيء، وهي التي تصلح الأشياء ولا تصلح الأمور بدونها، كما هو مشاهد محسوس، فأي ترقٍّ صيَّر أهله بمنزلة السباع الضارية دأبُها الظلم والفتك والاستعمار للأمم الضعيفة وسلبها حقوقها؟ فالترقي الصحيح الذي هو من آثار الدين من آثاره العدل والرحمة والوفاء بالحقوق والحثّ على كل خير والتحذير من كل شر.

هذا هو الترقي الذي لم يشمُّوا له رائحة، ولا خطر بقلوبهم؛ وكيف يخطر بقلوبهم وقلوبهم ملآى بالهلـع والجشـع والزهو والكبر والغرور، ومن كل خلق رذيل؟

وقد كذبوا أيضاً في زعمهم أن العلوم العصرية والفنون الاختراعية النافعة هم الذين ابتدأوها، وأن الشريعة الإسلامية لم تهدِ إليها ولم تُرشدْ إلى أصولها. . وهذا بهتٌ عظيم، ومكابرةٌ يعرفها من له أدنى نظر في الدين الإسلامي. وكيف أصّل للعباد أصولاً عظيمة نافعة بها صلاح دنياهم كما أصّل لهم أصولاً نافعة فيها صلاح دينهم، وقد ذكرنا بعض النصوص من الكتاب والسّنة الدالة على هذا الأصل كما سبقت الإشارة إليه. نعم، لو قالوا: إن الناس في هذا الوقت انتفعوا بهذه الأصول والتعـاليم الدينيـة في ترقيـة الصناعات وابتكار المخترعات ومعرفة طرق الاقتصاديات، وما أشبه ذلك، ولكنهم رقّوها ترقيةً مبتورة مقطوعة الصلة بالله، وبدين الله، فلهذا نفعت من جهة وضرَّت من جهات. نفعت بما اشتملت عليه من منافـع العباد الدنيوية، ونفعت من استعان بها على الدين والخير. وضرّت من جهة: أنها سببت لأهلها الوحشية والهمجية الذي من آثاره الإهلاك والتدمير، والشرور التي لم يوجد لها نظير، فيما سبقت وضرّت أيضاً من جهة ما أحدثت في نفوس أهلها من الزهو والغرور والكبرياء، واستعباد الضعفاء وظلمهم، وهضم الحقوق والشرور المتنوعة، فلو أن هذه المخترعات تولّى الدين توجيهها لحصل فيها من المنافـع أضعاف أضعاف ما شوهد، ولاندفعت مضارُّها وشرورها، ولكانت مبنيةً على الخير والصلاح، وآثارها الخير والإصلاح للدين والدنيا، ولكن لله في خلقه شؤون. .

فصل

أعظم آفات العلم

أعظم آفات العلم وقواطعه الانخداع بالوقوف مع المخلوقات دون خالقها، وبالآثار عن مؤثرها، وبالأسباب عن مسببها، وبالوسائل عن مقاصدها، وهذا النوع نقصه كثير وضرره كبير؛ فإن كثيراً من الملحدين والمغترين بهم يمهَرون في العلوم الطبيعية، ولكنهم يقفون معها ويعمَوْن عن ارتباطها بخالقها ومسببها، والذي أودع فيها من العجائب والأسرار ما أودع، فيرون أنفسهم قد عرفوا من عجائب علوم الطبيعة ما لم يعرفه غيرهم، ومن الأسرار التي أودعها الله في الطبائع ما زادوا به على غيرهم فيأخذهم الزهو والغرور، ويقفون معها ويرونها هي الحاصل وهي المقصود، وهي الغاية، فيحصل الانحراف العظيم والنقص في العلم والعقل. فلو أنهم عرفوا وأثبتوا الموجد الحقيقي والمدبِّر للأمور كلِّها وربطوا الأسباب بقضائه وقَدَره، وعلموا أن الأسباب محل حكمته، فإنه تعالى حكيم، يضع الأمور مواضعها، ويجعل الأمور الدقيقة والجليلة منتظمة بنظام عجيب، وارتباط وثيق، وجعل لكل مطلوب ومقصود سبباً ووسيلة، وطريقاً يوصل إليه. ولذلك نتيجة وثمرة بحسب قوة الأسباب وضعفها، وبحسب قوة العامل بها وضعفه. ثم ربطوا هذه الأسباب والوسائل والنتائج بقَدَر الله وقضائه.. لو أنهم فعلوا ذلك في عملهم لتمَّ علمُهم وحصل لهم من اليقين ما لا يحصل لمن لم يصل إلى ما وصلوا إليه. ولكنهم فرحوا بما عرفوه من الوسائل التي يعرفون نتائجها الدنيوية ملموسة وتكبروا بها فانطبق عليهم قوله تعالى:

﴿فلما جاءتهم رُسُلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

وقوله تعالى: **﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا**

أبصارُهم ولا أفئدتُهم من شيء إذْ كانوا يجحدون بآيات اللَّهِ وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٦]
وهذا أعظم آفات العُجْب والكِبْر على الإطلاق، وأعظم الطرق التي اغترّ بها وانخدع كثير من الخلق، فنسأل الله أن يرزقنا العلم الصحيح، المؤيَّد بالعقل والنقل والفطرة، وهو العلم النافع الذي يعرفه العبد من جميع نواحيه، وهو العلم الذي يربط الفروع بأصولها، ويرد الأسباب وآثارها ونتائجها إلى مسببها، وإلى الذي جعلها كذلك وهو العلم الذي لا ينقطع صاحبه بالمخلوق عن خالقه وبالآثار عن مؤثِّرها وبالحِكَم والأسرار والنظامات العجيبة عن محكِمِها ومنظِّمها ومبدِعها، وهذا العلم هو الذي يثمر اليقين وتحصَلُ به الطمأنينة وتتم به السعادة والفلاح، ويثمر الأخلاقَ الجميلة والأعمالَ الصالحة المصلحة للدين والدنيا.

أما علوم المنحرفين، فإنها ـ كما ذكرنا ـ مقطوعة مبتورة، جافة، نهاية نفعها كنفع الصناعات المادية، كما هو مشاهد محسوس، لا تثمر إيماناً ولا أمانة، ولا رحمة ولا أخلاقاً جميلة، بل ثمراتها ضد ذلك؛ يؤسف غاية الأسف لكل ذي عقل كبير وذكاء مفرط أن تكون هي غايته وثمراته فإن العقل الصحيح فهم الأشياء والإحاطة بها من جميع نواحيها، ثم العمل بالأمور النافعة واستغلال الخيرات والمواهب التي وُهِبَها العبد، والجمع بين مصالح الدارين ومنافع البدن والروح، والنظر الصحيح للمبادىء والعواقب، وربط الأمور المتصلة بعضها ببعض، فكل من لم يتصف بهذه الأوصاف نقص من عقله بحسب ذلك فكيف بدينه؟

فصل
من علامات المنحرفين في أديانهم

ومن علامات المنحرفين في أديانهم وعقولهم اغترارُهم بآرائهم وعقولهم السخيفة، واحتقارهم لعقول صفوة الخلق وخلاصتهم من الأنبياء وأتْباعِهم وأهل الهدى، وبهذا تعرف مكابرتهم ومبالغتهم وإنكارهم ما لا يمكن إنكاره وجحدهم فضلَ مَن قَبْلَهم ليتوصلوا بذلك إلى رد الحق؛ يصدون العباد عن دين الله وسبيله فيعبرون عن الحقائق التي جاءت بها الرسل. يقولون: هذا عقل قديم؛ وهذا رأي عتيق؛ هذا أساطير الأولين؛ كما قابلت الرسل أعداؤهم بهذه الأقوال الخبيثة الساقطة. وقد اغتر بأقوالهم هذه كثير من النشأة والشبيبة الذين لا بصيرة لهم ولا عقول ناضجة. أما علموا أن العقول لا تكمل ولا تزكو إلا بالوحي والقرآن، ولا تكون عقولاً نافعة حتى تغتذي بالهدى واليقين الذي جاء به الرسول؟ قال تعالى:

﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ [سورة طه: الآية ٥٤]

﴿لآيات لأولي الألباب﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩٠]

وهم أهل العقول الوافية والآراء السديدة والأخلاق الزاكية، فهل يوجد عقول صحيحة تقارب عقل النبي ﷺ الذي لم تستنر العقول والآراء إلَّا بعقله ورأيه وعلمه وتعليمه وإرشاده؟ فحسب العقول الكاملة أن تستمد من عقله ﷺ وآرائه وهداه ورشده وتغتذي بنوره وتوجيهه وإرشاده: قال تعالى:

﴿والنجم إذا هَوَى * ما ضلَّ صاحبُكم وما غَوَى * وما ينطِقُ عن الهوى * إنْ هُوَ إلَّا وحيٌ يوحى﴾ [سورة النجم: الآيات ١ ـ ٤]

وهذا وصف للنبي ﷺ بكمال العلم والهدى، وكمال الرشد، وكمال العصمة، في أقواله وأفعاله، وبذلك يعلم أن كل ما خالف هديَه ورشدَه وإرشاده فهو ضلال وغي وسفاهة وشر وهلاك. والواقع أكبر شاهد على ذلك، فهل حصل لأحد مثقالُ ذرة من الخير الظاهر والباطن، ومن الثمرات النافعة الجليلة إلا على يده وبتعليمه صلوات الله وسلامه عليه؟ وهل اهتدى أحد إلّا بامتثال أمره

واجتناب نهيه؟ وهل صَلُح شيء من أمور الدين والدنيا صلاحاً لا فسادَ معه إلّا بالمشي خلفه، واتِّباعِهِ في أصول الدين وفروعه، وفي الوسائل والمقاصد؟ فلا خير وهدى ورحمة وصلاح وإصلاح للظاهر والباطن إلّا دلَّ الخلقَ عليه وأرشدهم إلى مسالكه، ولا شر وضرر إلّا حذَّرهم عنه.

من كمال الدين الإسلامي صلاحه لكل زمان ومكان

قال تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ دِيناً﴾ [سورة المائدة: الآية ٣]

فمِن كمالِهِ أنه هدى للتي هي أقومُ في عقائده وأخلاقه وأعماله، فكَمُلت به العقائد والأخلاق والأعمال، فلا يعتريه النقصُ بوجه من الوجوه؛ ومن كماله أنه صالحٌ لكل زمان ومكان، وحالٌّ لجميع المشاكل الاجتماعية والشخصية؛ ومن كماله أن جميع الحقائق العقلية والحسية، والتجارب الصادقة، كلُّها داخلة فيه وفي ضمنه؛ ومن كماله أن النظريات المتباينة والاختلافات المتضادّة يُبيِّن صحيحَها من سقيمها، وصالحَها من فاسدها، وعدلَها من ظُلمِها وحقَّها من باطلها؛ ومن كماله أنه كملت به العقول واستنارت به الآراء واستمدّت من هدايته ما أصلحت به دينها ودنياها، فكل خير ديني ودنيوي وظاهر وباطن من نتائجه وثمراته؛ ولذلك تمت به النعمة على المؤمنين وحصل به الخير المنوّع على جميع العالمين.

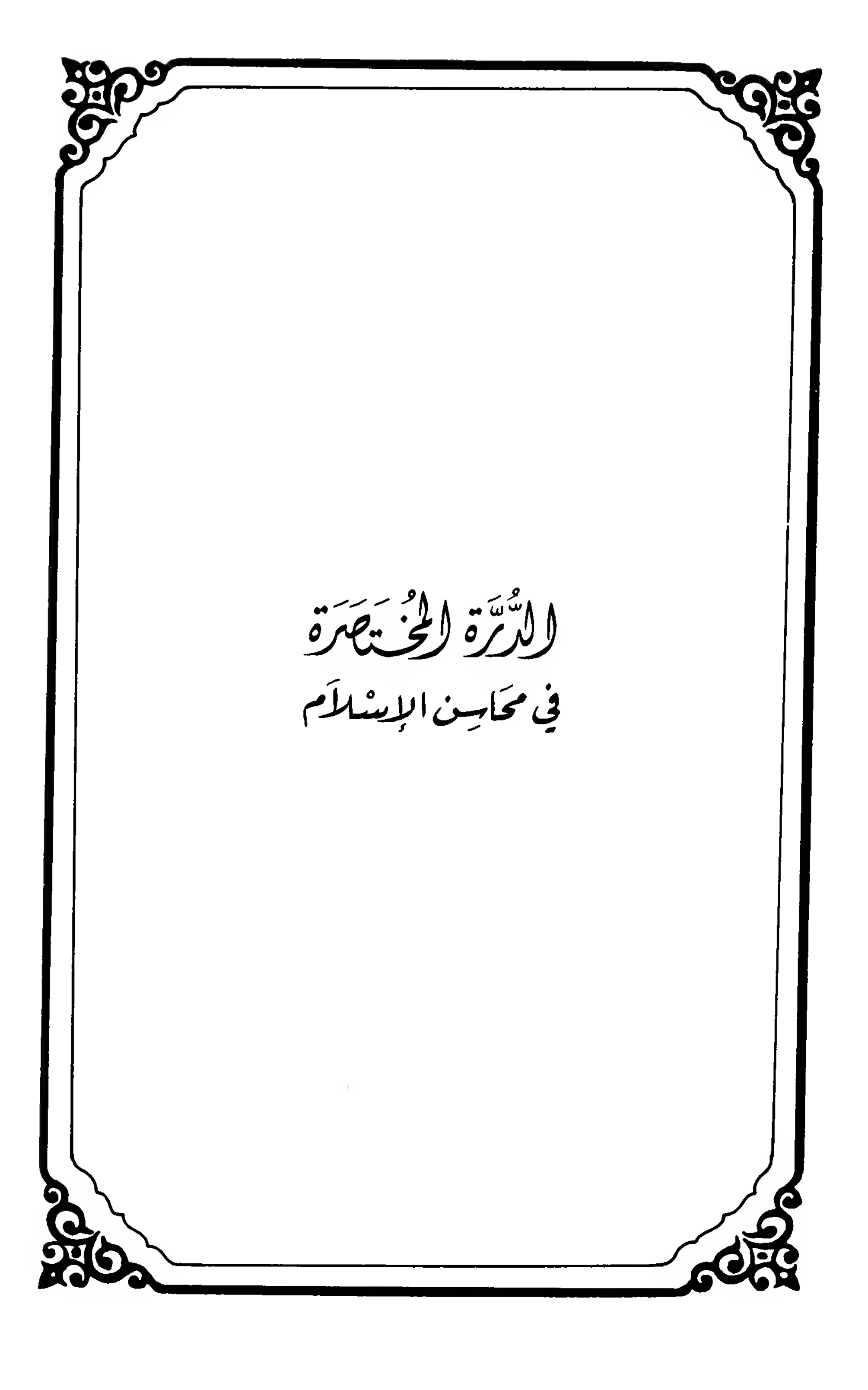
والحمد لله الذي تفضل به على العباد وجعله هدى ورحمة في مصالح المعاش والمعاد، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

كتبه الفقير إلى الله عبد الرحمن الناصر بن سعدي

في ١٠ محرم سنة ١٣٧٥.

الدُّرَّة المُخْتَصَرة
في محاسن الإسلام





الدُّرَّة المُختَصَرَة

في محَاسِن الإسْلاَم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهدِ الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إلَه إلاّ الله، وحدَه لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ أكمل الأديان وأفضلها، وأعلاها وأجلّها، وقد حوى من المحاسن والكمال والصلاح والرحمة والعدل والحكمة ما يشهد لله تعالى بالكمال المطلق وسعة العلم والحكمة، ويشهد لنبيه ﷺ أنه رسول الله حقًّا، وأنه الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى

﴿إنْ هُوَ إلاَّ وحيٌ يوحى﴾ [سورة النجم: الآية ٤]

فهذا الدين الإسلامي أعظم برهان، وأجل شاهد لله بالتفرُّد بالكمال المطلق كله ولنبيه ﷺ بالرسالة والصدق.

وغرضي من هذا التعليق إبداء ما وصل إليه علمي من بيان أصول محاسن هذا الدين العظيم؛ فإني وإن كان علمي ومعرفتي تقصر كل القصور عن إبداء بعض ما احتوى عليه هذا الدين من الجلال والجمال والكمال، وعبارتي تضعف عن شرحه على وجه الإجمال، فضلاً عن التفصيل في المقال، وكان ما لا يدرك جميعه ولا يوصل إلى غِايته ومعظمه، فلا ينبغي أن يترك منه ما يعرفه الإنسان لعجزه عما لا يعرفه، فلا يكلّف الله نفساً إلا وسعها

﴿فاتَّقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وذلك أن في معرفة هذا العلم فوائد متعددة:

منها: أن الاشتغال في هذا الموضوع الذي هو أشرف المواضيع وأجلها من أفضل الأعمال الصالحة. فمعرفته والبحث عنه والتفكير فيه وسلوك كل طريق يحصل إلى معرفته خير ما شغل العبد به نفسه، والوقت الذي تنفقه في ذلك هو الوقت الذي لك لا عليك.

ومنها: أن معرفة النِّعَم والتحدث بها قد أمر الله به ورسوله؛ وهو من أكبر الأعمال الصالحة؛ ولا شك أن البحث في هذا اعترافٌ وتحدُّثٌ وتفكُّرٌ في أجلّ نِعَمه، سبحانه، على عباده. وهو الدين الإسلامي الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه. فيكون هذا التحدث شكراً لله، واستدعاءً للمزيد من هذه النعمة.

ومنها: أن الناس يتفاوتون في الإيمان وكماله تفاوتاً عظيماً، وكلما كان العبد أعرف بهذا الدين وأشدَّ تعظيماً له وسروراً به وابتهاجاً كان أكمل إيماناً وأصحَّ يقيناً. فإنه برهان على جميع أصول الإيمان وقواعده.

ومنها: أن من أكبر الدعوة إلى دين الإسلام شرح ما احتوى عليه مِن المحاسن التي يقبلها ويتقبلها كل صاحب عقل وفطرة سليمة؛ فلو تصدى للدعوة إلى هذا الدين رجال يشرحون حقائقه ويبيّنون للخلق مصالحه، لكان ذلك كافياً كفايةً تامة في جذب الخلق إليه، لما يرون من موافقته للمصالح الدينية والدنيوية؛ ولصلاح الظاهر والباطن من غير حاجة إلى التعرض لدفع شُبَهِ المعارضين والطعن في أديان المخالفين؛ فإنه في نفسه يدفع كل شبهة تعارضه، لأنه حق مقرون بالبيان الواضح، والبراهين الموصلة إلى اليقين. فإذا كشف عن بعض حقائق هذا الدين صار أكبر داع إلى قبوله ورجحانه على غيره.

وَاعْلَمْ أن محاسن الدين الإسلامي عامةٌ في جميع مسائله ودلائله، وفي أصوله وفروعه، وفيما دل عليه من علوم الشرع والأحكام، وما دلّ عليه من علوم الكون والاجتماع. وليس القصد هنا استيعاب ذلك وتتبعه، فإنه يستدعي بسطاً كثيراً. وإنما الغرض ذكر أمثلة نافعة يُستدلُّ بها على سواها، وينفتح بها الباب لمن أراد الدخول؛ وهي أمثلة منتشرة في الأصول والفروع والعبادات والمعاملات.

فنقول، مستعينين بالله، راجين منه أن يهدينا ويعلِّمنا، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما تصلح به أحوالنا وتستقيم به أقوالنا وأفعالنا:

عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي

المثال الأول

دين الإسلام مبني على أصول الإيمان المذكورة في قوله تعالى:

﴿قولوا آمنَّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وإِسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ، وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبيُّونَ مِنْ ربِّهم لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ منهم، ونحن له مسلمون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

فهذه الأصول العظيمة التي أمر الله عبادَه بها هي الأصول التي اتفق عليها الأنبياء والمُرسَلون، وهي محتوية على أجلِّ المعارف والاعتقادات، من الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه على ألسنة رسله، وعلى بذل الجهد في سلوك مرضاته. فدينٌ أَصلُهُ الإيمانُ بالله وثمرتُه السعيُ في كل ما يحبّه ويرضاه وإخلاص ذلك لله، هل يُتَصَوَّرُ أن يكون دينٌ أحسنُ منه وأجلُّ وأفضل؟ ودينٌ أَمَرَ بالإيمان بكل ما أوتيه الأنبياء، والتصديق برسالاتهم، والاعتراف بالحق الذي جاؤوا به من عند ربهم، وعدم التفريق بينهم، وأنهم كلَّهم رسلُ الله الصادقون، وأمناؤه المخلصون، يستحيل أن يتوجه إليه أي اعتراض وقَدْح. فهو يأمر بكل حق، ويعترف بكل صدق، ويقرر الحقائق الدينية المستندة إلى وحي الله لرسله، ويجري مع الحقائق العقلية الفطرية النافعة، ولا يرد حقاً بوجه من الوجوه، ولا يصدق بكذب ولا يروج عليه الباطل فهو مهيمن على سائر الأديان: يأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق ومصالح العباد؛ ويحث على العدل والفضل والرحمة والخير، ويزجر عن الظلم والبغي ومساوىء الأخلاق.. ما من خصلةِ كمالٍ قررها الأنبياء والمرسلون إلاّ وقررها وأثبتها،

وما من مصلحةٍ دينية ودنيوية دعت إليها الشرائـع إلّا حثَّ عليها، ولا مفسدة إلّا نهى عنها وأمر بمجانبتها.

والمقصود: أن عقائد هذا الدين هي التي تزكو بها القلوب، وتصلـح الأرواح، وتتأصل بها مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

المثال الثاني

شرائـع الإسلام الكبار بعد الإيمان: هي إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحـج البيت الحرام.

تأمل هذه الشرائـع العظيمة وجليل منافعها وما توجبه من السعي في مرضاة الله والفوز بثوابه العاجل والآجل.

وتأمل ما في الصلاة من الإخلاص لله والإقبال التامِّ عليه، والثناء والدعاءِ والخضوع، وأنها من شجـرة الإيمان بمنـزلة المـلاحظة والسقي للبستان. فلولا تكرر الصلاة في اليوم والليلة ليبست شجرة الإيمان، وذوى عودُه ولكنها تنمو وتتجدد بعبوديات الصلاة.

وانظر إلى ما تحتوي عليه الصلاة من الاشتغال بذكر الله الذي هو أكبر من كل شيء وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وآنظر إلى حكم الزكاة وما فيها من التخلق بأخلاق الكرام من السخاء والجود والبعد عن أخلاق اللئام، والشكر لله على ما أولاه من الإنعام، وحفظ المال من المنغصات الحسية والمعنوية، وما فيها من الإحسان إلى الخلق ومواساة المحتاجين، وسداد مصـالـح المحتاج إليها. فإن في الزكاة دفـع حاجة المضطرين المحتاجين، وفيها الاستعانة على الجهاد والمصالـح الكلية

التي لا يستغني عنها المسلمون، وفيها دفع صولة الفقر والفقراء، وفيها الثقة بخلَف الله والرجاء لثوابه وتصديق موعوده.

وفي الصوم من تمرين النفوس على ترك محبوبها، الذي أَلِفَتْه، حبًّا لله، وتقرباً إليه، وتعويد النفوس وتمرينها على قوة العزيمة والصبر. وفيه تقوية داعي الإخلاص وتحقيق محبته على محبة النفس، ولذلك كان الصوم لله، اختصه لنفسه من بين سائر الأعمال.

وأما ما في الحج من بذل الأموال وتحمل المشقات والتعرّض للأخطار والصعوبات، طلباً لرضى الله والوفادة على الله والتملّق له في بيته وفي عرصاته، والتنوع في عبوديات الله في تلك المشاعر التي هي موائد مدها الله لعباده ووفود بيته، وما فيها من التعظيم والخضوع التام لله والتذكر لأحوال الأنبياء والمرسلين والأصفياء والمخلصين وتقوية الإيمان بهم، وشدة التعلق بمحبتهم، وما فيه من التعارف بين المسلمين والسعي في جمع كلمتهم واتفاقهم على مصالحهم الخاصة والعامة مما لا يمكن تعداده، فإنه من أعظم محاسن الدين وأجلّ الفوائد الحاصلة للمؤمنين. وهذا على وجه التنبيه والاختصار.

المثال الثالث

ما أمر به الشارع وحثّ عليه من وجوب الاجتماع والائتلاف ونهيه وتحذيره عن التفرق والاختلاف، على هذا الأصل الكبير من نصوص الكتاب والسنّة شيء كثير. وقد علم كل من له أدنى معقول منفعة هذا الأمر، وما يترتب عليه من المصالح الدينية والدنيوية، وما يندفع به من المضار والمفاسد.

ولا يخفى أيضاً أن القوة المعنوية المبنية على الحق، هذا أصلها الذي تدور عليه؛ كما أنه قد علم ما كان عليه المسلمون في صدر الإسلام من استقامة الدين وصلاح الأحوال والعزة التي لم يصل إليها أحد سواهم إذ كانوا مستمسكين بهذا الأصل قائمين به حق القيام؛ موقنين أشد اليقين أنه روح دينهم.

يزيد هذا بياناً وإيضاحاً:

المثال الرابـع

أن دين الإسلام دين رحمة وبركة وإحسان، وحثٌّ على منفعة نوع الإنسان.

فما اشتمل عليه هذا الدين من الرحمة وحسن المعاملة والدعوة إلى الإحسان، والنهي عن كل ما يضادّ ذلك هو الذي صيّره نوراً وضياءً بين ظلمات الظلم والبغي وسوء المعاملة وانتهاك الحرمات، وهو الذي جذب قلوب من كانوا قبل معرفته ألدّ أعدائه حتى استظلوا بظله الظليل، وهو الذي عطف وحنا على أهله، حتى صارت الرحمة والعفو والإحسان يتدفق من قلوبهم على أقوالهم وأعمالهم، وتخطاهم إلى أعدائه، حتى صاروا من أعظم أوليائه. فمنهم من دخل فيه بحسن بصيرة وقوة وجدان، ومنهم من خضـع له ورغب في أحكامه وفضّلها على أحكام أهل دينه، لما فيها من العدل والرحمة.

المثال الخامس

دين الإسلام هو دين الحكمة ودين الفطرة ودين العقل والصلاح والفلاح.

يوضح هذا الأصل: ما هو محتوٍ عليه من الأحكام الأصولية والفروعية، التي تَقْبَلها الفِطَرُ والعقول، وتنقاد لها بوازع الحق والصواب، وما هي عليه من الأحكام وحسن الانتظام، وأنها صالحة لكل زمان ومكان. فأخباره كلها حق وصدق، لم يأت ـ ويستحيل أن يأتي ـ علم سابق أو لاحق بما ينقضها أو يكذبها، وإنما العلوم الحقة كلها تؤازرها وتؤيدها، وهي أعظم برهان على صدقها.

وقد حقق المحققون المنصفون أن كل علم نافع، ديني أو دنيوي أو سياسي، فقد دلّ عليه القرآن دلالة لا ريب فيها. فليس في شريعة الإسلام ما تحيله العقول، وإنما فيه ما تشهد العقول الزكية بصدقه ونفعه وصلاحه. وكذلك أوامره ونواهيه كلها عدل لا ظلم فيها، فما أمر بشيء إلّا وهو خير خالص أو راجح، وما نهى إلّا عن الشر الخالص أو الذي مفسدتُه تزيد على مصلحته. وكلما تدبَّر اللبيب أحكامه ازداد إيماناً بهذا الأصل أو علم إنه تنزيل من حكيم حميد.

المثال السادس

ما جاء به هذا الدين من الجهاد، والأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر.

فإن الجهاد الذي جاء به مقصود به دفع عدوان المعتدين على حقوق هذا الدين وعلى ردِّ دعوته، وهو أفضل أنواع الجهاد. لم يُقصد به جشع ولا طمع ولا أغراض نفسية. ومن نظر إلى أدلة هذا الأصل، وسيرة النبي ﷺ وأصحابه مع أعدائهم، عرف بلا شك أنَّ الجهاد يدخل في الضروريات ودفع عادية المعتدين. وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما كان لا يستقيم هذا الدين إلّا باستقامة أهله على أصوله وشرائعه، وامتثال أوامره التي هي الغاية في الصلاح واجتناب نواهيه التي هي شر وفساد. وكان أهله ملتزمين لهذه الأمور، ولكيلا تزيِّن لبعضهم نفوسُهم الظالمة التجرُّؤ على بعض المحرّمات والتقصير عن أداء المقدور عليه من الواجبات. وكان ذلك لا يتم إلا بأمر ونهي بحسب ذلك. كان ذلك من أجل محاسن الدين ومن أعظم الضروريات لقيامه. كما أنّ في ذلك تقويم المعوجِّين من أهله وتهذيبهم وقمعهم عن رذائل الأمور وحملهم على معاليها. وأما إطلاق الحرية لهم ــ وهم قد التزموه ودخلوا تحت حكمه وتقيدوا بشرائعه ــ فمن أعظم الظلم والضرر، عليهم وعلى المجتمع، خصوصاً الحقوق الواجبة المطلوبة شرعاً وعقلاً وعرفاً.

المثال السابع

ما جاءت به الشريعة من إباحة البيوع والإجارات والشركات وأنواع المعاملات التي تتبادل فيها المعاوضات بين الناس في الأعيان والديون والمنافع وغيرها.

فقد جاءت الشريعة الكاملة بحِلِّ هذا النوع وإطلاقه للعباد، لاشتماله على المصالح في الضروريات والحاجيات والكماليات، وفسحت للعباد فسحاً صلحت به أمورهم وأحوالهم واستقامت معايشهم. وشرطت الشريعة في حِلِّ هذه الأشياء الرضا من الطرفين واشتمال العقود على العلم، ومعرفة

المعقود عليه وموضوع العقد ومعرفة ما يترتب عليه من الشروط. ومنعت من كل ما فيه ضرر وظلم من أقسام الميسر والربا والجهالة.

فمن تأمل المعاملات الشرعية رأى ارتباطها بصلاح الدين والدنيا؛ وشهد لله بسعة الرحمة وتمام الحكمة، حيث أباح سبحانه لعباده جميع الطيبات، من مكاسب ومطاعم ومشارب، وطرق المنافع المنظمة المحكمة.

المثال الثامن

ما جاءت به الشريعة من إباحة الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وغيرها.

فكل طيب نافع فقد أباحه الشارع من أصناف الحبوب والثمار ولحوم الحيوانات البحرية مطلقاً والحيوانات البرية، ولم يمنع من هذا إلَّا كلَّ خبيث ضارٍّ على الدين أو العقل أو البدن أو المال. فما أباحه فإنه من إحسانه سبحانه ومحاسن دينه. وما منعه فإنه من إحسانه، حيث منعهم مما يضرُّهم، ومن محاسن دينه، حيث إن الحسن تابع للحكمة والمصلحة ومراعاة المضار. وكذلك ما أباحه من الأنكحة وأن للعبد أن ينكح ما طاب له من النساء مثنى وثلاث ورباع، لما في ذلك من مصلحة الطرفين ودفع ضرر الجانبين. ولم يبح للعبد الجمع بين أكثر من أربع حرائر لما يترتب على ذلك من الظلم وترك العدل، مع أنه حثَّه عند خوف الظلم وعدم القدرة على إقامة حدود الله في الزوجية، على الاقتصار على واحدة، حرصاً على نيل هذا المقصود؛ وكما أن الزواج من أكبر النعم ومن الضروريات فإباحة الطلاق كذلك، خشية عيشة الإنسان مع من لا تلائمه ولا توافقه واضطراره للبقاء في ضنك الحال وشدة العسر

﴿وإِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كلاًّ مِنْ سَعَتِهِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٠]

المثال التاسع

ما شَرَعه الله ورسوله بين الخلق من الحقوق التي هي صلاحٌ وخير وإحسان وعدل وقسط وترك للظلم. وذلك كالحقوق التي أوجبها وشرعها للوالدين والأولاد والأقارب والجيران والأصحاب والمعاملين، ولكل واحد من الزوجين على الآخر. وكلها حقوق ضروريات وكماليات، تستحسنها الفِطَرُ والعقول الزاكية، وتتم بها المخالطة، وتتبادل فيها المصالح والمنافع، بحسب حال صاحب الحق ومرتبته. وكلما تفكرت فيها رأيت فيها من الخير وزوال الشر، ووجدت فيها من المنافع العامة والخاصة والألفة وتمام العشرة ما يشهدك أن هذه الشريعة كفيلة بسعادة الدارين. وترى فيها هذه الحقوق تجري مع الزمان والمكان والأحوال والعرف، وتراها محصلة للمصالح، حاصلاً فيها التعاون التام على أمور الدين والدنيا جالبة للخواطر، مزيلة للبغضاء والشحناء. وهذه الجمل تعرف بالاستقراء والتتبع لها في مصادرها ومواردها.

المثال العاشر

ما جاءت به الشريعة من انتقال المال والتركات بعد الموت، وكيفية توزيع المال على الورثة.

وقد أشار تعالى إلى حكمة ذلك بقوله:

﴿لا تدرون أَيُّهُمْ أقربُ لكم نفعاً﴾ [سورة النساء: الآية ١١]

فوضعها الله بنفسه بحسب ما يعلمه من قرب النفع وما يحب العبد عادة أن يصل إليه مالُه، وما هو أولى ببره وفضله، مرتباً ذلك ترتيباً تشهد العقول

الصحيحة بحسنه، وأنه لو وَكَلَ الأمر إلى آراء الناس وأهوائهم وإراداتهم لحصل بسبب ذلك من الخلل والاختلال وزوال الانتظام وسوء الاختيار ما يشبه الفوضى. وجعل الشارع للعبد أن يوصي في جهات البر والتقوى بشيء من ماله فيما ينفعه لآخرته، وقيد ذلك بالثلث فأقل لغير وارث، لئلاّ تصير الأمور التي جعلها الله قياماً للناس ملعبةً يتلاعب بها قاصرو العقول والديانة عند انتقالهم من الدنيا. أما حالهم في حالة صحة الأجسام والعقول، فما يخشونه من الفقر والإفلاس مانع لهم من صرفه فيما يضرهم غالباً.

المثال الحادي عشر

ما جاءت به الشريعة الإسلامية من الحدود، وتنوُّعها بحسب الجرائم.

وهذا لأن الجرائم والتعدِّي على حقوق الله وحقوق عباده من أعظم الظلم الذي يُخِلُّ بالنظام، ويختل به الدين والدنيا. فوضع الشارع للجرائم والتجرُّؤات حدوداً تردع عن مواقعتها؛ وتخفف من وطأتها، من القتل والقطع والجلد وأنواع التعزيرات. وكلها فيها من المنافع والمصالح الخاصة والعامة ما يعرف به العاقل حسن الشريعة وأن الشرور لا يمكن أن تقاوم وتدفع دفعاً كاملاً إلاّ بالحدود الشرعية التي رتّبها الشارع بحسب الجرائم قلةً وكثرة وشدةً وضعفاً.

المثال الثاني عشر

ما جاءت به الشريعة من الأمر بالحجر على الإنسان عن التصرف في ماله إذا كان تصرفه مضرًّا به أو بغيره. وذلك كالحجر على المجنون والصغير والسفيه ونحوهم، والحجر على الغريم لمصلحة غرمائه. وكل هذا من

محاسن الشريعة، حيث منعت الإنسان من التصرف في ماله الذي كان في الأصل مطلق التصرف فيه، ولكن لما كان تصرُّفه ضررُه أكثرُ من نفعه وشره أكبر من خيره حجر عليه الشارع حجراً للتصرفات في ميدان المصالح، وإرشاداً للعباد أن يسعَوا في كل تصرف نافع غير ضارّ.

المثال الثالث عشر

ما جاءت به الشريعة من مشروعية الوثائق التي يتوثق بها أهل الحقوق.

وذلك كالشهادة التي تُستوفى بها الحقوق، وتَمنع التجاحد، ويزول بها الارتياب، وكالرهن والضمان والكفالة التي إذا تعذّر الاستيفاء ممن عليه الحق رجع صاحب الحق إلى الوثيقة التي يُستوفى منها. ولا يخفى ما في ذلك من المنافع المتنوعة؛ وحفظ الحقوق وتوسيع المعاملات وردها إلى القسط والعدل، وصلاح الأحوال، واستقامة المعاملات. فلولا الوثائق لتعطّل القسم الأكبر من المعاملات، فإنها نافعة للمتوثق، نافعة لمن عليه الحق من وجوه متعددة معروفة.

المثال الرابع عشر

ما حثّ الشارع عليه من الإحسان الذي يكسب صاحبه الأجر عند الله والمعروف عند الناس؛ ثم يرجع إليه ماله بعينه أو بدله، فيكون مكسب هذا النوع أجل المكاسب دون أن يلحق صاحبه ضررٌ وذلك كالقرض والعارية ونحوهما. فإن في ذلك من المصالح وقضاء الحاجات وتفريج الكربات وحصول الخير والمبرات ما لا يعد ولا يحصى، وصاحبه يرجع إليه ماله وقد استفاد من ربه أجراً جزيلاً، وبذر عند أخيه إحساناً وجميلاً، مع ما يتبع ذلك

من الخير والبركة وانشراح الصدر، وحصول الأُلفة والمودة.

وأما الإحسان المحض الذي يعطيه صاحبه مجاناً ولا يرجع إليه فقد تقدمت الإشارة إلى حكمته في الزكاة والصدقة.

المثال الخامس عشر

الأصول والقواعد التي جعلها الشارع أسساً لفصل الخصومات وحل المشاكل وترجيح أحد المتداعيين على الآخر. فإنها أصول مبنية على العدل والبرهان، واطِّراد العرف وموافقة الفِطَر. فإنه جعل البينة على كل من ادّعى شيئاً أو حقًّا من الحقوق، فإذا أتى بالبينة التي ترجح جانبه وتقوِّيه ثبت له الحق الذي ادعى به، ومتى لم يأت إلاّ بمجرد الدعوى حلف المدعى عليه على نفي الدعوى ولم يتوجه للمدعى عليه حق. وجعل الشارع البينات بحسب مراتب الأشياء وجعل القرائن المبينة والعرف المطرد بين الناس من البينات. فالبينة اسم جامع لكل ما يبين الحق ويدل عليه، وجعل عند الاشتباه وتساوي الخصمين طريق الصلح العادل المناسب لكل قضية طريقاً إلى حل المشاكل والمنازعات. فكل طريق لا ظلم فيه ولا يدخل العباد في معصية الله، وهو نافع لهم، فقد حثّ عليه إذا كان وسيلة إلى فصل الخصومات وقطع المشاجرات. وساوَى في هذا بين القوي والضعيف، والرئيس والمرؤوس في جميع الحقوق وأرضى الخصوم بسلوك طرق العدل وعدم الحيف.

المثال السادس عشر

ما جاءت به الشريعة من الأمر بالشورى والثناء على المؤمنين بأن جميع أمورهم الدينية والدنيوية الداخلية والخارجية شورى بينهم.

وهذا الأصل الكبير قد جمع العقلاء على استحسانه، وعلى أنه هو السبب الوحيد في سلوك أصلح الأحوال وأحسن الوسائل لحصول المقاصد وإصابة الصواب، وسلوك طرق العدل، وأنه أرقى للأمم العاملة عليه في تحصيل كل خير وصلاح. وكلما ازدادت معارف الناس واتسعت أفكارهم عرفوا شدة الحاجة لهذا ومقداره.

ولما كان المسلمون قد طبقوا هذا الأصل في صدر الإسلام على أمورهم الدينية والدنيوية كانت الأمور مستقيمة والأحوال في رقي وازدياد فلما انحرفوا عن هذا الأصل ما زالوا في انحطاط في دينهم ودنياهم حتى وصلت بهم الحال إلى ما ترى. فلو راجعوا دينهم في هذا الأصل وغيره لأفلحوا ونجحوا.

المثال السابع عشر

أن هذه الشريعة جاءت بإصلاح الدين وإصلاح الدنيا، والجمع بين مصلحة الروح والجسد، وهذا الأصل في الكتاب والسنّة منه شيءٌ كثير، يحثّ الله ورسوله على القيام بالأمرين، وأن كل واحد منهما مُمِدٌّ للآخر ومُعينٌ عليه؛ والله تعالى خلق الخلق لعبادته والقيام بحقوقه وأَدَرَّ عليهم الأرزاق ونوَّع لهم أسباب الرزق وطرق المعيشة ليستعينوا بذلك على عبادته، وليكون ذلك قياماً لداخليتهم وخارجيتهم. ولم يأمر بتغذية الروح وحدها وإهمال الجسد؛ كما أنه نهى عن الاشتغال باللذات والشهوات وتقوية مصالح القلب والروح. ويتضح هذا بأصل آخر. وهو هذا:

المثال الثامن عشر

أن الشرع جعل العلم والدين والولاية والحكم متآزرات متعاضدات.

فالعلم والدين يقوم الولايات وتنبني عليه السلطة والأحكام، والولايات كلها مقيَّدة بالعلم والدين، الذي هو الحكمة، وهو الصراط المستقيم، وهو الصلاح والفلاح والنجاح، فحيث كان الدين والسلطة مقترنين متساعدين فإن الأمور تصلح والأحوال تستقيم، وحيث فصل أحدهما عن الآخر اختل النظام وفقد الصلاح والإصلاح ووقعت الفرقة وتباعدت القلوب وأخذ أمر الناس في الانحطاط.

يؤيد هذا: أن العلوم مهما اتسعت والمعارف مهما تنوعت والاختراعات مهما عظمت وكثرت، فإنه لم يرد منها شيء ينافي ما دلّ عليه القرآن، ولا يناقض ما جاءت به الشريعة. فالشرع لا يأتي بما تحيله العقول وإنما يأتي بما تشهد العقول الصحيحة بحسنه أو بما لا يهتدي العقل إلى معرفته جملةً أو تفصيلاً. وهذا ينبغي أن يكون مثالاً آخر. وهو:

المثال التاسع عشر

أن الشرع لا يأتي بما تحيله العقول ولا بما ينقضه العلم الصحيح. وهذا من أكبر الأدلة على أن ما عند الله محكم ثابت صالح لكل زمان ومكان.

وهذه الجمل المختصرة تعرف على وجه التفصيل بالتتبع والاستقراء لجميع الحوادث الكونية وحوادث علوم الاجتماع وتطبيق ذلك إذا كان من الحقائق الصحيحة على ما جاء به الشرع، فبذلك يعرف أنه تبيان لكل شيء، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

المثال العشرون

نظرة مجملة في فتوحات الإسلام المتسعة الخارقة للعوائد، ثم لبقائه محترماً مع تكالب الأعداء ومقاوماتهم العنيفة ومواقفهم المعروفة معه.

وذلك أن من نظر إلى منبع هذا الدين، وكيف ألَّف جزيرة العرب على افتراق قلوبها وكثرة ضغائنها وتعاديها، وكيف أَلَّفَهُمْ وجمع قاصيَهم لدانِيهم، وأزال تلك العداوات، وأحلّ الأُخوَّة الإيمانية محلَّها. ثم اندفعوا في أقطار الأرض يفتحونها قطراً قطراً، وفي مقدمة هذه الأقطار أمة فارس والروم أقوى الأمم وأعظمها ملكاً وأشدها قوة وأكثرها عدداً وعُدَداً، ففتحوهما وما وراءهما بفضل دينهم وقوة إيمانهم ونصر الله ومعونته لهم، حتى وصل الإسلام مشارق الأرض ومغاربها، فصار هذا يعد من آيات الله وبراهين دينه ومعجزات نبيه، وبهذا دخل الخلق فيه أفواجاً ببصيرة وطمأنينة لا بقهر ولا إزعاج.

فمن نظر نظرة إجمالية إلى هذا الأمر عرف أن هذا هو الحق الذي لا يقوم له الباطلُ مهما عظمت قوته وتعاظمت سطوته. وهذا يعرف ببداهة العقول، ولا يَرتاب فيه منصفٌ، وهو من الضروريات بخلاف ما يقوله طائفة من كتاب هذا العصر الذين دفعهم الرضوخ الفكري إلى مشايعة أعداء الإسلام، فزعموا أن انتشار الإسلام وفتوحه الخارقة للعادة مبنيٌّ على أمور مادية محضة، حللوها بمزاعمهم الخاطئة. ويرجع تحليلها إلى ضعف دولة الأكاسرة ودولة الرومان وقوة المادة في العرب، وهذا مجردُ تصوره كافٍ في إبطاله. فأي قوة في العرب تؤهلهم لمقاومة أدنى حكومة من الحكومات الصغيرة في ذلك الوقت؟ فضلاً عن الحكومات الكبيرة الضخمة، فضلاً عن مقاومة أضخم الأمم في وقتها على الإطلاق وأقواها وأعظمها عدداً وعدةً في وقت واحد، حتى مزقوا الجميع كلَّ مُمَزَّق، وحلت محل أحكام هؤلاء

الملوك الجبابرة أحكامُ القرآن والدين العادلة، التي قَبِلَها وتلقّاها بالقبول كل منصف مريد للحق. فهل يمكن تفسير هذا الفتح المنتشر المتسع الأرجاء بتفوق العرب في الأمور المادية المحضة؟ وإنما يتكلم بهذا من يريد القدح في الدين الإسلامي أو من راج عليهم كلام الأعداء من غير معرفة للحقائق.

ثم بقاء هذا الدين على توالي النكبات وتكالب الأعداء على محقه وإبطاله بالكلية من آيات هذا الدين وأنه دين الله الحق، فلو ساعدته قوة كافية تردُّ عنه عادية العادين وطغيان الطاغين لم يبق على وجه الأرض دين سواه ولَقَبِلَهُ الخلق من غير إكراه ولا إلزام، لأنه دين الحق ودين الفطرة ودين الصلاح والإسلاح، لكن تقصير أهله وضعفهم وتفرقهم وضغط أعدائهم عليهم هو الذي أوقف سيره؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

المثال الحادي والعشرون الجامع لكل ما سبق.

دين الإسلام مبني على العقائد الصحيحة النافعة وعلى الأخلاق الكريمة المهذِّبة للأرواح والعقول، وعلى الأعمال المصلِحة للأحوال، وعلى البراهين في أصوله وفروعه، وعلى نبذ الوثنيّات والتعلق بالمخلوقين والمخلوقات وإخلاص الدين لله رب العالمين، وعلى نبذ الخرافات والخزعبلات المنافية للحس والعقل المحيرة للفكر، وعلى الصلاح المطلق، وعلى دفع كل شرٍّ وفساد، وعلى العدل ورفع الظلم بكل طريق، وعلى الحث على الرقي لأنواع الكمالات.

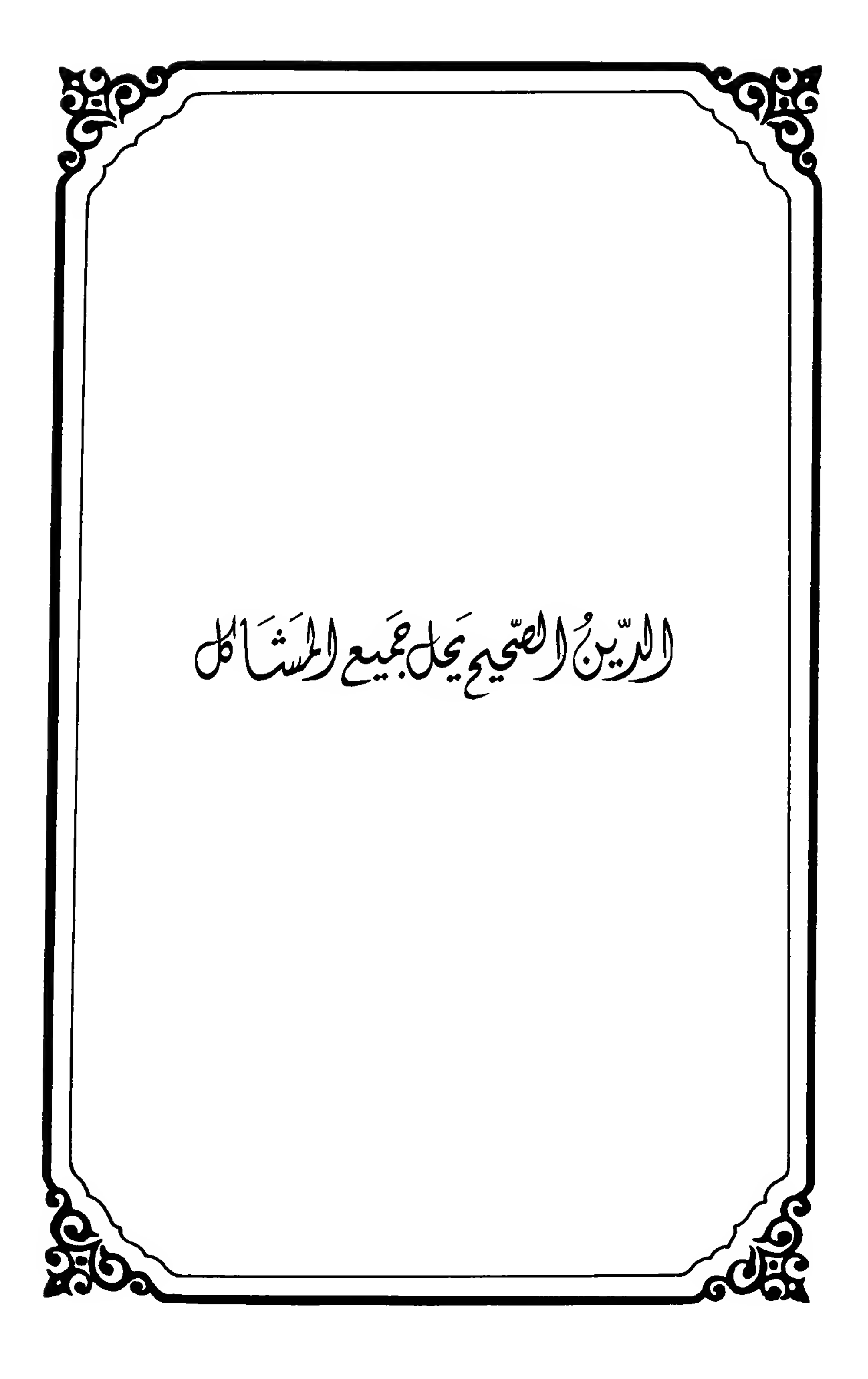
وهذه الجمل يطول تفصيلها، وكل من له أدنى معرفة يهتدي إلى تفصيلها على وجه الوضوح والبيان الذي لا إشكال فيه.

ولنقتصر على هذا الكلام على اختصاره فإنه يحتوي على أصول وقواعد يعرف بها ما للإسلام من الكمال والعظمة والإصلاح الحقيقي لكل شيء. وبالله التوفيق.

وقـع الفراغ من تعليقها غرة جمادى الأولى سنة ١٣٦٤ وصلى الله على محمد وسلم وعلى آله: بقلم معلقها عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

الدِّينُ الصَّحِيحُ يَحُلُّ جَمِيعَ المَشَاكِل





الدّينُ الصّحيح يحل جميع المشاكل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

الحمد لله، وأصلِّي وأسلِّم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فهذه كلمات تتعلق بموضوع الدين الإسلامي، وأنه يهدي للتي هي أقوم وأصلح، ويرشِد العباد في عقائده وأخلاقه ومعاملاته وتوجيهاته وتأسيساته إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم. وبيان أنه لا سبيل إلى إصلاح شيء من أمور الخلق الإصلاح التام إلاّ به. وبيان أن جميع النظم المخالفة لدين الإسلام لا يستقيم بها دين ولا دنيا إلاّ إذا استمدت من تعاليم الدين.

وهذا الذي قلناه قد برهنت المحسوسات والتجارب على صدقه وصحته كما دلت الشرائع والفِطَرُ والعقول السليمة على حقيقته. فإن الدين كله صلاح وإصلاح، وكله دفع للشرور والأضرار، وكله يدعو إلى الخير والهدى، ويحذِّر من الشر وأنواع الردى.

وعند عرض بعض النماذج من تعليماته وتوجيهاته يظهر لكل عاقل منصف صحة هذا، وأن الخلق كلهم مضطرون إليه. وأنهم لا يستغنون عنه في حالة من أحوالهم.

ذلك بأن الدنيا كلها قد جاشت بمشكلات الحياة، والبشر كلهم يتخبطون في دياجير الظلمات: فيهتدون من وجه واحد ويضلُّون من وجوه أخرى. وقد يستقيم لهم أمر من بعض وجوهه ويقع الانحراف في بقية أنحائه. وهذا ناتج من أحد أمرين: إما جهل بما دلَّ عليه الدين وما أرشد إليه. وإما مكابرة وغي، ومقاصد سيئة وأغراض فاسدة، حالت بينهم وبين الصلاح الذي يعرفونه، كما هو الواقع كثيراً.

لهذا ينبغي أن نذكر بعض مشاكل الحياة المهمة، مثل مشكلة الدين، ومشكلة العلم، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحرب والسلم، والاجتماع والافتراق، والمحابِّ والمكاره. وغير ذلك مما اختلفت فيها أنظار الناس وتوجيهاتهم، وما سلكه الدين الإسلامي فيها من المسالك الصالحة السديدة، وما أولاه نحوها من المنافع التي لا تعد ولا تحصى.

المشكلة الأولى

مشكلة الدين والعقيدة

وهذه المشكلة أهم مشاكل الحياة وأعظمها، وعليها تنبني الأمور كلها. وبصلاح الدين أو فساده أو عدمه تتوقف جميع الأشياء. وقد تفرق فيها البشر وسلكوا في دينهم وعقائدهم طرقاً شتى، كلها منحرفة معوجَّة ضارّة، غير نافعة إلّا من اهتدى إلى دين الإسلام الحقيقي، فإنه حصلت له الاستقامة والخير والراحة من جميع الوجوه. فمن الناس من تلاعب بهم الشيطان فعبدوا غير الله من الأشجار والأحجار والصور والأنبياء والملائكة والصالحين والطالحين، مع اعترافهم بأن الله ربُّهم ومالكهم وخالقُهم، وحدَه لا شريك له. فاعترفوا بتوحيد الربوبية وانحرفوا عن توحيد الإلّهية الذي هو إفراد الله بالعبادة، وهؤلاء هم المشركون على اختلاف مذاهبهم وتباين طوائفهم. وقد دلّت الكتب السماوية على شقائهم وهلاكهم، واتفق جميع الرسل على الأمر بتوحيد الله والنهي عن الشرك، وأن من أشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار. كما دلّت العقول السليمة والفِطَرُ المستقيمة على فساد الشِّرْك والتألُّه والتعبد للمخلوقات والمصنوعات، فالشِّرك باطل في الشرع، فاسد في العقل، عاقبة أهله الهلاك والشقاء. ومن الناس من آمن ببعض الرسل والكتب السماوية دون بعض، مع أن الرسل والكتب يصدِّق بعضُها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً، وتتفق في الأصول الكلية. فصار هؤلاء ينقض تكذيبهُم تصديقَهم، ويُبطل اعترافُهم ببعض الأنبياء وبعض الكتب السماوية تكذيبَهم ِللآخرين من الرسل،

فبقُوا في دينهم منحرفين، وفي إيمانهم متحيِّرين، وفي علمهم متناقضين. قال تعالى:

﴿إن الذين يكفرون باللَّهِ ورُسُلِه ويريدونَ أَنْ يُفرِّقوا بين اللَّهِ ورُسُلِهِ ويقولون نُؤمِنُ ببعضٍ ونكفُرُ ببعضٍ ويريدونَ أَنْ يتخذوا بينَ ذلكَ سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقًّا﴾ [سورة النساء: الآيتان ١٥٠، ١٥١]

فحكم بالكفر الحقيقي لأنه عرف أن دعواهم للإيمان دعوى غير صحيحة، ولو كانت صحيحة لآمنوا بجميع الحقائق التي اتفقت عليها الرسل، ولكنهم قالوا:

﴿نُؤمنُ بما أُنْزِلَ عَلَينَا ويكفرون بما وراءَهُ وهو الحقُّ مصدِّقاً لما معهم﴾ [سورة البقرة: الآية ٩١]

ولهذا دعواهم الإيمان دعوى كاذبة، فقال عنهم عز وجل:

﴿فَلِمَ تَقْتُلون أنبياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كنتمْ مُؤْمِنين﴾

[سورة البقرة: الآية ٩١]

ومن الناس طائفة ادَّعت الفلسفة والعلم بالمعقولات، فجاءت بأكبر الضلالات وأعظم المحالات، فجحدت الربَّ العظيم وأنكرت وجوده، فضلاً عن الإيمان بالرسل والكتب وأمور الغيب، وجحدوا آيات الله واستيقنتها أنفسُهم ظلماً وعلوًّا واستكباراً: فكذبوا بعلوم الرسل وما دلّت عليه الكتب المنزَلة من عند الله، واستكبروا عنها بما عرفوا من العلوم الطبيعية وتوابعها، وأنكروا جميع الحقائق إلاّ ما أدركوه بحواسِّهم وتجاربهم القاصرة الضيقة بالنسبة إلى علوم الأنبياء. فعبدوا الطبيعة وجعلوها أكبرَ هَمِّهم ومبلغ علمهم، واندفعوا وراء ما تقتضيه طبائعهم، ولم يتقيَّدوا بشيء من الشرائع الدينية ولا الأخلاق الإنسانية. فصارت البهائم أحسنَ حالاً منهم، فإنهم نضبت منهم الأخلاق، واندفعوا وراء الشهوات البهيمية. فلم يكن لهم غاية يرجونها، ولا نهايةً يطلبونها:

﴿وقالوا ما هِيَ إلاّ حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونَحيا وما يهلِكُنا إلاّ الدَّهرُ﴾.
[سورة الجاثية: الآية ٢٤]

وصار المشركون على شركهم وكفرهم أحسن حالاً منهم، وأقلَّ شرًّا منهم بكثير. والعجب الكثير أن هذا المذهب الخبيث جرف بتياره في الأوقات الأخيرة جمهورَ البشر، لضَعف الدين وقلة البصيرة، ولما وضعت له الأمم القوية الحبائل والمصايد التي هلك بها الخلق.

أما الدين الإسلامي فقد أخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر والظلم والعدوان وأصناف الشرور إلى نور العلم والإيمان واليقين والعدل والرحمة وجميع الخيرات.

﴿لقدْ مَنَّ اللَّهُ على المؤمنين إذْ بعثَ فِيهم رسولاً من أنفُسِهم يتلُو عليهِمْ آياتِهِ ويزكِّيهم ويعلِّمهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبين﴾. [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

﴿إنَّ اللَّهَ يأمرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى وينهَى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ يَعِظُكُمْ لعلَّكُم تَذَكَّرُون﴾. [سورة النحل: الآية ٩٠]

﴿اليومَ أكملتُ لكمْ دينَكم وأتممتُ عليكُمْ نِعمتي ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً﴾. [سورة المائدة: الآية ٣]

﴿وَتَمَّتْ كلمةُ ربِّك صِدقاً وعَدْلاً﴾. [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

أي كلماته الدينية التي شرع بها الشرائع، وسَنَّ الأحكام. وقد جعلَها اللَّهُ تامَّة من جميع الوجوه، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، صدقاً في إخبارها عن الله وعن توحيده وجزائه وصدق رسُله في أمور الغيب، عدلاً في أحكامها، أوامِرُها كلُّها عدلٌ وإحسان وخيرات وصلاح وإصلاح، ونواهيها كلها في غاية الحكمة، تنهى عن الظلم والعدوان والأضرار المتنوعة:

﴿وَمَنْ أَحسنُ مِنَ اللَّهِ حُكماً لِقَومٍ يُوقِنُون﴾. [سورة المائدة: الآية ٥٠]

وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر الذي تقرر حدوثه في العقول والفِطَر. فما

أمَرَ بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه. ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليتَه أَمَر به. لقد أباح هذا الدين كلَّ طيب نافـع، وحرَّم كل خبيث ضار.

﴿الذين يَتَّبِعُون الرسولَ النَّبـيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجدونه مكتوباً عندَهُم في التوراةِ والإنجيلِ يأمُرُهُمْ بالمعروفِ وينهاهُم عن المُنْكَر ويُحِلُّ لهُمُ الطيباتِ ويُحرِّمُ عليهِمُ الخبائثَ ويَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأَغلالَ التي كانت عليهم﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٥٧]

فهو الدين الذي يوجه العباد إلى كل أمر نافـع لهم في دينِهِم ودُنياهم، ويحذِّرهم عن كل أمر ضارٍّ في دينهم ومعـاشِهم، ويأمـرهم عند اشتبـاه المصالـح والمفاسد والمنافـع والمضارِّ بالمشاورة في استخراج ما ترجحت مصلحته، ودفـع ما ترجحت مفسدته.

وهو الدين العظيم الشامل، الذي أمَر بالإيمانِ بكلِ كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله.

﴿فَلِذَلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ ولا تَتَّبِـعْ أهواءَهم وقُلْ آمنْتُ بما أنزَلَ اللَّهُ مِنْ كتابٍ وأُمِرْتُ لأعْدِلَ بينَكُم واللَّهُ رَبُّنا وربُّكم لَنا أعمالُنا ولكُم أعمالُكُم لا حُجَّةَ بيْنَنا وبينَكُمُ اللَّهُ يَجْمَـعُ بَيْنَنا وإليهِ المصير﴾

[سورة الشورى: الآية ١٥]

وهو الدين العظيم الذي شهد الربُّ العظيم بصحته وكماله، وشهد بذلك الكُمَّلُ من الخلق وخلاصتهم.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّه لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ والملائكةُ وأُولُو العِلم قائماً بالقسط لا إِلَه إلَّا هو العزيزُ الحكيم. إنَّ الدينَ عِنْدَ اللَّهِ الإسلامُ﴾

[سورة آل عمران: الآيتان ١٨، ١٩]

وهو الدين الذي من اتَّصَف به جَمَـعَ الله له جمال الظاهر والباطن، وكمال الأخلاق والأعمال:

﴿ومَنْ أحسنُ ديناً مِمَّنْ أسلَمَ وجْهَه لِلَّهِ وهُوَ مُحْسِنٌ﴾

[سورة النساء: الآية ١٢٥]

فلا أحسن ممن هو مخلصٌ لله، محسنٌ إلى عباد الله، مخلصٌ لله متبع لشريعة الله التي هي أحسن الشرائع وأعدل المناهج، فانصبغ قلبه بالإخلاص والتوحيد، واستقامت أخلاقه وأعماله على الهداية والتسديد:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحسنُ مِنَ اللَّهِ صِبغةً ونحنُ لَهُ عابِدون﴾
[سورة البقرة: الآية ١٣٨]

وهو الدين الذي فتح أهلُه، القائمون به، المتصفون بإرشاداته وتعاليمه، القلوبَ بالعلم والإيمان، والأقطارَ بالعدل والرحمة والنصح لنوع الإنسان. وهو الدين الذي أصلح الله به العقائد والأخلاق، وأصلح به الحياة الدنيا والآخرة، وألّف به القلوب المتشتِّتَة، والأهواء المتفرقة.

وهو الدين العظيم المحكم غايةَ الإحكام في أخباره كلها، وفي أحكامه، فما أخبر إلاَّ بالصدق والحق، ولا حكم إلاّ بالحق والعدل، فلم يأت علم صحيح ينقض شيئاً من أخباره، ولا حكمٌ أحسن من أحكامه. أصوله وقواعده وأسسه تساير الزمان السابق واللاحق، فحيثما طبقت المعاملات المتنوعة بين الأفراد والجماعات في كل زمان ومكان على أصوله تَمَّ بها القِسطُ والعدل، والرحمة والخير والإحسان، لأنها تنزيل من حكيم حميد:

﴿كتابٌ أُحكِمتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلت منْ لدنْ حكيمٍ خبيرٍ﴾
[سورة هود: الآية ١]

﴿لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يديهِ ولا من خَلْفِهِ تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ﴾
[سورة فصلت: الآية ٤٢]

﴿إنّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكرَ وإنَّا لَهُ لحافِظُون﴾ [سورة الحِجر: الآية ٩]

حافظون لألفاظه عن الزيادة والنقص والتغيير، وحافظون لأحكامه عن الانحراف والنقص، بل هي في أعلى ما يكون من العدل والاستقامة والتيسير.

وهو الدين العظيم الذي يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، الصدقُ

شعارُه، والعدْلُ مدارُه، والحقُّ قوامُه، والرحمةُ روحُه وغايته، والخيرُ قرينُه، والصلاحُ والإصلاح جمالُه وأعمالُه، والهدى والرشد زاده.

وهو الدين الذي جمع بين مطالب الروح والقلب والجسد، أمر الله به المؤمنين بما أمر المرسلين، بعبادته والعمل الصالح الذي يرضيه، وبالأكل من الطيبات، واستخراج ما سخّر اللّهُ لعباده في هذه الحياة، فدفع القائمين به حقيقة إلى كل علوٍّ ورقيٍّ وتقدم صحيح، من عرف شيئاً من أوصاف هذا الدين عرف عظيم مِنَّةِ الله به على الخلق، وأن من نبذه وقع في الباطل والضلال والخيبة والخسران، لأن الأديان التي تخالفه ما بين خرافات ووثنيات، وما بين إلحاد وماديات، تجعل قلوب أهلها وأعمالهم كالبهائم بل هُمْ أضل سبيلاً، لأن الدين إذاً ترحّل من القلوب ترحّلت الأخلاقُ الجميلة، وحلَّ محلَّها الأخلاقُ الرذيلة. فهبطت بأهلها إلى أسفل الدركات، وصار أكبرُ همهم ومبلغُ علمهم التمتُّعَ بعاجل الحياة. والحمد لله رب العالمين.

المشكلة الثانية
مشكلة العلم

لقد غلط كثير من الناس في مُسمَّى العلم الصحيح الذي ينبغي ويتعين طلبه والسعي إليه على قولين متطرِّفين: أحدهما أخطر من الآخر. فالأول: قول من قَصَر العلمَ على بعض مسمَّى العلم الشرعي، المتعلق بإصلاح العقائد والأخلاق والعبادات، دون ما دلَّ عليه الكتاب والسُّنة: من أن العلم يشمل علوم الشرع ووسائلها، وعلوم الكون. وهذا قول طائفة ممن لم تتبصر بالشريعة تبصراً صحيحاً، ولكنهم الآن بدأوا يتحللون من هذا الإطلاق، لما رأوا من المصالح العظيمة في علوم الكون، وحين تنبّه كثير منهم لدلالات نصوص الدين عليه.

والقول الثاني قول من قَصَر العلم على العلوم العصرية، التي هي بعض علوم الكون. وهذا القول إنما نشأ من انحرافهم عن الدين وعلومه وأخلاقه. وهذا غلط عظيم حيث جعلوا الوسائل هي المقاصد؛ وحيث نَفَوْا من العلوم الصحيحة والحقائق النافعة ما لا تنسب إليه العلوم العصرية بوجه من الوجوه، غرّهم ما ترتب عليها من الصناعات والمخترعات. وهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى:

﴿فلما جاءتهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَرِحُوا بما عِندَهم مِنَ العِلْمِ وحاقَ بهمْ ما كانوا بِهِ يستهزئون﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٨٣]

فهم فرحوا بعلومهم واستكبروا بها واحتقروا علوم الرسل، حتى نزل بهم ما كانوا به يستهزئون من الحق، ونزل بهم العذاب الذي وُعِد به من كَذَّبَ الرسل، عُذِّبوا في الدنيا بالختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وعَمُوا عن الحق.

﴿ولعذابُ الآخرةِ أشَدُّ وأبقى﴾ [سورة طه: الآية ١٢٧]

﴿وما كان لهم مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ﴾ [سورة غافر: الآية ٢١]

أما مدلول العلم النافع ومُسَماه الذي دلّ عليه الكتاب والسُّنة: فهو كل علم أوصل إلى المطالب العالية، وأثمر الأمور النافعة، لا فرق بين ما تعلق بالدنيا أو بالآخرة، فكل ما هَدَى إلى السبيل ورقَّى العقائد والأخلاق والأعمال، فهو من العلم.

وقَسَّم العلوم إلى قسمين: مقاصد، ووسائل توصل إليها وتعين عليها. فالمقاصد: هي العلوم المصلحة للأديان؛ والوسائل: ما أعان عليها من علوم العربية بأنواعها، ومن علوم الكون التي ثمرتها معرفة الله ومعرفة وحدانيته وكماله، ومعرفة صدق رسله. وثمرتها: الاستعانة بها على عبادة الله وشكره، وعلى قيام الدين. فإنه تعالى أخبر أنه سخّر لنا هذا الكون، وأمرنا أن نتفكر فيه ونستخرج منافعه الدينية والدنيوية. والأمر بالشيء أمرٌ به وأمرٌ بما لا يتم إلّا به، وذلك حثٌّ على معرفة علوم الكون التي يستخرج بها ما سخره الله لنا، لأن منافعَها لا تحصل لنا عفواً من دون طلب وفكر وتجارب. قال تعالى:

﴿وأنزلْنا الحديدَ فيه بأْسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس﴾

[سورة الحديد: الآية ٢٥]

فهذه المنافع لا تحصل إلّا بالمعرفة بفنون الصنائع حتى يتمَّ إنتاجها.

وقد تكاثرت نصوص الكتاب والسنّة على الثناء على العلم وأهله وتفضيلهم على غيرهم. قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يستوِي الذين يعلَمُونَ والذين لا يعلمون﴾
[سورة الزُّمر: الآية ٩]

وإنهم أهل الخَشية لله والمعرفة به:

﴿إنَّما يخشى اللَّهَ مِنْ عبادِهِ العلماءُ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨]

وأمر الجهال بسؤال أهل العلم.

وقد أمر بعبادات كثيرة، وعفا عن محرَّمات؛ والأمر بالشيء والنهي عنه لا يمكن امتثال الأمر واجتناب النهي إلاّ بعد علمه ومعرفته فجميع الأوامر شرعية، والنواهي تدل على وجوب تعلم العلم الذي تتوقف عليه. كما أنه أباح معاملات، وحرَّم معاملات، لا يمكن تمييز الحلال والحرام منها إلاّ بالعلم. وقد ذمَّ من لم يعرف حدود ما أَنزلَ على رسوله من الكتاب والحكمة.

ومن ذلك أنه أمر بالجهاد في عدة آيات، وبإعداد المستطاع من القوة للأعداء، وأخذ الحذر منهم. ولا يتم ذلك إلاّ بتعلم فنون الحرب والصنائع التي تتوقف القوة والحذر منهم عليها. وأمر بتعلم أمور التجارة والأصول الاقتصادية، حتى إنه أمر أن يبتلى الأولاد الصغار اليتامى ويعلموا التجارة وطلب المكاسب. قال تعالى:

﴿وآبْتَلُوا اليتامى حتّى إذا بلَغُوا النِّكاحَ فإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشداً فادفعوا إليهم أموالَهم﴾ [سورة النساء: الآية ٦]

فلم يأمر بدفع أموالهم إليهم حتى يُعلم رشدُهم، ومعرفتُهم لأمور المكاسب والتجارة.

فهذه الشريعة الكاملة أمرت بتعلم جميع العلوم النافعة: من العلم بالتوحيد، وأصول الدين، ومن علوم الفقه والأحكام، ومن علوم العربية، ومن

العلوم الاقتصادية والسياسية، ومن العلوم التي تصلح بها الجماعات والأفراد.

فما من علم نافع في الدين والدنيا إلا أَمرتْ به هذه الشريعة وحثَّت عليه ورغَّبت فيه. فاجتمع فيها العلوم الدينية، والعلوم الكونية، وعلوم الدين، وعلوم الدنيا. بل إنها جعلت العلوم الدنيوية التي تنفع من علوم الدين.

وأما المتطرفون فإنهم اقتصروا على بعض علوم الدين، فقصَّروا وغلطوا غلطاً فاحشاً.

وأما الماديون فإنهم اقتصروا على بعض علوم الكون، وأنكروا ما سواها، فألحدوا ومَرَجَتْ أديانهم وأخلاقهم، وصارت علومهم حاصلها أنها صنائع جوفاء، لا تزكِّي العقول والأرواح، ولا تغذِّي الأخلاق. فكان ضررها عليهم أعظم من نفعها، فإنهم انتفعوا بها من جهة ترقية الصنائع والمخترعات وتوابعها، وتضرَّروا بها من جهتين: إحداهما: أنها صارت أكبر نكبة عليهم وعلى جميع البشر، لِمَا ترتَّب عليها من الفناء والحروب المهلكة والتدمير. الثانية: أنهم أُعجِبُوا بها واستَكْبروا، فحقَّروا لذلك علوم الرسل وأمور الدين.

﴿إنّ الذينَ يجادِلُون في آياتِ اللّهِ بغيرِ سُلطانٍ أتاهُمْ إِنْ في صدورِهِم إلاّ كِبْرٌ ما هُمْ ببالِغِيهِ، فاستعذْ باللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ﴾
[سورة غافر: الآية ٥٦]

﴿وجعلْنا لهمْ سمعاً وأبصاراً وأفئدةً فما أغنى عنهمْ سمعُهُم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهُم من شيءٍ إذ كانوا يجحَدُون بآياتِ اللّهِ وحاقَ بِهِمْ ما كانوا به يستهزئون﴾ [سورة الأحقاف: الآية ٢٦]

﴿فلمّا جاءتهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات فَرِحُوا بما عندَهم مِنَ العلمِ وحاقَ بِهِمْ ما كانوا به يستهزئون﴾ [سورة فصِّلت: الآية ٨٣]

فتبيَّـن مما ذكرنا أن العلوم النافعة في العاجل والآجل: هي العلوم التي جاءت في كتاب الله وسنَّة رسول الله، وأنها احتضنت كل علم نافـع، ومعرفة صحيحة، لا فرق بين الأصول والفروع، ولا بين الدينية والـدنيويـة، كما احتضنت عقيدتها الإيمان بكل حق وحقيقة، وبكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله. والحمد لله.

المشكلة الثالثة

مشكلة الغِنىَ والفَقْر

تنوَّعت مقاصد الخلق وسياساتهم في مسألة الغنى والفقر، بحسب أغراضهم النفسية، لا بحسب اتِّباعهم للحق ونظرِهم للمصالح العامة الكلية. وكلهم أخطأوا الطريق النافع، حيث لم يتقيدوا بهدايات الدين الإسلامي؛ وتنوَّعت بهم الأفكار، وعملوا على مقتضى ذلك، فحصل بذلك شر مستطير، ووقعت فتن كبرى بين من يدعي نُصرة الفقر والفقراء والعمال، وبين من يتمسَّك التَّمَسُّكَ المُزري بالثروات والأموال. ولهم في ذلك كلام طويل كله خطأ وضلال. وهدى الله المؤمنين إلى صراط مستقيم في جميع أمورهم عامة، وفي هذه المسألة خاصة.

جاء الشرع ولله الحمد بصلاح الأغنياء والفقراء بحسب الإمكان.

لما حكم الله تعالى قضاء وقدراً أن الخلق درجات، فمنهم الغني ومنهم الفقير، ومنهم الشريف ومنهم الحقير، لحكم عظيمة، وأسرار يضيق التعبير عن وصفها. فربط بعضهم ببعض بالروابط الوثيقة، وسخّر بعضهم لبعض، وتبادلت بينهم المصالح العادلة، واحتاج بعضهم إلى بعض.

شرع الشارع الحكيم أولاً: أن يكونوا إخواناً، وأن لا يستغل بعضهم بعضاً استغلالاً شخصياً. بل أرشد كلاًّ منهم أن يقوم نحو الآخر بواجباته الشرعية، التي يتم بها الالتئام وتقوم بها الحياة.

أمر الجميع أن يتوجَّهوا بأجمعهم إلى المصالح العامة الكلية التي

تنفع الطرفين، كالعبادات البدنية، والمشاريع الخيرية، وجهاد الأعداء ومقاومتهم، ودفع عدوانهم بكل وسيلة، كل منهم بحسب وسعه وقدرته. هذا ببدنه وماله، وهذا ببدنه، وهذا بماله، وهذا بجاهه وتوجيهه، وهذا بتعلمه وتعليمه. لأن الغاية واحدة، والمصالح مشتركة، والغاية شريفة، والوسائل إليها شريفة.

ثم أوجب في أموال الأغنياء فرضاً الزكاة، بحسب ما جاء في تفاصيلها الشرعية. وجعل مصرفها دفع حاجات المحتاجين، وحصول المصالح الدينية المقيمة لأمور الدنيا والدين، وحث على الإحسان في كل وقت وفي كل مناسبة، وأوجب دفع ضرورة المضطرين، وإطعام الجائعين، وكسوة العارين، ودفع الضرورات عن المضطرين. وكذلك أوجب النفقات الخاصة للأهل والأولاد، وما يتصل بهم، والقيام بواجبات المعاملات كلها الواقعة بين الناس. وأمرهم مع ذلك أن لا يتكلوا في كسب الدنيا على حَوْلِهِمْ وقوتهم، ولا ينظروا نظر استقرار وطمأنينة إلى ما عندهم. بل يكون نظرهم على الدوام إلى الله وإلى فضله، وتيسيره والاستعانة به. وأن يشكروه على ما تفضل به عليهم وميَّزهم به من الغنى والثروة. وأوجب عليهم أن يقفوا عند الحدود، فلا ينغمسوا في الترف والإسراف انغماساً يضر بأخلاقهم وأموالهم وجميع أحوالهم، بل يكونون كما قال الله تعالى:

﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقْتُرُوا وكانَ بينَ ذلك قَوَاماً﴾
[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

وأمرهم مع ذلك أن يكون طلبهم للغِنَى والدنيا طلباً شريفاً نزيهاً، فلا يتلوثون بالمكاسب الخبيثة التي هي ما بين رباً أو قمار أو غَرَرٍ أو غش أو خداع، بل يتقيدون بقيود الشرع العادلة في معاملاتهم، كما تقيدوا بذلك في عباداتهم. وأمرهم أن ينظروا إلى الفقراء نظر الرحمة والإحسان، لا نظر القسوة والغلظة والأثرة والبطر والأشر والكبر.

ولهذه الإرشادات الحكيمة تكون الثروة الدينية في غاية الشرف وكمال الاعتبار، ويكون الغِنَى على هذا الوجه وصفاً محموداً، ونعتَ كمالٍ ورفعة وعلو، لأن الشرع هذَّبه وصفَّاه، فحثَّ على التباعد عن رذائله، ورغَّب في اكتساب فضائله.

وأما ما صنعه الدين الإسلامي مع الفقراء، فقد أمرهم وكلَّ مَنْ لَمْ يُدْرِكْ محبوباتِه النفسية أنْ يصبروا ويرضَوْا بقضائه وتدبيره، وأن يعترفوا أن الله حكيم له في ذلك حكم، وفيه مصالح متنوعة.

﴿وعسى أن تكرَهُوا شيئاً وهو خيرٌ لَكُم وعسى أنْ تُحِبُّوا شيئاً وهُوَ شَرٌّ لكم واللَّهُ يعلَمُ وأنتمْ لا تعلمون﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

فنظرهم هذا يذهب الحزن الذي يقع في القلوب فيحدث العجز والكسل.

ثم أمرهم أن لا ينظروا في دفع فقرهم وحاجاتهم إلى المخلوقين، ولا يسألوهم إلاَّ حيث لا مندوحة عن السؤال عند الضرورة إلى ذلك، وأن يطلبوا دفع فقرهم من الله وحدَه لا شريك له، بما جعله من الأسباب الدافعة للفقر الجالبة للغنى. وهي الأعمال والأسباب المتنوعة، كل واحد يشتغل بالسبب الذي يناسبه، ويليق بحاله، فيستفيد بذلك تحرره من رِقِّ المخلوقين وتمرنه على القوة والنشاط، ومحاربة الكسل والفتور. ومع ذلك لا يقع في قلوبهم حسد للأغنياء على ما آتاهم الله من فضله.

﴿ولا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّل اللَّهُ به بعضَكُم على بعضٍ، للرجالِ نصيبٌ ممَّا اكتَسَبوا وللنساءِ نصيبٌ مما اكْتَسَبْنَ، وآسْأَلوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِه، إنَّ اللَّهَ كانَ بكلِّ شيءٍ عليماً﴾ [سورة النساء: الآية ٣٢]

وأمرهم أن ينصحوا في أعمالهم ومعاملاتهم وصناعاتهم، وأن لا يتعجَّلوا الرزق بالأنغماس في المكاسب الدنيئة التي تُذْهب الدِّين والدنيا.

وأمرهم بأمرين يعينانهم على مشقة الفقر: الاقتصاد في تدبير المعاش، والاقتناع برزق الله؛ فالرزق القليل مع الاقتصاد الحكيم يكون كثيراً، والقناعة كنز لا ينفد وغنىً بلا مال.

فكم من فقير وُفِّق للاقتصاد والقناعة لا يَغْبِطُ الأغنياءَ المترفين، ولا يتبرَّم بقلة ما عنده من الرزق اليسير.

فمتى اهتدى أهل الفقر بإرشادات الدين مِنَ الصبر والتعلُّق بالله، والتحرُّر من رِقِّ المخلوقين، والجد والاجتهاد في الأعمال الشريفة النافعة، والاقتناع بفضل الله، هانت عليهم وطأة الفقر وعناؤه. ومع ذلك فهم لا يزالون يسعَوْن في تحصيل الغنى ويرجون ربهم وينتظرون وعده، ويتقون الله، فإنه

﴿وَمَنْ يتَّقِ اللَّهَ يَجْعلْ له مخرجاً. ويرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يحْتَسِبُ، وَمَنْ يَتوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُه﴾ [سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

فهذه التعاليم الدينية والإرشادات من الله ورسوله لأهل الغنى والفقر تجلب لهم الخيرات، وتمنعهم من الشرور والمضرات، وتنتج لهم أجمل الثمرات العاجلة والآجلة.

فهذا الحل الوحيد من الرب المجيد لمشكلة الغِنَى والفقر، وما سوى ذلك فعناء وشقاء، وضرر وهلاك. والله الموفِّق.

ونظير هذه المسألة: مسألة الصحة والمرض، فإنّ الشريعة الإسلامية جاءت بأكمل الأمور فيها: أمرت بكل ما يحفظ الصحة وينمِّيها، وما يدفع الأمراض أو يخففها بحسب الإمكان. وفَصَّلَتْ في هذا الموضوع تفاصيلَ نافعة، تدور على حفظ الصحة وتنميتها، والحِمْية من جميع المؤذيات والأمور الضارّة، وعلى السعي في التحرز من الأمراض قبل نزولها، ومداواتها بعد نزولها.

وأمرت مع ذلك بالتوكل على الله، والاعتماد عليه، والعلم بأنه تعالى هو المعطي للنِّعَم، الدافع للنقم؛ بلطفه وقدرته ورحمته، وبما جعله من الأسباب الكثيرة التي علَّمها اللَّهُ العباد، وأَمَرَهم بسلوكها. وأمر أيضاً بمقاومة الأمراض بأمور أخرى غير الأدوية الحسية، أمر بالصبر لله على المكاره إيماناً به، واحتساباً لثوابه، فإنه بذلك تخفُّ مشقة الأمراض بما يحصل للصابر المحتسب من الإيمان واليقين والثواب العاجل والآجل.

وكذلك أمر بقوة الاعتماد على الله عند نزول المصائب والمكاره، وأن لا يخضع الإنسان ويضعف قلبه وإرادته وتستولي عليه الخيالات التي هي أمراض فتّاكة. فكم من مرض يسير بسيط عظمت وطأته بسبب ضعف القلب وخورِه وانخداعه بالأوهام والخيالات، وكم من مرض عظيم هانت مشقته وسهلت وطأته حين اعتمد القلب على الله، وقوي إيمانه وتوكله، وزال الخوف منه. وهذا أمر مشاهد محسوس.

فالدين الإسلامي أمر بالأمرين في وقت واحد: أمر بفعل الأسباب النافعة، وبالاعتماد على الله في نفعها، وتحصيل المنافع ودفع المضار، بحسب الاستطاعة. وكذلك النعم، والمسارّ، والمكاره، والمصائب، جاءت شريعة الإسلام فيها بأكمل الحالات.

أمر الله ورسوله بتلقِّي النِّعم بالافتقار إلى الله فيها، والاعتراف التام بفضل الله بتقديرها وتيسيرها، وشكر المنعم بها، شكراً متتابعاً، وتصريفها فيما كانت لأجله، والاستعانة بها على عبادة الله، وأن لا يكون العبد عندها أَشِراً، ولا بَطِراً، بل متواضعاً شاكراً.

وأمر العبد أن يغتنم الفرصة النافعة في النعمَ، فيربح عندها أرباحاً عاجلة وآجلة. يغتنم فرصة العافية والصحة والقوة والجدة والجاه والأولاد، فلا يغبن فيها بحيث تكون نعماً حاضرة مؤقتة، بل يستخرج منها نعماً باقية، وخيراً متسلسلاً، ونفعاً مستمراً.

وفي الحديث: (اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك).

فمتى عرف العبد المقصود من النعم، وأنها مجعولة وسائل إلى خيرات الآخرة، اجتمع له الأمران: التمتع بها عاجلاً، والاستفادة من خيراتها آجلاً. فيؤدي واجبها ومستحبَّها، وبذلك تكون نعماً حقيقية دينية ودنيوية. عكس حالة المنحرفين عما جاءت به الشريعة، الذين يتمتعون بها كما تتمتع الأنعام السائمة، ويتناولونها بمقتضى الشهوة البهيمية. فالنعم في حقهم سريعة الزوال وشيكة الانفصال، لا تعقبهم إلا الحسرة والندامة. والأولون يشاركونهم في التمتع العاجل، وربما زادوا عليهم براحة القلب، وطمأنينة النفس، والسلامة من الهلع والجشع.

وأما المصائب، فلما كانت لا بد منها للخلق، ولا أحد يسلم منها، أعد الشارع الحكيم لها عُدَّتَها، وأرشد عباده إلى الصبر والتسليم، والاحتساب لثوابها، وأن لا يتلقاها العبد بجزع وخور وضعف نفس، بل بقوة وتوكل على الله وإيمان صادق. وبذلك تخف وطأتها، وتهون مشقتها، ويحصل من الثواب وزيادة الإيمان أضعاف ما حصل من المصيبة. قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشيْءٍ مِنَ الخوفِ والجُوعِ ونقصٍ مِنَ الأموالِ والأنفُسِ والثمراتِ وبشِّر الصابرين. الذين إِذا أَصابَتْهُم مصيبةٌ قالُوا إنّا للّهِ وإنَّا إليهِ راجعون. أولئكَ عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هُم المُهْتَدون﴾
[سورة البقرة: الآيات ١٥٥ ــ ١٥٧]

وقال تعالى:

﴿إنّما يُوَفَّى الصابرون أجرَهُم بغيرِ حساب﴾ [سورة الزُّمر: الآية ١٠]

﴿إنْ تكونوا تَأْلَمُونَ فإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كما تَأْلَمُونَ وتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

فانظر هذه الإرشادات الحكيمة في هداية الشريعة إلى تلقِّي النِّعَمِ والمَسَارِّ والمصائب والمضارِّ، كيف ترى القلوب فيها مطمئنة، والحياة طيبة، والخير حاصلاً ومأمولاً، والربح مستمراً. عجباً لأمر المؤمن: إنَّ أمره كلَّه خيرٌ؛ إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرّاء صَبَر فكان خيراً له؛ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. فأين هذه الحالة الجليلة العالية من حالة المنحرفين عن الدين، الذين إذا أصابتهم النِّعَم بَطِروا ومَرَحُوا مَرَح البهائم، وتجبروا على عباد الله، وطَغَوْا وبَغَوا، وإذا أصابتهم المكارِهُ جَزِعوا وضَعُفُوا، وربما أدّتْ بهم الحال إلى الانْتحار، لعدم الصبر وللهلع والجزع الذي لا يحتمل. نسأل الله العافية.

المشكلتان الرابعة والخامسة

السياسة الداخلية والخارجية وتوابعها

قد قررت شريعة الإسلام مسائل السياسة أكملَ تقرير، وهَدَتْ إلى جميع ما ينبغي سلوكُه مع المسلمين ومع غيرهم بأحسن نظام وأعدلِه، وجمعت فيه بين الرحمة والقوة، وبين اللِّين والشفقة، والرحمة بِالخَلْق، مهما أمكنت الأحوال. فإذا تعذر ذلك استعملت القوة بحكمة وعدل، لا بظلم وعنف. قال تعالى:

﴿إنَّ اللَّهَ يأمرُ بالعدل والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبى وينهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمنكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرون. وَأَوْفُوا بعهدِ اللَّهِ إذا عاهَدتُّم ولا تنقُضُوا الأَيْمَانَ بعدَ توكيدِها وقد جَعَلْتُمُ اللَّهَ عليكُمْ كفيلاً﴾

[سورة النحل: الآيتان ٩٠، ٩١]

فأمر الله بالعدل مع كل أحد، وبالإحسان والرحمة لكل أحد، وخصوصاً القرابة ومن لهم حقٌّ على الإنسان. ونهى عن الفحشاء والبغي على الخلق، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم. وأمر بوفاء العهود والمحافظة عليها، وحذر من نقضها. وهذه الأمور المأمورُ بها والمنهيّ عنها، منها ما هو واضحٌ جليٌّ عُيِّنت على المسلمين سلوكُها، ولم تجعل لهم في ذلك خيرة ولا معارضة. وهي التي نص الشارع على أعيانها ولم يكل بيانها إلى أحد. فهذا النوع يدخل في قوله تعالى:

﴿وَمَا كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذَا قَضَى اللَّهُ ورسولُهُ أمراً أن يكون لهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم ومن يَعْصِ اللَّهَ ورسولَهُ فقدْ ضَلَّ ضلالاً مبيناً﴾
[سورة الأحزاب: الآية ٣٦]

﴿فَلَا وربِّكَ لا يُؤْمِنونَ حتَّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لَا يَجِدُوا في أَنْفسِهِم حَرَجًا مما قضيتَ ويُسَلِّمُوا تَسْليماً﴾ [سورة النساء: الآية ٦٥]

﴿فإنْ تنازَعْتُمْ في شيء فَرُدُّوهُ إلى اللَّهِ والرَّسُولِ﴾
[سورة النساء: الآية ٥٩]

﴿وما ٱخْتَلَفْتُمْ فيهِ مِنْ شيءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللَّهِ﴾
[سورة الشورى: الآية ١٠]

وقد تُتُبِّعَ هذا النوع العظيم فَوُجِدَ، ولله الحمدُ، مطابقاً للعدلِ والحِكمة، موافقاً للمصالـح، دافعاً للمفاسد.

والقسم الثـاني: الأمور المشتبهـة في أصلها، أو في تـطبيقها على الواقـع، وإدخال الأمور الواقعة فيها نفياً وإثباتاً، وطلباً وهرباً، فهذا قد أُمروا أَن يتشاوَرُوا فيه، وينظروا فيه من جميـع نواحيه، ويتأملوا ما يتوقف عليه من الشروط والقواعد، وما يترتب عليه من الغايات والمقاصد، ومقابلة المصالـح والمضارِّ وترجيـح الأصلـح منها. قال تعالى:

﴿وشاوِرْهُم في الأمر﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وقال تعالى عن جميـع المؤمنين:

وأَمْرُهُم شُورَى بَيْنَهم﴾
[سورة الشورى: الآية ٣٨]

وهذا النوع قد وسَّـع الشارع فيه الأمر، بعدما قَرَّرَ القواعد والأُسس الموافقةَ لكلِّ زمان ومكان، مهما تغيرت الأحوال وتطورت الأمور. فالقواعد الشرعية إذا سُلِكت في كليـات الأمور وجـزئياتهـا، صَلُحت بها الأمـور،

واستقامت الدنيا والدين، وصَلُحت أمور العباد، واندفعت الشرور والمضارُّ عنهم. ولكنها تحتاج إلى عقد مجالس تجمع الرجال العقلاء الناصحين، أولي العقول الرزينة والأحلام الواسعة والرأي المصيب والنظر الواسع، وتبحث فيها القضايا الداخلية واحدة بعد واحدة، بحثاً يشمل نواحي القضية، وتصوُّرَها كما ينبغي، وتصورَ ما تتوقف عليه وتتم به إن كانت مقصوداً تحصيلها، وتصورَ ما يترتب عليها من الفوائد والمصالح الكلية والجزئية، وبحث أحسن طريق لتحصيلها وأسهله، وبحث القضايا الضارة التي يطلب دفعها، بتتبع أسبابها وينابيعها التي تسربت منها، وحسمها بحسب الإمكان، ثم السعي في إزالتها بالكلية إن أمكن، وإلا بتخفيفها وتلطيفها. قال تعالى:

﴿فٱتَّقُوا اللَّهَ ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وقال ﷺ: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم).

ومن أعظم الأصول الشرعية حثُّ المسلمين على القيام بدينهم، والقيام بحقوق الله وعبوديته، والقيام بحقوق العباد، والحث على الاتفاق واجتماع الكلمة، والسعي في أسباب الألفة والمحبة، وإزالة الأحقاد والضغائن. قال تعالى:

﴿إنَّما المؤمنونَ إِخوةٌ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٠]

﴿وٱذْكُروا نعمةَ اللَّهِ عليكُمْ إذْ كنتمْ أعداءً فألَّف بينَ قلوبِكُمْ فأصبحتُمْ بنعمَتِهِ إِخواناً﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

﴿فٱتَّقوا اللَّهَ وأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وأطيعُوا اللَّهَ ورسولَهُ إِنْ كنتم مُؤْمِنين﴾ [سورة الأنفال: الآية ١]

﴿ولا تكونوا كالذين تَفرَّقُوا واختَلَفُوا مِنْ بَعدِ ما جاءَهم البيِّنات﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٥]

﴿وَٱعْتَصِمُوا بحبلِ اللَّهِ جميعاً﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

إلى غير ذلك من النصوص الدالّة على هذا الأصل العظيم، الذي به تستقيم الأحوال، ويرتقي به المسلمون إلى أعلى الكمال. وقال تعالى:

﴿وأَطِيعُوا اللَّهَ ورسولَهُ ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتذهَبَ رِيحُكُمْ وٱصْبِرُوا إنَّ اللَّهَ مع الصابرين. ولا تكونُوا كالذين خَرَجُوا مِنْ ديارِهِمْ بَطَراً ورِئَاءَ الناسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سبيلِ اللَّهِ واللَّهُ بما يعمَلُون مُحيطٌ﴾

[سورة الأنفال: الآيتان ٤٦، ٤٧]

فأمر بطاعته وطاعة رسوله. ويدخل في ذلك جميع الدين. ونهى عن التنازع الذي يُوجِبُ تفرُّقَ القلوب، وحدوثَ العداوات المحلِّلة للمعنويات. وأمر بكثرة ذكره المعين على كل أمر من الأمور، وبالصبر الذي يتوقف عليه كل أمر.

وأمر بالإخلاص والصدق، ونهى عما يضادُّ ذلك من الرياء والفخر والبطر والمقاصد السيئة وإرادة إضلال الخلق. وقال تعالى:

﴿وأَعِدُّوا لَهُمْ ما ٱسْتَطَعْتُمْ من قوةٍ ومِنْ رِباطِ الخَيلِ تُرْهِبونَ بِهِ عدوَّ اللَّهِ وعدوَّكم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

فأمر بإعداد المستطاع من القوة، فيشمل القوة السياسية والعقلية، والصناعاتِ، وإعدادَ الأسلحة، وجميعَ ما يتقوى به على الأعداء، وما به يرهبونهم. وهذا يدخل فيه جميع ما حدث ويحدث من النظم الحربية، والفنون العسكرية، والأسلحة المتنوعة، والحصون والوقايات من شرور الأعداء. قال تعالى:

﴿يا أيُّها الذين آمنُوا خُذُوا حِذْرَكُم﴾ [سورة النساء: الآية ٧١]

ولكل وقت ومكان من هذه الأمور ما يناسب ذلك. فانظر كيف كانت هذه التعاليم الشرعية هي السبب الوحيد والطريقة المثلى لسلوك أقوى

السياسات الداخلية والخارجية، وأن الكمال والصلاح بالاهتداء بها، والاسترشاد بأصولها وفروعها. وأن النقص الحاصل والنقص المتوقع إنما يكون بإهمالها وعدم العناية بها.

ومن السياسة الشرعية أن الله أرشد العباد إلى قيام مصالحهم الكلية بأن يتولى كل نوع منها طائفةٌ تتصدى للإحاطة علماً بحقيقتها وما تتوقف عليه، وما به تتم وتكمل، وتبذل جهدها في ترقيتها بحسب الإمكان. قال تعالى:

﴿وَلْتَكُنْ منكم أُمةٌ يَدْعونَ إلى الخيرِ ويأْمُرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكر﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٤]

وقال تعالى:

﴿وما كان المؤْمِنونَ لِيَنْفِرُوا كافَّةً، فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كِلِّ فِرقةٍ منهم طائفةٌ لِيَتَفقَّهُوا في الدين وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إذا رَجَعُوا إلَيْهِم لَعَلَّهُم يَحْذَرُون﴾
[سورة التوبة: الآية ١٢٢]

ولا شك أن القيام بالمصالح العامة على هذا الوجه الذي أرشد الله إليه هو السبب الوحيد للكمال الديني والدنيوي، كما هو مشاهد يعرفه كل أحد. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿آدْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحِكمةِ والمَوْعِظَةِ الحسنةِ وجَادِلْهُم بالَّتي هِي أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥]

وهذا يشمل دعوة المسلمين الذين حصل منهم إخلال ببعض أمور الدين، ويشمل دعوة الكفار: الأولون يُدْعَوْن إلى تكميل دينهم، والآخرون يُدْعَوْن إلى الدخول في دين الإسلام الذي به صلاح البشر. وتكون هذه الدعوة بالحكمة، التي هي سلوك أقرب طريق وأنجح وسيلة يحصل بها تحصيل الخير أو تكميله، وإزالة الشر أو تقليله، بحسب الزمان والمكان، وبحسب الأشخاص والأحوال والتطورات. وكذلك بالموعظة الحسنة، والموعظة بيان

وتوضيح المنافع والمضار، مع ذكر ما يترتب على المنافع من الثمرات النافعة عاجلاً وآجلاً، وما يقترن بالمضارّ من الشرور عاجلاً وآجلاً. ووصفها الله بأنها موعظة حسنة لأنها في نفسها حسنة وطريقها كذلك. وذلك بالرفق واللين والحلم والصبر وتصريف أساليب الدعوة. وكذلك إذا احتيج في الدعوة إلى مجادلة لإقناع المدعو، فلتكن المجادلة بالتي هي أحسن، يدعى المجادل إلى الحق، ويبين محاسن الحق ومضار ضِدِّه، ويجاب عمّا يعترض به الخصم من الشبهات. كل ذلك بكلام لطيف، وأدب حسن، لا بعنف وغلظة، أو مخاشنة أو مشاتمة، فإن ضرر ذلك عظيم. قال تعالى:

﴿فَبِما رحمةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَولِك فآعفُ عنهم﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

ولنقتصر على هذا الأنموذج، فإنه يحصل به المقصود. والله أعلم. وصلى الله على محمد وسلم.

حرر في ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٧٥

الرياض الناضرة والحدائق الزاهرة

في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة

الرياض الناضرة والحدائق الزاهرة

في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة



ترجمة المؤلف
بقلم أحد تلاميذه

هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تميم، ولد في بلدة عنيزة في القصيم، وذلك بتاريخ ١٢ محرم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية، وتوفيت أمه وله أربع سنين، وتوفي والده وله سبع سنين، فتربى يتيماً، ولكنه نشأ نشأة حسنة، وكان قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه ورغبته الشديدة في العلوم، وقد قرأ القرآن بعد وفاة والده ثم حفظه عن ظهر قلب، وأتقنه وعمره إحدى عشرة سنة، ثم اشتغل في التعلم على علماء بلده وعلى من قدم بلده من العلماء، فاجتهد وجدّ حتى نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم، ولما بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة جلس للتدريس، فكان يتعلم ويعلِّم، ويقضي جميع أوقاته في ذلك، حتى أنه في عام ألف وثلاثمائة وخمسين صار التدريس ببلده راجعاً إليه؛ ومُعَوَّل جميع الطلبة في التعلُّم عليه.

بعض مشايـخ المؤلف

أخذ عن الشيـخ إبراهيم بن حمد بن جاسر، وهو أول من قرأ عليه، وكان المؤلِّف يصف شيخه بحفظه للحديث، ويتحدث عن ورعه ومحبته للفقراء ومواساتهم، وكثيراً ما يأتيه الفقير في اليوم الشاتي فيخلـع أحد ثوبيه ويلبسه الفقير مـع حاجته إليه، وقلة ذات يده رحمه الله، ومن مشايـخ المؤلف الشيـخ محمد بن عبد الكريم الشبل، قرأ عليه في الفقـه وعلوم العربيـة وغيرهما، ومنهم الشيـخ صالـح بن عثمان القاضي (قاضي عنيزة) قرأ عليه في التوحيد والتفسير والفقه أصوله وفروعه وعلوم العربية، وهو أكثر من قرأ عليه المؤلف ولازمه ملازمة تامة حتى توفي، رحمه الله؛ ومنهم الشيـخ عبد الله بن عايض، ومنهم الشيـخ صعب القويجري، ومنهم الشيـخ علي السناني ومنهم الشيـخ علي الناصر أبو واداي، قرأ عليه في الحديث، وأخذ عنه الأمهات الستّ وغيرها وأجازه في ذلك، ومنهم الشيـخ محمد بن الشيـخ عبد العزيز المحمد المانـع (مدير المعارف في المملكة العربية السعودية) في وقتنا الحالي، وقد قرأ عليه المؤلف في عنيـزة؛ ومن مشائخـه الشيـخ محمد الشنقيطي (نزيل الحجاز قـديماً ثم الـزبير) لمـا قدم عنيـزة وجلس فيها للتدريس؛ قرأ عليه المؤلف في التفسير والحديث ومصطلـح الحديث وعلوم العربية، كالنحو والصرف ونحوهما.

نبذة من أخلاق المؤلف

كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، متواضعاً للصغير والكبير والغني والفقير، وكان يقضي بعض وقته في الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم نادياً علمياً، حيث أنه يحرص أن يحتوي على البحوث العلمية والاجتماعية، ويحصل لأهل المجلس فوائد عظمى من هذه البحوث

النافعة التي يشغل وقتهم فيها، فتنقلب مجالسهم العادية عبادة ومجالس علمية، ويتكلم مع كل فرد بما يناسبه، ويبحث معه في المواضيع النافعة له دنيا وأخرى، وكثيراً ما يحلّ المشاكل برضاء الطرفين في الصلح العادل، وكان ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء، مادًّا يد المساعدة لهم بحسب قدرته ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات؛ وكان على جانب كبير من الأدب والعفة والنزاهة والحزم في كل أعماله؛ وكان من أحسن الناس تعليماً وأبلغهم تفهيماً، مرتِّباً لأوقات التعليم، ويعمل المناظرات بين تلاميذه المحصِّلين لشحذ أفكارهم، ويجعل الجعل لمن يحفظ بعض المتون؛ وكل من حفظه أعطي الجعل ولا يحرم منه أحد. ويتشاور مع تلاميذه في اختيار الأنفع من كتب الدراسة، ويرجح ما عليه رغبة أكثرهم ومع التساوي يكون هو الحكم، ولا يمل التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال، لأنهم يتلذذون من مجالسته، ولذا حصل له من التلاميذ المحصِّلين عدد كثير ولا يزال كذلك، متع الله بحياته؛ وبارك الله لنا وله في الأوقات ورزقنا وإياه التزود من الباقيات الصالحات.

مكانة المؤلف بالمعلومات

كان ذا معرفة تامة في الفقه، أصوله وفروعه. وفي أول أمره متمسكاً بالمذهب الحنبلي تبعاً لمشائخه، وحفظ بعض المتون من ذلك، وكان له مصنف في أول أمره في الفقه، نظم رجز نحو أربعمائة بيت وشرحه شرحاً مختصراً، ولكنه لم يرغب ظهوره لأنه على ما يعتقده أولاً.

وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وحصل له خير كثير بسببهما في علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة، وبسبب استنارته بكتب الشيخين المذكورين صار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي؛ بل يرجِّح ما ترجَّح عنده بالدليل الشرعي.

ولا يطعن في علماء المذاهب كبعض المتهوّسين، هدانا الله وإياهم للصواب والصراط المستبين. وله اليد الطولى في التفسير، إذ قرأ عدة تفاسير وبرع فيه، وألف تفسيراً جليلاً في عدة مجلدات، فسّره بالبديهة من غير أن يكون عنده وقت لتصنيف كتاب تفسير ولا غيره، ودائماً يقرأ والتلاميذ في القرآن الكريم ويفسِّره ارتجالاً، ويستطرد ويبين من معاني القرآن وفوائده؛ ويستنبط منه الفوائد البديعة والمعاني الجليلة، حتى إن سامعه يود أن لا يسكت لفصاحته وجزالة لفظه وتوسُّعه في سياق الأدلة والقصص، ومن اجتمع به وقرأ عليه وبحث معه عرف مكانته في المعلومات، وكذلك من قرأ مصنّفاته وفتاويه.

مصنفات المؤلف

١ ـ تفسير القرآن الكريم المسمّى «تيسير الكريم المنّان» في ثماني مجلدات أكمله في عام ١٣٤٤ ولم يطبع.

٢ ـ حاشية على الفقه استدراكاً على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلي. ولم تطبع.

٣ ـ إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب، رتّبه على السؤال والجواب، طبع بمطبعة الترقّي في دمشق عام ١٣٦٥ على نفقة المؤلف ووزّعه مجاناً.

٤ ـ الدرة المختصرة في محاسن الإسلام. طبع في مطبعة أنصار السُّنَّة عام ١٣٦٦.

٥ ـ الخطب العصرية القيمة؛ لـمَّا آل إليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر في المواضيع المهمّة التي يحتاج الناس إليها، ثم جمعها وطبعها مع «الدرة المختصرة» في مطبعة أنصار السُّنة على نفقته ووزعها مجاناً.

٦ ـ القواعد الحسان لتفسير القرآن، طبعها في مطبعة أنصار السُّنَّة عام ١٣٦٦. ووزع مجاناً.

٧ ـ تنزيه الدين وحملته ورجاله، مما افتراه القصيمي في أغلاله، طبع في مطبعة دار إحياء الكتب العربية على نفقة وجيه الحجاز «الشيخ محمد أفندي نصيف» عام ١٣٦٦.

٨ ـ الحق الواضح المبين، في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين.

٩ ـ توضيح «الكافية الشافية». وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم.

١٠ ـ وجوب التعاون بين المسلمين، وموضوع الجهاد الديني، وهذه الثلاثة الأخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزّعها مجاناً.

١١ ـ القول السديد في مقاصد التوحيد، طبع في مصر «بمطبعة الإمام» على نفقة عبد المحسن أبا بطين عام ١٣٦٧.

١٢ ـ مختصر في أصول الفقه، لم يطبع.

١٣ ـ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن. طبع على نفقة المؤلف وجماعة من المحسنين، وُزّع مجاناً. طبع بمطبعة الإمام.

١٤ ـ الرياض الناضرة، وهو هذا ـ طبع على نفقة المؤلف وجماعة من المحسنين ويوزع مجاناً. طبع بمطبعة الإمام.

وله فوائد منثورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد إليه من بلده وغيره ويجيب عليها، وله تعليقات شتى على كثير مما يمر عليه من الكتب. وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً. ومما كتب نظم ابن عبد القوي المشهور؛ وأراد أن يشرحه شرحاً مستقلاً فرآه شاقًّا عليه؛ فجمع بينه وبين «الإنصاف» بخط يده ليساعد على فهمه فكان كالشرح له؛ ولهذا لم نعدَّه من مصنفاته.

غايته من التصنيف

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق، ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته، لا لينال منها عرضاً زائلاً، أو يستفيد منها عرض الدنيا، بل يوزعها مجاناً ليعم النفع بها. فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلّى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وأسأل الله العون والتوفيق والسداد بمنِّه.

أما بعد، فهذه كلمات طيبات نافعات، ومقالات متنوعة في المهم من أصول الدين وأخلاقه وآدابه. وهاك فصولاً منثورة في مواضيـع متعددة نافعة.

عبد الرحمن بن ناصر السعدي



الفصل الأول

في عقائد الدين الكلية

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمنَّا باللَّهِ ومَا أُنزِلَ إلَينا وما أُنـزل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ مُوسَى وعِيسى ومـا أُوتِيَ النَّبيُّونَ مِنْ رَبِّهم لا نُفرِّقُ بينَ أحدٍ مِنهُمْ ونحنُ لَهُ مُسْلِمون﴾
[سورة البقرة: الآية ١٣٦]

وفي القرآن آيات كثيرة تشرح هذه الأصول الكلية وتفصِّلها، وتبيِّـن أسماء الله وصفاتِه، وأفعاله وآلاءه، وتفصِّل أحوال اليوم الآخر وما فيه من الحساب والعدل والفضل، والثواب والعقاب، وتبيِّـن أحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام وأوصافَهم وهداهم، وما دَعَوْا إليه، والكتب المنزلة عليهم وما فيها من الحقائق النافعة والهداية المتنوعة.

وقد جمـع الله في هذه الآية بين الأمر الموجّه إلى الظاهر والباطن قول اللسان والاعتراف والتحقق بالقلب بجميـع هذه الأصول، وبين الخضوع والانقياد في الباطن والظاهر والإخلاص التام لله بجميـع حقوق الدين؛ فهذه العقائد الصحيحة النافعة تملأ القلوب أمناً وإيماناً ويقيناً ونوراً وهداية، وتعبُّداً لله وتألُّهاً له، وإنابةً إليه في كل الأحوال، ولجوءًا إليه في كـل النوازل والمهمات، وطمأنينة بمعرفته، وسكوناً إلى ذكره والثناء عليه، وتوجب للعبد قوة التوكل على الله والاعتماد الكامل والاستعانة به في مزاولة الأعمال الدينية والدنيوية؛ وكلما ضعفت إرادة العبد ووهت قوته في محاولة المهمات، أمده

هذا الإيمان الصادق بقوةٍ قلبية تتبعها الأعمال البدنية، وكلما أحاطت به المخاوف كان هذا الإيمان حصناً حصيناً يلجأ إليه المؤمن فيطمئن قلبه وتسكن نفسه؛ قال تعالى:

﴿الذين قالَ لَهُم الناسُ إنَّ الناسَ قد جَمَعوا لكُم فاْخْشَوْهُم فزادَهُم إيماناً وقالوا حَسْبُنا اللَّهُ ونعمَ الوكيلُ. فانقلَبُوا بنعمةٍ مِنَ اللَّهِ وفضلٍ لم يَمْسَسْهُم سوءٌ واتَّبعوا رضوانَ اللَّهِ واللَّهُ ذو فضلٍ عظيمٍ﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٧٤]

وهذا الإيمان الصادق واليقين الصحيح يحمل صاحبه على العزة والقوة، والشجاعة القولية والفعلية؛ فإنه متى يتيقن العبد أن الله هو النافع الضَّار المعطي المانع؛ وأن من اعتز به فهو عزيز، ومن التجأ لغيره فهو الذليل؛ وأن الخلق كلَّهم فقراءُ إلى الله لا ينفعون ولا يضرون، أوجب له ذلك القوة بالله والالتجاء إليه، وأن لا يخاف ولا يرجو أحداً غير الله؛ ولا يطمع إلاّ في فضله؛ وبهذا يتم له التَّحَرُّر من رِق المخلوقين، وأن لا يعلق قلبه بأحد منهم في نفع ولا دفع ضُر، بل يكون الله وحده مولاه وناصره يتولاَّه في طلب المنافع، ويستنصره في دفع المضار، فيتمّ له من كفاية المولى وتيسير أموره ما لا يتم لمن لم يكن معه هذا الإيمان، ويحصل له من قوة القلب وشجاعته ما لا يصل إليه من لم يبلغ درجته، وهذا كله من ثمرات الإيمان الصحيح.

ومن ثمراته أيضاً أنه يسلِّي العبد عند المصائب؛ ويهوِّن عليه الشدائد والنوائب؛ ومن يؤمن بالله يُهدَ قلبه، وهو العبد الذي تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيرضى ويسلم للأقدار المؤلمة، وتهون عليه المصائب المزعجة لصدورها من عند الله وإيصالها إلى ثوابه؛ قال تعالى:

﴿إِنْ تكونوا تألَمونَ فإِنَّهم يأْلَمونَ كما تَأْلَمونَ وتَرجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

ولهـذا يوجـد عند المؤمنين الصـادقين ــ حين تصيبهم النوازل والقـلاقل والابتلاء ــ من الصبر والثبات والطمأنينة والسكون والقيام بحق الله ما لا يوجد عشرُ معشاره عند من ليس كذلك، وذلك لقوة الإيمان واليقين.

ومن ثمرات الإيمان الصادق أنه يقوِّي الرغبة في فعل الخيرات، والتزود من الأعمال الصالحات، ويدعو إلى الرحمة والشفقة على المخلوقات وذلك بسبب داعي الإيمان وبما يحتسبه العبد عند الله من الثواب الجزيل.

ومن ثمراته أيضاً أنه يَنهَى عن الشرور والفواحش كلِّها ما ظهر منها وما بطن، ويحذِّر من كل خلق رذيل؛ قال تعالى:

﴿إنَّما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهُم وإذا تُلِيتْ عليهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إيماناً وعلى ربِّهم يتوكلون. الذين يُقيمونَ الصلاةَ ومما رَزَقناهُمْ يُنفِقون. أولئك هُمُ المؤمنونَ حقًّا﴾ [سورة الأنفال: الآيات ٢ ــ ٤]

فذكر في هذه الآية ما يثمره الإيمان من أعمال القلوب والجوارح والقيام بحق الله وحق الخلق، فهذه الأخلاق الحميدة هل يتوصل إليها بغير الإيمان؟ وهل يعصم العبد من انحلال الأخلاق المؤدية إلى الهلاك إلاّ الإيمان؟ وهل أَودَتْ بكثيرٍ من الخلق الأمور المادية والشهوات البهيمية والأخلاق السبعية، وهبطت بهم إلى الهلاك إلاّ حين فقدت روح الإيمان؟ وهل تؤدَّى الأمانات والحقوق الواجبة بغير وازع الإيمان؟ وهل تثبت القلوب عند المزعجات وتطمئن النفوس عند الكريهات إلا بعدّة الإيمان؟ وهل تقنـع النفوس برزق الله وتتم لها الراحة والحياة الطيبة في هذه الدار، إلاّ بقوة الإيمان؟ وهل يتحقق العبد بالصدق في أقواله وأفعاله ومعاملاته ويكون أميناً شريفـاً معتبراً عنـد الله وعند خلقـه إلاّ بالإيمان؟

فكلُّ أسٍّ تنبني عليه هذه الأمور الجليلة سوى الإيمان فهو منهار، وكل رقي ماديٍّ لا يصحبه الإيمان فهو هبوط ودمار، أَلَا وإِنَّ الإيمان يحمل العبد على الصبر على قضاء الله والشكر لِنَعَمِ الله، والشفقة على عباد الله والتخلق

بكل خُلق جميل، والتخلّي من كل خلق رذيل، ومصداق ذلك ما هو موجود في كل متصف بالإيمان ومفقود ممن لم يكن كذلك، فإن وجدت موصوفاً ببعض هذه الصفات وهو غير ملتزم للإسلام، فعن الدين الإسلامي قد أخذها وقد يصبغها بغير صبغة الدين، فليأت المعترض بمثال واحد يخرج عن هذا الأصل إن كان صادقاً، فإن الدين يهدي للتي هي أقوم، ويدعو إلى كل خير.

قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا ارْكَعوا واسجُدُوا واعبـدوا ربَّكم وافعلوا الخيرَ لعلَّكم تفلحون﴾** [سورة الحج: الآية ٧٧]

﴿وَلْتَكُنْ مِنكُم أُمةٌ يَدعُونَ إلى الخيرِ، ويَأمُرُونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عن المُنكَرِ وأولئكَ هم المفلحون﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٤]

ومن ثمرات الإيمان أنه يأمر بالعدل والقسط في جميـع المعاملات وأداء الحقوق المتنوعة الواقعة بين الناس؛ وينهى عن الظلم في الدماء والأموال والأعراض والحقوق كلها، وهل يمكن صلاح هذه الأمور إلاّ بالعدل والقسط الذي هو روح الدين وقوامه؛ قال تعالى:

﴿إنَّ اللَّهَ يأمُرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُربـى وينهَى عن الفَحشاءِ والمُنكرِ والبَغْيِ ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]

﴿يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قَوَّامينَ بالقِسطِ شُهَداءَ للَّهِ وَلَوْ على أنْفُسكُم أَوِ الوالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ، إنْ يَكُنْ غنيّاً أو فقيراً فالله أولَى بِهِما﴾

[سورة النساء: الآية ١٣٥]

وإذا اعتبرت تفاصيل العدل في الأحكام الشرعية المتعلقة بالعقود والمعاملات من معاوضات وشركات وحقوق المواريث والزوجية والأقارب والمعاملين، وجدتها في غاية العدل والانتظام المصلِح للأحوال الجالب للمنافـع، الدافـع للمضار والمفاسد.

فصل تابع لما قبله

وهذا الإيمان الصحيح الشامل لأصول الإيمان وحقائقه يتضمن الخضوع الكامل لله والإنابة إليه في كل الأحوال الذي هو غاية صلاح القلوب والأرواح، فيدخل فيه الإخلاص لله في عبوديته والإحسان المتنوع بكل وجه لله الخالق، ويدخل فيه الإيمان بكل كتاب أنزله الله وبكل رسول أرسله الله، وبكل حقٍّ نزلت به الكتب وجاءت به الرسل واتفقت عليه الفطر السليمة والعقول المستقيمة؛ وهو الدين المزكِّي للقلوب المطهِّر للنفوسِ المنمِّي للأخلاق، دين الحكمة والفطرة، دين العقل الصحيح والنقل الصريح، دين يبرأ من الوثنيات والإلحاد وانحلال الأخلاق، دين قد جاء بإباحة جميع الطيبات والمنافع وتحريم الخبائث والمضارّ، يأمر بكل معروف شرعاً وعقلاً، وينهى عن كل منكر، وبغي وعدوان، دِين فيه صلاح القلوب والأجساد، والسعي لكل منفعة دينية ودنيوية مُعِينة على الدين، دينٌ نزل من عند العزيز الحميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، لا يتمكن مبطل من نقض أصلٍ من أصوله، ولا يخبر بما تحيله العقول، بل بما تشهد به العقول الصحيحة، أو لا تهتدي إلى تفصيله وبيانه؛ دينُ جميع الأنبياء والمرسلين، وعليه جميع الأصفياء والعلماء الربانيين، أئمة الهدى ومصابيح الدجى، ونبذه كل مشرك وجاحد ممن مرضت عقولهم، وانحلت أخلاقهم وطغت عليهم المادة فدمرت أديانهم تدميراً.

المؤمن بالله حقاً قد تَنَعَّمَ بعبادة الله راجياً ثوابه، وتنعَّمَ بنصيبه من الدنيا على الوجه الأكمل، فإنه تناوله من حله ووضعه في محله، قاصداً به قيام ما عليه من الواجبات مستعيناً به على عبادة ربه.

المؤمن: وصفه التواضع للخلق وللحق، يتبع الحق أين كان، ويَدِينُ بالنصيحة لعباد الله على اختلاف مراتبهم، والجاحد وصفه التكبر على الحقِّ وعلى الخَلْقِ والإعجاب بالنفس، لا يدين بنصيحة أحد من الخلق.

المؤمن: سليم القلب من الغش والغل والحقد، صدوق اللسان، حسن المعاملة، وصفُهُ الحلم والوقار والسكينة والصبر والرحمة والوفاء والثبات، لا يذل إلاّ لله، قد صان قلبه ووجهه عن بذله وتذلُّلِه لغير ربه، قد جمع بين السعي في فعل الأسباب النافعة، والتوكل على الله والثقة به وطلب العون منه في كل الأمور، وبقوة توكله وثقته وطمعه بربه قد يسره الله لليسرى وجنَّبه العسرى، إذا أتته الدنيا والنعم والمحابُّ تلقَّاها بالشكر وصرفَها فيما ينفعه ويعود عليه بالخير، وإذا أصابته المكاره تلقَّاها بالصبر والاحتساب وارتقاب الأجر والثواب والرجاء لفرج الله بزوالها، فيكون ما عُوِّض من الخير والإيمان والطمأنينة أعظمَ مما فاته من محبوب، أو حصل له من مكروه، فهذه الخصال الجميلة من عقائد صادقة وأخلاقٍ راقية وآداب سامية هل يمكن أن يتصف بها إلاّ المؤمن حقاً؟ وهي من أكبر البراهين على أن الدين بعقائده وأخلاقه هو الدين الحق الذي يؤول إليه أولو الألباب والحجى وأرباب البصائر والنُّهى، ولا يزهد فيه إلاّ الأرذال الذين اختاروا الضلالة على الهدى، والشقاوة بالسعادة.

لهفي على المؤمنين الأخيار، وحنيني المتتابع على الصادقين الأبرار الذين عمرت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته، ولهجت ألسنتهم بذكر الله والثناء عليه، وعمرت أوقاتهم بطاعته وخدمته، وحنوا بهذا الإيمان الحقيقي على الخَلْق بالرأفة والرحمة والنصح، ومنعهم هذا الإيمان من كل خُلُقٍ رذيل كما حثهم على كل خلق جميل.

أين الإيمان الصحيح من أهل الرياء والتملّق والنفاق؟ وأين الإيمان ممن دَأْبُهُمُ الفسوقُ والعصيان والشقاق؟ أين الإيمان من المُعْرِضين عن معرفة الله ومحبته، الناكبين عن طاعته وخدمته؟ وأين الإيمان ممن مُلئت قلوبهم بالتعلق بالحب والتعظيم، والخوف والرجاء للمخلوقين، وخلت من تعلقها برب العالمين؟ أين الإيمان من الطعانين اللعانين؟ وأين الإيمان من الكذابين

والنمامين، وأين الإيمان من المعاملين بالربا والغشاشين؟ فليس الإيمان بالتحلي والتمني، وإنما الإيمان ما وَقَرَ في القلوب وصدّقته الأعمال عند التمحيص والتحقيق، والامتحان يظهر الكاذب وصادقَ الإيمان.

الفصل الثاني

في فوائد الصلاة

فرض الله على الأمة خمس صلوات كل يوم وليلة، ومن النوافل والرواتب والوتر وغيرها ما هو تبع لها، لما في ذلك من الفوائد الضرورية والكمالية الدينية والدنيوية، قال تعالى:

﴿أَقِمِ الصَّلاةِ لِدُلُوكِ الشَّمسِ إلى غَسَقِ الليلِ وقُرآنَ الفَجْرِ إنَّ قرآنَ الفجرِ كانَ مَشْهوداً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٨]

فهذه الآية تدخل فيها الصلوات الخمس، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في الصلوات الخمس وتفصيل أوقاتها وشروطها ومكمّلاتها، وفي فضلها وكثرة ثوابها، فمن فضائلها أنها أعظم عبادةٍ يحصلُ فيها الخضوع والذُّلُّ لله وامتلاء القلب من الإيمان به وتعظيمه، وذلك مادة سعادة القلب الأبدية ونعيمه ولا يمكن تغذيته بمثل الصلاة؛ والصلاة أعظم غذاء وسقي لشجرة الإيمان، فالصلاة تثبِّت الإيمان وتنمِّيه، وتنمِّي ما يثمره الإيمان من فعل الخير والرغبة فيه، وكذلك تنهَى عن الشر، قال تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تَنْهى عنِ الفحشاءِ والمُنكرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكبرُ﴾
[سورة العنكبوت: الآية ٤٥]

فأخبرَ أَنَّ فيها الغذاءَ بذكرِ الله والشفاءَ بنهْيِهَا عن الفحشاء والمنكر، وأي شيء أعظم من هذا وأجل وأكمل؟

ومن فضائلها أنها أكبر عون للعبد على مصالح دينه ودنياه، قال تعالى:

﴿واَسْتعينوا بالصَّبرِ والصَّلاةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥]

أي على كل الأمور؛ أما عونها على المصالـح الدينية فإن العبد إذا داوم على الصلاة وحافظ عليها قَوِيت رغبته في فعل الخيرات وسهلت عليه الطاعات وبذل الإحسان بطمأنينة نفس واحتساب ورجاء للثواب، وتذهب أو تضعف داعيته للمعاصي، وهذا أمر محسوس مشاهد، فإنك لا تجد محافظاً على الصلاة، فروضِها ونوافِلها، إلّا وجدتَّ تأثير ذلك في بقية أعماله، ولهذا كانت الصلاة عنواناً على الفلاح؛ قال تعالى:

﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر...﴾ الآية

والمراد عمارتها بالصلاة والقربات، وقال ﷺ: إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله يقول:

﴿إِنّما يَعْمُرُ مساجدَ اللَّهِ مَنْ آمنَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ﴾

[سورة التوبة: الآية ١٨]

وأما عونها على المصالـح الدنيوية فإنها تهوِّن المشاقَّ وتسلِّي عن المصائب ويجازي الله صاحبَها بتيسير أموره، ويبارك له في ماله وأعماله وجميـع ما يتصل به ويباشره.

ومن فضائلها أنّ من أَكْمَلَها وأتقَنَها فقـد فاز وسعـد، وفي حديث أبـي هريرة مرفوعاً: (أول ما يحاسب عنه العبد صلاته، فإن كان قد أتمها فقد أفلـح وأنجـح)، الحديث في السنن.

وللصلاة خمس فوائد، كل واحدة خير من الدنيا وما عليها: تكميل الإسلام التي هي أكبر أركانه، وتكفيرُ السيئات وزيـادةُ الحسنات ورفعـةُ الدرجات، وزيادةُ القُرب من رب السموات، وزيادةُ الإيمان في القلبونورِه. وقد شَرَعَ الشارع الاجتماع للصلوات الخمس والجمعـة والعيد لمـا في الاجتماع من حصول التنافس في الخيرات والتنشيط عليها، والتعلم والتعليم لأحكامها، فإن العالم يُنبِّه الجاهل؛ والجاهل يتعلم بالقول والفعل من العالم ويقتدي الناس بعضهم ببعض، وكذلك ما في الاجتماع من التوادّ والتواصل

بين المسلمين وعدم التقاطع، وما في ذلك من معرفة حال المصلِّين والمحافظين على الصلاة والمتهاونين، ومضاعفة الأجر بالاجتماع، وكثرة الخطا إلى المساجد وما يتبع ذلك من قراءة وذكر وعبادات تفعل في المساجد بأسباب الصلوات.

ومن فوائدها الطِّبِّية البدنية وهي مصلحة تابعة لغيرها ما فيها من الرياضة المتنوعة النافعة للبدن المقوية للأعضاء والحركة المذيبة للأخلاط الغليظة وذلك من وجهين:

أحدهما: ما في الصلوات ووسائلها وتوابعها من المشي والذهاب والمجيء والقيام والقعود والركوع والسجود المتكرر، وكذلك الطهارة المتكررة، كل هذه الحركات نفعها محسوس مشاهد لا يمارِي فيه إلاّ جاهل.

الوجه الثاني: أن روح الصلاة ومقصودها الأعظم حضور القلب بين يدي الله ومناجاته بكلامه وذكره والثناء عليه ودعائه والتضرّع إليه وطلب القربة عنده ورجاء ثوابه، وذلك بلا ريب ينير القلب ويشرح الصدر ويفرح النفس والروح؛ ومعلوم عند جميع الأطباء أن السعي في راحة القلب وسكونه وفرحه وزوال غمه وهمه من أكبر الأسباب الجالبة للصحة الدافعة للأمراض المخففة للآلام، وذلك مجرب مشاهد وخصوصاً صلاة الليل أوقات الأسحار فإن النبي ﷺ ذكر في الحديث الصحيح أن العبد إذا قام من الليل فذكر الله وتوضأ ثم صلّى ما كتب له انحلّت عنه عقد الشيطان كلُّها فأصبح طيب النفس نشيطاً، وإلاَّ أصبح خبيث النفس كسلان؛ ومصالح الصلاة الدينية والاجتماعية والبدنية لا تعد ولا تحصى.

الفصل الثالث

في فوائد الزكاة والصدقة

قد فرض الله على المؤمنين ذوي الأموال الزكوية زكاة تدفع للمحتاجين منهم، وللمصالح العامة النفع كما قال تعالى:

﴿إنّما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلَّفةِ قلوبُهُم، وفي الرِّقابِ والغارمينَ وفي سبيلِ اللَّهِ وابنِ السبيل، فريضةً مِنَ اللَّهِ واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٠]

وفي القرآن آيات كثيرة في الأمر بإيتاء الزكاة والنفقة مما رزق الله والثناء على المنفقين والمتصدقين وذكر ثوابهم، وتواترت بذلك كله الأحاديث عن النبي ﷺ، وبيَّـن ما تجبُ فيه الزكاة من المواشي والحبوب والثمار والنقود والأموال المعدَّة للتجارة، وذَكَر أَنْصِباءها ومقدارَ الواجبِ منها وذَكَر الوعيدَ الشديد على مانعها؛ واتفق المسلمون على نقصان إيمان تاركها ودينهِ وإسلامِه، وإنما اختلفوا هل يكفَرُ تاركُها أمْ لا، وذلك لما في الزكاة والصدقة والإحسان من الفوائد الضرورية والكمالية والدينية والدنيوية.

فمنها أنها من أعظم شعائر الدين وأكبر براهين الإيمان: فإنه ﷺ قال: (والصدقة برهان). أي على إيمان صاحبها ودينه ومحبته لله إذ سخى لله بماله المحبوب للنفوس.

ومنها أنها تزكِّي وتنمِّي المعطي والمعطَى والمالَ الذي أخرجت منه، أما تزكيتها للمعطي فإنها تزكِّي أخلاقَه وتطهِّرُه من الشُّحِّ والبخل والأخلاق الرذيلة، وتنمِّي أخلاقَه فيتصف بأوصاف الكرماء المحسنين الشاكرين، فإنها من أعظم الشكر لله، والشكر معه المزيد دائماً، وتنمِّي أيضاً أَجْرَهُ وثوابه، فإن الزكاة والنفقة تضاعف أضعافاً كثيرة بحسب إيمان صاحبها وإخلاصِه ونفعها ووقوعها موقعها، وهي تشرح الصدر وتفرح النفس وتدفع عن العبد من البلايا

والأسقام شيئاً كثيراً؛ فكم جلبت من نعمة دينية ودنيوية، وكم دفعت من نِقَمٍ ومكارِهَ وأسقام، وكم خفّفت الآلام وكم أزالت من عداوات وجلبت مودة وصداقات، وكم تسببت لأدعية مستجابة من قلوب صادقات. وهي أيضاً تنمِّي المال المخْرَج منه، فإنها تقيه الآفات وتحل فيه البركة الإلّهيةَ، قال ﷺ: (ما نقصت صدقة من مال)، بل تزيده وقال تعالى:

﴿وما أنفقتم مِنْ شَيءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ وهُوَ خَيْرُ الرَّازقين﴾

[سورة سبأ: الآية ٣٩]

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (ما من صباح يوم إلّا وينزل ملكان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكاً تلفاً)، والتجربة تشهد بذلك، فلا تكاد تجد مؤمناً يُخرج الزكاة وينفق النفقات في محلها إلّا وقد صبّ الله عليه الرزق صبا، وأنزل له البركة ويسَّر له أسباب الرزق.

وأما نفعها للمعطَى فإن الله قد أمر بدفعها للمحتاجين من الفقراء والمساكين والغارمين وفي الرقاب وللمصالح التي يحتاج المسلمون إليها، فمتى وضعت في محلها اندفعت الحاجات والضرورات واستغنى الفقراء أو خفّ فقرُهم وقامت المصالح النافعة العمومية، فأي فائدة أعظم من ذلك وأجلّ، فلو أن الأغنياء أخرجوا زكاة أموالهم وَوُضعت في محلها لقامت المصالح الدينية والدنيوية وزالت الضرورات واندفعت شرور الفقراء وكان ذلك أعظم حاجزٍ وسدٍّ يمنع عبث المفسدين، ولهذا كانت الزكاة من أعظم محاسن الإسلام لما اشتملت عليه من جلب المصالح والمنافع ودفع المضار.

الفصل الرابع

في فوائد الصوم

قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ على الذين مِنْ قَبلِكُم لعلَّكم تتَّقون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٣]

فذكر تعالى للصوم هذه الفائدة العظمى المحتوية على فوائد كثيرة وهي قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ أي ليكون الصيام وسيلةً لكم إلى حصول التقوى ولتكونوا بالصيام من المتقين، وذلك أن التقوى اسم جامع لكل ما يحبّه الله ويرضاه من فعل المحبوبات لله ورسوله، وترك ما يكرهها الله ورسوله. فالصيام هو الطريق الأعظم لحصول هذه الغاية الجليلة التي توصل العبد إلى السعادة والفلاح، فإن الصائم يتقرب إلى الله بترك ما تشتهيه نفسه من طعام وشراب وتوابعها تقديماً لمحبة الله على محبة النفس، وكذلك اختصه الله من بين الأعمال فقال: (الصوم لي وأنا أجزي به).

وبالصيام يزداد الإيمان ويتمرّن العبد على الصبر النفسي الدافع لاندفاع النفس البهيمية في شهواتها الضارة. وبالصيام يستعين العبد على كثير من العبادات من صلاة وقراءة وذكر وصدقة، ويردع النفس عن الوقوع في الأمور المحرَّمة من أقواله وأفعاله، وذلك من أصول التقوى.

وبالصيام يعرف العبد نعمة الله عليه في أقداره على ما يتمتع به من مأكل ومشرب ومنكح وتوابعها، فبالامتناع منها في وقت وحصول المشقة بذلك، وإباحته في بقية أوقاته يذوق طعم الجوع والظمأ ويعرف مقدار النعمة، ويحنو على إخوانه المعدمين الذين لا يكادون يجدون القوت دائماً.

وبالصيام يكون العبد صابراً على الطاعات، وعن المخالفات، وعلى أقدار الله المؤلمة بصبره عن المفطرات التي يؤلم النفس تركها، ويكون من الشاكرين لله بمعرفة مقدار نعمة الله عليه بالسعة والغنى، وبنعمته الكبرى

بتوفيقه للصيام، فإن نِعَمَ الله الدينية أكبرُ من نِعَمِهِ الدنيوية، وقد أخبر ﷺ أن الصيام أحد مباني الإسلام الخمسة، وأنه يكفِّر الذنوب المتقدمة كلها، وأن الله يحبه ويرضى عن صاحبه ويعطيه أجراً عظيماً، وأن من صام رمضان ثم أتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر، ومن صام من كل شهر ثلاثة أيام فكذلك، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك يعدل صيام الدهر، فضلاً من الله ومِنّة، ومن تيسير الله للصيام وتسهيله أن الله شرعه في وقت واحد وشهر واحد ليتفق المسلمون كلهم على صيامه وتهون المشقة باشتراكهم في الصيام، فإن الاشتراك في العبادة له نفع عظيم ومساعدة جسيمة، ولله في العبادات حكم وأسرار ولطف كبير. وأما منافع الصيام البدنية فقد ذكر الأطباء أنه يحفظ الصحة ويذيب الفضلات المؤذية ويريح القُوى ويردّ إليها قوتَها، وهو من أفضل أنواع الحمية عن تناول ما يؤذي البدن، فهو جامع لمصالح الدين والدنيا والآخرة. والله أعلم.

الفصل الخامس

في فوائد الحج

قال تعالى: ﴿وَللَّهِ على الناس حِجُّ البيتِ مَنِ ٱسْتطاعَ إليهِ سبيلاً وَمَنْ كَفَر فإنَّ اللَّهَ غنيٌّ عن العالَمِين﴾

[سورة آل عمران: الآية ٩٧]

وأخبر ﷺ أنه أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، وأن من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولَدَتْهُ أُمُّه، وأن الحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة، وكل هذا في الصحيحين، وأخبر أن الحج والعمرة ينفيان الذنوب والفقر كما ينفي الكير خَبَثَ الحديد والذهب والفضة. وورد في فرضه

وفضله وثوابه أحاديثُ كثيرة وذلك لما فيه من المنافـع العامة والخاصة، وقد بيَّـن تعالى مُجمَل حِكَمِهِ ومنافعه في قوله:

﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِـعَ لَهُم﴾ [سورة الحج: الآية ٢٨]

أي منافـع دينية واجتماعية ودنيوية، وقال:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قِياماً للناسِ، والشَّهرَ الحرامَ والهَدْيَ والقَلائِدَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٧]

فإن به تقوم أحوال المسلمين ويقوم دينهم ودنياهم، فلولا وجود بيته في الأرض وعمارته بالحـج والعمرة والتعبُّدات الأخر لأذنَ هذا العالَمُ بالخراب؛ ولهذا، من أمارات الساعة واقترابها هدمُهُ بعد عمارته، وتركُه بعد زيارته، فإن الحـج مبنيٌّ على المحبة والتوحيد الذي هو أصل الأصول كلها، فإن حقيقته استزارة المحبوب لأحبابه وإيفادهم إليه ليحظوا بالوصول إلى بيته ويتمتعوا بالتذلُّل له والانْكسار له في مواضـع النسك، ويسألوه جميـع ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم، فيجزل لهم من قراه ما لا يصفه الواصفون، وبذلك تتحقق محبتهم لله ويظهر صدقهم بإنفاق نفائس أموالهم، وبذل مُهجهم في الوصول إليه، فإن أفضل ما بذلت فيه الأموال وأتعبت فيه الأبدان، وأعظمه فائدة وعائدة ما كان في هذا السبيل وما توسل به إلى هذا العمل الجليل، ومـع ذلك فقد وعدهم بإخلاف النفقات والحصول على الثواب الجزيل والعواقب الحميدة.

ومن فوائد الحـج أن فيه تذكرة لحال الأنبياء والمرسلين ومقـامات الأصفياء المخلصين كما قال تعالى:

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبراهيمَ مُصَلًّى﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٥]

والصحيـح في تفسيرها أن هذا عام في جميـع مقاماته في الحج: من الطَّواف وركعتيه والسعي والوقوف بالمشاعر ورمي الجمار والهَدْي وتوابـع ذلك، ولهذا كان ﷺ يقول في كل مشعر من مشاعر الحـج (خذوا عني

مناسككم) فهو تذكرة بحال إبراهيم الخليل والمصطَفَيْن من أهل بيته، وتذكير بحال سيد المرسلين وإمامهم ومقاماته في الحج التي هي أجل المقامات، وهذا التذكير أعلى أنواع التذكيرات، فإنه تذكير بأحوال عظماء الرسل إبراهيم ومحمد ﷺ ومآثرهم الجليلة وتعبداتهم الجميلة، والمتذكر بذلك مؤمِنٌ بالرسل معظِّمٌ لهم متأثِّرٌ بمقاماتهم السامية مُقتدٍ بآثارهم الحميدة ذاكرٌ لمناقبهم وفضائلهم فيزداد به العبد إيماناً ويقيناً.

وشرع أيضاً لما فيه من ذكر الله الذي تطمئن به القلوب ويصل به العبد إلى أكمل مطلوب كما قال ﷺ: (إنما جعل الطواف بالبيت وبالصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله).

ومن فوائد الحج أن المسلمين يجتمعون في وقت واحد وموضع واحد على عمل واحد ويتصل بعضهم ببعض ويتم التعاون والتعارف ويكون وسيلة للسعي في تعرف المصالح المشتركة بين المسلمين والسعي في تحصيلها بحسب القدرة والإمكان، وبذلك تتحقق الوحدة الدينية والأخوة الإيمانية، ويرتبط أقصى المسلمين بأدناهم فيتفاهمون ويتعارفون ويتشاورون في كل ما يعود بنفعهم؛ وبذلك يكتسب العبد من الأصدقاء والأحباء ما هو أعظم المكاسب ويستفيد بعضهم من بعض.

وأما توابع ذلك من المصالح الدنيوية بالتجارات والمكاسب الحاصلة في مواسم الحج ومواضع النسك فإنها تفوت العد، وكل هذا داخل في قوله:

﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ [سورة الحج: الآية ٢٨]

موسم عظيم لا يشبهه شيء من مواسم الأقطار؛ كم أنفقت فيه نفائس الأموال، وكم أتعبت في السعي إليه الأبدانُ وكم حصل فيه شيء كثير من أصناف التعبُّدات، وكم أُرِيقت في تلك المواضع العبراتُ، وكم أقيلت فيه العثراتُ، وغفرت الذنوب والسيئات، وكم فرجت فيه الكربات وقضيت الحاجات، وكم

ضج المسلمون فيه بالدعوات المستجابات، وكم تمتع فيه المحبون بالافتقار إلى رب السموات، وكم أسبغ الباري فيه عليهم من ألطاف ومواهب وكرامات، وكم عاد المسرفون على أنفسهم كيوم ولدتهم الأمهات، وكم حصل فيه من تعارف نافع واستفاد به العبد من صديق صادق، وكم تبادلت فيه الآراء والمنافع المتنوعة، وكم تمّ للعبد فيه من مآرب ومطالب متعددة، ولله الحمد على ذلك.

فصل تابع لكل ما تقدم

هذه الشرائع المتقدم ذكرها قد تبين أنها من أعظم الضرورات، وأنه لا غنى للخلق عنها للفوائد الجليلة المترتبة عليها والأضرار الكثيرة الناشئة عن فقدها، وأنها أعظم منن الله على عباده، وأعظم محاسن الدين الإسلامي، وأن كل دين خلا منها وكلَّ طريق فُقِدت منه فإنه شرٌّ محض وضررٌ صِرْف، وأنه إذا وجد خير في شخص أو طائفة من الناس فانظر وتأمل تجد بلا شك أصلَه ومنبَعه مأخوذاً من الدين الإسلامي وإن غُيِّرت صبغتُه وسُمِّي بغير اسمه، كما أنك لا تجد شرًّا ولا ضرراً إلَّا وجدت منبعه من مخالفة الدين الإسلامي لا يشذ عن هذا شيء؛ فالخير حيث كان الدين؛ والشرُّ حيث فُقِد الدين الصحيح؛ فليأتِ المرتابُ بمثالٍ واحدٍ يخالف هذا الأصل إن كان صادقاً، وإلا فَلْيُذْعِنْ إلى هذا الدين الذي أذعن له صفوةُ الخلق وأولو الألباب من الأنبياء وأتباعهم وأهل العقول الوافية والأخلاق العالية.

الفصل السادس

في الصدق والأمانة

قد أمر الله بالصدق وأداء الأمانات في عدة آيات، وأثنى على الصادقين الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا آتَّقُوا اللَّهَ وكُونوا مَـعَ الصَّادقين﴾

[سورة التوبة: الآية ١١٩]

﴿هـٰذا يومُ ينفـعُ الصَّادقينَ صِدقُهم لَهمْ جَنَّاتٌ تَجري من تحتِها الأَنهارُ خالدينَ فيها أبداً رَضِيَ اللَّهُ عنهُم وَرَضُوا عَنْهُ ذلك الفوزُ العظيمُ﴾

[سورة المائدة: الآية ١١٩]

﴿إنَّ اللَّهَ يأْمُرُكُمْ أَنْ تُـؤَدُّوا الأَماناتِ إلى أهلِها﴾

[سورة النساء: الآية ٥٨]

وهذا شامل لجميـع الأمانات من الولايات الصغار والكبار، وأمانات الأموال والحقوق والأسرار وغيرها؛ وفي الحديث الصحيـح عنه ﷺ أنه قال: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدِي إلى الفجور وإن الفجور يهدِي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكْتب عند الله كَذَّاباً)، وإنما حث الشارع على الصدق وأداء الأمانة ورعايتها، لأنها مقدمة الأخلاق الجميلة، وهي الداعية إليها كما نص عليه في الحديث في قوله: (فإن الصدق يهدي إلى البر). والبِرُّ اسمٌ جامـع لكل خير وطاعة الله وإحسان إلى الخلق.

والصدق عنوان الإسلام وميزان الإيمان وأُسُّ الدين وعلامة على كمال المتَّصِف بـه، وأن له المقـامَ الأعلى في الدين والـدنيـا، وهـو صـريـح الإخلاص، فإن المخلص قد استوى ظاهره وباطنه، والصـادق كذلـك،

وبالصدق يصل العبد إلى منازل الأبرار، وبه تحصل النجـاة من جميـع الشرور، وبالصدق وأداء الأمانة تحصل البركة والطمأنينة، ويكون صاحبها معتَبَراً عند اللهوعند الخلق قال ﷺ: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما)، متفق عليه؛ فأخبر وهو الصادق المصدوق: أن البركة مقرونة بالصدق والبيان، وأن المَحْقَ والتَّلَف مقرونٌ بالكذب والكتمان، والمشاهدة أكبر شاهد على ذلك، فإنك لا تجد صادقاً في معاملته مؤتمناً في أماناته، وقد استوى ظاهره وباطنـه إلّا وجدت رزقه رغداً، وأسبابه جارية على السداد ومعاملاته مستقيمة، وقد حاز مـع ذلك الشرف وحسن السمعة والاعتبار وتسابق الناس إلى معاملته، وبذلك تتم له سعادة الدنيا والآخرة؛ كما أنك لا تجد كذاباً غشاشاً سيء المعاملة إلّا وجدته بعكس حال الصادق. لا ترى صادقاً إلّا مرموقاً بين الناس بالمحبة والثناء والتعظيم، ولا كاذباً إلّا ممقوتاً بهذا الخلق الأثيم؛ الصادق يطمئن إلى قوله العدو والصديق، والكاذب لا يثق به الصديق والقريب.

ما أحلى أحاديث الصادقين وما أقبـح أقوال الكاذبين؛ الصادق الأمين مؤتمن على الأموال والحقوق والأسرار، ومتى حصل منه كبوة أو عثرة فصِدْقُه شفيـع مقبول، والكاذب لا يؤمن على مثقال ذرة ولو قُدِّر صدقه أحياناً لم يكن لذلك موقـع ولا حصل به ثقة ولا طمأنينة. بالصدق تبرم العهود الوثيقة، وتطمئن لها القلوب على الحقيقة.. ما كان الصدق في شيء إلّا زَانَـه، ولا الكذب في شيء إلّا شَانَه؛ الصدق طريق الإيمان، والكذب بريد النفاق ــ اللهم تفضل علينا بالصدق في أقوالنا وأفعالنا وجميـع أحـوالنا؛ يـا جواد يا كريم!

الفصل السابع

في العدل وفوائده وتوقف الصلاح عليه

قد أمر الله بالعدل في مواضع كثيرة من كتابه، وأمر بالعدل بين الناس في المقالات والمذاهب والدماء والأموال والأعراض وسائر الحقوق، ونهى عن الظلم في كل شيء وذَمَّ الظالمين وذكر عقوباتهم الدنيوية والأُخروية في آيات متعددة، قال تعالى:

﴿إنَّ اللَّهَ يأمُرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُربى وَيَنْهَى عنِ الفَحْشاءِ والمنكرِ والبَغْيِ يَعِظُكُم لَعلَّكم تَذَكّرون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٠]

﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا كونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ شُهَداءَ للَّهِ وَلَوْ علىٰ أنفُسِكُمْ أوِ الوالِدَيْنِ والأَقْرَبينَ، إنْ يَكُنْ غنيًّا أو فقيراً فالله أولَى بهما﴾
[سورة النساء: الآية ١٣٥]

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّـي بالقِسْطِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩]

﴿واللَّهُ لَا يُحِبُّ الظالمين﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٧]

﴿إنَّ الظالمين لهم عَذابٌ أليمٌ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٢٢]

وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: (يا عبادي إنِّي حَرَّمتُ الظلمَ على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) والشريعة المحمَّدية كلها عدلٌ وقسط ورحمة لا جورَ فيها بوجه من الوجوه، لا في أصولها ولا في فروعها فالتوحيد أصل العدل، والشِّرك ضِده أَصلُ الظُّلم ــ قال تعالى:

﴿إنَّ الشِّركَ لظلمٌ عظيمٌ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٣]

فالعدل وضع الشيء موضعه وأداء الحقوق كاملة، فأعظم الحقوق على الإطلاق حقُّه تعالى على عباده ــ أن يعبدوه وحدَه ويخلصوا له الدين. قال تعالى:

﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلّا ليعبدون﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦]

﴿وما أُمِروا إلاّ لِيَعْبُدوا اللَّهَ مُخلصِين لَهُ الدّين﴾

[سورة البَيِّنَة: الآية ٥]

وفي حديث معاذ المتفق عليه: (حق الله على عباده أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً).

فمن قام بهذا الحق فعبد الله وحدَه وأدّى هذا الحق، وقام بحقوقه مخلصاً له فقد قام بأعظم العدل، ومن جعل هذا الحق لغير مستحقه، بأن عبد غير الله وتعلق بغيره رغبةً ورهبةً وتألُّهاً فقد ظلم وعدل عن العدل؛ قال تعالى:

﴿ثُمَّ الذين كَفروا بربِّهم يَعْدِلُون﴾ [سورة الأنعام: الآية ١]

أي يعدِلُون به غيرَه ويسوُّونه بسواه ممّن ليس فيه من أوصاف الأُلوهية شيء، ولا يملك لنفسه ولا لغيره مثقالَ ذرة من النفع أو الدفع، فمن أظلم ممن سَوَّى المخلوقاتِ الفقيرةَ الناقصة من كل وجه بالرب الغني الكامل من جميع الوجوه. وقال ﷺ: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظِلّ إلاّ ظله) فذكر أولهم الإمام العادل، وقال: (المقسطون على منابر من نور، الذين يعدلون في أهلهم وحكمهم وما ولوا..).

فعلى الإمام الأعظم أن يقيم العدل في جميع رعيته، قريبهم وبعيدهم غنيهم وفقيرهم؛ وأن يكونوا عنده في هذا سواء، وعليه أن يستنيب لكل عمل الكفءَ الأمين ويوصيهم على إقامة العدل، ويحذرهم الجور وظلم العباد في الدماء والأموال والأعراض، ويتفقدهم في ذلك الأمر الذي هو أساس الصلاح الديني والدنيوي، فلا يصلح الدين إلاّ بالعدل، ولا تصلح الدنيا وتستقيم الأمور على السداد إلاّ بالعدل، ويوم واحد من إمام عادل خير العباد من أن يُمْطَروا أربعين صباحاً، لأن العدل يَسْعد به الراعي والرعية، وبالعدل تعمر الأسباب الدنيوية ويحصل التعاون على المصالح الكلية والجزئية، وبالظلم

خراب الديار وفساد الأحوال وفتح أبواب الفتن وحصول العداوات والبغضاء.

وعلى القضاة والحكام بين الناس أن يحكموا بينهم بالعدل؛ قال تعالى:

﴿يا داودُ إنّا جعلناكَ خليفةً في الأرض فَٱحكُمْ بينَ الناسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عن سبيلِ الله﴾ [سورة صٓ: الآية ٢٦]

وأكثر الأحكام والخصومات ترد على القضاة، فإذا عرفوا الحق وحكموا بالعدل استحقّوا الثواب وسَلِموا من العقاب ووصلت الحقوق إلى أهلها واستقامت الأمور، وإذا حكموا بالجهل أو بالهوى فقد باؤوا بالخسران وضاعت الحقوق وانتصر الظلمة على المظلومين وانحلت الأمور وتفاقم الشر والفساد واختلت أحوال العباد.

والعدل أيضاً واجب في جميع المعاملات بين الناس، وهو أن تؤدِّي ما عليك كاملاً كما تطلبُ حقَّك كاملاً، فمتى بُنيت المعاملات على هذا الأصل تحسّنت المعاملات وتمت الثقة والتبادل العادل بين المتعاملين، فاتسعت دائرة الأسباب والتجارات والصناعات والحرف النافعة، ووثق المتعاملون بعضُهم ببعض، وقلّت الخصومات والمشاجرات وانحسم النزاع كله أو معظمه، وكل ذلك بسبب العدل.

ومتى كان الأمر بعكس هذه الحال، ورفع من المعاملات روح العدل وحل محله البخس والتطفيف، واستقصى الإنسان على حقه وإن أمكنه الزيادة فعل، وبخس الحق الذي عليه وغشّ وطفف، فمنع ما عليه وأخذ ما له: فويل للمطفِّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم. وويل لهم مما يترتب على البخس والتطفيف من العقوبات الدنيوية التي أولها نزع البركة ومحق الرزق وسوء المعاملة وتوقف كثير من المعاملات والأسباب النافعة.. كل معاملة فقدت روحها ــ وهو العدل ــ فهي معاملة ضارة غير نافعة، قال تعالى:

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ [سورة الأعراف: الآية ٨٥]
﴿ولاَ تَعْثَوْا في الأرض مُفْسدين﴾ [سورة البقرة: الآية ٦٠]

وقال ﷺ: (من غشنا فليس منا)، فالغش والمعاملات الجائرة الظالمة ليست من الدين، وصاحبها متعرض لعقوبة الله العاجلة والآجلة، قد سقط بين الناس شرفه واعتباره واتضحت سفالة أخلاقه وتبين خساره والعدل يكون في الحقوق الزوجية، فعلى كل واحد من الزوجين من الحقوق الشرعية العادلة للآخر ما يناسبه، فمتى قام كل منهما بما عليه التأمت الزوجية وتمّ للزوجين حياة سعيدة طيبة وحصلت الراحة والبركة ونشأت العائلة نشأة حميدة؛ ومتى لم يقم كل منهما بالحق الذي عليه تكدرت الحياة وتنغصت اللذات، وطال الخصام، وتعذر أو تعسّر الالتئام، واختلّت التربية النافعة وتضرر كل منهما في دينه ودنياه كما قال تعالى:

﴿وعاشِرُوهُنَّ بالمعروفِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٩]

وقال: ﴿وَلَهُنَّ مثلُ الذي عليهِنَّ بالمعروفِ﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٢٨]

وقال: ﴿الرجالُ قَوَّامونَ على النساءِ بما فَضَّل اللَّهُ بعضَهم على بعضٍ وبما أَنْفقوا من أمْوالِهم؛ فالصَّالحات قانِتاتٌ حافظاتٌ للغيبِ بما حَفِظَ اللَّهُ، واللاتي تخافونَ نُشُوزَهُنَّ فعِظُوهُنَّ واهجُرُوهُنَّ في المضاجِع واضرِبُوهن، فإِنْ أَطَعْنَكُم فلا تَبْغُوا عليهِنَّ سبيلاً﴾ [سورة النساء: الآية ٣٤]

فمدح الله الحافظة لنفسها؛ الحافظة لمال زوجها وما عليها من حقوق الله وحقوق الزوج، وذَمَّ من عكست القضية، وأباح لزوجها القائم بحقها تقويمَها بالأسهل فالأسهل بالوعظ النافع ثم بالهجر إن لم ينفع الوعظ ثم بالضرب الخفيف إن كان فيه نفع، وذلك كله بشرط أن يكون قائماً بحقها، فمتى أراد منها القيام بحقّه وهو مانع لحقِّها فإنه مطفف لا يمكن من تقويمها بالهجر

والضرب حتى يستقيم، والمقصود أن العدل بين الزوجين وقيام كل منهما بواجب الآخر فيه الخير العاجل والآجل، وفقد العدل فيه الضرر الحاضر والمستقبل.

وكذلك العدل في القيام بحقوق الأولاد والأقارب على اختلاف مراتبهم والقيام بصلتهم الواجبة والمستحَبَّة به تتم الصلة بين الأقارب والمنافع الدينية والدنيوية المتبادلة بينهم، وبذلك يكتسبون الشرف عند الله وعند الخلق، وبه تنظر هذه البيوت التي قامت على هذه الروح الطيبة بعين التعظيم وبه يتساعدون على مصالح الدين والدنيا؛ والقطيعة بعكس ذلك كله وذلك راجع إلى العدل وجوداً وعدماً قال ﷺ: (كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته، فالإمام راع على الناس وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته).

فذكر ﷺ الولايات كلها كبارها وصغارها؛ وأَنَّ كلَّ من تولى أي ولاية يكون مسؤولاً عن رعيته وعليه سلوك العدل المتعلق بتلك الولاية بحسبها، فإن كان قائماً بالعدل مؤدِّياً للحقوق فلْيُبْشِرْ بثواب الله، وإن كان مقصّراً مفرطاً أو متعدياً فلا بد أن يجازى على عمله الذي أضاع.

العدل به تقوم الولايات وتصلح الأفراد والجماعات وتمشي الأمور على الاستقامة في كل الحالات.

الفصل الثامن

في وجوب النصيحة وفوائدها

ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (الدِّين النصيحة (ثلاثاً)). قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: (لله ولكِتَابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم) ــ أخبر ﷺ خبراً متضمناً للحث على النصيحة والترغيب فيها، أن الدين كله منحصر في النصيحة، يعني ومَنْ قامَ بالنصيحة فقد قام بالدين وفسّره تفسيراً يزيل الإشكال ويعمُّ جميع الأحوال؛ وأن موضوع النصيحة خمسة أمور باستكمالها يكمل العبد:

أما النصيحة لله فهي القيام بحقّه وعبوديته التامة، وعبوديته تعم ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان كلها وأعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان من الفروض. والنوافل فعل المقدور منها ونية القيام بما يعجز عنه. قال تعالى في حق المعذورين:

﴿ليسَ على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرجِ حَرَجٌ ولا على المريض حَرَجٌ﴾ [سورة النور: الآية ٦١]

﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ [سورة التوبة: الآية ٩١]

فاشترط في نفي الحرج عن هؤلاء أن يكونوا ناصحين لله ورسوله، وذلك بالنيات الصادقة والقيام بالمقدور لهم.

ومن أعظم النصيحة لله الذبُّ عن الدين وتفنيدُ شُبَهِ المبطلين وشرح محاسن الدين الظاهرة والباطنة، فإن شرح محاسن الدين، وخصوصاً في هذه الأوقات التي طغت فيها الماديات وجرفت بزخارفها وبهرجتها أكثر البشر، وظنوا بعقولهم الفاسدة أنها هي الغاية ومنتهى الحسن والكمال، واستكبروا عن آيات الله وبيناته ودينه، ولم يخطر بقلوب أكثرهم أن محاسن الدين الإسلامي فاقت بكمالها وجمالها وجلالها كلَّ شيء، وأنَّ محاسن غيرها إن

فرض فيه محاسن فإنه يتلاشى ويضمحل إذا قيس بنور الدين وعظمته وبهائه، وإنه الطريق الوحيد إلى صلاح البشر وسعادتهم، ومحال أن تحصل السعادة بدونه.

أما سعادة الدين فواضح لكل أحد منصف، وأما سعادة الدنيا فإن الأمور المادية المحضة إذا خلت من روح الدين فإنها شقاء على أهلها ودمار، والمشاهدة أكبر شاهد على هذا، فإن أمور المادة قد ارتقت في هذه الأوقات ارتقاء هائلاً يعجز الفصيح عن التعبير عنه، ومع ذلك فهل عاش هؤلاء مع أنفسهم ومع غيرهم ومع بقية الأمم عيشة سعيدة هنيئة طيبة؟ أم الأمر بالعكس؟ ما يخرجون من طامّة إلَّا تَلَقَّتْهم طامة أكبر منها، ولا خَلُصوا من كوارث وعذاب إلّا دخلوا في عذاب أفظع منه، ولا والله ينجيهم من هذا غير الدين الصحيح، وسيعلمون ويعلم غيرهم عواقبهم الوخيمة.

وأما النصيحة لكتاب الله فهي الإقبال بالكلية على تلاوته وتدبُّره وتعلم معانيه وتعليمها، والتخلق بأخلاقه وآدابه والعمل بأحكامه واجتناب نواهيه والدعوة إلى ذلك.

وأما النصيحة للرسول محمد ﷺ فهو الإيمان الكامل به وتعظيمه وتوقيره وتقديم محبته واتباعه على الخلق كلهم، وتحقيق ذلك وتصديقه باتباعه ظاهراً وباطناً في العقائد والأخلاق والأعمال؛ قال تعالى:

﴿قُلْ إنْ كُنتم تُحبّون الله فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

[سورة آل عمران: الآية ٣١]

والحرص على تعلم سنته وتعليمها واستخراج معانيها وفوائدها الجليلة وهي شقيقة الكتاب، قال تعالى:

﴿وأنزلَ اللَّهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٣]

وجملة ما تقدم أن النصيحة لله ورسوله هي الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله، وهذا يَعُمُّ كل ما تقدم.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين، وهم ولاتُهم من السلطان الأعظم إلى الأمير إلى القاضي إلى جميع من لهم ولاية صغيرة أو كبيرة، فهؤلاء لما كانت مهماتهم وواجباتهم أعظمَ من غيرهم وجب لهم من النصيحة بحسب مراتبهم ومقاماتهم، وذلك باعتقاد إمامتهم والاعتراف بولايتهم ووجوبِ طاعتهم بالمعروف وعدمِ الخروج عليهم وحثِ الرعية على طاعتهم ولزومِ أمرهم الذي لا يخالف أمر الله ورسوله، وبذلِ ما يستطيع الإنسان من نصيحتهم وتوضيحِ ما خفي عليهم مما يحتاجون إليه في رعايتهم، كل أحد بحسب حاله والدعاءِ لهم بالصلاح والتوفيق، فإن صلاحهم صلاح لرعيتهم واجتنابُ سبِّهم والقدحِ فيهم وإشاعةِ مثالبهم، فإن في ذلك شرًّا وضرراً وفساداً كبيراً، فمن نصيحتهم الحذر والتحذير من ذلك، وعلى من رأى منهم ما لا يحل أن ينبههم سرًّا لا علناً بلطف وعبارة تليق بالمقام ويحصل بها المقصود، فإن هذا مطلوب في حق كل أحد، وبالأخص ولاة الأمور فإن تنبيههم على هذا الوجه فيه خير كثير، وذلك علامة الصدق والإخلاص؛ واحذر أيها الناصح لهم على هذا الوجه المحمود أن تفسد نصيحتك بالتمدح عند الناس فتقول لهم: إني نصحتهم وقلت وقلت، فإن هذا عنوان الرياء وعلامة ضعف الإخلاص، وفيه أضرار أُخَرُ معروفة.

وأما النصيحة لعامة المسلمين فقد وضحها النبي ﷺ بقوله: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه)، وذلك بمحبة الخير لهم والسعي في إيصاله إليهم بحسب الإمكان، وكراهة الشر والمكروه لهم، والسعي في دفع ذلك ودفع أسبابه، وتعليم جاهلهم ووعظ غافلهم ونصحهم في أمور دينهم ودنياهم وكل ما تحب أن يفعلوه معك من الإحسان فافعله معهم، ومعاونتهم على البر والتقوى، ومساعدتهم على كل ما يحتاجونه، فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه المسلم، وهذه الأمور كلها بحسب القدرة، قال تعالى:

﴿فاتَّقُوا اللَّهَ ما آسْتَطَعْتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

فعلمت مما تقدم أن الأمر كما ذكره ﷺ: أن النصيحة تشمل الدين كله أصوله وفروعه، حقوق الله وحقوق رسوله، وحقوق الخلق كلهم، أهل الحقوق العامة والخاصة، فمن قام بالنصيحة على هذا الوجه فقد قام بالدين، ومن أخل بشيء مما تقدم، فقد ضيّع من دينه بقدر ما ترك، فأين النصيحةُ ممن تهاون بحقوق ربه فضيعها، وعلى محارمه فتجرأ عليها؟ وأين النصيحة ممن قَدَّمَ قولَ غير الرسول على قوله، وآثر طاعة المخلوق على طاعة الله ورسوله؟ وأين النصيحة من أهل الخيانات والغش في المعاملات، وأين النصيحة ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وممن يتبعون عورات المسلمين وعثراتهم؟ أين النصيحة من أهل المكر والخداع، وأين النصيحة فِيمَنْ يسعى في تفريق المسلمين وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم؟ وأين النصيحة ممن يتملّقون عند اللقاء بالمدح والثناء ويقولون خلاف ذلك في الغيبة عند الأعداء وعند الأصدقاء؟ وأين النصيحة ممن لا يحترم أعراض المسلمين ولا يرقب فيهم إلًّا ولا ذِمة؟ وأين النصيحة من المتكبرين على الحق والمستكبرين على الخلق المعجبين بأنفسهم المحتقرين لغيرهم؟ فهؤلاء كلهم عن النصيحة بمعزل، ومنزلهم فيها أبعدُ منزل، وكل هؤلاء قد اختل إيمانهم واستحقوا العقوبات المتنوعة وحُرِموا من الخير الذي رُتِّب على النصح، حُرِموا من الأخلاق الفاضلة وابتُلُوا بالأخلاق السافلة، أولئك هم الخاسرون.

طوبى للناصحين حقيقة ما أعظم توفيقهم وما أهدى طريقهم. لا تجد الناصح إلّا مشتغلاً بفرض يؤديه، وفي جهاد نفسه عن محارم ربه ونواهيه، وفي دعوة غيره إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي التخلق بالأخلاق الجميلة والآداب المستحسنة، إن رأى من أخيه خيراً أذاعه ونشره، وإن اطلع منه على عيب كتمه وستره، إن عاملْتَه وجدته ناصحاً صدوقاً، وإن صاحبْتَه رأيته قائماً بحقوق الصحبة على التمام، مأموناً في السر والعلانية، مباركاً على الجليس كحامل المسك، إما أن يحذيك أو تجد منه رائحة طيبة

إذا وجدت الناصح فاغتنم صحبته، وإذا تشابهت عليك المسالك فاستعن بمشاورته، جاهد نفسك على التخلق بخلق النصح تجد حلاوة الإيمان وتكون من أولياء الرحمن أهل البر والإحسان، لو اطلعت على ضمير الناصح لوجدته ممتلئاً نوراً وأمناً ورحمة وشفقة، ولو شاهدت أفكاره لرأيتها تدور حول مصالح المسلمين مجملة ومفصلة، ولو تأملت أعماله وأقواله لرأيتها كلها صريحة متفقة. أولئك السادة الأخيار وأولئك الصفوة الأبرار؛ لقد نالوا الخير الكثير بالنيات الصالحة والعمل اليسير.

الفصل التاسع

في فوائد الشجاعة وذم الجبن والتهور

حقيقة الشجاعة هي الصبر والثبات والإقدام على الأمور النافع تحصيلها أو دفعها، وتكون في الأقوال وفي الأفعال، فأصلها في القلب وهو ثباته وقوته وسكونه عند المهمات والمخاوف، وثمرته الإقدام في الأقوال والأفعال وعند القلق والاضطراب، وكماله وزينته أن يكون موافقاً للحكمة، فإنه إذا زاد عن حدّ الحكمة خشي أن يكون تهوراً وسفهاً وإلقاءً باليد إلى التهلكة، وذلك مؤموم. كما يذم الجبن، فالشجاعة خلق فاضل متوسط بين خلقين رذيلين، وهما الجبن والتهور.

والشجاعة خلق نفسي، ولكن له مواد تمده، فأعظم ما يمده وينمّيه الإيمان وقوة التوكل على الله وكمال الثقة بالله، وعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ ويمده أيضاً الإكثار من ذكر الله والثناء عليه؛ قال تعالى:

﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا لَقِيتُم فئةً فاثبُتُوا وآذْكُروا اللَّهَ كثيراً لعلَّكم تفلحون﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٥]

فمتى قوي إيمان العبد بالله وبقضائه وقدره وقوي يقينُه بالثواب والعقاب، وتمَّ توكُّله على الله وثقته بكفاية الله، وعلم أن الخلق لا يضرّون ولا ينفعون، وأن نواصِيَهم بيد الله، وعَلِمَ الآثار الجليلة الناشئة عن الشجاعة، متى تمكنت هذه المعارف من قلبه قوي قلبه واطمأن فؤاده وأقدم على كل قول وفعل ينفع الإقدام عليه؛ ولا بد لمن كانت هذه حاله أن يُمِدَّه الله بمدد من عنده لا يدركه العبد بحوله ولا قوته، فإن مَنْ كان الله معه فلا خوف عليه؛ ومن كان الله معه هانت عليه المصاعب ودفع الله عنه المكاره قال الله تعالى:

﴿كَمْ مِنْ فئةٍ قليلةٍ غَلَبت فئةً كثيرةً بإذنِ اللَّهِ واللَّهُ مع الصابرين﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٤٩]

انظر إلى حالة نبينا صلوات الله وسلامه عليه وقد أحاطت به المخاوف المزعجة وهو في الغار، والأعداء منتشرون في طلبه، ويقول له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله لو نظر أحدهم موضع قدميه لأبصرنا؛ فقال: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما، مطمئناً ثابتاً غير مبال ولا قلق، يقول الله عنه في تلك الحال:

﴿إلاَّ تَنصرُوه فقدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إذْ أَخْرجه الذين كفروا ثانِيَ اثْنين إذْ هُما في الغارِ إذْ يقولُ لصاحبه لا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ معنا، فأنزلَ اللَّهُ سكينَتَه عليه﴾

[سورة التوبة: الآية ٤٠]

وانظر إلى جميع مقاماته في الدعوة وجهاد الأعداء، وهو صادع بأمر الله معلِنٌ بدعوته للقريب والبعيد والعدو والصديق، لا تصدُّه معارضة الأعداء ولا قلة الأنصار والأولياء، لم يفتر ولم يضعف، ولم يَنِ ولم يَخَفْ مخلوقاً، ولم يُثْنه خذلانُ الخاذلين، ولا لومُ اللائمين، بل ثبت على الدعوة والجهاد المستمر، أعظم من ثبوت الرواسي وهو مع ذلك مطمئن الضمير ثابت الجأش، واثقاً بوعد الله؛ مستبشراً بنصر الله، حتى أنجز الله له ما وعده، وأكمل دينَه وأعزَّ جنده وهزم أعداءه وجعل له العاقبة الحميدة، وتبعه على ذلك خلفاؤه

وأصحابه، فمضوا على ما مضى عليه نبيهم بإيمان ويقين، وثبات كامل وقوة في الدين، حتى فتحوا الأمصار ودانت لَهم الأقطار، وأظهر الله بهم الدين، وأتم نعمته على المؤمنين.

والله ما أدركوا ذلك بكثرة عدد ولا قوة عُدد؛ كيف وأقل دولة في ذلك الوقت وأضعفها تَلْتَهِمُ العربَ كلَّهم التهاماً، إنما أدركوا ذلك بقوة الإيمان واليقين، وبعدّة الشجاعة الإيمانية المؤيدة بالثقة بنصر رب العالمين وبإعداد المستطاع من القوة المعنوية والمادية للأعداء، وبالصبر العظيم في مواطن اللقاء، وبالنصر الرباني.

ويمد هذا الخلق الفاضل أيضاً التمرين، فإن الشجاعة وإن كانت في القلب فإنها تحتاج إلى تدريب النفس على الإقدام وعلى التكلم بما في النفس وإلقاء المقالات والخطب في المحافل، فمن مَرَّنَ نفسه على ذلك لم يزل به الأمر حتى يكون ملكة له، وزالت هيبة الخلق من قلبه فلا يبالي، ألقى الخطب والمقالات في المحافل الصغار والكبار على العظماء وغيرهم ــ وكذلك تمرين النفس على مقارعة الأعداء ولقائهم والجسارة في ميادين القتال، تقوى به النفس والقلب، فلا يزال به الأمر حتى لا يبالي بلقاء الأعداء، ولا تزعجه المخاوف، وقد حثّ الله على هذا الدواء النافع بقوله:

﴿يا أيها الذين آمنوا آصبِروا وصابِروا ورابطوا وآتَّقوا الله لعلَّكُم تُفلحون﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٠٠]

﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٦]

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لِقَيتم فئةً فاثبُتُوا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٥]

وأثنى على المتصفين بهذا الوصف الجليل في قوله:

﴿الذين قال لهم الناسُ إنَّ الناسَ قد جَمَعُوا لَكُم فَآخْشَوْهُم، فزادَهُم إيماناً وقالُوا حَسْبُنا اللَّهُ ونِعمَ الوكيلُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٣]

فهكذا يكون حال الرجال، لا كمن خلـع الرعب قلوبَهم، وصار خوفُ الخلق عندهم أعظمَ من خوف الخالق؛ قال تعالى في وصف هؤلاء:

﴿يَحْسَبُون كُلَّ صيحةٍ عليهم﴾ [سورة المنافقون: الآية ٤]

﴿يحسَبُون الأحزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وإنْ يأتِ الأحزابُ يَوَدُّوا لَوْ أنهم بادُونَ في الأَعرابِ يسألونَ عن أنبائِكم، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلّا قليلاً﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٢٠]

﴿أشحةً عليكم فإذا جاء الخوفُ رأيتَهُم ينظرون إليك تدورُ أعينُهم كالذي يُغشى عليه من الموتِ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حِدَادٍ﴾

[سورة الأحزاب: الآية ١٩]

واعلم أن الشجاعة المحمودة إذا كان المقصود بها نصرَ الحق وردَّ الباطل وتحصيل المنافـع العامة والمصالـح المشتركة، فأما إذا كانت في حظوظ النفس الدنيئة، لا في حقوق الله وحقوق الخلق فإنها ذميمة، ولهذا تجد هذا الصنف من الناس، يقاتل أشد القتال في الخصام على أقل قليل من أمور الدنيا، فأمّا في الأمور النافعة فإنه في غاية الجبن عنها والاهتمام بشأنها، وسبب ذلك ضعف الوازع الديني وقوة وازع الشهوة البهيمية والسبعية فهؤلاء هم الأرذلون.

ومما يمد هذا الخلق الجليل الإخلاص لله وعدم مراءاة الخلق، فإن المخلِصَ الذي لا يريد إلّا وجه الله وثوابه لا يبالي بلوم اللائمين إذا كان في ذلك رضا لرب العالمين، فيُقْدِم على قول الحق غير مبال بانتقاد من انتقده في موضوعه أو لفظه أو فصاحته أو عدمها، لا يعد المدح من الناس شيئاً في جانب قيامه بالحق.

أما المرائي المتزيِّن للناس، الواقف في همته على مدحهم وذمهم، فما أسرع خَوَرَهُ في المقامات الرهيبة، وما أعظمَ هلعَه وهيبته إذا رماه الناس بأبصارهم، وما أقل ثبوته عند اعتراض المعترضين وذمِّ الذامِّين، والسبب في

هذا أنه جعل تعظيم الخلق ومدحهم وثناءهم نصب عينيه وقبلة قلبه، وهو غايَتُه التي يطلب، ومعلوم أن من كانت هذه حاله أن أقواله وأفعاله تقع على هذا النحو الذي ينحو، والطريقة التي إليها يصبو، ومع ذلك لو قام في مقامٍ من مقاماته الوضيعة، لكانت أقواله وأفعاله قليلة البركة، غير مأمون من ثبوته عليها، ولو تأملت الغاية التي يسعى إليها، وهي إرادة تعظيم الخلق لوجدت هذا التعظيم أو الثناء إذا فرض وجوده نفاقاً وتزيناً واتباعاً للأغراض المتنوعة، فما أسرع ما ينقطع ويتبدل بضده.

أما المخلص لله القاصد لوجهه الذي غرضُه نفعُ عباد الله، فإن الله يجعل في أعماله وكلامه الخير والبركة، ولو قدر أن يعترضه في هذا الطريق لوم اللائمين وطعنهم، فيا سرعان ما يزول، فأما الزَّبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كل عمل لغير الله فهو مضمَحِلّ باطل، وكل سعي لله ولنفع الخلق فإنه باقٍ ونفعه متواصل، ما أخسر المرائين، وما أسوأ حظ المتشبعين بالبهرج المتزينين، وما أعظم حظ المخلصين، وما أعظم درجاتهم عند رب العالمين.

الإخلاص والتوكل والشجاعة أخلاقٌ متلازمة يُمِدُّ بعضُها بعضاً، ويستعين بعضها ببعض، وصاحبها في علو مطرد، وأضدادها بالعكس. كم بَينَ مَنْ هِمَّتُهُ الكبرى دائرة حول مراضي الله، والسعي في نفع عباد الله واستحلاء المشاقّ في هذا السبيل، وبَينَ مَنْ هِمَّتُه الدنيئة حول الأمور الدنيئة، وغايته التقرب إلى الخلق والتزين لهم، قال تعالى:

﴿هَلْ يستوي الأعمى والبصيرُ أَمْ هَلْ تَستَوِي الظُّلماتُ والنورُ﴾؟

[سورة الرعد: الآية ١٦]

الفصل العاشر

في فوائد الرحمة والشفقة على الخلق

كم في كتاب الله من الآيات، وكم في السُّنَّة من النصوص المحكمات التي فيها الحث على الرحمة والشفقة على الخلق، صغيرهم وكبيرهم، وغنيهم وفقيرهم، قريبهم وبعيدهم، بَرِّهِمْ وفاجِرِهم، بل وعلى جميع أجناس الحيوان؛ وكم فيها من الترغيب في الإحسان، وأن الراحمين يرحمهم الرحمن والمحسنين يحسن إليهم الديَّان، وأن الله كتب الإحسان على كل شيء حتى في إزهاق النفس من الإنسان والحيوان، وشرع الله كل رحمة وحكمة وبِرٍّ وفضل وامتنان، لقد وسعت رحمة الله كل شيء، وأمر بإيصال المنافع إلى كل حي.. أَمَا أمر بإعطاء المحتاجين وحثَّ على إزالة الضرر عن المضطرين، وعلى الحنو على الصغار والكبار وجميع العالمين؟ أَمَا قال ﷺ مرغباً غاية الترغيب في الإحسان: (ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم من في السماء)؟ وقال: (إنَّ اللَّهَ كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحة، وليحدَّ أحدُكم شفرته وليرح ذبيحته).

أَمَا نَدَبَك أن تعفُوَ عمَّن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتحسن إلى من أساء إليك؟ وقال:

﴿ولا تستوي الحسنةُ ولا السيِّئةُ آدفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينَك وبينَه عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميم. وما يُلقَّاها إلاّ الذي صبروا وما يُلقَّاها إلاّ ذو حظٍّ عظيم﴾ [سورة فُصِّلَت: الآيتان ٣٤، ٣٥]

أَمَا أباح للمظلوم أن يأخذ حقَّه بالعدل، ونَدَبه إلى طريق الإحسان والفضل فقال:

﴿وإنْ عاقَبْتُم فعاقِبوا بمثلِ ما عُوقِبتم به، وَلَئِن صبرتُم لَهُوَ خيرٌ للصابرين﴾ [سورة النَّحل: الآية ١٢٦]

﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها فمنْ عَفَا وأَصلحَ فأَجرُهُ على الله﴾
[سورة الشورى: الآية ٤٠]

أَمَا أَمَرَ اللَّهُ بشكر نِعَمه المتنوعة، وجعل من أجلّ شكره الإحسانَ إلى الخلق؛ قال بعد ما ذكر مِنّته على نبيه بشرح صدره وَوَضْعِ وِزْره ورفع ذكره:

﴿فأمّا اليتيمَ فلا تَقْهر. وأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ. وأَمَّا بنعمةِ ربِّك فحدِّثْ﴾
[سورة الضحى: الآيات ٩ ــ ١١]

أما حث المتعاملين على أعلى المناهج فقال:

﴿ولاَ تَنْسَوُا الفضلَ بينكم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٧]

وهو البذل والسماح في المعاملة. أَمَا شَرَح عقوبة العاصين، وقمع المجرمين المفسدين بالعقوبات المناسبة لجرائمهم رحمة بهم وبغيرهم ليطهرهم، ولئلا يعودوا إلى ما يضرهم وردْعاً لغيرهم، ولهذا قال في عقوبة القتل الذي هو أكبر الجرائم:

﴿ولَكُمْ في القصاص حياةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٩]

وقال بعدما شرع قطع أيدي السارقين صيانة للأموال:

﴿جزاءً بما كَسَبا نَكَالاً مِنَ الله﴾ [سورة المائدة: الآية ٣٨]

فالشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفروعها، وفي الأمر بأداء حقوق الله وحقوق الخلق، فإن الله لم يكلِّفْ نفساً إلاّ وُسعها، وقال:

﴿يُريدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسرَ ولاَ يُريدُ بِكُمُ العُسْر﴾
[سورة البقرة: الآية ١٨٥]

ولمّا ذَكر أحوال الطهارة وتفاصيلها قال:

﴿ما يُريدُ اللَّهُ لِيجعَلَ عليكُمْ مِنْ حَرَجٍ، ولـكِنْ يُريدُ لِيُطهِّركُم، وَلِيُتمَّ نِعمتَه عليكم لعلَّكم تَشْكُرون﴾ [سورة المائدة: الآية ٦]

وإذا تدبَّرْتَ ما شَرَعه في المعاملات والحقوق الزوجية وحقوق الوالدين والقرابة، وجدتَّ ذلك كله خيراً وبركة، لتقوم مصالح العباد وتتم الحياة الطيبة، وتزولَ شرورٌ كثيرة، لولا القيام بهذه الحقوق لم يكن عنها محيص، ثم من رحمة الله بالجميع أن من أخلص عمله منهم ونوى القيام بما عليه من واجبات ومستحبَّات كان قُرْبةً له إلى الله، وزيادة خير وأجر، وكان له ثواب ما كسب وأنفق وقام به من تلك الحقوق، قال ﷺ: (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجهَ الله إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعله في في امرأتك) فإذا كان هذا في القيام بمؤونة الجسد وتربيته، فما ظنك بثواب القيام بالتربية القلبية بتعليم العلوم النافعة والأخلاق العالية؟ فهذا أعظم أجر وثواب قال ﷺ: (لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم).

وأفضل ما نحل والد ولده أدب حسن، وكذلك رحم الله المعلمين والمتعلمين للعلوم النافعة الدينية وما أعان عليها، فالمعلمون جعل نفس تعليمهم أجلَّ الطاعات وأفضلَها، ثم ما يترتب على تعليمهم من انتفاع المتعلمين بعلمهم، ثم تسلسل هذا النفع فيمن يعلمونه ويتعلم ممن علموه مباشرة أو بواسطة، فكلُّ هذا خيرٌ وحسنات جارية للمعلمين، ونفع مستمر في الحياة وبعد الممات، قال ﷺ: (إذا مات العبد انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به من بعده، أو ولد صالح يدعو له)، وكذلك رحم الله المتعلمين، حيث قيض لهم من يعلِّمهم ما يحتاجونه في أمور دنياهم ودينهم، ويصبر على مشقة ذلك، ولهذا وجب عليهم أن يكافئوا المعلِّمين بالقيام بحقوقهم ومحبتهم واحترامهم وكثرة الدعاء لهم، وعلى الجميع أن يشكروا الله بما قيض لهم ويَسَّر من الأسباب النافعة التي توصلهم إلى السعادة.

ومن رحمة هذه الشريعة توصيتها وحثُّها على الإحسان إلى اليتامى والمضطرين والبائسين والعاجزين والحنوّ عليهم والقيام بمهامهم وإعانتهم

بحسب الإمكان؛ وأوصى الله ورسوله بالمماليك من الآدميين والحيوانات أن يقام بكفايتهم ومصالحهم، وأن لا يكلفوا من العمل ما لا يطيقون؛ ففي هذا رحمة للمماليك والبهائم، ورحمة أيضاً للملاك والسادة من وجهين:

أحدهما: أن قيامهم بما يملكون هو عين مصلحتهم ونفعه عائد عليهم فإنهم إذا قصروا عاد النقص والضرر الدنيوي على الملاك، ولهذا كثير من الملاك لولا هذا الوازع الطبيعي النفعي لأهملوا مماليكهم وبهائمهم، ولكن المصلحة الدنيوية وخوف الضرر على أنفسهم ألجأتهم إلى ذلك رحمة من الله وجوداً وكرماً.

الوجه الثاني: أن الملاك إذا احتسبوا في نفقاتهم على ما يملكون ونووا القيام بالواجب ورحمة المملوك والبهيمة، أثابهم الله وكفر به من سيئاتهم وزاد في حسناتهم، وأنزل لهم البركة في هذه المماليك، فإن كل شيء دخلته النية الصالحة والتقرُّبُ إلى الله لا بد أن تحِلَّ فيه البركة، كما أن من أهمل مماليكه وبهائمه، وترك القيام بحقهم استحق العقاب، ومن جملة ما يعاقب به أن ينزع البركة منها، فكما حبس وقطع رزق من يملكه، قطع الله عنه من الرزق جزاءً على عمله، وهذا مشاهد بالتجربة، وكل هذا من آثار الرحمة التي اشتملت عليها الشريعة الكاملة، ولهذا من آوى إلى ظلها الظليل فهو المرحوم، ومن خرج عنها فهو الشقي المحروم.

لقد وسِعت هذه الشريعة برحمتها وعدلها العدوَّ والصديق، ولقد لجأ إلى حصنها الحصين كلُّ موفق رشيد، ولقد قامت البراهين أنها من أكبر الأدلة على أنها من عند العزيز الحميد، كيف لا يكون ذلك وأكبر من ذلك وقد شَرَعها البَرُّ الرَّحيم، العليمُ الكريم؛ الرؤوفُ الجوادُ ذو الفضل العظيم، شَرَعها الذي هو أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها، بل رحمة جميع الوالدين وحنانهم جزء يسير جدّاً جدّاً جدّاً من رحمة الله الذي أنزل بين عباده رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة؛ فبها تتراحم الخليقة كلها، حتى

أن البهائم والسباع الضارية لتعطف على أولادها وتحنو عليهم حنواً لا يمكن وصفه، فلا يمكن الواصفين أن يعبروا عن جزء يسير جدّاً من رحمة الله التي بثّها ونشرها على العباد، فتبّاً لمن خرج عن رحمة الله التي وسعت كل شيء، وزهد بشريعته، واستبدل عن هذا المورد السلسبيل بالمر الزعاف والعذاب الوبيل.

طوبَى لِمنْ كان له حظ وافر من رحمة الله. ويا سعادة من اغتبط بكرم الله وسلك كل سبيل ووسيلة توصله إلى الله علماً وعملاً، وإرشاداً ونصحاً، ودعوة وإحساناً إلى عباد الله، فإنه تعالى لما ذكر أن رحمته وسعت كل شيء؛ ذكر أهل الرحمة الخاصة المتصلة بالسعادة الأبدية والنعيم السرمدي فقال:

﴿ورحمتي وَسِعت كلَّ شيءٍ فَسأَكْتُبها للذين يتَّقونَ ويُؤتونَ الزَكاةَ والذينَ هُم بآياتنا يُؤْمنون. الذين يتَّبعونَ الرسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٥٦]

وقال: **﴿وأطيعوا اللَّهَ والرسولَ لعلَّكم تُرحمون﴾**

[سورة آل عمران: الآية ١٣٢]

فذكر تعالى الطرق العظيمة الكلية التي تنال بها رحمة الله والرسول؛ وتفاصيل هذه الأمور هو القيام بجميع الدين، أصوله وفروعه، وأعمال القلوب والجوارح وقول اللسان، فمن لم يقم بهذه الأصول لن يكون له نصيب من هذه الرحمة الخالصة المتصلة بسعادة الأبد، وعلى قدر اتصافه وقيامه بهذه الأمور يكون له نصيب من هذه الرحمة، فكما أنه تعالى واسع الرحمة فإنه شامل الحكمة، ومن حكمته أن الأمور متعلقة بأسبابها وطرقها، والأسباب ومسبباتها كلها من رحمة الله. قال ﷺ: (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله). قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا، إلّا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل). متفق عليه. وقال: (اعملوا فكل مُيَسَّر لما خلق له)؛ ولهذا على العبد أن يشكر الله على الخير والثواب، ويشكره على التوفيق لمعرفة الأسباب وسلوكها التي رتب عليها الثواب؛ قال تعالى عن أهل الجنة:

﴿الحمدُ للَّهِ الذي هدانا لِهٰـذا وما كُنَّا لنَهْتَدِيَ لَولاَ أنْ هدانا الله﴾
[سورة الأعراف: الآية ٤٣]

وفي الحديث الصحيح يقول الله: (يا عبادي كلُّكم ضالّ إلَّا من هديتُه، فاستهدوني أَهْدِكم). وهذا يشمل الهداية العلمية والهداية العملية، وقد أمرنا الله أن ندعو في كل ركعة من ركعات الصلاة بحصول هاتين الهدايتين في قوله:

﴿آهدِنا الصِّراطَ المستقيم. صِراطَ الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ آمين [سورة الفاتحة: الآيتان ٦، ٧]

الفصل الحادي عشر

في حثّ الشارع على الائتلاف والاتفاق. ونهيِه عن التعادي والافتراق.

قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبلِ اللَّهِ جميعاً ولا تَفرَّقُوا واذكروا نعمةَ اللَّهِ عليكمْ إذْ كنتمْ أعداءً فألَّف بين قلوبِكم فأصبحتُم بنعمته إخواناً، وكنتمْ على شَفَا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٣]

وقال ﷺ: (لا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه). متفق عليه، وفي الكتاب والسنّة من الحث على هذا الأصل نصوص كثيرة. يأمر بكل ما يقوّي الألفة ويزيد في المحبة، ويدفع العداوة والبغضاء، وما ذاك إلا لِمَا في الاجتماع والاتفاق من الخير الكثير والثمرات الجليلة والبركة والقوة، ولما في ضده من ضد ذلك. قال تعالى:

﴿ولا تَنازَعوا فَتَفْشَلُوا وتذهَبَ ريْحكُم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٤٦]

يعني تخلوا وتذهب روحكم الحقيقة ومعنويتكم النافعة، وقد جمع الله في هذه الآية الأمر بالسعي لتحصيل القوة المعنوية بالإيمان والثبات، والصبر والاجتماع وعدم التنازع والتفرق، وبالقوة المعنوية أيضاً والمادية في قوله:

﴿وأَعِدُّوا لَهم ما ٱسْتَطَعْتُمْ من قُوةٍ ومن رِباطِ الخَيلِ تُرْهِبُون به عَدُوَّ الله وعدوَّكم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

فمتى امتثل المسلمون أمر الله فسعوا في حصول الاتفاق وإزالة العداوات وأسبابها، وكانوا يداً واحدة في السعي في مصالحهم المشتركة ومقاومة الأعداء، وبتحصيل القوة المادية بكل مقدور ومستطاع، وكان أمرهم شورى بينهم، متى عملوا على ذلك كلِّه حصل لهم قوة عظيمة يستدفعون بها الأعداء ويستجلبون بها المصالح والمنافع، وعاد صلاح ذلك إلى دينهم وجماعاتهم وأفرادهم، ولم يزالوا في رقي مطّرد في دينهم ودنياهم، ومتى أخلُّوا بما أمرهم به دينهم عاد الضرر العظيم عليهم فلا يلوموا إلا أنفسهم، وقد وعد الله العز والنصر لمن قاموا بالتقوى واعتصموا بحبله وتمسكوا بدينه، وأخبر أن هذا دين جميع المرسلين قال:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين ما وَصَّى به نوحاً، والذي أوحَيْنا إليكَ وَمَا وصَّيْنا به إبراهيمَ ومُوسى وعيسى أَنْ أَقِيمُوا الدينَ ولا تَتَفَرَّقوا فيه﴾
[سورة الشورى: الآية ١٣]

وقال: ﴿وَلَا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلَفوا مِنْ بَعدِ ما جاءَهُمُ البيِّنات﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٠٥]

أيها المسلمون: عليكم بلزوم ما حثَّكم عليه دينُكم من المحبة والائتلاف، وإيَّاكُمْ والتفرق والاختلاف، عليكم بعمل جميع الأسباب المقربة للقلوب، وإياكم والعداوات والضغائن التي لا تكسب إلّا شرًّا، احذروا سماسرة الأعداء الذين يلقون بين المسلمين بذور العداوة والشقاق ويدَّعون أنهم مسلمون، وإنما هو غلٌّ ونفاق. المسلم هو الذي يسعى في جمع كلمة

المسلمين واتفاقهم، ويحذر غاية التحذير من تدابرهم وافتراقهم، ما طمع الأعداء وتسلطوا إلاّ بسلاح الفرقة الفتاك، ولا استعمروا أقطاركم وسيطروا على مصالحكم إلا بعدما انحلت معنويتكم التي هي الحصن الحصين، الواقية من الوقوع في الأشراك.

يا أيها المسلمون: قُوْا أنفسَكم وقومَكم مصارعَ الهلاك، وتسابقوا إلى استنقاذهم من هوة الدمار. أَمَا علمتم أن الأعداء إذ كنتم يداً واحدة ينظرون إليكم نظر التعظيم والرهبة والإكبار، فما زالوا يلقون بينكم الشقاق والفرقة، ويضربون بعضكم ببعض حتى قضوا على معظم مقوِّماتكم وما بقي إلاّ رمق حياة، إن أنتم عالجتموها وسعيتم في تنميتها وتقويتها رُجِيَت لكم السلامة والأمن على مستقبلكم، وقد آن الأوان للجد وشد المئزر والتعاضد بين المسلمين وبين حكوماتهم وجماعاتهم على وجه الحكمة ورعاية المصلحة، فقد وَقَفوا على الداء، وعرفوا كيفية الطريق إلى العلاج والدواء، وقد تقارب ما بين حكومات المسلمين، واضطرتهم الأحوال إلى انضمام بعضهم إلى بعض، وعرفوا أن هذا هو الطريق الوحيد لعزهم ونرجو الله أن يوفقهم للعمل الناجح والسعي النافع.

أيها المسلمون: أنتم الآن في مفترق الطرق بين الأمم، فإمّا تمسُّكٌ بدينكم واجتماعٌ به يحصل الفلاح، وإما إعراضٌ وتفكُّكٌ لا يُرجَى بعده عز ولا نجاح.

أيها المسلمون: قوموا لله، واعتصموا بحبل الله، واطمعوا واثقين بنصر الله؛ فالله مع الصابرين المتقين، وهو المولى فنعم المولى ونعم النصير. طوبى للرجال المخلصين، وَوَاشوقاً إلى الألباء الصادقين، الذين ينهضون همم المسلمين في أقوالهم وأفعالهم، ويحذرون مسالك الشر في كل أحوالهم يسعون في تقريب القلوب، ويجاهدون أحق الجهاد في هذا السبيل، دأبُهم القيامُ بدين الله، والنصيحةُ لعباد الله، كل امرىء منهم بحسب مقدوره، هذا

بتعليمه وكلامه، وهذا بوعظه وإرشاده، وهذا بقوته وماله. وهـذا بجاهـه وتوجيهه إلى السبيل النافـع، قد تعددت طرقهم، واتفقت مقاصدهم. أولئك هم المفلحون.

الفصل الثاني عشر

في الحثِّ على المشاورة في كل الأمور

قال تعالى مخبراً عن المؤمنين مثنياً عليهم:

﴿وأمرُهُم شُورى بينهم﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨]

وهذا يشمل جميـع أمورهم الدينية والدنيوية، الداخلية والخارجية، العامة والخاصة، وأمر رسول الله ﷺ مـع كمال عقله وسداد رأيه وعلو مكانته فقال:

﴿وشاوِرْهم في الأمر﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وكان ﷺ يشاور أصحابه في كل ما يحتاج إلى المشاورة من دقيق وجليل، ويأخذ برأيهم المصيب، وربما ابتدأوه بالرأي الذي يرونه فيرجـع إليه إذا اتضـح له صوابُه، وإنما كانت المشاورة لها هذا المقام الجليل لما يترتب عليها من المصالـح الكلية العامة في الشؤون الدينية والشؤون الدنيوية وأمور السياسة وتوابعها.

فمن فوائد المشاورة امتثال أمر الله ورسوله، فإن طاعة الله ورسوله خير وسعادة، ولو فرض أننا لم نشعر بفائدتها، بل هذه الفائدة أعظم الفوائـد وأساسها.

ومن فوائدها أنها تقوِّي الألفة بين المسلمين، وتـوثِّق الروابط بين المتشاورين جماعات أو أفراداً، فإن المتشاورين يشعرون أن مصلحتهم واحدة وطريقهم إلى تحصيلها واحد، فيفكرون في هذا الطريق وعلى أي وجه

يسلكونه لتحقيق مصلحتهم، ومتى شعروا بارتباط المصالح قويت المحبة وتوثقت الصداقة، وهذا من الفوائد المحسوسة، فكم كان أناس متباينين متباعدين، فلما جمعتهم بعض الشؤون وشعروا بوحدة مصلحتهم تقاربوا بعد التباعد وتصادقوا بعد التعادي.

ومن فوائدها أن مصلحة المشاورة محسوسة في العلوم والآراء والأعمال وإصابة الصواب، فالرأي الواحد والعمل الواحد يعتريه النقص كثيراً، فإذا كثرت الآراء واتفقت، وحصل التعاون على الأعمال النافعة أصابوا الصواب وأدركوا النجاح.

ومنها أن الآراء والأفكار تحتاج إلى رياضة وتمرين، فإن تمرين الذهن على التدبر والتفكر وتقليب الأمور على كل وجه ممكن مما يرقِّي الذهن وينمِّيه ويوسع دائرة المعارف، وعدم ذلك أو قلته مما يضعف القريحة ويخمد الفكر ويحدث البلادة، فكثرة المشاورات هو التمرين الوحيد والرياضة للأفكار، فإن تبادل المناظرات واحتكاك الأفكار بعضها ببعض واستعانة بعضها ببعض، وتعديل بعضها بعضاً له فائدته العظيمة الملموسة فكما أن الأعمال العظيمة لا تدرك إلّا باجتماع قوى متعددة بحسب تلك الأعمال، فكذلك الأمور المشكلة والأحوال المشتبهة لا يقوم بها فكر واحد ونظر واحد، بل لا بد من عدة أفكار تتراود عليها، فإن العمل تابع للعلم، والله أعلم.

ومنها أن الأعمال المشتركة التي لا يمكن قيام واحد من المشتركين فيها، سواء كانت أموراً دينية أو دنيوية إذا بنيت على المشاورة ثم وزعت بينهم بما يناسب أحوالهم، كان أرجى لحصول النجاح، فإن كلًّا منهم يمد الآخر برأيه ومساعدته وعمله، ونفع هذا معروف.

ومنها أن الإنسان إذا شاور في أموره وتأنّى فوقعت على خلاف مراده لم يندم، لأنه أبدى المجهود ولم يدّخر من أسباب النجاح شيئاً يقدر عليه، فيوجب له الطمأنينة والسكون والرضا والتسليم، ويستدرك ما يمكن استدراكه،

ويعرف الأسباب الناجحة والمحققة. وإذا لم يشاور فوقعت على خلاف ما يجب ندم ندامة شديدة وجعل يقول: لولا ولوما.

ومنها أن المشاورة تنفي عن العبد العُجْب والغرور بالنفس، فإن المعظِّم لنفسه المعجَب برأيه لا يكاد يشاور أحداً ولا يلين لمن ينصحه، وهذا الخلق رذيل جداً وضرره كبير، فالمعجب برأيه لا بد أن يضِلّ ويظنه على هدى لأن خيالات الغرور لا تدع الإنسان ينظر إلى عيوبه فيصلحها، ولا إلى نقصه فيكمله، فعنوان العقل والتواضع كثرة المشاورة وقبول قول الناصحين وعنوان الجهل والغرور الاستبداد ورفض نصح الناصحين.

واعلم أن المشاورة تختلف باختلاف مواضيعها، فأمور السياسة يشاور فيها أهل الحل والعقد والرجال المتميزين في عقولهم وآرائهم وكمال نصحهم.

وأمور العلم والدين يشاور فيها أهل العلم والدين، الجامعين بين العلم والحلم والعقل والدين.

والأمور الدنيوية يشاور فيها أهل الخبرة فيها والرأي بحسب أحوالها ولا بد في ذلك كله من قصد النصح.

ومن ألطف أنواع المشاورات الخاصة وأنفعها للإنسان الأمور المتعلقة بالعائلة وأمور البيت؛ فينبغي للوالد أن يشاور أولاده في الأمور المتعلقة بهم ويستخرج آراءهم ويعوِّدهم على تربية أفكارهم وتنمية عقولهم، فإن هذا فيه نفع وتعليم وتوسيع لدائرة معارفهم، وحملٌ لهم على النصيحة لوالدهم. وكذلك يشاور زوجته في أحوال البيت وكيفية تدبيره. وإذا رأى منها الأمانة والأهلية جعل لها الاستقلال في تدبير مصارف البيَت لتهتم وتشعر بمسؤوليتها وتجتهد في الأعمال الاقتصادية، ويستفيد رب البيت الراحة والطمأنينة، فمتى كانت الأنثى أصيلة أمينة ورأت من زوجها هذه الثقة بذلت النصح التام وعزّ

عليها أن يذهب شيء في غير محله، ومتى أخذ على يدها وحفظ عليها وقتر قوتها وحوائجها الأصلية والعالية لم يستفد بهذا العمل إلّا العناء والتعب وكثرة النزاع وتكدر العيش، وكم رأينا ورأى غيرنا من هذا شيئاً كثيراً. فالهناء والسعادة والخير العاجل والآجل تبع للدين وأخلاقه، والشقاء والشرحيت فقد الدين وفقدت آدابه.

المشاورة تنور الأفكار وتحل الاشتباه والإشكال وتبلغ العبد الآمال، المشاورة عنوان العقل، والاستبداد من نتائج الجهل. ما ندم من استعان بالله واستخاره وشاور الناصحين.

الفصل الثالث عشر

في الحثّ على القيام بحق الأولاد والوالدين

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قُوْا أنفسَكم وأهلِيْكُم ناراً﴾
[سورة التحريم: الآية ٦]

وذلك بالقيام التام في تربيتهم في دينهم وأخلاقهم ودنياهم، وقال تعالى:
﴿والذين هُمْ لأماناتهم وعهدِهِم راعون﴾
[سورة المؤمنون: الآية ٨]

الأولاد أمانات عند الوالدين، عليهم القيام بحفظ هذه الأمانات وكفهم عن جميع المضار والمفاسد، وتعليمهم العلوم النافعة وأخذهم بالأخلاق الفاضلة. بشِّر الذين يربون أولادَهم تربية صالحة بالخير والثواب والانتفاع، وحذر الذين يهملونهم بالضرر العاجل والآجل والضياع؛ لو كان لك بستان فيه غراس وأشجار فلاحظته وحفظته ونميته لجاء منه ما تؤمله وترجوه، ولو أهملته وضَيَّعْته فلا تلومن إلا نفسك يوم يحصد الزارعون ما زرعوه، كذلك الأولاد وهم غراسك الذي تؤمل نفعه، فقمْ عليهم بما تستطيعه من التربية الصالحة والملاحظة، وإياك أن تهملَهم وتضيعَهم فتبوء بسوء العاقبة، كم اغتبط

الوالدون بصلاح الأولاد، وكم ندم المفرطون حين تعذر الإصلاح وحاق الفساد، ذلك بما قدمت أيديهم وما الله يريد ظلماً للعباد.

أيها الأولاد، احمدوا ربكم الذي قيض لكم الوالدين فحنُّوا عليكم حنواً عظيماً، أسهروا في مصالحكم ليلهم، وأتعبوا نهارهم، وكنتم همهم الأكبر في سرهم وجهارهم، غذوكم بأطيب الطعام وأهنأ الشراب ووالوا عليكم الكسوة وتوابعها في جميع الأوقات وعلموكم الكتابة والقرآن ولاحظوكم بالعناية التامة والشفقة والبر والإحسان، فقوموا ببرهم أحياءً وأمواتاً وتضرّعوا إلى الله أن يغدق عليهم الرحمة والكرم ـ رحم الله الآباء المشفقين، وأحسن الله جزاء الأولاد البارين.

وقد أمر الله بالتعاون على البر والتقوى. فعلى الوالدين أن يعينوا أولادهم على برهم بأن يوطنوا أنفسهم على شكر ما جاء منهم من البر اليسير، ويغضوا النظر عن التقصير والتفريط الكثير، فما استجلب البرّ والصلاح بمثل هذه الحال، ولا صفت حياة عن الخلل الواقع من أولادهم والإخلال، إلّا بالتساهل معهم وتمشية الأحوال، وعلى الأولاد أن يتحملوا من والديهم ما قصروا به من حقوقهم وأن يحتسبوا ببرهم وجه الله وثوابه ليهون عليهم ما يلقونه من شراسة أخلاقهم، فهذه الطريقة أقوم الحالات لصلاح الأمور ـ فمن لم يقنع إلّا بحقه كله فاته كله ـ ومن اكتسب البر القليل وغض النظر عن النقص الكثير فقد أراح واستراح، واغتبط في كل أحواله.

الفصل الرابع عشر

في العلم وفوائده

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَستَوِي الذين يعلَمون والذينَ لا يعلَمون﴾
[سورة الزُّمر: الآية ٩]

وقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الذينَ آمنوا منكُمْ والذينَ أُوتُوا العلمَ درجاتٍ﴾
[سورة المجادَلة: الآية ١١]

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) ــ حد العلم ما قامت عليه الأدلة والبراهين، والنافع منه ما تعلق بالدين وكان من العلوم المعينة على الدين، وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة على فضل العلم وشرفه وفضل أهله؛ وإن كل شيء يفتقر إليه، وأن الناس كلهم في الظلمات إلا من استنار بنور العلم، وجعل الله طريق الجنة والصراط المستقيم مركباً من العلوم النافعة ومن الأعمال الصالحة.

العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال؛ العلم يصحبك في دُورك الثلاث: في الدنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد. والمال إن فرض وجوده صحبك صحبة منكدة في حال الحياة الدنيا؛ العلم نور يُهتدى به في ظلمات الشكوك والجهالات، وحياة تقيم العبد وتوصله إلى الجنات، ما زال علم العالم يعلم أو يعمل به أو يستفاد منه، فصحيفة حسناته في ازدياد في حال الحياة وبعد الممات، بأي شيء يعرف الله ويهتدي إلى صراط الله، وبأي شيء يهتدي إلى الفرق بين الأحكام الخمسة التابعة لجميع الحركات والسكنات وبأي شيء يهتدي إلى الفرقان بين الهدى والضلال والغي والرشاد، وبأي شيء تعرف الأعمال النافعة؟ والله لا يتمكن من شيء من ذلك إلّا بالعلم؛ العلم هو الأساس الأعظم لجميع المعاملات، وهو الشرط لصحة

الأقوال والأعمال؛ الجهل داء قاتل، والعلم حياة ودواء نافع؛ حاجة الناس إلى العلم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ الاشتغال بالعلم من أفضل الطاعات وأجل القربات. مذاكرة العلم تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعلمه وتعليمه ودراسته توجب رضا رب العباد. قال ﷺ: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة). وقال: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر)، فرياض العلوم النافعة فيها من المعارف من كل زوج بهيج.

فيها أجل المعارف وأفضلها، وهو العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله وآلائه.

وفيها علم الحلال والحرام، والنافع والضار.

وفيها علم الأخلاق التي ترقّي صاحبها إلى أعلى المقامات، وعلم الآداب التي تجعل العبد من أكبر البريات.

وفيها تشخيص ما في النفوس من الخير والشر والرغبات والرهبات.

وفيها كيفية توجيهها إلى فعل الخيرات وترك المنكرات وإلى ما يناسبها من الأمور النافعات.

فيها علوم العربية الجليلة على اختلاف منافعها وفوائدها وثمرتها، تقيم لك اللسان وتهديك إلى أوضح العبارات وحسن البيان، وتستعين بها على معرفة معاني كلام الله وكلام رسوله، وتكون آلة لك في كل علم وعمل تسلكه.

وفي هذه الرياض علم أحوال التواريخ والدول وأصناف الأمم، تتمكن فيها من اجتلاء القرون السالفين ومعاصرة الأمم الغابرين، ثم هكذا تنتقل من قرن إلى قرن حتى تتصل بأحوال الأمم الموجودين، وتعتبر فيها حكمة الله وسنته في السالفين واللاحقين، فترى الخير والفضل عنوان شرف وسعادة

وذكرى جميلة حيث كان، والشر والظلم عنوان شقاء وفضيحة وخزي في جميع الأزمان.

ثم تتجلى فيها عقول الأولين والآخرين، وكيف كان التفاوت الذي لا ينضبط ولا يُدرك منتهاه بين أفراد البشر، فهذا لا يتميز عن البهائم إلَّا بالشكل والنطق من خسته ودناءته، وهذا يفوق أمة عظيمة في عقله ومعارفه وأخلاقه العالية، وهذا قد سيطرت عليه الشهوات البهيمية فانقاد لها عقله وهواه، وهذا قد ارتفعت همته فوق الثُّريَّا فلم تملكه العادات ولم يقدم شيئاً على رضا مولاه.

وهكذا تجد في رياض العلوم كثيراً من نصوص الكتاب والسُّنَّة بنصِّها أو فحواها أو لَازِمِها، ما يدل على اعتبار جميع العلوم النافعة للدنيا والدين.

وفيها الحثُّ على تعليم الصناعات والمخترعات وامتنان الله علينا بتسخير ما على الأرض وما في باطنها لنستخرج منه جميع ما نقدر عليه من المنافع التي لا يزال الله يعلِّمُها الإنسانَ شيئاً بعد شيء.

وتجد أن الله أمرنا أن نعلِّم الجُهَّال والسفهاء كيفية حفظ الأموال وكيفية التكسب فيها واستحصال منافعها، قال تعالى:

﴿وَٱبْتَلُوا اليتامَى حتَّى إذا بَلَغُوا النِّكاحَ، فإِنْ آنَسْتُمْ منهُم رَشَدًا فَٱدْفَعوا إليهم أموالَهم﴾

[سورة النساء: الآية ٦]

فأمرنا أن نعلِّمهم ونختبرهم فيما يليق بأحوالهم، فإذا مَهَرُوا في هذا العلم وأبصرنا رشدهم دفعنا إليهم أموالهم؛ وما داموا في جهلهم يعمهون وفي سفههم يتيهون لا نمكِّنهم من أموالهم حذر الضياع والنقص، ففي هذا دليل على أن العلم نافع حتى العلوم الدنيوية، وأنه حفاظ للمنافع ودافع للمضار.

لولا العلم لكان الناس كالبهائم في ظلمات الجهالة، ولـولا العلم لما عرفت المقاصد والوسائل، ولولا العلم ما عرفت البراهين على المطالب كلها ولا الدلائل؛ العلم هو النور في الظلمات، وهو الدليل في المتاهات والشبهات وهو المميز بين الحقائق، وهو الهادي لأكمل الطرائق؛ بالعلم يرفـع الله العبد درجات، وبالجهل يهوي إلى أسفل الدركات.

الفصل الخامس عشر

في فضائل حُسن الخلق

وهو خلق فاضل عظيم النفـع؛ أساسه الصبر والحلم والرغبة في مكارم الأخلاق، وآثاره العفو والصفـح عن المسيئين، وإيصال المنافـع إلى الخلق أجمعين، فهـو احتمال الجنـايات والعفـو عن الزلات، ومقـابلة السيئـات بالحسنات؛ وقد جمـع الله ذلك في آية واحدة وهي قوله:

﴿خُذِ العفوَ وَآءْمُرْ بالعُرفِ وأعرِضْ عَنِ الجاهلين﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٩٩]

أي خذْ ما عفا وصَفا لك من أخلاق الناس، واغتنم ما حصل منها وغضَّ النظر عما تعذّر تحصيله منهم وعن نقصها وكدرها، ومعنى ذلك أن تشكر الناس على ما جاء منهم من الخير والإحسان، وما سَمَحت به طباعهم من الخلق الطيب، ولا تطلب منهم ولا تطالبهم بما زاد عما حصل، ولو كان لازماً لهم، فإنك بذلك تستريـح وتريحهم.

أما من كان يريد من الناس أن يكونوا كاملين مكمَّلين لكـل ما يجب ويستحب، وإذا أخلوا بشيء من ذلك عاتبهم وأهدر ما جاء منهم من الخير والإحسان، فَهُوَ عن حسن الخلق بمعْزِل، ولا يزال معهم في نزاع ولجاج وعتاب، وإنما الحازم من يوطِّن نفسه على تقصير المقصِّرين ونقصان

الناقصين، وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا الخلق الفاضل في معاملة الزوج لزوجته فقال: (لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر) ـ فأمر بالإغضاء عما فيها من العيوب، وأن يكون نظره إلى ما فيها من المحاسن والمنافع، ويجعل هذا شفيعاً لهذا، لأنه بذلك تدوم الزوجية وتتم الصحبة الطيبة والصفاء ويقل النزاع والخصام، وقس على هذا الذي ذكره ﷺ جميع المعاملات والحقوق، فالمعاملة بين الوالدين وأولادهم إذا كانت على هذا الوصف حصل البر وأديت الحقوق، إذا وطن الوالد نفسه على شكر ما حصل من ولده من البر ولو قليلاً، وعفا عن تقصيره ازداد البر وحصل للوالدين راحة، فرحم الله من أعان أولاده على بره.

وكذلك الأولاد عليهم القيام ببر والديهم. وأن يوطِّنوا أنفسهم على ما ينالهم من الوالدين من سوء الخلق وشراسته وسيء الأقوال والأفعال التي تصدر منهم ليوطِّنوا أنفسهم على احتمالها وأن يشكروهم على ما نالهم منهم من الإحسان مهما كان، فهذا من البر والصلة التي لا يُوَفَّق لها إلاّ ذو حظ عظيم.

وكذلك حقوق الأصحاب والجيران والمعاملين ينبغي أن يسلك معهم هذا المسلك، القناعة بما جاء منهم وتحمل ما لا يوافق الإنسان من قول أو فعل أو معاملة، فبذلك تدوم الصحبة وتقوى.

أما من كان إذا جاءه من أصحابه أو معامليه ونحوهم سيئةٌ واحدة أهدر بها ما سبقها من المحاسن، فهذا من أعظم الحُمق وقلة الوفاء وعدم الإنصاف، ومن كان بهذا الوصف فهو أبعد الناس من حسن الخلق، والمقصود أن المعاملة بين المختلطين والمرتبطين بحق من الحقوق إذا بنيت على قوله: ﴿خذ العفو﴾ فوطّن العبد نفسه على أخذ المنافع والصفح عن ضده أوصلت صاحبها إلى كل خير، وسَلِمَ بها من شرور كثيرة، وإذا بنيت على الاستقصاء وطلب جميع الحق المستوفى؛ حصل النقص والخلل.

وقوله: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ أي إذا جهل أحد عليك بقول أو فعل فأعرض عن مقابلته بجهله، وقابله بما تقابله به إذا كان محسناً. فتكسب السلامة والأجر وحسن الذكر والاتِّصاف بمكارم الأخلاق وأعاليها، وكل من عصى الله أو قَصَّر في حقه أو تعدَّى على أحد فهو جاهل؛ سواء كان متعمداً أو غير متعمد، وذلك أن العلم الذي يعمل الإنسان به هو العلم النافع، والذي لا يعمل به جهل وضلال وقد تعوذ ﷺ من علم لا ينفع.

وأما قوله في هذه الآية: ﴿وآءمُر بالعُرْف﴾ أي ليكن أمرك لغيرك موصوفاً بوصفين:

أحدهما: أن يكون برفق وحكمة وأقرب طريق يوصل إلى هذا المقصود، وذلك يختلف باختلاف العرف.

والثاني، ليكن مأمورك الذي تأمر به من الأمور المحبوبة شرعاً وعرفاً، وهو الأمر بالواجبات والمستحبات من العقائد والأخلاق والأعمال المتعلقة بحق الله وحقوق خلقه، فمن قام بهذه الأمور فقد اتَّصف بحسن الخلق الذي قال فيه النبي ﷺ: (إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم)؛ وأعظم ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق وقد فسَّره ﷺ بما يوافق هذه الآية في قوله لمُعاذ وغيره: (اتّق الله حيثما كنت وأَتْبِعِ الحسنة السيئة تمحها وخالق الناس بخلق حسن).

حُسْن الخلق ومكارم الأخلاق تحبِّب العبد إلى أعدائه، وسوء الخلق ينفِّر عنه أولاده وأصدقاءه. من مزايا حسن الخلق أن صاحبه يتمكن من إرضاء الناس على اختلاف طبقاتهم. كل من جالسه وخالطه أحبه، لا يمله الجليس. قال ﷺ: (إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم؛ ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق).

صاحب الخلق الحسن يسهُلُ عليه إدراك المطالب، وتلين له برفقه وتحببه إلى الخلق المصاعبُ. كم فات سيء الأخلاق من مطلوب، وكم جلب عليه الحمق من شرّ مرهوب.

كل أحد يود الاتّصاف بحسن الخلق لما يشاهده من ثمراته الجليلة ولكن لا يدركه إلا أهل الهمم العالية النبيلة. اللهم آهدنا لأحسن الأخلاق وجنِّبْنَا مساوئها.

الفصل السادس عشر

في فضل الصبر على المكاره والشكر على المحابّ

العبد لا يخلو في تنقلاته في الحياة وأطواره فيها من حالتين لا ثالث لهما:

إما أن يحصل له ما يحب ويندفع عنه ما يكره. وهذا حبيب للنفوس، ملائم للقلوب، مطلوب لكل عاقل، وهو من أعظم نعم الله على العبد، فوظيفته في هذه الحال الشكر والاعتراف أنَّ ذلك من نعم الله عليه، فيعترف بها، متحدثاً بها مستعيناً بها على طاعة المنعم وهذا هو الشاكر، فإن ألهته النعمة وأبطرته وأوصلته إلى الأشر والبطر وغفل عن الشكر، فهذا الذي كفر نعمة الله واستعمل منن الله في غير واجبها وطريقها.

الحالة الثانية: أن يحصل للعبد المكروه أو يفقد المحبوب، فيحدث له همًّا وحزناً وقلقاً، فوظيفته الصبر لله فلا يتسخط ولا يضجر ولا يشكو للمخلوق ما نزل به، بل تكون شكواه لخالقه، ومن كان في الضرَّاء صبوراً وفي السرّاء شكوراً لم يزل يغنم على ربه الثواب الجزيل، ويكتسب الذكر الجميل؛ قال ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن إن أَمْرَه كلَّه خير: إن أصابته سرّاء شكر كان خيراً له؛ وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن).

النعم والنقم، والمحابّ والمكاره، أضيافٌ فأكرم قِراها بالقيام بوظيفتها ليستريح قلبك وتُرضِيَ ربَّك، وينقلب ضيفُك شاكراً ولمعروفك ذاكراً ــ متى حصل لك محبوب من رياسة أو مال أو زوجة أو ولد أو صحة أو رزق، أو توابع ذلك، أو اندفع عنك مكروه: فاعلم أنّ هذه نعم من الله فاعترف بها بقلبك، واخضع لربك الذي أوصلها إليك، وازدد له حبّاً وثناءً، فإن النفوس

مجبولة على محبة من أحسن إليها، فكيف بمن منه جميع الإحسان؟ وأكثِر من الثناء على الله بها جملةً وتفصيلاً:

أما الإجمال فأنْ تقول: اللهم ما أصبح ـ أو ما أمسى ـ بي من نعمة أو بأحدٍ من خلقك فمنك وحدَك، لا شريك لك؛ فلك الحمد ولك الشكر.

وأما تفصيلاً فقل: أنعم الله عليّ بالنعمة الفلانية ـ دينية أو دنيوية ـ وصرف عنّي كذا وكذا، وتوسَّلْ بها إلى طاعة المنعم، وسَلْهُ أن يجعلها معونة على الخير؛ وأن يعيذك من صرفها في غير ما يحبه الله ويرضاه، وآحْمد الذي وفَّقك لشكرها، فالتوفيق للشكر نعمة أخرى.

ومتى أصابك مكروه في بدنك أو مالك أو حبيبك فاعلم أن الذي قَدَّرَهُ حكيمٌ لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا يُقَدِّرُ شيئاً سدى، وأنه رحيم، قد تنوعت رحمته على عبده، يرحمه فيعطيه ثم يرحمه فيوفقه للشكر، ويرحمه فيبتليه ثم يرحمه فيوفقه للصبر. فرحمةُ الله عليك، متقدِّمةٌ على التدابير السارّة والضارّة، ومتأخرة عنها.

ويرحمه أيضاً بأن يجعل ذلك البلاء لذنوبه كفارات، ولمقامه خيراً ورفعة ودرجات. ويرحمه بأن يجعل ذلك المكروه منمياً لأخلاقه الجميلة، مربياً على الأعمال والأقوال الزكية، فإذا فهم العبد في التقدير هذه الرحمات، ولحظ هذه الألطاف المتنوعات، لم تتأخر نفسه إن كانت نفساً حرة عن الصبر على المكاره والاحتساب ورجاء الأجر والارتقاب، ثم رجاء السلامة والفرج من الملك الوهاب.

من استكمل مراتب الصبر والشكر فهو الكامل في كل أحواله، فإن الصبر آلة عظيمة تعين العبد على جميع الأمور الصعبة. قال تعالى:

﴿وآسْتَعِينوا بالصَّبرِ والصَّلاة﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٥]

أي على جميع أموركم.

فمن شرع في عملٍ من الأعمال وصبر عليه وثابر رجي له النجاح، ومن ضعف صبره وثباته لم يتم له فلاح.

إذا أصيب العبد بمصيبة فلجأ إلى الصبر والاحتساب خفّت وطأتُها وهانت مشقتها، وتم له أجرُها وكان من الفضلاء الكرام. ومن ضعف صبره وحضر جزعه اشتدت مصيبته، وتضاعفت آلامه القلبية والبدنية وفاتَه الثواب، واستحق العقاب. ولا بد أن يعود في آخر أمره فيسلو سلو البهائم، وذلك من أخلاق اللئام.

بَشِّرِ الصابرين، على مشقة الطاعات وترك المخالفات وآلام المصيبات، بتوفيةِ أجرِهم بغير حساب. وأنذِر الجازعين المتسخطين لأقدار الله بتضاعف المكاره وفوات الأجر، وحلول الوزر والعقاب.

إن الجزع لا يرد الفائت، ولكنه يحزن الصّديق ويَسرُّ الشامت.

الصبر مؤذن بالقوة والشجاعة والثبات والإيمان، والجزع عنوان الجبن والضعف والهلع والخسران.

ما نال من نال من خير الدنيا والآخرة إلّا بالصبر، ولا حُرم من حرم إلّا بفقده. قال تعالى:

﴿والملائكةُ يدخلون عليهم مِن كلِّ باب. سلامٌ عليكُم بما صَبَرْتُم فَنِعْمَ عُقْبـى الدار﴾ [سورة الرعد: الآيتان ٢٣، ٢٤]

بالصبر يرتقي العبد إلى أعلى المقامات؛ وهو مقام الشاكرين الذين يشكرون الله على السرّاء والضرّاء واليُسر والعُسر. يشكرون الله في كل أحوالهم. يشكرونه على نعمة العافية والصحة؛ وسلامة الأبدان، ويشكرونه على نعمة الإسماع والإبصار والعقول والبيان، ويشكرونه على تيسير الرزق والأسباب المتنوعة التي بها تكتسب الأرزاق، وخصوصاً إذا يَسَّر الله للعبد سبباً مريحاً لقلبه معيناً على الخير، فإن هذا من بركة الرزق وكماله. ويحمدون الله على دفـع المكاره والملمات.

وكذلك يحمدون الله أبلغ حمد على نعمة الإسلام والإيمان، والهداية إلى الخير والتوفيق للإحسان. نعمة الله بالتوفيق للتقوى أجل النعم وأعلاها:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ على المؤمنينَ إذْ بَعثَ فيهم رسولاً مِنْ أنفسهم يتلو عليهِم آياتِه ويُزكِّيهم ويعلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبلُ لَفِي ضلالٍ مبين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

من حصلت له نعمة العلم والإيمان فقد تمّت عليه النعمة من جميع الوجوه، وقد نال من ربه كل ما يؤمله ويرجوه.

فيا من توالت عليه النِّعَمُ وصُرِفت عنه النقم، اشكر الله على ذلك، لتبقى وتكمل. فالشكر مقرون بالمزيد، وكفران النعم مقرون بالمحق والعذاب الشديد. وشكرانُك للنِّعمِ نِعَمٌ أخرى تحتاج إلى شكر آخر وتجديد. ولكن الله تعالى رضي منًّا بالاعتراف بالعجز عن شكره، وأن نفعل ما نستطيعه من الثناء والتمجيد.

الشاكرون أطيب الناس نفوساً، وأشرحهم صدوراً، وأقرهم عيوناً، فإن قلوبهم ملآنة من حمده والاعتراف بنعمه والاغتباط بكرمه والابتهاج بإحسانه، وألسنتهم رطبة في كل وقت بشكره وذكره، وذلك أساس الحياة الطيبة ونعيم الأرواح، وحصول جميع اللذائذ والأفراح، وقلوبهم في كل وقت متطلعة للمزيد، وطمعهم ورجاؤهم في كل وقت بفضل ربهم يقوَى ويزيد.

لو علم العباد ماذا أُعِد للشاكرين من الخيرات لاسْتَبَقُوا إلى هـذه الفضيلة العليا، ولو شاهدوا أحوالهم في السرور والابتهاج لعلموا أنهم في جنة الدنيا.

إذا قضيت المصائبُ والمكاره على الخلق انقسموا فيها أربعة أقسام:

أحدهم: الظالمون وهم أهل الجزع والسخط.

والثاني: الصابرون وهم الذين حبسوا قلوبهم عن التسخط على المقدور وألسنتهم عن الشكوى، وجوارحهم عن أفعال الساخطين؛ فهؤلاء لهم أجرهم بغير حساب.

والثالث: الراضون عن الله الذين كملوا مراتب الصبر، واطمأنت قلوبهم لأقدار الله المؤلمة، ورضوا بها، ولم يَوَدُّوا أنهم لم يصابوا بها، بل رَضُوا بما رَضِيَ الله به لهم، فَرَضُوا عن الله ورضي الله عنهم.

والرابع: الشاكرون وهم من ارتفعت على هؤلاء كلهم درجاتهم، فصبروا لله ورضوا بقضاء الله ولكنهم شكروا الله على الضرَّاء كما شكروه على السرَّاء، وحمدوه على المصائب والمضارّ كما حمدوه على المحابّ والمسارّ، فهؤلاء الشاكرون الأصفياء الأبرار، وهم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً. قال تعالى:

﴿وقليلٌ من عبادِيَ الشَّكورُ﴾ [سورة سبأ: الآية ١٣]

وقد ورد عن النبي ﷺ حديثان صحيحان فيهما بشارة وخير عظيم للصابرين والشاكرين:

أحدهما: قوله: (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله به: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها ــ إلا أجَره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها).

فهذا يشمل أي مُصيبة كانت، وأن من قال هذا القول بصدق جمع الله له بين الخلف العاجل، والثواب العاجل والآجل.

والثاني: (إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها؛ ويشرب الشربة فيحمده عليها) فهذا وعد بأن من حمد الله بعد الأكل والشرب حصل له من الله الرضا الذي هو أكبر من نعيم الجنات. وعموم العلة يقتضي أن جميع النعم إذا حصلت للعبد فحمد الله عليها حصل له هذا الثواب، فاجتمع له نعمة الدنيا والدين.

ومن لطفه أن العبد إذا استغنى بما أحله الله له عما حرمه، وتناول الحلال الملائم للنفوس بهذه النية كان له حسنات كما قال ﷺ حين ذكر أنواعاً من الصدقات حتى قال: (وفي بُضع[1] أحدكم صدقة) قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدُنا شهوتَه ويكون له أجر؟ قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر).

فتبارك الكريم الوهاب!

الفصل السابع عشر

في الحث على سلوك طريق الحكمة والرفق في كل الأمور

قال تعالى: ﴿**يُؤتي الحكمةَ من يشاءُ، ومنْ يُؤْتَ الحكمةَ فقدْ أُوتي خيراً كثيراً**﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩]

والشريعة كلها حكمة. قال تعالى:

﴿**وأنزلَ اللَّهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ**﴾ [سورة النساء: الآية ١١٣]

وأثنى على لقمان بالحكمة، ولما ذكر أصول الشرائع ومُهماتها قال:

﴿**ذلكَ مما أوحَى إليكَ ربُّك مِنَ الحكمة**﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٩]

فما جاء به الرسول من الكتاب والسنة كلُّه حكمة، بل هو أعلى أنواع الحكمة على الإطلاق. لأن الحكمة معرفة الحق والصواب والعمل بذلك والشريعة تدور على ذلك، لا تخرج عنه. فمن عرف الحق فاتبعه، والباطل فاجتنبه، فهو حكيم.

والغرض هنا أخص من هذا، وهو حث الإنسان أن تكون أقواله وأفعاله

---

(١) يطلق على الجماع وعلى الفرج نفسه، وكلاهما تصح إرادته هنا. نووي.

وتدبيراتُه تابعةً للحكمة؛ موافقةً للصواب، غيرَ متقدمةٍ على أوَانها ولا متأخرة، ولا فيها زيادة عما ينبغي، ولا نقص. وأن يكون في كل فرد من أفراد حركاته المذكورة مجتهداً في معرفة نفعه وصلاحه، سالكاً أقرب طريق موصل له إلى ذلك.

وبتحقيق هذا يعرف كمال عقل الإنسان ورزانَتُهُ ولبُّه، وبه تدرك الأمور وتنجح المقاصد. قال تعالى:

﴿وأْتُوا البيوتَ مِن أبوابِها﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٩]

أي ائتوا كل أمر من طريقه الموصل إليه المسهِّل لحصوله، وضد ذلك أمران: إما ترك للمنافع وإهمال لها، وإما سلوك طرق ضارة في تحصيلها. إما تقصير عن بلوغ الغاية أو التواء في الطريق أو سلوك طرق وعرة ومسالك صعبة مع التمكن من سلوك ما هو أسهل منها.

واعلم أن طريق كل أمر ما يناسبه. قال تعالى:

﴿ٱدعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحِكمة﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥]

فالدعوة إلى الله وإلى سبيله تشملُ تعليم الجاهلين ووعظ الغافلين، وتشمل النصيحة الخاصة لآحاد الناس وأفرادهم، في الأمور الدينية والدنيوية، فإذا سلك الداعي فيها طريق الحكمة كان أقرب وأرجى لحصول مقصوده، ولهذا ينبغي تعليم كل أحد ما هو أنفع له، وبعبارة أو دلالة أقرب إلى ذهنه وفهمه، ولهذا قيل في تفسير «الربانيين» هم الذين يُعلِّمون الناس صغار العلم قبل كباره.

ومن الحكمة أن لا تُلقى على المتعلم العلوم المتنوعة التي لا يتحمَّلها ذهنه أو يضيع بعضُها بعضاً، واتفق أهل المعرفة بطرق التعليم أن هذا ضار ومفوِّتٌ للعلم، وأن الطريق الأقرب أن يجعل للمتعلم من الدروس ما يسهل عليه حفظها وفهمها وعقله، والتفكر التام فيها، فإن هذا من الدعوة إلى الله بالحكمة التي هي الطريق الوحيد للنجاح.

ومن الحكمة أن ترمق المتعلم وتقوِّي رغبته في التعلم بكل طريق، فإن قوة الرغبة تزيد في الحفظ والفهم، وكلما كانت رغبة طالب العلم فيه أقوى كان محصوله أكثر وأتم.

ومن الحكمة في تعليم العوامّ وإرشادهم أن يُعلَّموا ما يحتاجونه بألفاظ وعبارات مناسبة لأذهانهم، قريبة من أفهامهم، فهذا فيه نفـع كبير.

وكذلك ينبغي لأهل العلم في مجالسهم مـع الناس العامة والخاصة أن يبحثوا بما يناسب الحال عند المناسبات من المسائل العلمية، فكم حصل فيها من منافـع كثيرة من غير تشويش ولا قطـع عن مقصودها. وهذا من الحكمة.

ومن الحكمة في حق الناصـح أن يكون رفيقاً متأنياً متوخِّياً للحالة المناسبة للمنصوح بلين، قال تعالى:

﴿آذهبا إلى فِرْعَونَ إنّه طغى. فَقُولاَ لَهُ قولاً ليِّناً لعله يتذكَّرُ أو يَخشى﴾ [سورة طه: الآيتان ٤٣، ٤٤]

﴿فذكِّرْ إنْ نفعتِ الذِّكْرى﴾ [سورة الأعلى: الآية ٩]

ومما يُعين المعلم والمذكِّرَ معرفةُ طبائـع الناس وأخلاقهم والوسائل التي يُؤْتَوْن من جهتها.

والرفق أصل كبير في هذا وغيره، قال ﷺ: (ما كان الرفق في شيء إلاّ زانه، ولا كان العنف في شيء إلاّ شانه).

وكـذلك تسلك الحكمـة في تقويـة الصداقـات وتخفيف العداوات وما سلكت في شيء أبلـغ ولا أنفـع من قوله تعالى:

﴿آدْفَـعْ بالَّتي هي أحسنُ فإذا الذي بينَك وبينَهُ عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميم﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٣٤]

فإذا كان العفو والإحسان إلى العدو يصيِّره صديقاً حميمـاً، فما ظنك بعَمَلِه

مع الصديق والقريب والخليط الذين لهم الحق الأوكد، وعندهم من أسباب الروابط الودية ما هو أوثق؟

وكذلك تسلك الحكمة في معاملة الأولاد ومعاشرة الزوجات، فإنه يراد منهم أمران عظيمان مهمان:

أحدهما: إصلاحهم وتقويمهم وتهذيبهم لتقوية دينهم وتربية أخلاقهم فهؤلاء يُسلك معهم كل طريق يسلك مع غيرهم، وطرق خاصة تناسب لأحوالهم، ويوجههم وليُّهم فيه إلى كل خير بترغيب ولين وحسن معاملة، وكل أحد يعرف من أحوال أولاده وأهله ما لا يعرفه غيره.

الأمر الثاني: إنه يراد منهم القيام بحق الوالدين وبالعشرة الواجبة والمستحبة بين الزوجين، وذلك أيضاً بدعوتهم إليه بالحال والمقال وبالحكمة والرفق. ومن أنجح ذلك أن يكون الوالدان قائمين بحق الأولاد، والزوج قائماً بحق زوجته، فإذا طلب منهم القيام بما عليهم في هذه الحال سَهُل عليهم بخلاف ما إذا لم يقم الوالدان والزوج بحقوقهم، فإن تقويمهم يصعب جداً، وكيف تطالب ما لك وأنت مانع الحق الذي عليك؟

وكذلك تُسْلك الحكمة في النفقات والتدبيرات البيتية التي روحها وقوامها قوله تعالى:

﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يَقْتُرُوا وكانَ بين ذلك قَوَاماً﴾
[سورة الفرقان: الآية ٦٧]

فالاقتصاد في النفقات وسلوك طُرُقه له نفعه المعروف ومحله الأكبر.

وألطف من ذلك كله أن تسلك الحكمة مع نفسك، وتراقبها في أعمالها، وتجتهد في تنمية وازع الرغبة فيها إلى الَخير وإضعاف الدواعي إلى الشر، وتلاطفها ملاطفة الطفل في تحصيل الأمور المطلوبة منها، وفي تنمية أخلاقها، وتعطيها من الراحات والطيبات ما يسهل عليها معه القيام

بالطاعات، وتغتنم أوقات نشاطها وتريحها في فترات الكسل، وإياك أن تجمح بك في الانهماك في اللذات التي تشغل عن الأمور النافعة، ولكنْ جاهِدْها وحاسِبْها وأعرِض عليها الموازنة بين الإخلاد إلى الكسل وبين المطالب العالية التي تَفُوت بالكسل ولا تدرك إلا بالعمل، وعرِّفْها ما أمامها من النعيم لمن آمن وعمل صالحاً وسَلَك الصِّراط المستقيم، وقل لها: «لمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون». قل لها يا نفس: «أيُّما أولى: تقديم لذة قليلة حشوها الأكدار وطيُّها الغموم والهموم والخسار، على لذات متواصلات كاملات بلا كدر ولا منغص في دار القرار؟ وأيّما أولى: تحصيل لذة الإيمان أو اللذات البهيمية التي مآلها الخيبة والحرمان؟

يا نفس ابذلي اليسير من القوة فيما يعود عليك بالخير والبركات ولك مني أن أرضِيَك بما تحبِّين من اللذات المباحات، قومي بما عندك من الحقوق الواجبات والمستحبات، أَقُمْ لك بما تحبين من الراحات وتناول الطيبات.. يا نفسُ قد أرشَدَك معلمُ الخير ﷺ إلى أعمال نافعة عظيمة النفع يسيرة على النفس فقال: (استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا). وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: يا رسول الله أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة ويباعدني عن النار؟ قال: (لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه: تعبد الله ولا تشركْ به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت)؛ ثم قال: (ألا أَدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل)، ثم تلا قوله:

﴿تتجافَى جنوبُهُم عنِ المضاجع ــ إلى قوله ــ يعملون﴾

[سورة السجدة: الآيتان ١٦، ١٧]

ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)، ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟)، قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: (كُفَّ عليك هذا)،

قلت: وإنا لمؤاخَذُون بما نتكلم به؟ قال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟).

انظري إلى هذه الأعمال الموصلة إلى غاية الغايات وفوائدها الجليلة مع سهولتها على النفس، ثم اعلمي أن من قام بما عليه من حقوق الله وحقوق عباده لم يفتْ عليه نصيبه من الدنيا. قال ﷺ: (من كانت الآخرة همه جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه شَتَّت الله عليه شمله، وجعل فقرَه بين عينيه ولم يأْتِه من الدنيا إلا ما كتب له.

يا نفس ما هي إلَّا صبر أيام ... كأن مدتها أضغاث أحلام
يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرة ... وخلِّ عنها فإن العيش قُدَّامي

فلا يزال الحكيم مع نفسه في ملاطفة وتدريب وترغيب وترهيب وإنذار وتبشير حتى يَلِينَ صعبُها ويستقيمَ سيرُها وتتبدلَ صفاتُها الرديئة بالصفات الطيبة، ولا يتمكن من هذا إلا بسلوك الحكمة.

الحكمة جمال العلم وآلة العمل وأقرب الوسائل لحصول المقاصد؛ الحكمة تهون الصعاب، وبها تندفع العوائق؛ كم نَدِمَ عجولٌ طائش، وكم أدركَ المطلوبَ متأنٍّ رفيق، لا تساس الولايات الكبار ولا الصغار بمثل الحكمة، ولا تختَلُّ إلا باختلال طريقها.

الحكيم إذا لم يدرك جميع المطلوب تنازل إلى بعضه، وإذا لم يحصل ما قصده من الخير قنع باندفاع الشر، وإذا لم يندفع كل الشر دفع بعضه وخفَّفه، وإذا لم يكن الصعب الشديد وأمكنه تلطيفه لطَّفه، يساير الأمور والأحوال فينتهز فرصها ويأتي الأمور مع كل باب ووسيلة، لا يملّ السعي ولا يدركه الضجر والسآمة، قد تَلَقَّى الأمور بصدر منشرح وقلب ثابت يقلِّبها بفكره على كل وجه، ويستعين برأي أهل الخبرة من الناصحين على ما يريده،

لا تستفزه البدوات وأوائل الأمور، حتى ينفذ فكره إلى باطنها، ولا تغرُّه الظواهر حتى يتغلغل في مطاويها وعواقبها؛ ومع كثرة تفكيره وتقليبه الأمور من جميع وجوهها ومشاورته عند التوقف والاشتباه، لا بد أن ينكشف له ما كان خافياً ويتضح له ما كان مشتبهاً.

واعلم أن من عوّد نفسه هذه الأمور ولازمها في أغلب أحواله فلا بد أن يحصل له من التمرين والاختبار والتجارب أصولٌ يترقّى بها عقلُه وتتسع دائرة معارفه وينمو ذكاؤه وفطنته، وربما وصل إلى حالة يصير بها عَلماً يؤتمُّ به في متاهات العقول مرجوعاً إليه في ذلك، والله أعلم.

الفصل الثامن عشر

في واجبات أهل العلم فيما بينهم وفيما يتعلق بالناس

أما الواجب على أهل العلم من العلماء الكبار ومن دونهم، والطلبة فيما بينهم، فعلى كل منهم أن يحب للآخر ما يحب لنفسه، وهذا واجب عمومي على جميع المسلمين، لكن أهل العلم عليهم من هذا الحق أعظم مما على غيرهم لما تميزوا به، ولما خصهم الله به. وعلى كل منهم أن يدين الله ويتقرب إليه بمحبته جميع أهل العلم والدين؛ فإن هذا الحب من أعظم ما يقرب إلى الله ومن أكبر الطاعات، وهذا الحب يتبع ما اتصف به الإنسان من الأمور التي يحبها الله ورسوله من العلم والاشتغال به والعمل؛ فإن نفس الاشتغال بالعلوم الشرعية وتوابعها من أجلّ الطاعات، ثم حصول العلم للشخص هو من الأوصاف التي يحب لأجلها، ثم تعليمه للناس وعمله مما يجب أن يحب عليه؛ فكل هذه الأمور موجودة في أهل العلم، فلهم من الحق على أهل العلم وعلى غيرهم، وأن يميزوا بهذا عن غيرهم لما لهم من المميزات، وإذا عثر أحدهم وغلط في مسألة علمية تعين ستر ما صدر منه ونصيحته بالتي هي أحسن.

ومن أعظم المحرّمات وأشنع المفاسد إشاعة عثراتهم والقدح فيهم في غلطاتهم، وأقبح من هذا وأقبح إهدار محاسنهم عند وجود شيء من ذلك، وربما يكون ــ وهو الواقع كثيراً ــ أن الغلطات التي صدرت منهم لهم فيها تأويل سائغ ولهم اجتهادهم فيه، معذورون والقادح فيهم غير معذور؛ وبهذا وأشباهه يظهر لك الفرق بين أهل العلم الناصحين والمنتسبين للعلم من أهل البغي والحسد والمعتدين، فإن أهل العلم الحقيقي قصدهم التعاون على البر والتقوى؛ والسعي في إعانة بعضهم بعضاً في كل ما عاد إلى هذا الأمر، وستر عورات المسلمين وعدم إشاعة غلطاتهم والحرص على تنبيههم بكل ممكن من الوسائل النافعة، والذب عن أعراض أهل العلم والدين؛ ولا ريب أن هذا من أفضل القُرُبات، ثم لو فرض أن ما أخطأوا أو عثروا ليس لهم فيه تأويل ولا عذر، لم يكن من الحق والإنصاف أن تُهدر المحاسن وتُمحى حقوقهم الواجبة بهذا الشيء اليسير، كما هو دأب أهل البغي والعدوان، فإن هذا ضرره كبير وفساده مستطير؛ أي عالم لم يخطىء، وأي حكيم لم يعثر؟

وقد علمت نصوص الكتاب والسنة التي فيها الحث على المحبة والائتلاف والتحذير من التفرق والاختلاف، وأعظم من يوجه إليهم هذا الأمر أهل العلم والدين، فمتى لزموا هذه الأوامر الشرعية الحِكَمِية تبعهم الناس واستقامت الأحوال، ومتى أخلُّوا بذلك وحل محله البغي والحسد والتباغض والتدابر تبعهم الناس وصاروا أحزاباً وشيعاً، وصارت الأمور في أطوار التغالب وطلب الانتصار ولو بالباطل، ولم يقفوا على حد محدود، فتفاقم الشر وعظم الخطر وصار المتولِّي لكبرها من كان يرجى منهم قبل ذلك أن يكونوا أول قامع للشر، وإذا تأملت الواقع رأيت أكثر الأمور على هذا الوجه المحزن.

ولكنه مع ذلك يوجد أفراد من أهل العلم والدين ثابتين على الحق قائمين بالحقوق الواجبة والمستحبة، صابرين على ما نالهم في هذا السبيل من قدح القادح واعتراض المعترض وعدوان المعتدين، فتجدهم متقربين إلى الله

بمحبة أهل العلم والدين جاعلين محاسنهم وآثارهم وتعليمهم ونفعهم نصب أعينهم، قد أحبوهم لما اتصفوا به وقاموا به من هذه المنافع العظيمة غير مبالين بما جاء منهم إليهم من القَدْح والاعتراض؛ حاملين ذلك على التأويلات المتنوعة، ومقيمين لهم الأعذار الممكنة، وما لم يمكنهم مما نالهم منهم أن يجدوا له محملاً عاملوا الله فيهم، فَعَفَوْا عنهم لله، راجين أن يكون أجرهم على الله، وعَفَوْا عنهم لما لهم من الحق الذي هو أكبر شفيع لهم، فإن عجزوا عن هذه الدرجة العالية التي لا يكاد يصل إليها إلّا الواحد بعد الواحد نزلوا إلى درجة الإنصاف، وهو اعتبار ما لهم من المحاسن ومقابلتها بالإساءة الصادرة منهم إليهم، ووازنوا بين هذه وهذه، فلا بد أن يجدوا جانب الإحسان أرجحَ من جانب الإساءة أو متساوِيَيْنِ أو ترجح الإساءة، وعلى كل حال من هذه الاحتمالات فيعتبرون ما لهم وما عليهم.

وأما من نزل عن درجة الإنصاف فهو بلا شك ظالم ضارٌّ لنفسه تارك من الواجبات عليه بمقدار ما تعدَّى فيه من الظالم، فهذه المراتب الثلاث: مرتبة الكمال ومرتبة الإنصاف ومرتبة الظلم تميِّز كل أحوال أهل العلم ومقاديرهم ودرجاتهم ومن هو القائم بالحقوق ومن هو التارك، والله تعالى هو المعين الموفق.

وأما واجب أهل العلم المتعلق بالخُلُق فإن مهمتهم أعظم المهمات، وعليهم من القيام بالحقوق أضعاف ما على غيرهم، فإن الله أوجب على أهل العلم أن يبيِّنوه للناس ولا يكتمونه، فيعلِّمون الجاهلين وينصحون، ويعظون ويُذَكرون، ويصدعون بأمر الله، ويُظهرون دين الله، فكما أمر الله الجهال أن يتعلموا فقد أمر أهل العلم أن يُعلموا الناس على اختلاف طبقاتهم، وأن يحنُوا عليهم ويعلموهم مما علمهم الله. قال تعالى:

﴿وإذْ أخـذ اللَّهُ ميثاقَ الذين أُوتُوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتُمُونه﴾
[سورة آل عمران: الآية ١٨٧]

وقال تعالى: ﴿ولكنْ كونوا ربَّانيِّين بما كنتم تعلِّمونَ الكتابَ وبما كُنتم تَدْرُسُون﴾ [سورة آل عمران الآية ٧٩]

وأمر بالتبليغ والتذكير في عدة آيات. وقال ﷺ: (بلِّغوا عنّي ولو آية) وذم الله الكاتمين للحق في عدة آيات. وأكثر الشرائع الظاهرة والباطنة لا يمكن قيامها ولا العمل بها إلا بتعليم أهل العلم وتذكيرهم بكل وسيلة وبكل طريق ومناسبة.

ما أمر الله الجهال والمسترشدين أن يتعلموا حتى أمر أهل أهل العلم أن يرشدوا ويعلموا.

التعليم له طرق كثيرة سوى طرق التعليم في المدارس على اختلاف أنواعها، وسوى طرق تعليم الطلبة المستعدين للتعلم في أوقات مرتبة وعلى طرائق مختلفة. وهؤلاء المتعلمون هم المستعدون للترقي في العلم بحسب ما يسَّر الله لهم من طرق التعليم النافعة بحسب قرائحهم وأذهانهم، وهم الذين يرجى أن يبلغوا مبلغاً يكونون المرجوع إليهم، وأن يكونوا معلِّمين بعد ما كانوا متعلمين.

وليس المقصود هنا شرح حالة التعليم في المدارس وتعليم الطلبة المستعدين وكيفية ذلك فإن لها محلاً غير هذا، وإنما المقصود الوسائل والطرق الأخرى التي يجب على أهل العلم أن يسلكوها في إيصال العلم إلى الناس على اختلاف طبقاتهم ورفع الجهل بحسب الإمكان، فمنها إلقاء العلوم في المساجد، وينبغي أن يُلقى إليهم من العلوم ما يكون فهمه أقرب إلى أذهانهم، وأن يكون أهم الأشياء وأنفعها، وتكون بعبارات مناسبة لأذهان السامعين، وأن يلقى في كل موسم ومناسبة ما يليق ويتعلق به فإن فهمَ الأشياء الحاضرة أقربُ وأشوق للأذهان من أن تكون بغير وقتها. وكذلك ينبغي أن يفهِّموا تدخيل الصور والتفاصيل الموجودة التي يعرفونها ويعرفون وقوعها،

يبين لهم موضعها ومحلها من العلم. وهل هي محبوبة للشارع أو مكروهة، وما الطريق إلى تحصيل المحبوب وإلى دفع المكروه أو تخفيفه؛ وأن تطبق الأمور الواقعية على القواعد الشرعية حتى يتم فهمها. فإن أكثر السامعين إذا ألقيت عليهم المسائل الشرعية مجرَّدةً عن بيان الأمور الواقعة لا يدرون عن دخولها أو خروجها.

وكذلك ينبغي إلقاء العلوم النافعة في النوادي الكبار والصغار، وفي المجامع التي يجتمع فيها أهل العلم بالعوام؛ إما بإلقاء أمورٍ تخف عليهم ولا يستثقلونها إذا رأى أذهانهم قابلة وقلوبهم مصغية، وأما إذا حصل مناسبة عند المخاطبات بين الناس فإنهم يخوضون في كل حديث وكل موضوع دنيوي، وقل موضوعٌ منها إلاَّ ويجد العالم البصير موضعاً ومحلاًّ لإلقاء ولو بعض المسائل، فبيان القليل خير من الترك بالكلية، والعالم الحاذق يتمكن أن يجري مع العوام في أحاديثهم العادية، ويلقي ما شاء الله من المسائل التي تنفعهم في أثناء تلك الأحاديث والناصح لنفسه ولغيره يحصل في هذا خيراً كثيراً.

ومن ذلك أيضاً النصائح الخاصة بالأشخاص باختلاف رتبهم، من رآه مقصراً في واجب من واجبات الله وحقوق الخلق، نصحه سرًّا وعلَّمه الواجب وكيفية سلوكه والفوائد والثمرات المترتبة على فعله. ومن رآه متجرئاً على محرم متعمداً أو جاهلاً نَصَحه وَوَعَظَه وبيَّن له الوجهة التي يجب عليه سلوكها في ترك ذلك المحرَّم وما لتاركه من الخير والثواب، وما على فاعله من الوِزر والعقاب، ولا يحقر صغيراً ولا كبيراً، ولا شريفاً ولا وضيعاً، فكم حصل بهذه الطريقة من تعليمٍ للجاهلين وإرشادٍ للغافلين، وتوجيهٍ للخير للمعرضين أو المعارضين.

وأَوْلَى مَنْ عَلى العالِمِ تعليمُه ونصحُه وإرشادُه بكل وسيلة مناسبة وطريقة ناجحة: الأهلُ والأولادُ والأقاربُ والأصحابُ والمعاملون والخلطاء؛

فكما أن حقوق هؤلاء مقدمة على غيرهم، فأحق الحقوق وأَوْلَاها التعليم والنصح ، والإرشاد والتوجيه للأمور النافعة والتحذير من الأمور الضارّة ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

إذا وُفِّق من عنده علم لهذه الأمور التي ذكرناها بحسب اقتداره لم يزل يغنم من الخيرات والثواب من الله كلما تسلسل نفعه وعمل بإرشاده، ثم ما ترتب على هذه الأعمال من الدعوات المستجابات ممن انتفعوا بإرشاده ونصائحه، فكم شاهدنا وشاهد غيرنا ممن وُفِّقوا للقيام بشكرٍ من أحسن إليهم ببعض هذه الأمور من التشكّرات والدعوات المتكررة كلما تذكروا نصائحه القيمة وإرشاده النافع، وهذه أمور لا يستهان بها، وإني أَذْكُر وأتَذَكّر كثيراً من الإرشادات التي وصلتني وأتحفني بها بعض إخواني ومشائخي الموجودين والمفقودين، بعضها من أعوام لا تقل عن خمس وأربعين سنة، كلما ذكرتها واستحضرت نفعها لي ولغيري، عرفتُ سعة فضل الله على أولئك المرشدين؛ وأن نفس إرشادهم من أجلّ العبادات ثم ما ترتب على آثارها عبادات متسلسلة، فجزى الله من وصل إلينا إحسانه، القليل والكثير، أفضلَ الجزاء، وتقبل الله سعيهم وضاعف لهم الأجور ونحمد الذي أوصل إلينا على أيديهم من الخير والفضل حمداً كثيراً طيباً مباركاً، لا يعدُّ ولا يحصى، فإنه تعالى المنعم المطلق على الجميع، أنعم بالأسباب ومسبباتها، ونسأله أن يتم نعمه على الجميع.

رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين، وأوزعني أن أشكر المحسنين والمرشدين ومن انتفعت بهم مشافهة أو مكاتبة، أو استفدت من كتبهم، فإن شكرهم من شكره، فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله.

الفصل التاسع عشر

في الثناء على التواضع وذمِّ الكِبْر

تكاثرت نصوص الكتاب والسنة في الأمر بالتواضع للحق والخلق والثناء على المتواضعين وذكر ثوابهم العاجل والآجل؛ كما تكاثرت بالنهي عن الكِبْر والتَّكَبُّر والتعاظم وبيان عقوبات المتكبرين، وقال تعالى:

﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣]

﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١]

فاستقيموا إليه واستغفروه فالعبودية لله وحدَه، وطاعته في أمره ونهيه، كل ذلك خضوع للحق، فإن أعظم الحقوق حقُّ الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فمن خضع لهذا الحق في أصول الدين وفروعه، فهو المتواضع الخاضع لله، ومن أَعْرَض عنه أو عارضه، فهو متكبر، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً، والنار قد أعدها الله مثوى للمتكبرين عليه المستكبرين عن العبودية لله، فالتواضع هو أصل الدين وروحه، والتكبر مناف للدين، وبهذا نستطيع أن نفهم حق الفهم قول ﷺ في الحديث الصحيح: (لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة خردل من كِبر)، وقوله عن الله تعالى أنه قال: (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته).

فكل من لم يخضع لله ولعبوديته وطاعته وطاعة رسوله فهو مستكبر؛ وقد فسّر النبي ﷺ التواضع والكبر تفسيراً عاماً شاملاً واضحاً يزيل كل إشكال ولا يحتاج بعده إلى مقال، فقال حين سئل عن الكبر: (الكبر بطر الحق وغمط الناس). ومفهومه أن التواضع ضده وهو قبول الحق والانقياد له وعدم احتقار الناس، فمن قبل الحق وانقاد له ولم يحقر أحداً وتواضع لعباد الله، فهذا هو المتواضع للحق وللخلق، وهو القائم بحقوق الله وحقوق الخلق؛ ومن

بطر الحق فردَّه ولم ينقد له وغمط الناس فاحتقرهم وازدراهم بقلبه وقوله وفعله، فهذا هو المتكبر؛ فعليك بهذا الحد الجامع المانع وطابق بينه وبين أحوال الخلق عموماً وأخلاقك خصوصاً. وعليك أن تجتهد وتجاهد نفسك على التحقق والاتصاف بخلق التواضع لله ولعباد الله لتكون من المفلحين، وإلّا كنت من الخاسرين.

أصل التواضع هو الالتزام الذي التزمه المؤمنون في قولهم: سمعنا وأطعنا، أي سمعنا يا ربنا ما قلته في كتابك وقاله نبيك، سَمْعَ قَبولٍ وإذعان، وأطعنا أمرك وأمر رسولك المنادي للإيمان، وهو الذي توسل به أولو الألباب عند ربهم في حصول ما يحبون وفي دفع ما يكرهون في قولهم:

﴿ربَّنا إنّنا سمِعنا مُنادياً ينادي للإيمان أنْ آمِنُوا بربِّكم فآمَنَّا﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٩٣]

أي إيماناً قلبيًّا بالتصديق واليقين والرغبة في العبودية، مستلزماً لأعمال الجوارح بالقيام بحقوق الله وحقوق الخلق، فهذا هو الإيمان الذي توسلوا به إلى مغفرة ذنوبهم وحصول مطلوبهم، وبهذا التواضع الكامل كَمُلَتْ أخلاقهم وأحوالهم كلها، وبترك هذا التواضع والاتصاف بضده استحق المتكبرون العقاب، وحُرموا من الصواب، قال تعالى:

﴿إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنمَ داخِرِين﴾

[سورة غافر: الآية ٦٠]

أي ذليلين، فكما استهانوا بعبادة الله أذلهم الله بالعذاب جزاء من جنس عملهم.

والتواضع أعظم نعمة أنعم الله بها على العبد، قال تعالى:

﴿فَبِمَا رحمةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لهم، ولوْ كنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا من حولِك﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]

وقال تعالى: ﴿وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم﴾ [سورة القلم: الآية ٤]

وهو قيامه ﷺ بعبودية الله المتنوعة وبالإحسان الكامل للخلـق، فكان خلقه ﷺ التواضـع التام الذي روحه الإخلاص لله والحنو على عباد الله ضد أوصاف المتكبرين من كل وجه.

فعلى كل عبد أن يلتزم التزاماً عاماً بلا استثناء تصديقَ الله ورسوله في كل أمر ونهي، بامتثال الأمـر بحسب القدرة واجتنـاب النهي، قال ﷺ: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فاءتوا منه ما استطعتم). ومَنْ كان كذلك فقد سلك طريق الاستقامة والصراط المستقيم، ولكن لا بد للعبد من تفريط في بعض الواجبات أو تجرؤ على بعض المحرمات، ولكن عليـه المبادرة عند ذلك للتوبة والاستغفار كما قال تعالى:

﴿فاستقيموا إليه واستغفروه﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٦]

وعلى العبد أن يتواضـع لعباد الله ويلين لهم، ويحبَّ لجميعهم الخير، وينصـحَ لهم في كل حالة من أحوالهم، ويحترمَ الكبير ويحنُوَ على الصغير ويوقِّرَ النظير ولا يحتقرَ الناقص في عقله وشرفه ولا الفقير: طوبى للمتواضعين وويل للمتكبرين المتجبرين.

للمتواضـع والمتكبر علامات لا تخفى على المتأملين.

المتواضـع ينقاد للحق مـع من كان، ولا يبالي بترك قول كان يقوله وينصره إذا اتضـح له الصواب؛ والمتكبر يتعصب لأقواله وأفعاله ويعجب بقوله ومقاله؛ يبين له الحق فيشمـخ بأنفه متكبراً عنه عجباً بنفسه وتيهاً، وبهذا الخلق نزل إلى أسفل الدركات.

المتواضـع يسلِّم على الصغير والكبير، والشريف والوضيـع، ويُقْبل بوجهه وقوله على من تصدى له حتى يقضي حاجته، ويعاشر كل أحد أكمل معاشرة؛ والمتكبر لا يسلم ولا يقبل بوجهه على الفقير والحقير وينأى بجانبه عن مجالستهم، ولا يهتم بشأنهم، وإنما يتصدّى ويعظم الرؤساء والكبراء

خاضعاً لهم بقلبه، معظِّماً لهم بلسانه، وهذا أكبر برهان معبرٍ عن رذيلته.
ما أقل حظ المتكبرين، وما أعظم خسرانهم المبين؛ خسروا بتكبرهم الإيمان والأخلاق الجميلة، وخسروا ما أعده الله للمتواضعين من الثواب وحصلوا على الوبال والعقاب، خسروا محبة الخلق على اختلاف طبقاتهم، فالناس جبلوا على محبة المتواضعين ومقت المتكبرين؛ ومن أظهر من الناس تعظيمهم ومحبتهم، فذلك زور ونفاق يذهب سريعاً.

ويح المتكبرين ما أعظم حمقهم وما أضلهم وأجهلهم، بأي وصف يتكبرون، وبأي عمل يتجبرون، من عَلِمَ أنه مخلوق فقير ناقص من كل وجه، فبأي شيء يتكبر، ومن فهم أن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة، فبأي شيء يعجَب ويفتخر؟ تالله إن الفخر كل الفخر بالتواضع لله ولعباد الله.

ما وصل للمنازل العالية إلّا بالتواضع، ولا أدركت الأخلاق الجميلة إلا بالانقياد للحق وتعظيم حقوق الخلق.

المتواضع حبيب إلى الله، حبيب إلى عباد الله، قريب من الخيرات بعيد من الشرور والمنكرات، والمتكبر بغيض إلى الله بغيض إلى عباد الله، بعيد من الإحسان والخيرات، قريب من الشرور والمنكرات؛ كم حصل للمتواضع من مودة وصداقات، وكم تم له من ثناء وأدعية من الناس مستجابات؛ كم جبر بتواضعه من فقير، وكم حصل له بالتواضع من خير كثير، ما تواضع أحد لله إلا رفعه، ولا تكبرأحد إلّا وضعه.

التواضع خلق الأنبياء والمرسلين، ونَعْتُ المتقين والمهتدين، والتكبر خُلُق الجبابرة الظالمين. التواضع يزيد الشريف شرفاً، ويرفع الوضيع حتى يصل إلى مقامات الأولياء والأصفياء.

ما أحلى خلق التواضع، وخصوصاً من الأغنياء والأشراف والرؤساء، وما أقبح الكبر من كل أحد، وبالأخص من الضعفاء والفقراء.

لقد سعد المتواضعون في الدنيا والآخرة، ولقد رجع المتكبرون بالذل والصفقة الخاسرة، قال تعالى:

﴿ولا تُصعِّر خدَّك للناس ولا تَمش في الأرض مَرَحاً إن الله لا يُحب كلَّ مختال فخور. واقصِدْ في مَشيك واغْضُضْ من صوتك إنّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير﴾ [سورة لقمان: الآيتان ١٨، ١٩]

وقال تعالى: **﴿واصبِرْ نفسَك مع الذين يَدعُون ربَّهم بالغَداةِ والعَشيِّ يُريدون وجهَه، ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زِينةَ الحياةِ الدُّنيا ولا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْنَا قلبَه عن ذِكْرنا واتَّبَعَ هواهُ وكان أمْرُهْ فُرُطاً﴾**

[سورة الكهف: الآية ٢٨]

فأمر في هذه الآيات بالتواضع، وذَكَر صفاتِ المتواضعين وهم الذين يريدون وجه الله، المخلصون لله المتضرعون لربهم في الغداة والعَشِيّ، الذين يمشون على الأرض هوناً ويخالقون الناس بخلق حسن، ولا يأنفون من أحد ولا يتعاظمون على أحد، ونهى عن التكبُّر وذَكَر من صفات المتكبرين أنهم الذين غفلت قلوبهم عن الله واتَّبعوا أهواءَهم وانفرطت عليهم أمورهم وخسروا دينهم، ودنياهم، وأنهم من تكبُّرِهم يمشون في الأرض مرحاً وبطراً ويصعِّرون خدودَهم على عباد الله ويختالون في قلوبهم وأفعالهم ويفتخرون بأقوالهم، فما أبعد الفرق بين الفريقين، وما أشد التفاوت بين الطائفتين في مقاصدهم وأقوالهم وأفعالهم وصفاتهم..

مَنْ تواضَعَ لله ولعباد الله كانت جميع اجتماعاته بالناس على اختلاف درجاتهم مغنماً يكسب بها الخيرات والمثوبة من الله، فإنه يلاقي الناس ويخاطبهم ويجتمع بهم ويعاشرهم بهذه النية الصالحة الفاضلة، وبالكلام

اللّين الطيِّب للغني والفقير، والشريف والوضيـع، لا يرى لنفسه عليهم فضلاً، ويوطِّن نفسه على ما استطاع من نفـع من اجتمـع به؛ فهذه النية وهذا العمل وهذه المعاشرة من هذا المتواضـع جميعُه قربة يتقرب بها إلى الله، ثم يترتب على ذلك محبة الناس وكثرة ثنائهم وأدعيتهم له، وهذا أفضل ما اكتسبه المكتسبون ونافس فيه المنافسون، وكل من سمـع بأخلاقه ولو لم يجالسه أحبه ودعا له، فمن أعظم الغبن والخسران الاستهوان بهذه الأمور الجليلة والخصال الجميلة التي لا تُدرَك وتُنال إلّا بخلق التواضـع والإخلاص.

الفصل العشرون

في ذكر بعض الأسباب التي أعان الله بها المؤمنين على أداء الفرائض وعلى اجتناب المحرَّمات على وجه الإجمال والاختصار.

هذا الدين كلُّه رحمة وفضل من الله، وكله تسهيل وتيسير، وكله يشتمل على أشرف الوسائل وأعلى المقاصد؛ فأول رحمته وتسهيله أنه جعل عقائده وأخلاقه غذاء للقلوب والأرواح، وبها صلاحها واستقامتها، وأعماله أكمل الأعمال وأهداها وأعدلها وأسهلها، قال تعالى:

﴿يريدُ اللَّهُ بِكُمُ اليسرَ ولا يُريد بكمُ العُسْرِ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٨٥]

﴿وَمَا جَعلَ عليكم في الدين من حرج﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٧٨]

وقال: ﴿طَه. مَا أنزلْنا عليكَ القرآنَ لتشقَى. إلّا تذكرةً لمنْ يَخشى﴾

[سورة طَه: الآيات ١ ــ ٣]

فأخبر أنه لم يُنزِلِ القرآن ليشقى العباد ويتكلفوا ويشقَّ عليهم ويحرجوا، وإنما أنزله للتذكير بكل خير وصلاح كما قال:

﴿ونُنَزِّلُ من القرآنِ ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمُؤْمنين﴾

[سورة الإسراء: الآية ٨٢]

وقال: ﴿قُلْ بفضلِ اللّهِ وبِرَحمتهِ فَبِذلكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خيرٌ ممّا يجمعون﴾

[سورة يونس: الآية ٥٨]

فأمر بالفرح بفضله وبرحمته، وهي العلوم والمعارف الدينية والشرائع والأعمال التي أمر العباد بسلوكها، والفرح لا يكون إلّا بمحبوب للنفوس، بل هي أعظم من فرح أهل الدنيا واللذات والرئاسات، وسائر ما يتمتع به الخلق بما يجمعون.

ولما ذكر شرائع الطهارة من الأحداث والأخباث والتيمم والماء بيَّن حكمته، وأنها خير ورحمة عاجلة وآجلة لا مشقة فيها، فقال:

﴿ما يُريد اللّهُ لِيَجْعَلَ عليكُم مِنْ حَرجٍ، ولكن يُريدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعْمتَه عليكم لعلّكم تَشْكُرون﴾

[سورة المائدة: الآية ٦]

فعلى العباد شكرُ اللّهِ على ما شَرَعه لهم من الشرائع الظاهرة والباطنة التي يحصل بها لهم مقصودان عظيمان: التطهير من الذنوب والسيئات، وتمام نعمته بالثواب والأجر والخير والدرجات، وكم ذكر الله من الآيات التي شرح فيها ما في شريعته وأوامره من الخير والبركة والثواب العاجل والآجل، وما فيها من دفع البلايا والشرور والمكاره الحاضرة والمستقبلة، وكل هذا أعظم عون منه لعباده على التزام شريعته والانقياد الكامل لها بطمأنينة وفرح وسرور؛ وكلما كانت معرفة العبد أكمل وإيمانه أتم ظهر له من بركة هذه الشريعة وخيرها ما يوجب له أن يعلم أنها أكمل مِنَّة وأفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأنها أعظم ما يتنافس فيه المتنافسون ويغتبط به المغتبطون.

ومما يعين على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ما رتَّب على ذلك من

الثواب واندفاع العقاب العاجل والآجل، الديني والدنيوي والأخروي، ولهذا يذكر الله هذا المعنى في طاعته وطاعة رسوله عموماً، وفي بعض الشرائع المهمة خصوصاً، فمن الأول قوله تعالى:

﴿وأطيعوا اللَّهَ والرسولَ لعلكم تُرحمون﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٢]

فأخبر أن الرحمة والخير والمنافع العاجلة والآجلة ناشئةٌ عن طاعته وطاعة رسوله، ونظيرها قوله تعالى:

﴿ورحمتي وَسِعت كلَّ شيءٍ، فسأكْتُبها للذينَ يَتَّقُون ويُؤتونَ الزكاةَ والذينَ هُم بآياتِنا يؤمنون. الذينَ يتَّبعون الرسولَ النبيَّ الأمِّيَّ﴾

[سورة الأعراف: الآيتان ١٥٦، ١٥٧]

فبيَّن أن هذه الأمور التي تحتوي على الشريعة كلها سيكتب الله لأهلها رحمته المتصلة بالسعادة الأبدية:

﴿إنّ رحمةَ اللَّهِ قريبٌ من المحسنين﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٦]

أي في عبادة الله وإلى عباد الله؛ وأخبر أنه يحب المؤمنين والصابرين والمتقين، وحين ذكر أوصاف المسلمين عامة في قوله:

﴿إنّ المسلمين والمسلمات﴾ ـ ثم عدَّدها، ثم قال في ثوابهم ـ: ﴿أعدَّ اللَّهُ لَهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

وقال: ﴿وَمَنْ يتَّقِ اللَّهَ يجعلْ له مخرجاً. ويرزُقْهُ من حيثُ لا يحتَسِبُ ومن يتوكَّلْ على اللَّهِ فهو حَسْبُهُ﴾ [سورة الطلاق: الآيتان ٢، ٣]

﴿ومن يَتَّقِ اللَّه يجعَلْ لهُ مِنْ أمرِه يُسراً. ذلكَ أمرُ اللَّهِ أنزلَهُ إليكمْ ومن يَتَّقِ اللَّهَ يكفِّرْ عن سيِّئاتِهِ ويُعْظِمْ لَهُ أجْراً﴾ [سورة الطلاق: الآيتان ٤، ٥]

فهذا صريح أن القيام بفرائض الله وترك محارمه الذي هو التقوى سبب لتفريج الكربات والمخارج من كل ضيق وشدة، وسبب لتيسير الأمور كلها

وتيسير الأرزاق المتنوعة، وتكفير السيئات وتعظيم الأجور، فخيرات الدنيا والآخرة وزوال الشرور في الدنيا والآخرة سببه الوحيد الذي لا سبب له سواه، القيام بالتقوى والشريعة الدينية، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالّة على هذا المعنى العام.

ومن الثاني ما تقدم من ذكر ما يترتب على الطهارة من التطهير وتمام النعمة من الله، وقوله بعد أن حث على الجهاد مع المشاق فقال:

﴿إِنْ تكونوا تألَمونَ فإنهم يألَمونَ كما تألَمُونَ وتَرجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرجُون﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٤]

وقال في الحث على النفقات:

﴿وما أنفقتُم مِنْ نفقةٍ أوْ نَذرتُمْ من نَذْرٍ فإنَّ اللَّهَ يَعْلَمُه﴾
[سورة البقرة: الآية ٢٧٠]

﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخْلِفُهُ وَهُوَ خيرُ الرَّازقين﴾
[سورة سبأ: الآية ٣٩]

ومَثَّل نفقات المجاهدين ومضاعفة أجرهم بقوله:

﴿مَثَلُ الذين يُنْفِقون أموالَهُم في سبيلِ اللَّهِ كمثلِ حبةٍ أَنبتتْ سبعَ سنابلَ في كلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حبّة﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦١]

إلى آخر الآيات.

ولما ذكر فرض الصيام بيَّن حكمته وفضله فقال:

﴿يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ على الذين مِنْ قَبلِكُم لعلّكم تَتَّقُون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٣]

فبيَّن أنّ بالصيام تنال التقوى، والتقوى سبب خيرات الدنيا والآخرة ومن الأمرين قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اركَعوا واسْجُدوا واعبُدوا ربَّكم وافعلوا الخيْرَ لعلكم تفلحون﴾ [سورة الحج: الآية ٧٧]

فرتَّب حصول الفلاح، الذي هو الفوز بكل مطلوب والنجاة من كل مرهوب، على الصلاة خصوصاً؛ وعلى العبادة وفعل الخير عموماً. ومن ذلك ما رتّبه على الحج في قوله:

﴿لِيَشْهدُوا منافِعَ لهم﴾ [سورة الحج: الآية ٢٨]

وهذا يشمل المنافع الدينية والدنيوية، الحاضرة والمستقبلة، والآيات في هذه المعاني كثيرة جداً يُرَغِّب الله العباد في العبادات عموماً وخصوصاً، وفي ترك المحرّمات بما يحصل بها من الخيرات المتنوعة. ومن ذلك قوله ﷺ: (مَنْ أحب أن يُنسأ له في أثره ويُبسط له في رزقه فَلْيَصِلْ رَحِمَه)، متفق عليه، وقوله: (ينزل كل صباح ملكان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً)، متفق عليه. وقوله: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه)، والحديث في الصحيح، وكذلك نصوص لا تحصى فيها ترتيب الثواب الحاضر والمؤجل على القيام بطاعة الله امتثالاً للأمر واجتناباً للنهي والإخبارُ بأنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره:

﴿وَمَا تُقَدِّموا لأنفُسِكم مِنْ خيرٍ تجدوهُ عندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وأَعْظَمَ أجراً﴾ [سورة المزَّمِّل: الآية ٢٠]

فكلها إعانة من الله لعباده على أعمال الخير كلها، فإنه متى آمن المؤمن ووثق بوعد الله، وقوي طمعه في فضله، هانت عليه الطاعات، وهانَ عليه ترك المحرمات، وكثيرٌ من المؤمنين يستحلي طاعة الله لإيمانه بالله وقوة محبته له، وطمعه في فضله وثوابه واعتياده للطاعة.

ومن الأمور المعينة على ذلك ما شَرَعَهُ الله من المشاركة في أداء الفرائض، كما شرع الاجتماع في الجمعة والجماعة والأعياد، وكما شرع المشاركة في صيام رمضان؛ وفي حج بيته الحرام، وكل أحد يفهم أن هذه المشاركات تخففها على العاملين، وتهون مشقتها مع ما يحصل في الاجتماع من التنافس في الخيرات وقوة الرغبة التي هي أكبر الأسباب لسهولة العبادة.

ومن المسهلات ما شَرَعه الله من العقوبات والتعزيرات الشرعية على من ترك الواجبات؛ أو تجرَّأ على المحرمات، وذلك بحسب الجرائم، فالحدود رحمة من الله وزجر ومنع عن وقوع المحرمات وكثرتها. فالحدود والعقوبات الشرعية، وكذلك الموانع القدرية معونة كبيرة من الله لعباده على اجتناب الجرائم، قال تعالى في الموانع القدرية:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لعبادِه لَبَغَوْا في الأَرْضِ﴾

[سورة الشورى: الآية ٢٧]

فأخبر أن تَوَفُّرَ اللذات وحصولَ الأرزاق الرغيدة لكل أحد سبب للبغي في الأرض، ولكن من لطفه ينزل بقدر ما يشاء.

ومن لطفه بعبده أن محبوباته النفسية المحرّمة لا يكاد يقدر عليها حفظاً له وحماية.

ومن لطفه أنه ما من محبوب محرَّم إلاَّ ويوجد نظيره، أو ما هو أعلى منه من المباح ليكتفي العباد بحلاله عن حرامه.

ومن لطفه أنه يدفع عن عبده من أسباب الفتن أموراً يشعر بها وأموراً لا يشعر بها إعانةً منه وكرماً وحفظاً، فكم صرف عن العبد أموراً يسعى لتحصيلها ويرى حظه في حصولها، والله تعالى قد صرف عنه ما يضره قال تعالى:

﴿وعسى أَنْ تكرَهُوا شيئاً وَهُوَ خيرٌ لَكُمْ، وعسى أَنْ تُحِبُّوا شيئاً وهو شَرٌّ لكم، واللَّهُ يعلَمُ وأنتُمْ لا تعلَمون﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٦]

ومن أنواع الإعانات أنّ الله يوقع العبد في الحاجات والضرورات لتضطره الأحوال للالتجاء إلى الله والإقبال على طاعته وكثرة ذكره ودعائه فقد بورك لك في أمر وحاجة وضرورة كانت سبباً لصلاح دينك.

ومن إعانته لعبده في القيام بواجباته الحياءُ الذي اختص به الآدمي، فإن

الحياء خُلقٌ جعله الله في العبد يمنعه من كثير من الجرائم ويحمله على أداء الحقوق التي لله والتي للعباد، ولهذا كان الحياء شعبة من شعب الإيمان وكان الحياء لا يأتي إلّا بخير؛ وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فافعل ما شئت). فأخبر ﷺ أن هذا مما اتفق عليه الرسل، وأن الله وضعه في العباد رحمة بهم، لِيَزَعَهُمْ عن المنكرات والفواحش، وأن من نُزع منه الحياء لم يبالِ بما صنع. وهو نوعان: حياء من الله وحياء من الخلق، ومن تم له الأمرانِ تمت أموره ومن فقد الأمرين انحلت أخلاقه بالكلية.

وكما أن منعه للعبد محبوباتِه قد يكون سبباً باعثاً له على الخير حاجزاً له عن الشر، كذلك إعطاؤه لعبده ما يُحبه من صحة وعافية وسعة رزقٍ وولدٍ وتوابعَ ذلك قد يكون أكبرَ باعث له على الخير والقيام بالواجبات؛ وخصوصاً أصحاب النفوس الأبية والهمم العلية، فإنهم كلما توفرت عليهم النعم ازداد شكرهم ورأوها من أكبر الفرص وأعظم الغنائم لاغتنام الخيرات بهذه النعم التي من بركتها أن تكون زاداً للعبد إلى السعادة الأبدية، ولهذا قال ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ)؛ فأكثر الناس فوَّتوا هذه النعم فيما لا يجدي عليهم إلّا الندم والخسارة، والقليل منهم وهم الأعظمون عند الله قدراً لم يغبنوا فيها، بل صرفوها فيما يعود عليهم بالنفع والسعادة والفلاح، فتبارك من يُنْعم بالعطاء والمنع والوجود والفقد، عجباً لأمر المؤمن إنّ أمرَه كلَّه خير، إن أصابته سرّاء شكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.

ومن أعظم عنايته للعبد أن يوفقه لقوة التوكل عليه، فإن من توكل عليه كفاه وسهَّل عليه أمور دينه ودنياه، فمتى أُيِّد العبد بقوة التوكل، ورُزِق صبراً أعانه الله على كل مطلوب، والله الموفق.

ومن أعظم الرحمة والإعانة ترجيح جانب الفضل والمجازاة على

الحسنات على جانب العدل، والمجازاة على السيئات ترجيحاً عظيماً؛ ففي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات، فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، فإن عملها كتبها الله عنده عشرَ حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هَمّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن عملها كتبها سيئة واحدة)، وقال: (من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مُقيماً، ونزل من نوى الخير وعمل ما يقدر عليه منه بمنزلة الفاعل له)؛ قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بيتِه مُهاجِراً إلى اللَّهِ ورسولِه ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموتُ، فَقَدْ وَقَـعَ أجرُه على الله﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٠]

وجعل آثار الأعمال التي تعمل بسبب دعاية العبد، أو بداعي الاقتداء به جعلها من الأعمال التي تكتب للعبد في حياته وبعد مماته، قال تعالى:

﴿إنّا نحنُ نُحْيِي الموتَى ونكتُبُ ما قَدَّمُوا وآثارَهُم﴾

[سورة يٓس: الآية ١٢]

وقال ﷺ: (إذا مات العبد انقطـع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية؛ أو علم ينتفـع به من بعده؛ أو ولد صالـح يدعو له)، والحديث في الصحيـح.

فهذه النعم والمضاعفات من المولى الكريم التي لا يدركها العبد بعمله ومباشرته من أكبر العون منه لعباده على التزود من الخيرات واغتنام الفرص فيها وخفتها على العاملين.

وكذلك من لطفه أنّ من ترك شيئاً لله عَوَّضه الله خيراً منه في الدنيا والآخرة. ومن ترك شيئاً لله لم يجد فقده، وجعل تعالى كثيراً من الطيبات النافعة المباحة يستغني بها المؤمن عن الأمور المحرمة، فيسهل عليه جدًّا ترك المحرمات لدواع كثيرة: داعي الإيمان، وداعي الخوف من الله وخـوف العقوبات المتنوعة، وداعي الرغبة في حصول الخيرات، والثواب المترتب على ترك المعاصي، وداعي الحياء من الله ومن خَلْقِه، وداعي المحبة والإنابة

إلى الله، وداعي صرف الشهوات والهوى والغضب إلى الأمور التي أباحها الله وأمر بها. ثم الإعانة الربانية والتسهيلات والتيسير منه على عبده وحفظه الخاص، وألطافه المتنوعة لها أعظم الوقع وأعظم النفع في التوجيه إلى فعل الخيرات وترك المنكرات، فلا يهلك بعد ذلك على الله إلاّ الفاسقون الذين دُعُوا إلى الرحمة فشردوا، ونُهِجَت لهم الطرق الواضحة فنَكَبوا عنها وتمرَّدوا.

كم لله تعالى على العباد من نِعَم وألطاف، وكم له من التخفيفات المتنوعة على الأقوياء والضعاف، وكم أقام الموانع والحواجز القوية عن اقتحام المحرَّمات، وكم سهَّل التسهيلات الداخلية والخارجية في نيل الخيرات والوصول إلى الكرامات، فسحقاً وبعداً للمعرضين والمعارضين، ويا ويح الغافلين والمتجرِّئين والظالمين، ويا سعادة المقبلين على محبوبهم، ويا نجاحهم وفلاحهم بنيل مرادهم ومطلوبهم، لقد فازوا بالغنائم الرابحة، ولقد اغتبطوا في الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

تبارك الله ما أعظم التفاوت بين العباد، وما أشد التباين بينهم في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. هذا قلبه ملآن من الإخلاص والصِّدق واليقين، وسعيه كله فيما يقرِّبُهُ إلى رب العالمين، قد عرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاجتنبه، وهذا قلبه متعلق بالشهوات البهيمية ولم يكن له في الخير رغبة بالكلية، أعرض عن النافع وأقبل على الضارِّ، ولم يبال بالعواقب الوخيمة والخزي والخسار، وعند الغاية يتبين الفرق بين الفريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير؛ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون.

الفصل الحادي والعشرون

في دلالة الكتاب والسنة على الفنون والمخترعات العصرية

قال تعالى: ﴿ما فَرَّطْنا في الكتاب مِنْ شيء﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٨]

وقال تعالى: ﴿تبياناً لكُلِّ شيء﴾ [سورة النحل: الآية ٨٩]

وقال تعالى: ﴿واللَّهُ خَلَقَكُمْ وما تَعْمَلون﴾ [سورة الصَّافَّات: الآية ٩٦]

وقال تعالى: ﴿عَلَّم الإنسانَ ما لم يَعلَمْ﴾ [سورة العلق: الآية ٥]

وقال تعالى: ﴿هُوَ الذي خَلَقَ لكُم ما في الأرضِ جميعاً﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٩]

وقال: ﴿وسَخّر لكم ما في السمٰواتِ وما في الأرض﴾

[سورة الجاثية: الآية ١٣]

وقال: ﴿إنّ في خلقِ السَّموات والأرض... لآيات﴾

[سورة البقرة: الآية ١٦٤]

وقال تعالى: ﴿وأنزَلْنا الحديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس﴾

[سورة الحديد: الآية ٢٥]

وقال تعالى: ﴿والخيلَ والبِغالَ والحميرَ لتركَبوها وزينةً ويخلُقُ ما لا تعلمون﴾ [سورة النحل: الآية ٨]

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على هذا الأصل.

اعلم أن علوم البشر السابقة واللاحقة وما يترتب عليها من المعارف والأعمال والنتائج والثمرات نوعان:

علوم دينية وعلوم دنيوية؛ وكل رقي ديني ودنيوي وأخلاقي وجسدي فإنه من ثمرات العلوم؛ ولكن الرقي يتفاوت تفاوتاً عظيماً.

فأعظم أنواع الرقي وأعلاه وأصلحه وأكمله إذا اتفق العِلمان المذكوران

واتفقت آثارهما وتعاونا على الخيرات كلِّها وعلى زوال الشرور كلها، وكلها متفاوتات متساعدات يؤزر بعضُها بعضاً، ويهذِّب بعضُها بعضاً؛ فمن تأمل هذا القرآن العظيم وهديَ النبي الكريم وخلفائه وأصحابه عرف أنه بَيَّـنَ النوعين، وحثّ عليهما ودعا إليهما، وأخبر أن النجاح والفلاح والسعادة والهناء متوقف عليهما، وأنه يساير الأوقات والعصور والأحوال كلها، ويطبق تعاليمه العالية على جميـع ما حدث ويحدث ويستجد مهما كان، وأن كل علم ومعرفة وآثار ونتائـج مهما عظمت وترقّت، إذا لم تكن مبنية على الدين، فإنَّها ناقصة نقصاً عظيماً، وأن شرَّها أعظم من خيرها، بل تكون خيراتها سبباً لشرور عظيمة كما هو معروف للناظرين.

وقد أخبر في هذه الآيات أنه خلق لنا جميـع ما في الأرض، وسخّره لنا نستمتـع به وننتفـع، وأنه خلقنا وخلق أعمالنا، بما يسّر وسخّر لنـا من الأسباب، وأنه علم الإنسان ما لم يعلم، وأن الإنسان جعله الله قابلاً لتعلُّم العلوم التي جاءت بها الكتب السماوية ودعت إليها الرسل، وللعلوم الكونية التي نبّه عليها القرآن في عدة آيات، وأنه امتنَّ على الإنسان بهذا التعليم وظهور آثاره ونتائجه، وأمره بسلوك كل طريق لتحصيل هذه المنافع، وهذا العموم والشمول في هذه الآيات يأتي على جميـع الفنون والعلوم العصرية، وما ينشأ من هذه الفنون من المخترعات الهائلة وما يترتب عليها من المنافـع الحاصلة، وكلها من نعم الله؛ فإن الله تعالى هو الذي علم الإنسان بالأسباب التي حصل له فيها العلم، كما أنه هو الذي رزقه بالأسباب التي جعل الله رزقه فيها؛ وهو الذي جعل في الأرض المنافـع المتنوعة، وهو الذي يَسَّر الأسباب التي تُدرك بها هذه المنافـع، وأمرهم بالتفكُّر والتدبُّر والتأمُّل الذي يوصلهم إليها ويهديهم إلى كيفية استخراجها، وربط البشر بعضهم ببعض في علومهم ومعارفهم، وفي آثارها ونتائجها، وجعل تعالى هذا الارتباط المتنوع من أقوى الأسباب التي يدركون فيها كل مقدور للبشر وكل ما هو في إمكانهم.

وهم في هذه الحالة بين أمرين: إما أن يستعينوا بهذه النعم على شكر المنعم وعلى القيام بحقوقه وحقوق سائر النوع الإنساني، بل على القيام بحقوق جميع المخلوقات، وعلى العدل والرحمة والحكمة والصلاح والسعادة الحاضرة والمستقبلة، إن فعلوا ذلك لم يزالوا في صعود إلى الخيرات وسلامة من جميع الشرور والمهلكات، وتمت عليهم النعمة وأمكنهم أن يحيوا حياة طيبة سعيدة هنيئة، وبهذا أمر القرآن ولهذا دعا القرآن وأرشد العباد.

وحذَّرهم من ضده: وهو أنهم إن اشتغلوا بالنِّعم عن المُنعم، وجعلوا هذه النعم غاية مطلوبهم ونهايةَ مرادهم، ولم يقوموا بحقوق المُنعم، ولا حَنُّوا بها على الخلق بالرحمة والعدل، كانت وبالاً عليهم وضرراً لازماً، وصارت آلاتٍ ووسائل للهلاك والدمار والشقاء، ولم يمكنهم أن يعيشوا في هذه الدنيا عيشة هنيئة، بل عيشة شقاء وتنقل من شرور إلى شرور، كما هو مشاهد لكل أحد.

أخبر تعالى في هذه الآيات أنه سخّر لنا جميع الأحوال الكونية لننتفع بها في ديننا ودنيانا، ولنعتبر بها على ما أخبر به من أمور الغيب ومن لوازم هذا التسخير أنه لا بد أن يُيَسِّرَ للبشر علوماً وأعمالاً وآلاتٍ يدركون بها منافعهم، وهذه الآيات فيها أكبر شاهد ودلالة على أن في الأرض قوى ومنافعَ وخزائنَ لا زال البشر يدركونها ويحصِّلونها شيئاً بعد شيء؛ فكل ما تمَّ للبشر من المخترعات والمستخرجات فإنه داخل في هذه الآيات، فإنه أخبر أن جميع منافعها مسخّرة مستعدة للإنتاج إذا سلكوا طرقها، وأن منها ما كان موجوداً في الأزمنة الغابرة ومنها شيء سيحدث ويستخرج بعد ذلك في قوله:

﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [سورة النحل: الآية ٨]

فإنه جاء بهذه الصيغة الدالّة على الاستقبال، وإنه سيخلق في مستقبل الزمان

بتعليم الخلق وإقدارهم وتمكينهم من الأسباب المتنوعة ما لا يعلمه العباد في ذلك الوقت.

ولم يعين هذه الأشياء بأعيانها وأوصافها، بل أخبر باللوازم الدالّة على الملزوم لحكمة يفهمها كل متدبر متأمل، فإنه لو أخبرهم في ذلك الوقت بأوصافها وقال لهم أنها ستكون الطيارات والمراكب البخارية بأنواعها، وأن الناس سيتخاطبون في مشارق الأرض ومغاربها في أسرع من لمح البصر، وأنه سيكون كذا وكذا مما هو واقع ولا يزال يقع، لو أخبرهم ببعض ذلك لارتاب الناس من خبره، ولكان ذلك داعياً قوياً إلى التكذيب لأن الناس لا يصدقون بأمر لم يشاهدوا له نظيراً، انظر لما أخبرهم بالإسراء والمعراج والشجرة الملعونة في القرآن، كيف كان ذلك فتنة للمكذبين، مع أن معجزات الأنبياء قد عرف الناس أنها من خوارق العادات، وأنها تقع على خلاف المعهود، فكيف لو أخبرهم بما حدث ويحدث في هذه الأوقات؟ ولكن ولله الحمد أخبر بنصوص متعددة بإخبارات عامة وبلوازم تدلّ على جميع ما حدث ويحدث.

وكل المخترعات، وإن عظمت، يسهل جداً تطبيق النصوص عليها، وإذا وُجِدَتْ ظَهَرَ بها معجزة القرآن حيث أخبر بأمور ولوازم لها ملزومات من أبعد الأشياء في عقول الخلق ثم وقعت طِبق ما أخبر، فازداد المؤمنون بها إيماناً بالله ورسوله، وازداد المكذبون إعراضاً ونفوراً وتمرُّداً قال تعالى:

﴿إنَّ الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون. ولو جاءتْهُمْ كلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾

[سورة يونُس: الآيتان ٩٦، ٩٧]

﴿سأصرِفُ عن آياتي الذينَ يتكبَّرونَ في الأرض بغيرِ الحق﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٤٦]

وكما أن الأرض محتوية على منافع عظيمة سخّرها الله للآدميين،

كذلك أخبر أن الحديد فيه منافع للناس، ولم يقل المنفعة الفلانية والفلانية ليشمل جميع المنافع التي تستخدم بالحديد سابقاً أو لاحقاً؛ فكل منفعة استخرجت من الأرض أو من الحديد منفردة أو مقرونة بغيرها أو مساعدة لغيرها من الأسباب، فإنها داخلة في هذه الآيات، وكل تعليم حصل للبشر في العلوم الدينية والدنيوية والكونية، فإنه داخل في قوله:

﴿عَلَّمَ الإنسانَ ما لمْ يعلمْ﴾ [سورة العلق: الآية ٥]

فلا يمكن أن يشذَّ عن هذه العمومات شيء من العلوم والفنون والمنافع والمخترعات والمستخرجات والنتائج والثمرات؛ وكلها من الله بما يسَّر للعباد من الوسائل التي يدركونها بها، فمن الذي علّمهم، ومن الذي أقدرهم عليها، ومن الذي جعل فيها القُوى والمنافع الكامنة وهداهم إلى استخراجها إلّا الله تعالى، كما أنه هو الذي يحيي ويميت ويرزق الخلائق ويدبِّرُ أنواع التدابير بما خلق ويسَّر من الأسباب الموصلة إلى هذه الأمور، ولكن الجاحد قاصر النظر يقف عند الأسباب ولا يتجاوزها إلى مسببها ومقدرها والمنعم بها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنَا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حتَّى يَتَبيَّـنَ لهمْ أنه الحقُّ﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٥٣]

فهذا خبره تعالى عن أمور مستقبلة أنه يُرِي عبادَهُ من الآيات والبراهين في الآفاق وفي الأنفس ما يدلهم على أن القرآن حقٌّ والرسول حقّ وما جاء به هو الحقّ، وقد أراهم من آثار تعليم الله لهم وإقدارِه لهم وتيسيرِه للأسباب المتنوعة في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبين به لكل منصف أن خبر الله وخبر رسله حق، فإن المكذبين يستبعدون خبر الله وخبر رسله عن الغيوب التي لا تدركها عقولُهم وأفهامهم القاصرة فأراهم في هذه الأوقات أموراً فيها الدلالة الواضحة على ذلك، فإن الذي أقدر الآدميَّ الذي خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، فعلَّمه وأَقْدَرَهُ ويَسَّر له الأسباب التي تنتج له الأعمال الباهرة بعدما كانت هذه الأمور من المحالات عندهم. ذلك برهان على صدقه وصدق

رسله؛ فقد كان المكذبون يستبعدون إحياءه الموتى وجمعَهم ليوم لا ريب فيه، ولا يصدقون بالإسراء ومِعراج الرسول، ولا بأنه تعالى ينادي الخلق بصوت يسمعه القريب والبعيد، وينكرون التخاطب بين أهل الجنة والنار مع البعد المفرط، مع أن أمور الغيب مخالفة لأمور الشهادة، فأراهم الله في الآفاق وفي أنفسهم من مخترعاتهم وعلومهم وفنونهم، من المراكب الهوائية والبحرية والبرية بأصنافها ومن المخترعات الجهنمية ومن المخاطبات المتنوعة بين أهل الأقطار ما يدلهم على أن الله هو الحق ورسوله ودينه ووعده ووعيده، ولكن أبى الظالمون إلّا نفوراً واستكباراً.

والحديث الثابت في الصحيح صريحٌ في هذا فإنه أخبر ﷺ أنه يتقارب الزمان، فظهر مصداقه في هذه الأوقات بقرب المواصلات واتصال الأخبار بجميع أهل الأقطار، حتى كأن الدنيا كلها بلد واحد من تقارب ما بينهما، وتقارب الزمان يلزم منه تقارب المكان، وقد كان هذا الحديث مشكلاً معناه على أهل العلم قبل هذا الوقت، فلما تَمَّ للبشر ما تَمَّ لهم من هذا التقارب الباهر لم يشكَّ أحد أن هذا مراد الحديث، وأن من لوازم إخباره ﷺ بذكر وجود الأسباب المتنوعة التي يحصل بها التقريب، لأن إخبار الشارع بالشيء إخبار به وبما لا يتم إلّا به، كما أن أمره بالشيء أمر به وبما لا يتم إلّا به، والوسائل لها أحكام المقاصد.

وكذلك إخباره بأنها لا تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً، والحديث في صحيح مسلم. من ذا الذي يخطر بباله قبل هذه الأوقات أن هذه الجزيرة القاحلة تكون على هذا الوصف، حتى ظهر مصداق ذلك ومباديه بتيسير أمور الحراثة واستخراج المياه بالآلات الحديثة، فخبره بذلك خبر عن الأمرين: عما يقع وعما به يقع عن الجزيرة أنها ستكون مروجاً وأنهاراً، وعن الآلات التي تستخرج بها المياه ونحرث بها الأراضي وتتيسر الأعمال.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وأَعِدُّوا لَهُمْ ما ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾
[سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وقوله: ﴿وخُذوا حِذْرَكم﴾ [سورة النساء: الآية ١٠٢]

فهذا الأمر في كل زمان ومكان، وفي كل حال بما يليق بها، وهو أمر بتعلم العلوم والفنون العصرية التي فيها التحصُّن من الأعداء والحذر منهم وإعداد القوة بحسب الاستطاعة، والأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلّا به، فلا ريب أن هذا أمر بتعلم الصناعات والمخترعات ولكل ما يحصل به إعداد القوة المُرْهِبة للأعداء، من القوة المادية والمعنوية، فمن ظن أنها لا تدخل فيها فلقصور علمه وعقله، ولهذا أطلق الله في الآيتين إعداد القوة والأخذ بالحذر ليشمل كلَّ ما حصل به هذا الأمر الضروري النافع. بل جميع الأوامر التي يأمر الله فيها بدفع عدوان الأعداء ومقاوماتهم بكل طريق تدلُّ على وجوب تعليم الفنون الحربية والصناعية وما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب، وذلك داخل في الجهاد، جهاد المقاومة وجهاد المدافعة.

ومن ذلك إخباره بأنهم ﴿من كل حدب ينسلون﴾
[سورة النساء: الآية ٩٦]

الحدب الموضع المرتفع ـ والنسلان الإسراع ـ فإذا أخبر أنهم من كل حدب، أي مكان مرتفع ومنخفض، لأن الإخبار بالمرتفعات الصعبة المتعسِّرة يدل من باب أَوْلَى وأحرى أن السهول كذلك، وهذا دليل على أمرين عظيمين:

أحدهما: الإخبار بقرب المواصلات، فإن ﴿كل حدب﴾ من أدوات العموم، وإن هذا الحديث سيشمل جميع الأقطار في غاية ما يكون من السرعة.

والثاني: الإخبار بحدوث ما به يحصل هذا الإسراع الشامل لكل حدب، وهو هذه المخترعات الحديثة؛ فإن الإخبار باللازم إخبار بالملزوم

وبالعكس، والإخبار بالشيء إخبار بالوسائل والأسباب التي توصل إليه وهذا واضح، فالوسائل تدل على المقاصد، والمقاصد يعرف بها حصول الوسائل.
ومن ذلك امتنانه على العباد بما يَسَّره لهم من الفلك البحرية، وأنها من أكبر نعمه التي تحملهم وتحمل أثقالهم وأمتعتهم؛ ويحصل فيها تبادل المنافع المتعددة، وذلك يدل دلالة واضحة أن الصناعات التي يحصل بها هذا الجنس النافع ـ بل الضروري ـ الذي نفع العباد في أمور دينهم ودنياهم أن تعلُّمَها مما يُحِبُّه الله ومما يأمر به.

وهنا آيات كثيرة في هذا، ولكن هنا آية تشاركها في هذا المقصد وتمتاز عنها بشمولها لجميع أصناف الفلك البحرية والبرية والهوائية، وهي قوله تعالى:

﴿وآيةٌ لَهُمْ أَنَّا حَملْنا ذريَّتَهُم في الفُلكِ المشحون﴾

[سورة يٓس: الآية ٤١]

أي وآية للعباد على كمال قدرة الله وتفرده بالوحدانية وسعة رحمته وصدق رسله، أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون فإنه لما كان القرآن خطاباً لأول هذه الأمة وآخرها، والقرآن أوسع المعاني وأشملها، وقد علم الباري جل جلاله بعلمه المحيط أن الفلك المتنوعة، من سفن بحرية ومن قطارات وسيارات برية، ومن طائرات هوائية بجميع أنواعها ـ علم تعالى أنها تتسع جداً في آخر الزمان، وأنه لا يدركها هؤلاء المخاطبون أولاً، وإنما تدركها ذرياتهم، قال: ﴿ذريتهم﴾ فإنه لما كان جنس الفلك موجوداً وهي السفن التي يعرفونها صرح به كما صرح بما كان أصله موجوداً في ذلك الوقت، ولكن الصناعة رقَّته ونوَّعته وفرّعته.

وهذا التفسير في هذه الآية نظير التفسير الذي أشرنا إليه في قوله ﷺ يتقارب الزمان، وأن أهل العلم قبل وقوعه تضاربت أقوالهم فيه بمحتملات بعيدة، كذلك هذه الآية الكريمة، فسروا الذُّرِّية بوجوه بعيدة عن اللفظ

والمعنى، حتى حملها كثير من المفسرين، على أن المراد بالذرية الآباء والأجداد، وأنه من الأضداد، وهذا لا يعرف في اللغة، ولكن ولله الحمد القرآن عربي اللفظ والمعنى صريح فيما ذكرنا، وأن الله إذا ذكر المعاني الجليلة ذكر أوسعها وأعلاها وأشملها، وقد يذكر الله قصة خاصة، فإذا أراد أن يحكم عليها ذكر حكماً عاماً يشملها ويشمل ما هو نظيرها كما ذكرنا هذا في القواعد القرآنية وذكرنا أمثلته هناك، والمقصود أن الآية الكريمة تشمل النعمة بجميع الفلك على اختلاف أنواعه البري والبحري والهوائي، وهذا متضمن للحث على الوسائل التي تدرك بها هذه الأشياء وذلك بالتعلم للفنون والصناعات العصرية، فإنه لا وسيلة لها سوى ذلك كما هو معروف لكل أحد.

فصل

ومن ذلك أمره تعالى بفعل الأسباب التي تحصل فيها الأرزاق من تجارات وصناعات وحِراثات وحرف وغيرها، وامتنانه على العباد بتيسيرها والاستعانة بها على طاعة الله والقيام بالواجبات المتعددة كقوله تعالى حين أمر بالسعي إلى الجمعة وتقديمها على المكاسب التي هي وسائل لها ولغيرها من الفروض:

﴿فإذا قُضيتِ الصلاةُ فَانتَشِروا في الأرض وٱبتَغُوا مِن فَضلِ اللَّهِ﴾
[سورة الجمعة: الآية ١٠]

أي ببيع وشراء وصناعة وحراثة وغيرها من أسباب الرزق. وقال تعالى:

﴿هُوَ الذي جعلَ لكم الأرضَ ذَلُولاً فٱمشُوا في مناكِبِهَا وكُلُوا مِنْ رزقِه وإليه النُّشُور﴾ [سورة المُلك: الآية ١٥]

أي جعلها مذلَّلَة لأسفاركم، مذللة لحروثكم، مذللة لاستخراج معادنكم المتنوعة، مهيَّأَة لكل ما تحتاجونه منها، فامشوا في مناكبها، أي في طلب الرزق والسعي في تحصيله، وذلك يشمل جميع الطرق التي يُنال بها الرزق

من جميـع الاقتصاديات التي أباحها الله ورسوله التي كانت موجودة في ذلك الزمان، والتي لا تزال تحدث أسبابها شيئاً بعد شيء، وينفتـح للعباد من أسباب الرزق وطرقه أمور لم تكن موجودة قبل ذلك، فعلمها وتعلمها وسلوك طرقها مما أمر الله به ورسوله، حتى أنه تعالى أمر الناس أن يَحْجُروا على سُفهائهم في أموالهم الخاصة عن التصرفات الضارّة لِقِصَرِ عقولهم ومعارفهم وتجاربهم حتى يعلموهم ويختبروهم بالتجـربة التي هي الـطريق لمعرفـة أحوالهم، وهذا يدلُّ على أن الله يحب من عباده هذا الأمر ويأمرهم به، ولهذا علل ذلك بقوله:

﴿ولا تُؤْتوا السُّفهاءَ أموالَكُمُ التي جعل اللّهُ لكُمْ قياماً﴾

[سورة النساء: الآية ٥]

فأخبر أنه جعلها قياماً تقوم بها الأمور الدينية والأمور الدنيوية، تقوم بها الضروريات والحاجيات والكماليات، فلقد علّمنا ربنا العناية التامة بحفظ الأموال والاقتصاد في إنفاقها، وعلّمنا كيف نسلك الطرق المتنوعة لتحصيلها، ولم يحرِّمْ علينا منها طريقاً واحداً إلّا الطرق المحرمة التي تضرُّنا وتكون سبباً لهلاكنا.

فمن هذه نعمته الكبرى على العباد ورحمته بهم، أليس يدلُّ على أن تَعَلُّمَ الفنون الاقتصادية الخاصة بالأفراد والعامة للحكومات والأقطار، التي تنال بها الأرزاق مما يحبه الله ويرضاه، ويأمر به ويوجبه؟ فهل شذّ عن هذا الأصل فن وطريق، أو وسيلة من وسائل الرزق؟ فتبارك الرزاق الحكيم، الذي من حكمته جعل الأرزاق وغيرها تنال بأسبابها، ومن حكمته أن جعل لكل نوع منها أناساً يرغبون، وله يعملون، لتقوم المصالـح كلها ويرتبط الناس بعضهم ببعض؛ فأهل التجـارات وأهل الصنـاعات وأهـل المهن والحرف وأهـل الحراثات وغيرهم، كل منهم محتاج إلى الآخر لا يستغني أحدٌ منهم عن أحد؛ بل أهل الأقطار النائية لما توسعت أسباب المكاسب اضطر بعضهم إلى

بعض وانفتحت طرق كثيرة لتحصيل الرزق، والكل من فضل الله وتيسيره ورزقه وإحسانه.

وثبت عنه ﷺ أنه قال: (إن أطيب ما أكلتم من كسبكم). وهذا يشمل المكاسب كلها، وسئل أي الكسب أطيب؟ فقال: (عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور). وقال: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيصيب منه إنسان أو طير أو دابة إلّا كان له حسنات). وقد حثّ ﷺ في عدة أحاديث على التكسب والاستغناء به عن مسألة الناس وسؤالهم والواجبات الدينية من الزكوات والكفارات ودفع الحاجات، والضرورات لا تقوم إلّا بالأموال، وكذلك الجهاد والمصالح الكلية والنفقات على النفس والعائلة والمماليك والصدقات المتنوعة كلها، لا تقوم إلّا بالأموال، والأموال لا تُحَصَّل إلا بالكسب، فعلم أن السعي في تحصيل هذه الأمور تبع لها: ما كان منها واجب فوسيلته واجبة، وما كان منها مندوب فوسيلته مندوبة.

الفصل الثاني والعشرون

في أن النظم الإسلامية فيها صلاح الأحوال كلها

من أكبر الأغلاط وأعظم الأخطاء استمداد الحكومات الإسلامية والجماعات والأفراد نُظُمَهم وقوانينَهم المتنوعة من النظم الأجنبية، وهي في غاية الخلل والنقص وتركهم الاستمداد من دينهم، وفيه الكمال والتكميل ودفع الشر والفساد.

ما بقي من الإسلام إلّا اسمه ورسمه، نتسمى بأننا مسلمون ونترك مقومات ديننا وأُسُسَه وأعماله ونذهب نستمدُّها من الأجانب، وسبب ذلك الجهل الكبير بالدِّين وإحسان الظن بالأجانب، ومشاهدة ما عليه المسلمون

الآن من الاختلال والضعف في جميع مواد الحياة الروحية والمادية. نشأ عن ذلك كله توجيه الوجوه إلى الاستمداد من الأجانب. فلم نزد بذلك إلّا ضعفاً وخلَلاً وفساداً وضرراً، وإلّا فلو علمنا حق العلم أن في ديننا ما تشتهيه الأنفس وتمتد إليه الأعناق من المبادىء الراقية والأخلاق العالية والنظم العادلة والأسس الكاملة، لعلمنا أن البشر كلهم مفتقرون غاية الافتقار أن يأْوُوا إلى ظله الظليل الواقي من الشر الطويل، فأي مبدأ وأصلٍ وعمل نافع للبشر إلّا ودين الإسلام قد تكفل به كفالة المليء القادر على تيسير الحياة التامة على قواعده وأسسه، وفيه حل المشكلات الحربية والاقتصادية وجميع مشاكل الحياة التي لا تعيش الأمم عيشة سعيدة بدون حلها.

أليست عقائدُه أصحَّ العقائد وأصلحَها للقلوب، ولا تصلح القلوب إلا بها؟ فهل أصح وأنفع وأعظم براهين من الاعتقاد اليقيني الصحيح أن نعلم علماً يقيناً أن لنا رباً عظيماً تتضاءل عظمة المخلوقات كلها في عظمته وكبريائه، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، قدير على كل شيء، عليم بكل شيء، لا يعجزه شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، رحيم وسعت رحمته كل شيء، وملأ جوده أقطار العالم العلوي والسفلي؛ حكيم في كل ما خلقه وفي كل ما شرعه، قد أحسن ما خلق، وأحكم ما شرعه، يجيب الداعين، ويفرج كرب المكروبين، ويكشف هَمَّ المهمومين، من تَوكَّل عليه كَفَاه، ومن أناب إليه وتقرب إليه قرَّبه وأدناه، ومن آوى إليه آواه، لا يأتي بالخير والحسنات إلّا هو، ولا يكشف السوء والضُّرَّ إلّا هو، يتودد إلى عباده بكل طريق، ويهديهم إليه كل سبيل، لا يخرج عن خيره وكرامته وَجُوده إلّا المتمردون، فهل تصح القلوب والأرواح إلّا بالتألُّه والتعبُّد لمن هذا شأنه، فمن يشارك الله في شيء من هذه الشؤون التي يختص بها؟

وكذلك الأخلاق لا يهدي هذا الدين إلّا لأحسنها، فهل ترى من خلة

كمال إلّا أمر بها؟ ولا خصلة نفـع وانتفاع إلّا حثَّ عليها، ولا خير إلّا دلّ عليه، ولا شرّ إلّا حذر عنه.

أمَا حثَّ على الصدق والعدل في الأقوال والأفعال؟ أمَا أمر بالإخلاص لله في كل الأحوال؟ أما حثّ على الإحسان المتنوع لأصناف المخلوقات؟ أما أمَر بنصر المظلومين وإغاثة الملهـوفين وإزالة الضُـرِّ عن المضطرين؟ أما رغب في حسن الخلق في كل طريق، مـع القريب والبعيد، والعدو والصديق فقال:

﴿ٱدفَـعْ بالتي هِي أحسنُ فإذا الذي بينَكَ وبينَهُ عداوةٌ كأنه وليٌّ حَمِيم﴾
[سورة فُصِّلت: الآية ٣٤]

أما نهى عن الكذب والفحش والخيانات، وحثَّ على رعـاية الشهـادات والأمانات، أما حذّر عن ظلم الناس في الدماء والأموال والأعراض، فما من خلق فاضل إلا أمر به ولا خلق رذيل ساقط إلّا نهى عنه، ولذلك كانت القاعدة الكبرى لهذا الدين رعاية المصالـح كلها ودفـع المفاسد..

ثم إذا نظرنا مسايرته للحياة ومجاراة الأمم، فإذا فيه جميـع النظم النافعة والنظم الواقية؛ أليس فيه الأمر بطلب الأرزاق من جميـع طرقها النافعة المباحة من تجارات وصناعات وزراعات وأعمال متنوعة، فلم يمنـع سبباً من الأسباب النافعة بوجه من الوجوه، وإنما منـع المعاملات الضارة، وهي التي تحتوي على ظلم أو ضرر أو قمار.. ومن محاسنه تحريمه هذه الأنواع التي لا تخفَى مفاسدها وأضرارها؛ أليس فيه الأمر بأخذ الحذر من الأعداء وتوقّي شرورهم بكل وسيلة؟ أليس فيه الأمر بإعداد العدة للأعداء بحسب الزمان والمكان والاستطاعة؟ أليس يحث على الاجتماع والائتلاف الذي هو الركن الأصيل للتعاون والتكافل على المصالـح ومنافـع الدين والدنيا والنهي عما يضاده من الافتراق؟ أليس فيه تعيين القيام بما بانت مصلحته وظهرت منفعته، والأمر بالمشاورة فيما تشابهت فيه المسالك؟ أليس فيه الإرشاد إلى جميـع طرق

العدل والرحمة المتنوعة، والحث على تنفيذها في حق جميع الخلق؟ أليس فيه الحث على وفاء العقود والعهود والمعاملات الكبيرة والصغيرة التي بها قوام العباد؟ أليس فيه الأخذ على أيدي السفهاء والمجرمين بحسب ما يناسب جرائمهم وردعهم بالعقوبات والحدود المانعة والمخففة للجرائم.. فأي مصلحة تخرج عن إرشادات هذا الدين، وأي أصل وأساس فيه الخير والصلاح إلّا وقد أرشد إليه الدين، لا فرق بين دينيها ودنيويها..

وجملة ذلك أن هذا الدين بيَّن الله فيه للعباد أنه خلقهم لعبادته الجامعة لمعرفته، والتقرب إليه بكل قول أو عمل أو مال أو منفعة، وخلق لهم ما في الكون ممهَّداً مسخَّراً لجميع مصالحهم، وأمرهم أن يستحصلوا هذه النعم بكل طريق ووسيلة تمكِّنهم منها، وأن يستعينوا بها على طاعة المنعم. فهل أوضع وأظلم وأجهل ممن أعرض عن هذا الدين الذي هو الغاية والنهاية في الكمال، وهو المطلب الأعلى لأُولي العقول والألباب، ثم ذهب يستمد الهدى والنفع من غيره وهو يدَّعي أنه مسلم؟ لقد زاده هذا الاستمداد غياً وضلالاً. ومن احتج بما يرى من حالة المسلمين وتأخرهم عن مجاراة الأمم في مرافق الحياة فقد ظلم باحتجاجه، فإن المسلمين لم يقوموا بما دعا إليه الدين، ولم يحكِّموه في أمورهم الدينية والدنيوية، ونبذوا مقومات دينهم وروحه واكتفوا بالاسم عن المسمى وباللفظ عن المعنى، وبالرسوم عن الحقائق، والواجب أن ينظر إلى تعاليم الدين وتوجيهاته وأصوله ومقاصدها ودعوته لجميع البشر إلى ما فيه خيرهم المتنوع، ولهذا كان المنصفون من الأجانب، على ما هم عليه، يعترفون بكماله، وأنه لا سبيل إلى زوال الشرور عن العالم إلا بالأخذ بتعاليمه وأخلاقه وإرشاده.

وكما أن الدين هو الصلة الحقيقية بين العباد وبين ربهم، به إليه يتقربون ويتحببون، وبه يغدق عليهم خير الدنيا والآخرة، فإنه الصلة بين العباد بعضهم لبعض، تقوم به حياتهم، وتنحل به مشكلاتهم السياسية والاقتصادية والمالية؛

فكلُّ حلٍّ بغيره فإن ضرره أكثر من نفعه، وشرُّه أعظمُ من خيره، فإن فرض إصلاح بعض المشكلات ببعض النظم إصلاحاً حقيقياً فتأمل ذلك الحل، فلا بد أن تجده مستنداً إلى الدين، لأن الدين يهدي للتي هي أقوم: كلمة عامة جامعة لا تبقي شيئاً، والواقع يشهد بذلك.

وبالدين يتم النشاط الحيوي، ويستمد كل واحد من الآخر مادة الدين ومادة الحياة، لا كما يزعمه المنكرون والمغرورون والمأجورون أنه مخدر مؤخِّر لمواد الحياة؛ لقد، والله، كذبوا أشنع الكذب وأوقحه؛ فأي مادة من مواد الحياة أخَّرها أو وَقَفَها أو لم يبلغ فيها نهاية ما يدركه البشر؟ فليأتوا بمثال واحد من الدين لا بالتمثيل بأحوال من ينتسب للدين وهو منه خلي إن كانوا صادقين.

فإن قيل: أليست الأديان الصحيحة كلها من رب العالمين؟ فما بال دين المسيح روحه وحقيقته هو الصلة فقط بين العبد وبين ربه، وليس فيه التعرض إلى أمور مواد الحياة الحاضرة ونظمها، مع أن الله واسع الرحمة؟ فالجواب عن هذا سهل لمن عرف كيف نشأ الدين المسيحي في ظروف طغت فيها المادة اليهودية وبنو إسرائيل طائفة قليلة وجزء يسير بالنسبة إلى دولة الرومان ذات النظم الأرضية، فالأمة الإسرائيلية قليلة والمدة يسيرة، لأن دين المسيح مؤقت إلى مجيء الدين الكامل الشامل لعموم الخلق وعموم المصالح، فكما أن محمداً ﷺ بُعث إلى الخلق كلهم، إنسهم وجنهم، فكذلك قد تكفل دينه بإصلاح الخلق إصلاحاً روحياً وماديًّا، واستعان بكل واحد على الآخر، وبه تم الكمال وحصل، فكما تولى تهذيب القلوب والأرواح فقد تولى تهذيب الحياة، وضمن لمن قام به الحياة الطيبة من كل وجه، لا من وجه واحد أو وجوه محصورة، وهذا من كمال حكمة الله، ومن شمول رحمة الله وهو الحكيم الرحيم.

ومن الأدلة على هذا أن الله قد يجمع في موضع واحد من كتابه بين العبادات المحضة وبين أمور المعاش والنظم الاجتماعية كما قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبُتُوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. وأَطِيعُوا اللَّهَ ورسولَه ولا تَنازَعوا فتفْشَلوا وتذهب ريحُكُم واصبِروا إن الله مع الصابرين﴾ [سورة الأنفال: الأيتان ٤٥، ٤٦]

ــ ثم قال بعد آيات ــ

﴿وأَعِدّوا لهم ما آسْتطعتم مِنْ قوةٍ ومن رِباطِ الخيلِ تُرهِبونَ به عدو الله وعدوَّكم﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٠]

وقال تعالى: **﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاةِ مِنْ يَومِ الجمُعةِ فَآسْعَوْا إلى ذِكرِ اللَّهِ وذَرُوا البيع، ذلكم خيرٌ لَكُم إنْ كُنتم تَعلَمون. فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فآنْتشروا في الأرضِ وآبتغُوا من فضلِ اللَّهِ واذكُرُوا اللَّهَ كثيراً لعلكم تفلحون﴾** [سورة الجمعة: الأيتان ٩، ١٠]

أَلاَ تَرى كيفَ جَمع بين الأمر بذكر الله وبالصبر والثبات، وبالقوة المعنوية بالاجتماع وعدم التنازع، وبالقوة المادية بقوله: **﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾** فإنه يشمل الأمرين، كما أمر في آية الجمعة بالإقبال على الصلاة والذكر في وجوب السعي إلى الجمعة، ثم بعدها بالانتشار لطلب الرزق. وقال ﷺ: (إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:

﴿يا أيها الذين آمنوا كُلُوا من طيِّباتِ ما رزقناكُم واشكُرُوا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٢]

وقال تعالى: **﴿يا أيها الرسلُ كُلوا من الطَّيبات واعملوا صالحاً﴾**
[سورة المؤمنون: الآية ٥١]

والآيات في هذا المعنى كثيرة وشرائع الدين ومعاملاته التفصيلية شاهدة

بذلك، وهي أحسن الشرائع وأحسن الأحكام والمعاملات التي بها تستقيم الأحوال وتزكو الخصال.

واعلم أن العبادات ليست مجرد الصلاة والصيام والصدقة؛ بل جميع الأعمال التي يُتَوسل بها إلى القيام بواجبات النفس والعوائل والمجتمع الإنساني، كل عمل يقوم بشيء من ذلك ويعين عليه فهو عبادة، فالكسب للعيال عبادة عظيمة، وكذلك الاكتساب الذي يراد به القيام بالزكوات والكفارات والنفقات العامة والخاصة كله عبادة، وكذلك الصناعات التي تعين على قيام الدين وردع المعتدين من أفضل العبادات، وكذلك التعلم للسياسات الداخلية والخارجية، والتعقل والتفكر في كل أمر فيه نفع للعباد وكل ذلك من العبادات، ولم يرغب الله في أمر الشورى في الأمور كلها إلّا لتحقيق أمثال هذه المقاصد العالية النافعة، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة جداً.

واعلم أن التطورات التي لا تزال تتجدد في الحياة والمجتمع قد وضع لها هذا الدين الكامل قواعدَ وأصولاً يتمكن العارف بالدين وبالواقع من تطبيقها مهما كثرت وعظمت وتغيرت بها الأحوال، وهذا من كمال هذا الدين ومن البراهين على إحاطة علم الباري تعالى بالجزئيات والكليات وشمول رحمته وحكمته.

أما غيره من النظم والأسس وإن عظمت وٱسْتُحْسِنت فإنها لا تبقى زمناً طويلاً على كثرة التغيرات، واختلاف التطورات، لأنها من صنع المخلوقين الناقصين في علمهم وحكمتهم، وجميع صفاتهم. لا من صنع رب العالمين.

أرأيت هذه المدنيات الضخمة الزاخرة بعلوم المادة وأعمالها لو جمعوا بينها وبين روح الدين، وحكموا تعاليمه الراقية الواقية الحافظة ـ أرأيت

لو فعلوا ذلك أمَا تكون هذه المدنية الزاهرة التي يصبـو إليها أولو الألباب وتتم بها الحياة الهنيئة الطيبة السعيدة؟ وتحصل فيها الوقاية من النكبات المزعجة. والقلاقل المفظعة. فحين فقدت الدين، واعتمدت على ماديتها الجوفـاء الخرقاء جعلوا يتخبطون ويطلبون حياة سعيدة، ولم يصلوا إلاّ إلى حياة الأشقياء، الحياة المهددة في كل وقت بالحروب، وأصناف الكروب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الثالث والعشرون

في الجمـع بين إثبات عموم القدر وإثبات الأسباب

قال تعالى: ﴿إنما أَمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كن فيكون﴾ [سورة يٓس: الآية ٨٢]

﴿يدبِّرُ الأمرَ يُفصِّل الآيات﴾ [سورة الرَّعْد: الآية ٢]

﴿إنّا كُلَّ شيء خلقناه بِقَدَر﴾ [سورة القمر: الآية ٤٩]

﴿ومن آياتِه أنْ تقومَ السماءُ والأرضُ بأمره﴾ [سورة الروم: الآية ٢٥]

﴿إنّ اللَّهَ يُمسكُ السمواتِ والأرضَ أنْ تَزُولاَ ولئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ٤١]

﴿ومـا مِنْ دابَّةٍ في الأرضِ إلاّ على اللَّهِ رزقُهـا ويعلَمُ مُستقَـرَّهـا ومُسْتَوْدَعَها﴾ [سورة هود: الآية ٦]

والآيات في هذه المعاني كثيرة تدل دلالة يشهد بها الكون والواقـع أن جميـع الكائنات مفتقرات إلى ربها في خلقها ورزقها وتدبيرها، وأنه لا واسطة

بينه وبين الخلق، فبإرادته وقدرته العامتين الشاملتين خلق الموجودات كلها، وبإرادته وقدرته حَفِظَها، وبإرادته وقدرته وحكمته سيَّرها ودبَّرها، وبعنايته ورحمته وسعة علمه أعطى كل شيء خلقه وهداه لمصالحه المتنوعة. واعتنى بتدبيره الخاص وسوق الأرزاق والمنافع والمصالح كلها إلى مفرداته وكلياته، والكون كله بانتظامه واتساقه واحتياج بعضه إلى بعض، وارتباط بعضه ببعض، وتعاونه المتنوع جميعه يشهد شهادة واضحة بالقدرة والإرادة التي لا يشذُّ عنها شيء، والحكمة التي شملت جميع الكائنات والعلم المحيط.

ويظن كثير من الناس أن إثبات الأسباب ينافي الإيمان بالقضاء والقدر، وهذا غلط فاحش جداً، وهو عائد على القدر بالإبطال، وهو إبطال أيضاً للحكمة. وكأن هذا الظانَّ يقول ويعتقد: أن الإيمان بالقدر هو اعتقاد وقوع الأشياء بدون أسبابها الشرعية والقدرية. وهذا نفي للوجود لها، فإنها كما ذكرنا أن الله ربط الكون بعضه ببعض، ونظم بعضه ببعض، وأوجد بعضه ببعض.

فهل تقول أيها الظانُّ جهلاً إنّ الأَوْلَى إيجاد البناء من دون بنيان، وإيجاد الحبوب والثمار والزروع من دون حرث وسقي، وإيجاد الأولاد والنسل من دون نكاح، وإدخال الجنة من دون إيمان وعمل صالح، وإدخال النار من دون كفر ومعصية؟

بهذا الظن والتقرير أبطلت القدر وأبطلت معه الحكمة..

أمَا علمت أن الله بحكمته وكمال قدرته جعل للمسببات أسباباً، وللمقاصد طرقاً ووسائل تحصل بها؟ وقرّر هذا في الفِطَرِ والعقول؛ كما قرّره في الشرع؛ وكما نفذه في الواقع، فإنه أعطى كل شيء خلقه اللائق به، ثم هدى كل مخلوق إلى ما خُلق له من أصناف السعي والحركة والتصرفات المتنوعة، وبنى أمور الدنيا والآخرة على ذلك النظام البديع العجيب، الذي شهد أولاً لله بكمال القدرة وكمال الحكمة، وأشهد العباد ثانياً أن بهذا التنظيم

والتيسير والتصريف وجّه العاملين إلى أعمالهم ونشَّطهم على أشغالهم. فطالب الآخرة إذا علم أنها لا تُنال إلاّ بالإيمان والعمل الصالح، وتَرْكِ ضِدِّها، جد واجتهد في تحقيق الإيمان وكثرت تفاصيله النافعة، واجتهد في كل علم صالح يوصله إلى الآخرة، واجتنب في مقابلة ذلك الكفر والفسوق والعصيان، وبادر للتوبة من كل ما وقع منه من ذلك..

وصاحب الحرث إذا علم أنه لا ينال إلاّ بحرث وسقي وملاحظة تامة جَدّ واجتهد في كل وسيلة تنمِّي حراثته وتكملها، وتدفع عنها الآفات..

وصاحب الصناعة إذا علم أن المصنوعات على اختلاف أنواعها ومنافعها لا تحصل إلاّ بتعلم الصناعة وإتقانها ثم العمل بها جَدَّ في ذلك..

ومن أراد حصول الأولاد أو تنمية مواشيه عمل وسعى في ذلك، وهكذا جميع الأمور.

ولهذا لما قال بعض المسلمين للنبي ﷺ حين أخبرهم أن الأمور كلها قد علمها الله وكتبها وقدّرها: أفلا نتكل على كتابنا الأول وندع العمل؟ فقال ﷺ: (آعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له: أما أهل الجنة فييسَّرون لعمل أهل الجنة، وأما أهل النار فييسرون لعمل أهل النار)، وتلا قوله تعالى:

﴿فأمَّا من أعطى واتقى. وصَدَّق بالحسنى. فَسَنُيَسِّره لليسرى. وأمَّا من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى. فَسَنُيَسِّره للعسرى﴾

[سورة الليل: الآيات ٥ ــ ١٠]

وفي خلقه تعالى الأشياءَ بأسبابها من الحِكم والمنافع والأسرار ما لا يدركه الوصف. وهذا من الأمور الجلية والحقائق الواضحة التي فطرت الخليقة كلها، حتى الحيوان البهيم، عليها.

الفصل الرابع والعشرون

فيما جاء به الإسلام من المساواة بين الناس في الحقوق

جاء الإسلام بالمساواة الصحيحة المستقيمة التي روحها العدل والرحمة والتكافل في الحقوق: يساوي بين طبقات الخلق في العدل في كل شيء. قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامين بالقِسطِ شُهَداءَ للَّهِ وَلَوْ على أنفسِكم أو الوالِدَيْن والأَقْرَبينَ، إن يَكُنْ غنيًّا أو فقيراً فالله أَوْلى بهما﴾
[سورة النساء: الآية ١٣٥]

وقال ﷺ: (إن الله كتب الإحسان في كل شيء: فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحة) رواه مسلم. وأوجب النصح لكل أحد، قال ﷺ: (الدين النصيحة) ثلاثاً. رواه مسلم.

وساوى بين طبقات العباد في الحقوق الواجبة عليهم تبعاً لقدرتهم واستطاعتهم. قال تعالى:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

وقال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ من سَعَتِه ومَنْ قُدِرَ عليه رزقُه فلينفِقْ مما آتاه الله لا يُكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلَّا ما آتاها﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧]

﴿لا يُكلِّفُ اللَّهُ نفساً إلَّا وُسْعها﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦]

وساوى بينهم في وجوب إيتاء الحق الذي عليهم، وفي إيجاب إيصال الحق إليهم: فكل من عليه حق ـ عليه أن يؤتيه كاملاً بلا نقص ولا بخس ولا تطفيف. وكل من له حق على أحد أعانه على استخراجه بكل طريق ممن هو عليه.

كما ساوى بين المكلفين في إيجاب العبادات وتحريم المحرمات، وكما ساوى بينهم في الفضل والثواب بحسب أعمالهم:

﴿مَنْ عَمِل صالحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثى وَهُوَ مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُم بأحسنِ ما كانوا يَعْملون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٧]

﴿إنَّ المسلمين والمسلمات ـ إلى قوله ـ أعدَّ اللَّهُ لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥]

وساوى بينهم بالتملكات المالية بجميع طرقها ووجوهها، وبصحة التصرفات كلها وإطلاقها حيث اشتركوا في العقل والرشد.

وساوى بينهم بأن الرضا في المعاملات العوضية، والتبرعات والإحسان شرط لصحتها ونفوذها، وأن من أُكره منهم لا ينفذ له معاملة ولا يستقيم له تبرع.

وساوى بينهم في كل حق ديني ودنيوي، ولم يجعل لأحد منهم ميزة في نسب أو حسب أو مال أو حسن صورة، إنما الميزة والتفضيل بالمعاني العالية في التقوى وتوابعها

﴿يا أيها الناسُ إنّا خلقناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى وجعلناكُمْ شعوباً وقبائلَ لِتعارَفُوا إنَّ أكرمَكُم عند الله أتقاكم﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣]

وإنما التفاوت والتفاضل والتفضيل يكون بأسبابٍ من كمال الدين التفضيلُ بها. كما فضّل الذكر على الأنثى في الميراث؛ وجعل الرجال قوّامين على النساء بما فضَّل الله به بعضَهم على بعض، فإن الرجل عنده من الاستعدادات والتهيُّؤ للكمال والقوة على الأعمال ما ليس عند المرأة، وعليه من الواجبات النفسية والعائلية ما حَسَّن تفضيله على المرأة. ولهذا علل ذلك بقوله تعالى:

﴿وبما أنفقُوا مِنْ أمْوالهم﴾ [سورة النساء: الآية ٣٤]

فشكرَهم على إنفاقهم على غيرهم وأعانهم على تلك النفقات بالتفضيلات المناسبة لها.

وهذا كما أوجب العبادات المالية كالزكوات والكفارات وغيرها على أرباب الأموال دون من ليس عنده مال، تعليقاً للحكم بعلته وسببه، وكما فرق بين الناس في مقدار الواجبات وأجناسها بحسب قدرتهم واستعدادهم وبهذا يُعرف كمال حكمة الله وشمول رحمته وحسن أحكامه

﴿ومَنْ أَحسنُ مِنَ اللَّهِ حُكماً لِقَومٍ يُوقِنون﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

وما خالف هذه المساواة التي يتشدق بها المنحرفون بين الرجال والنساء وبين الأغنياء والفقراء، فإنها مادية ضارّة لا يستقيم عليها دين ولا دنيا لخلوها من الدين والروح الإنسانية الشريفة ومخالفتها لِسُنَّة الله التي لا تبديل لها ولا صَلاَحَ إلاّ بها، التي تَكْفَلُ للآدميين كرامتهم وشرفهم وحقوقهم الدينية والمادية، وإذا أردت معرفة فساد ما خالفها فانظر إلى آثارها كيف انحلّت منهم الأخلاق الجميلة وتبدَّلوا بها الأخلاق الرذيلة، وذهبت معها الرحمة والشفقة والنصح، وكيف كانت تسير بهم إلى الهلاك وهم يشعرون أو لا يشعرون.

ساروا مستصحبين الحرية المطلقة من جميع القيود، وهي عبارة حرية الشهوات البهيمية والسبعية؛ فلم يوقفهم عنها دين ولا أخلاق ولا مصلحة عمومية بل ولا فرادية، فوقعوا في الفوضى وتصادمت الإرادات ومَرَجَت العقول، فارتكسوا في غيِّهم يعمهون، وفي ضلالهم يترددون، فإن الله بحكمته ورحمته خلق الإنسان ووضع فيه الشهوة التي تدعوه إلى جميع ما تشتهيه النفس، وعند الاسترسال مع هذه القوة لا يقف عند حد الاعتدال الواجب، بل توقعه في فساد عريض. ولكن من رحمته وضع فيه العقل الذي يميز به بين الأمور النافعة التي ينبغي إيثارها والأمور الضارة التي عليه اجتنابها، فوقف العقل الصحيح معدِّلاً للشهوة ومانعاً لها من الاسترسال

المهلك بما يشاهده من أضرار وأخطار، ورغب في خير الدنيا والآخرة لمن آثر ما يدعو إليه العقل والشرع من الخير والاحتماء من الشر وتقديم الوازع الديني العقلي على الوازع البهيمي بما له من الآثار الجميلة عاجلاً وآجلاً؛ قال تعالى:

﴿فأمّا من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى﴾

[سورة النازعات: الآيات ٣٧ ــ ٣٩]

فهذا جزاء الطاغي المسترسل مع الشهوات البهيمية الداعية إلى الطغيان، ثم قال:

﴿وأمّا من خافَ مقامَ ربِّه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾ [سورة النازعات: الآيتان ٤٠، ٤١]

فهذا جزاء من قَدّم خوف الله على رغباته المطلقة الضارة، وراقب نفسه عن جماحها في الهوى المُردي، فإن الهوى يدعو صاحبه إلى ترك الواجبات والمستحبات طلباً للراحة الحاضرة وإيثار الكسل، وإلى التجرّؤ على المحرمات التي في النفس داعٍ قويٌّ إليها، فإذا لم يكبحه بخوف الله وخَشية العقوبة استرسل به إلى الطغيان فلم يتورّع عن محرَّم ولم يقم بواجب وهذا هو الهلاك الأبدي، فإذا خاف ربه وراقبه وعلم ما عليه من الواجبات وما هو محتّم عليه من ترك المحرمات، وجاهد نفسه وهواه على القيام بذلك فقد أفلح وأنجح؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

الفصل الخامس والعشرون

في أن القرآن شفاء لما في الصدور من الأمراض ورحمة جالبة للخير

قد أخبر الله في عدة آيات من كتابه أن القرآن شفاء من الأمراض وخصوصاً الأمراض القلبية، وأنه رحمة تحصل به الخيرات والكرامات: فبه تزول المكاره، وبه تحصل المحابّ. أخبر بذلك في عدة مواضع، وشرح الواقع المفصّل لهذا الأمر العام في مواضع عند كلامه على التشريع وتفصيل الأوامر والنواهي؛ فصّل الأمراض القلبية وشخّصها وبيّن أضرارها ومفاسدها الكثيرة، وذكر العباد كيف يسعون في إزالتها واقتلاعها وتوجيهها إلى ما ينفع ولا يضر، ولنذكر لهذا الأصل أمثلة يتضح بها الأمر.

فمنها أن الشح طبيعة نفسية ومرض داخلي في قوله:

﴿وأحضرت الأنفسُ الشُّحَّ﴾ [سورة النساء: الآية ١٢٨]

وأن الإنسان مجبول على محبة المال، وأنه لحب الخير لشديد، وذلك يقتضي إمساكه من كل وجه؛ فهذا المرض موجود في كل النفوس البشرية متغلغل في الضمائر، ولكنه تعالى عالجه بعلاجات قوية نافعة؛ عالجه بقوة تقهر جميع القوى النفسية إذا تمت، وهي قوة الإيمان، وبيّن أن الإيمان يدعو المؤمنين إلى القيام بجميع حقوق الإيمان، وخصوصاً الواجبات الكبار والحقوق الضرورية، كالنفقة في الزكاة، والجهاد وعلى المحتاجين وعلى من لهم حق على الإنسان. وأخبر في عدة آيات أنّ الإنفاق من حقوق الإيمان الكلية الكبار، وأنه لا يتم إيمان عبدٍ حتى يؤدِّي الزكاة، وحتى يُنفق النفقاتِ المأمور بها، وأنَّ مَنْ قَوِيَ إيمانُه لا يتمانع معه خلق البخل والشح، بل يأتي تبعاً منقاداً لداعي الإيمان، وهذا أقوى علاج لهذا الداء. ولهذا قال ﷺ في الحديث الصحيح: (والصدقة برهان) أي برهان ودليل على صحة إيمان صاحبها، فإن الإيمان

محبوب، ويجب تقديم هذا المحبوب على جميع محابّ النفوس. فمتى تعارض الداعي الطبيعي ــ وهو الشح ــ وداعي الإيمان فعند هذا التعارض يتضح مَنْ هو المؤمن حقاً الذي يؤدِّي كل ما عليه، لا يلتفت إلى شح وبخل ومحبة للمال، ممن لم يصل الإيمان إلى قلبه، وهو الذي يعبد الله على حرف، إنْ سَلِمَ من المعارضات ثبت على دينه، وإنْ عارضه أي هوى يكون انحاز مع الهوى وترك الدين، فهذا قد خسر الدنيا والآخرة.

وعالج هذا الخلق أيضاً بالترغيب المتنوع في النفقات، في الثواب العاجل والآجل، وما فيه من الخُلْف وتنمية خلق الكرم والجود في العبد والأجر المتضاعف الذي لا يدع المؤمن يتجارى مع بخله وشحّه، ويفوت المغانم الجليلة والآثار الجميلة.

وأيضاً يرهب من عقوبات الممسكين وعواقب البخلاء المانعين، فكم حَدَا هذا الترغيب والترهيب إلى البذل في الواجبات والمستحبات بنفوس مطمئنة وقلوب واثقة بوعد الله، خائفة من وعيده، وقرّر ذلك بذكر مآل المحسنين وما نالوا من الخير العاجل والآجل، ومآل الممسكين وكيف كانت عواقبهم أسوأ العواقب، كيف زالت نعمهم ومحابُّهم وحلّت بهم النِّقم والمكاره، ولم يزل يرغبهم في الإنفاق بكل وسيلة، ويخبرهم أن من أطاع الشُّحَّ فقد أطاع الشيطان الذي يعد بالفقر، ويخرج من القلب الثقة بالله، والرحمة بعباد الله، وأن من أنفق فقد أطاع الله وحصلت له المغفرة الشاملة، والرحمة العامة، والفضل والخُلف العاجل، والبركة في الرزق، لم يزل يعالجهم بهذه الأدوية النافعة حتى انقادت نفوس المؤمنين راغبة طائعة مختارة، مؤثرة ما عند الله، مطمئنة بفضله، وربما وصلت الحال بكثير منهم إلى أن ما يعطون أحبُّ إليهم مما يأخذون.

لأهل الكرم هنا حكايات جميلة في بذلهم وإيثارهم، وكيف انقلب ذلك الطبع الجِبِلِّيُّ بالعلاجات الشرعية والأدوية الربانية إلى ضده.

ومن ذلك أنه أَبدى وأعاد في ذمٍّ الرياء ومصانعة الخلق، وأنه خُلُق رذيل ساقط دنيء جداً، من أخلاق المنافقين الارذلين المنقطعين عن رب العالمين في تعلقهم به وبما يحبه ويرضاه، فلم يزل يبيِّن لهم رذالة هذا الخلق وإنه لا يتصف به إلا الأراذل من المنافقين، وأنهم في الدرك الأسفل من النار كما كانوا في الدرك الأسفل من الأخلاق، ويبين أن المرائي مع ضعف دينه قد ضعف عقله. فإنه راءى المخلوقين الفقراء العاجزين الذين لا يملكون لأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأن من عمل لأجلهم فقد اعتمد على غير معتمد، واتكأ على شفا جرف هار، وأن المخلصين هم أهل الهمم العالية والأجور الفاضلة، وأن الجزاء بحسب الإخلاص، والأعمال بالنيات، وأن العمل القليل من المخلص يزن الأعمال الكثيرة ممن لم يكن كذلك، وأن المخلصين هم الذين يخلصهم في الدنيا من الفتن والآثام؛ ومن العقوبات والآلام، وأنه بإخلاصهم يحلهم المقامات العالية في دار السلام.

لم يزل يعالجهم بهذه العلاجات العالية حتى علموا علم اليقين أنه لا عمل إلّا بالإخلاص، وأن الإخلاص هو السبب الوحيد المُنْجِي من المكاره المحصِّل للمحابّ كلها، وأن الله لم يخلقهم إلا ليُخْلِصُوا له الدين ويقوموا بعبوديته وحدَه لا شريك له، وأن من راءى الناس بعمله فقد خسر دينه وعقله وعلمَه، وتعلَّقَ بغير متعلق، فأي مرض يبقى مع هذه العلاجات الناجحة الراقية التي هي علاج العزيز الحكيم، الرب الرحيم الذي هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها؟ فتبارك الله رب العالمين.

ومن ذلك داء الكِبْر الذي هو أشرّ الأدواء وأخسُّها وأسقطها، وهو ردّ الحق، واحتقار الخلق والتعاظم عليهم، أخبر في عدة آيات أن هذا ليس من صفات الأزكياء ولا الأخيار من العباد، وأنه من صفات الجبابرة الذين لم يعرفوا ربهم ولم يعرفوا حقيقة أنفسهم، وأن قلوبهم امتلأت من هذا الخيال

الباطل، وهو التعاظم على الحق الذي يجب على جميع الخلق الدخول تحت رِقّه وهو غاية شرفهم، فعبودية الله والافتقار له والخضوع له أكمل خلعة خلعت على العبد، وأفضل عطية يعطاها. فالمتكبر خلع هذه الخلعة العالية، واستبدل بها الخلعة الخسيسة. الكِبْر الذي هو خيال لا يبلغه العبد بالكلية ولهذا قال تعالى:

﴿إنّ الذين يُجادِلون في آياتِ اللّهِ بغيرِ سُلطانٍ أتاهم إنْ في صدورِهم إلاّ كِبْرٌ ما هم ببالغيه، فاستعذْ بالله إنه هو السميع البصير﴾

[سورة غافر: الآية ٥٦]

وكذلك الكبر على الخلق واحتقارهم وازدراؤهم؛ لا ريب أنه شرٌّ الأخلاق كما قال ﷺ: (بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم)؛ ولو علم المسكين ماذا فاته من الخير وماذا حصل له من الشر والمقت لناح على نفسه ونَدَبها، وعلم أنه وضعها في أسقط المواضع، وعرّضها للعقوبات المتنوعة. حذَّرهم من هذا الخلق الرذيل بأنه لا يحب المستكبرين، بل يمقتهم أشد المقت ويوقع عليهم اللعنة منه ومن عباده، وأن النار مثوى المتكبرين؛ وأن من تكبر أهانه اللّهُ وخذله، ومن تواضع أكرمه ورفعه، وبما في خلق التواضع من الخير والبشارة والثواب العاجل والآجل، وأن المتواضع قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الرحمة، قريب من الجنة، بعيد من النار، والمتكبر بضده. فما زال الله يشرح لهم عن هذا الخلق ويصوره بأشنع صورة ويذكر آثاره القبيحة حتى اقْتلعه من قلوب المؤمنين، واستبدلوا به خلق التواضع الجميل، خلق الأنبياء والأصفياء والأولياء.

ومن ذلك داء الحسد، والغل، والحقد، والغش، للعباد؛ أخبرهم أنه خلق الأراذل وأنه موجب لسخط الله وعقابه ونقص الإيمان وخلو القلوب من النصح الذي هو أساس الخير. وأنه خلق الجبابرة الذين أوقع بهم العقوبات

كقوم شعيب وغيرهم، وأنها من البغي الذي يعود ضرره على الباغي، وأن القلوب المتصفة به قلوب منحرفة عن الخير مقبلة على الشر، وكفى بهذا شراً وضرراً. وبمقابلة ذلك أخبرهم بأن النصح وسلامة الصدور من أخلاق الأنبياء وأوصاف الأصفياء، وأن الدين هو النصيحة بأكملها، وأن من خلا من النصيحة فقد فقدَ دينه وفقد أخلاقه، وأن خواص المؤمنين هم الذين يدعون ربهم ويجتهدون في زوال هذا الخلق عنهم فيقولون:

﴿ربَّنا اغفرْ لَنا ولإخواننا الذينَ سَبَقُونا بالإيمان، ولا تجعلْ في قلوبِنا غِلًّا لِلَّذين آمنوا، ربَّنا إنك رؤوف رحيم﴾

[سورة الحشر: الآية ١٠]

وبأن من جمع الله له بين محبة الله والنصح لعباد الله فقد جمع كل خير.

ما زال الله في كتابه وعلى لسان رسوله يعالج العباد عن هذا الخلق بهذه العلاجات العالية الناجحة المضمون لها الشفاء، حتى ظهرت آثارها على المؤمنين وبدت أنوارها وخيراتها على المستجيبين.

ومن ذلك داء الغفلة والإعراض عن الله وعن طاعته: بيَّن أنه مناف لما خُلِق له العباد، فإن الله خلقهم ليعبدوه، وأسدى عليهم النِّعم ليشكروه، فينقلهم بذلك من نعم إلى أكبر منها وأن الغافلين المعرضين نَسُوا الله فأنساهم أنفسهم: أنساهم مصالحها ومنافعها حتى أهملوها وضرُّوها غاية الضرر، وأن غاية المعرض أنه أعرض عمن كل السعادة والخير والفلاح في الإقبال عليه، إلى من كل الشقاء والخيبة والخسران في الإقبال عليه؛ استبدل الخسيس بالنفيس، والأمور الدنية عن الأمور العلية، وأن المعرضين يُيَسَّرُون للعُسرى ويجنَّبون اليُسرى، ولا يزالون ينتقلون من شقاء إلى آخر، وأنهم حرموا الخيرات وحصلوا على الشرور والحسرات، ونَعَى على المعرضين أحوالَهم كلها، وأن أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم ما أغنت عنهم شيئاً، ولا استفادوا منها إلاّ قيام الحجة، فتباً للمعرضين، وما أقبح أحو ل الغافلين.

ثم في مقابلة ذلك يذكر حالة المُنِيبين المقبلين عليه الراجين لفضله الطامعين في بره، وأنه تعالى سيجازيهم من خيره وبره العاجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأنهم في حياة طيبة ونعيم عاجل وطمع في نعيم آجل. وأخبر أن لهم الفوز المطلق والسعادة الأبدية، فبهذه الأدوية الجليلة أقبلت القلوب إليه، وصغت إليه الأفئدة وتزودت من طاعته أكمل حظ وأوفر نصيب، وقَوَّى ذلك أن القلوب الصحيحة مجبولة على محبة الكمال، وعلى محبة من أحسن إليها، والله تعالى له الكمال المطلق التام من جميع الوجوه، لا غاية لكماله ولا منتهى لجلاله، ومنه النعم كلها، ظاهرها وباطنها، فياويح المعرضين الغافلين عنه، ويا سعادة المقبلين.

فهذه أمثلة توضح لك وجه أن هذا القرآن جعله الله شفاءً لما في الصدور، ورحمة وهدى، قِسْ عليها كل داء قلبي وبدني، وبالله التوفيق.

الفصل السادس والعشرون

الإسلام مستقل كامل في عباداته ومعاملاته ونظمه كلها

قال الله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ [سورة المائدة: الآية ٣]

وهذا يشمل الكمال من كل وجه، وقال تعالى:

﴿إنَّ هذا القرآن يَهدي للتي هي أقومُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩]

أي أكمل وأتم وأصلح من العقائد والأخلاق والأعمال والعبادات والمعاملات والأحكام الشخصية، والأحكام العمومية وقال تعالى:

﴿ومَنْ أحسنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوم يُوقنون﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

وهذا يشمل جميع ما حكم به، وأنه أحسن الأحكام وأكملها وأصلحها للعباد، وأسلمها من الخلل والتناقض، ومن الشر والفساد، إلى غير ذلك من الآيات البينات العامة والخاصة.

أما عقائد هذا الدين وأخلاقه وآدابه ومعاملاته، فقد بلغت من الكمال والحُسن والنفع والصلاح، الذي لا سبيل إلى الصلاح بغيره، مبلغاً لا يتمكن عاقل من الريب فيه، ومن قال سوى ذلك فقد قدح بعقله وبين سَفَهَهُ ومكابرته للضرورات.

وكذلك أحكامه السياسية ونظمه الحكمية والمالية مع أهله ومع غيرهم فإنها نهاية الكمال والأحكام والسير في صلاح البشر كلهم، بحيث يجزم كل عارف منصف أنه لا وسيلة لإنقاذ البشر من الشرور الواقعة، والتي ستقع، إلا اللجوء إليه والاستظلال بظله الظليل، المحتوي على العدل والرحمة والخير المتنوع للبشر، المانع من الشر، وليس مستمداً من نظم الخلق وقوانينهم الناقصة الضئيلة، ولا حاجة به إلى موافقة شيء منها؛ بل هي في أشد الضرورات إلى الاستمداد منه، فإنها تنزيل العزيز العليم الحكيم العالم بأحوال العباد، ظاهرها وباطنها، وما يصلحها وينفعها، وما يفسدها ويضرها؛ وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم وأعلم بأمورهم، فشرع لهم شرعاً كاملاً مستقلاً في أصوله وفروعه، فإذا عرفوه وفهموه وطبّقوا أحكامه على الواقع صَلُحت أمورهم، فإنه كفيل بكل خير، ومتى أردت معرفة ذلك فانظر إلى أحكامه، حكماً حكماً، في سياسة الحكم والمال والحقوق والدماء والحدود، وجميع الروابط بين الخلق تجدها هي الغاية، التي لو اجتمعت عقول الخلق على أن يقترحوا أحسن منها أو مثلها تعذر عليهم واستحال.

وبهذا وشَبَهِهِ نعرف غلط من يريد نصر الإسلام بتقريب نظمه إلى النظم التي جرت عليها الحكومات ذات القوانين والنظم المنصورة، فإنها هي التي تتقوّى وتقوّى إذا وافقته في بعض نظمها، وأما الإسلام فإنه غني عنها، مستقل بأحكامه، لا يضطر إلى شيء منها؛ ولو فرض موافقته لها في بعض الأمور، فهذا من المصادفات التي لا بدّ منها، وهو غني عنها في حال موافقتها أو مخالفتها. فعلى من أراد أن يشرح الدين ويبين أوصافه أن يبحث فيه بحثاً مستقلاً لا يربطه بغيره أو يعتز بغيره، فإن هذا نقص في معرفته وفي الطريق التي يبصر بها، وقد ابتلي بهذا كثير من العصريين بنية صالحة، ولكنهم مغرورون مغترُّون بزخارف المدنيّة الغربية التي بنيت على تحكيم المادة وفصلها عن الدين، فعادت إلى ضد مقصودها، فذهب الدين ولم تصلح لهم الدنيا، ولم يستطيعوا أن يعيشوا فيها عيشة هنيئة ولا يحيوا حياة طيبة، ولله عواقب الأمور.

أما الإسلام فقد ساوى بين البشر في كل الحقوق، فليس فيه تعصبُ نسب، ولا عنصر، ولا قطر ولا غيرها، بل جعل أقصاهم وأدناهم في الحق سواء، وأمر الحكام بالعدل التام على كل أحد في كل شيء، وأمر المحكومين بالطاعة التي يتمُّ بها التعاون والتكافل، وأمر الجميع بالشورى التي تستبين بها الأمور وتتضح فيها الأشياء النافعة فتُؤثَر، والضارة فتترك.

الفصل السابع والعشرون

في الرياضة

وهي التمرن والتمرين على الأمور التي تنفع في العاجل والآجل، والتدريب على سلوك الوسائل النافعة التي تدرك بها المقاصد الجليلة، وهي ثلاثة أقسام:

رياضة الأبدان، ورياضة الأخلاق، ورياضة الأذهان؛ ووجه الحصر أن كمال الإنسان المقصود منه تقوية بدنه لمزاولة الأعمال المتنوعة؛ وتكميل أخلاقه ليحيا حياة طيبة مع الله ومع خلقه، وتحصيل العلوم النافعة الصادقة وبذلك تتم أمور العبد، والنقص إنما يكون بفقد واحد من هذه الثلاثة أو اثنين أو كلها.

والأقسام الثلاثة مما حثّ عليها الشرع والعقل، ولو لم يكن إلّا الاستدلال بالقاعدة الشرعية العقلية الكبيرة، وهي أن الوسائل لها أحكام المقاصد، وأن الأمر الذي يتم به المأمور به مأمور به، أمر إيجاب أو استحباب: لكفى دليلًا وبرهاناً على العناية بالرياضة بأنواعها.

أما الرياضة البدنية فبتقوية البدن بالحركات المتنوعة وبالمشي والركوب وأصناف الحركات المتنوعة، ولكل قوم عادة لا مشاحة في الاصطلاحات فيها إذا لم يكن فيها محذور. وإذا تدبرت العوائد الشرعية في الحركات البدنية عرفت أنها مغنية عن غيرها، فحركات الطهارة والصلاة والمشي إلى العبادات ومباشرتها، وخصوصاً إذا انضاف إلى ذلك تلذُّذُ العبد بها وحركات الحج والعمرة والجهاد المتنوعة، وحركات التعلم والتعليم والتمرين على الكلام والنظر والكتابة وأصناف الصناعات والحرف كلها داخلة في الرياضة البدنية. ويختلف نفع الرياضة البدنية، باختلاف الأبدان قوة وضعفاً ونشاطاً وكسلا،

ومتى تمرن على الرياضة البدنية قويت أعضاؤه واشتدت أعصابه وخفت حركاته وزاد نشاطه واستحدث قوة إلى قوته يستعين بها على الأعمال النافعة، لأن الرياضه البدنية من باب الوسائل التي تقصد لغيرها لا لنفسها، وأيضاً إذا قويت الأبدان وحركاتها ازداد العقل وقوي الذهن وقلّت الأمراض أو خفت، وأغنت الرياضة عن كثير من الأدوية التي يحتاجها أو يضطر لها من لا رياضة له.

ولا ينبغي للعبد أن يجعل الرياضة البدنية غايته ومقصودَه فيضيع عليه وقته، ويفقد المقصود والغاية النافعة الدينية والدنيوية، ويخسر خسراناً كثيراً كما هو دأب كثير من الناس الذين لا غاية لهم شريفة، إنما غايتهم مشاركة البهائم فقط، وهذه غاية ما أحقرها وأرذلها وأقل بقاءها.

وأما رياضة الأخلاق فإنها عظيمة صعبة على النفوس، ولكنها يسيرة على من يسّرها الله عليه، ونفعها عظيم وفوائدها لا تنحصر، وذلك أن كمال العبد بالتخلق بالأخلاق الجميلة مع الله ومع خلقه، لينال محبة الله ومحبة الخلق، ولينال الطمأنينة والسكينة والحياة الطيبة، وشُعبها كثيرة جداً. ولكن نموذج ذلك أن يمرن العبد نفسه على القيام بما أوجب الله عليه ويكمله بالنوافل على وجه المراقبة والإحسان كما قال ﷺ في تفسير الإحسان في عبادة الله: (أن تعبُدَ اللَّهَ كأنك تراه، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنه يَراك)، فيحاسب العبد نفسه على القيام بها على هذا الوجه الكامل أو ما يقاربه، ويقاطعها على تكميل الفرائض، والجد على إيقاعها على أكمل الوجوه، وكلما رأى من نفسه قصوراً أو تقصيراً في ذلك جاهدها وحاسبها وأعلمها أن هذا مطلوب منها؛ ويجاهدها على تكميل مقام الإخلاص الذي هو روح كل عمل، فالعمل إذا كان الداعي لفعله وتكميله وجهَ الله وطلب رضاه والفوز بثوابه، فهذا العمل المقبول الذي قليله كثير، وغايته أشرف الغايات ونفعه مستمر دائم، فإذا رأى من نفسه إخلالاً وتقصيراً بهذا الأمر، لم يزل بها حتى يقيمها على الصراط

المستقيم، بحيث تكون الحركات الفعلية والقولية كلُّها خالصة لله تعالى، مراداً بها ثوابه وفضله، فلا يزال العبد يمرن نفسه على ذلك حتى يكون الإخلاص له طبعاً، ومراقبة الله له حالاً ووصفاً؛ وبذلك يكون من المخلصين المحسنين، وبذلك تهون عليه الطاعات، وربما استحلى في هذا السبيل مشاق الطاعات، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء.

وكذلك يمرِّن نفسه على التخلق بالأخلاق الجميلة مع الخَلْق على اختلاف طبقاتهم؛ فيحسن خلقه للصغير والكبير، والشريف والوضيع، ويعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويحسن إلى من أساء إليه، بقول أو فعل، ويمتثل ما أرشده الله إليه بقوله:

﴿ادفَعْ بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينَك وبينَه عداوةٌ كأنَّه ولي حميم. وما يُلقَّاها إلاّ الذين صبروا وما يُلقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم﴾
[سورة فُصِّلت: الآيتان ٣٤، ٣٥]

أخبر تعالى أنها من أعظم الحظوظ المطلوبة، وأنه لا يوفق لها إلا الصابرون الذين مَرَّنوا نفوسهم وراضوها على التزام هذه الأخلاق، ووطَّنُوها على الاتِّصاف بها، فتوطين النفس على كل أمر ممكن حدوثه من الناس، من أقوال وأفعال، وعلى الصبر عليه عون كبير على التوفيق لهذا الخلق الجليل. وكذلك يمرِّن نفسه ويروضها على النصح لجميع الخلق بقوله وفعله وجميع حركاته، فإن النصح هو غاية الإحسان إلى الخلق وهو الدين الحقيقي، ويمرِّنها على الصدق والعدل واستواء الظاهر والباطن. فهذه الرياضة لا يتم القيام بحقوق الله وحقوق عباده إلاّ بها، وكل أمر من الأمور يحتاج إليها فيه، فإن النفس مجبولة على الكسل وعدم النهوض إلى المكارم، فلا بد من مجاهدتها على ما تصلح به أمورها.

وأما رياضة الأذهان فهو الاشتغال بالعلوم النافعة وكثرة التفكر فيها والابتداء فيما يسهل على العبد منها؛ ثم يتدرج به إلى ما فوقه، وتعويد الذهن

السكون إلى صحيح العلوم وصادقها، وذَوْدِهِ عن فاسدها وكاذبها وما لا نفع فيه منها، فإن من تعوّد السكون إلى الصدق والصحيح، والنفور من ضده، فقد سلك بفكره وذهنه المسلك النافع، وليداوم على كثرة التفكّر والنظر، كما حثَّ الله على ذلك في كتابه في عدة آيات.

وأنفع ما ينبغي تمرين الذهن عليه كلام الله وكلام رسوله، فإن فيهما الشفاء والهدى، مجملاً ومفصَّلا، وفيهما أعلى العلوم وأنفعها وأصلحها للقلوب والدين والدنيا والآخرة.

فكثرة تدبُّر كتاب الله وسنة رسوله أفضل الأمور على الإطلاق، ويحصل فيها من تفتيح الأذهان، وتوسع الأفكار والمعارف الصحيحة، والعقول الرجيحة، ما لا يمكن الوصول إليه بدون ذلك، وكذلك التفكر فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه، من السموات والأرض وما أودع فيهما من المخلوقات والمنافع ليستدل بها على التوحيد والمَعَاد والنُّبوة وبراهين ذلك، وليستخرج منها ما فيها من المنافع النافعة للناس في أمور دينهم ودنياهم، فمن عوّد نفسه ودرَّبها على كثرة التفكر في هذه الأمور وما يتبعها، فلا بد أن تترقى أفكاره وتتسع دائرة عقله وينشحذ ذهنه؛ ومن ترك التفكر جمدت قريحته وكلّ ذهنه، واستولت عليه الأفكار التي لا تسمن ولا تُغني من جوع، بل ضررها أكثر من نفعها.

ومن الأفكار النافعة الفكر في نعم الله، الخاصة بالعبد والعامة، فبذلك يعرف العبد أن النعم كلها من الله، وأنه لا يأتي بالخير والحسنات إلّا الله، وأنه لا يدفع الشر والسيئات إلّا هو، وبذلك تستجلب محبة الله وبه يوازن العبد بين النعم والمحن، وأن المحن لا نسبة لها إلى النعم بوجه من الوجوه، بل إنها تكون في حقِّ المؤمن القائم بوظيفته. الصبر نعمة من الله، فكل ما يتقلب فيه المؤمن فهو خير له، لأنه يسعى بإيمانه ويكتسب به في جميع تنقلاته، وهذه أفضل حلى الإيمان وثمراته البهيجة، وكذلك من أنفع الأفكار

الفكر في عيوب الناس وعيوب الأعمال والتوصل إلى الوقوف عليها، ثم السعي في طريق إزالتها، فبذلك تزكو الأعمال وتكمل الأحوال، وبالله التوفيق.

الفصل الثامن والعشرون

في أن الأنبياء، صلى الله عليهم وسلم، بيّنوا للناس غاية البيان العلوم العقلية والنقلية، وأن علومَهم هي الصحيحة النافعة في جميع المطالب العالية: العقائد والأخلاق والأعمال

وبيان ذلك على وجه الإجمال والاختصار أن العلوم قسمان: علوم سمعية تنبني على صدق المتكلم وبيانه، وعلوم عقلية تنبني على صحة الفطرة وسلامتها وعدم انحرافها:

أما الأول فإنه لا أصدَق من الله ورسوله قِيلًا وحديثاً، ولا أعظم وأوضح من بيان الله ورسوله؛ وقد تكفّل الكتاب والسنة على وجه التفصيل ببيان جميع ما يحتاجه العباد من العقائد والأخلاق والأعمال والحقوق والمعاملات تفصيلًا وتوضيحاً لو اجتمعت العقلاء كلهم من أولهم إلى آخرهم لم يقدروا أن يأتوا بشيء يقاربه في الحسن والتوضيح والإحكام والتفاصيل الصادقة عن أمور الغيب وعن الأحكام الشرعية، والمعاملات بين الخلق على اختلاف مراتبها. وكلما أمعن العقلاء بمعرفة الكتاب والسُّنة عرفوا من ذلك ما تخضع له العقول، وتعترف أنه حاوٍ للكمال المطلق من جميع الوجوه.

وأما بيان الله ورسوله للعلوم العقلية فإن في الكتاب والسنة من البراهين العقلية والأدلة الحسية، وتنبيه العقول على جميع المطالب العالية ما لو جمعت جميع ما عند النظار والمتكلمين من البراهين لكان جزءاً يسيراً بالنسبة لما في الكتاب والسنة؛ مع وضوح دلالته وسلامته من الغلط والنقص

والاختلال بوجه من الوجوه؛ وهي براهين يفهمها العالم والجاهل والذكي والبليد؛ وإذا أردت نموذجاً لهذا الأصل فانظر إلى أهم الأصول وهي التوحيد والرسالة وإثبات المعاد. انظر ماذا في الكتاب والسُّنة على كل واحد من هذه الأصول الثلاثة، من الأدلة العقلية الفطرية الواضحة البينة.

أما التوحيد فانظر إلى هذا الحصر العقلي الذي يفهمه كل أحد ويعترف به كل أحد، إلاَّ من كابَرَ الحس والواقـع، حيث قال للمتكبرين:

﴿أمْ خُلقوا من غير شيء أمْ هم الخـالقون. أم خَلَقُـوا السمٰواتِ والأرضَ﴾ [سورة الطور: الآيتان ٣٥، ٣٦]

فإن كل أحد يعلم علم يقين أنهم قد خُلِقُوا وأنهم لم يَخْلُقُوا أنفسهم، فإن هذه أعظم المحالات، ولا وُجدوا من غير موجد، فتعين أن الله هو الذي خلقهم، فاضطر العقول إلى الاعتراف بهذا الأمر البين الواضح.

وكذلك إخباره بأن له المثـل الأعلى؛ فكل كمال موجود في المخلوقات لا يتضمن نقصاً، فالذي أعطَى الكمال أحقُّ بالكمال، وكل نقص تنزه عنه المخلوق المربوب فالله أحق بالتنزه عنه. وهذا برهان عقلي فطري واضح، فإن معطي الكمال أحقُّ بالكمال من غيره.

وكذلك تنبيه العباد في عدة مواضع من كتابه على النظر في عظمة السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وحسنها وانتظامها وكثرة ما فيها من المنافع.. أليس هذا من أبلـغ الأدلة على عظمة خالقها وكمال قدرته، وشمول حكمته ورحمته، وإحاطة علمه بالكليات والجزئيات.. وأخص من ذلك أنه أمرنا أن ننظر ونتفكر في أنفسنا وما فيها من الجائب الدالة على وحدانية الله وعظمته، وأنه لا يستحق العبادة إلاّ هو، ولا رب سواه.

وفـي كـل شيء لـه آيـة تـدلّ عـلى أنـه واحـد

وكذلك دلّهم دلالة عقلية على توحيده، وأنه لا يستحق العبادة والتأله إلاّ هو، بأنه المتفرد بالخلق للمخلوقات وتدبيرها ورزقها وتسخيرها وأنه ما شاء كان وما لم يشأْ لم يكن، فمن كان هذا وصفه المعترف به بين الخليقة: بَرِّها وفاجِرِها، كان من المعلوم بالعقل والفطرة أنه الواحد الذي لا يستحق العبادة إلا هو.

وكذلك دلَّهم في عدة مواضـع بكثرة نعمه وخيراته على العباد؛ وأن جميـع النعم منه، وأن رحمته وسعت كل شيء، دلهم بذلك على أن من هذا شأنه فهو الذي يتعيَّن أن يكون هو المحمود المشكور المحبوب المخضوع له المعبود.

وبالجملة فإن الآثار تدلّ على المؤثر، والصنعةُ تدلُّ على صانعها، والمخلوقاتُ تدل على خالقها، فهي أدلة واضحات وبراهين بيِّنات دالَّات على وحدانيته وانفراده بالألوهية والعبودية، كما دلَّت على انفراده بالخلق والرزق والربوبية. وأدلة التوحيد الفعلية كثيرة جداً، بل جميـع الموجودات وحركاتها وصفاتها وتنقلاتها كلها براهين على توحيده.

وأما براهين الرسالة العقلية؛ فإننا إذا عرفنا أن ربنا عليم حكيم رحيم واسـع الرحمة وعظيم الإحسان، وأن جميـع الإحسان المتنوع فهـو منه تعالى، وهو الدافـع للمكاره كلها، عرفنا أن من أعظم إحسانه ورحمته بَعْثَهُ الرسل صلوات الله عليهم وسلامه ليبيِّنوا للناس ما يحتاجونه ويعرفوهم بربهم وبدينه، ويذكروهم بأيامه. قال تعالى:

﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذْ بعثَ فيهم رسولاً مِنْ أنفسهم يتلو عليهمْ آياتِهِ ويزكِّيهم ويعلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لفي ضلالٍ مبين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

ولقد أيّد الله رسله بالآيات البينات والأدلة القاطعات، جعل تعالى نفس

بعثتهم وما بعثوا به من الدين الحق والهدى والخير والرحمة الشاملة من البراهين العقلية على بعثتهم وصدقهم، وجعل أخلاقهم وما هم عليه من الصفات العظيمة التي لا تكون إلا للكُمَّلِ من الخلق براهينَ على رسالتهم وجعل معجزاتهم المتنوعة الخارقة للعادة، التي لا تكون إلّا بتأييد منه من البراهين على رسالتهم، فما بعث الله نبيّاً إلّا جعل على يده من الآيات ما على مثله يؤمن البشر. وشاركهم محمد ﷺ في جنس براهينهم واختص من بينهم بآيات عظيمة، أعظمها وأبرها هذا القرآن العظيم، الذي مَنْ تأمّلَه وعرفَه عرف أنه من عند الله، وأن من جاء به أكملُ الرُّسُلِ وأعمُّهم رسالة، وأن البراهين التي قامت على رسالة محمد ﷺ من حسِّية وعقلية ونقلية لا يقاربها شيء من الآيات والبراهين، فازداد بها المؤمنون إيماناً ويقيناً، وتمَّ بها إيمانهم ويقينهم وعلمهم، وارتفعت بها درجاتهم.

وأما براهين المعاد العقلية، فقد أخبر الله في كتابه بعدة قصص ممن أحياهم الله بعد موتهم، وذلك برهان عقلي حسي على البعث، وذكر خلقة الإنسان، وأن الذي ابتدأ خلقه فإعادتُه أهونُ عليه وأسهل، وذكر من البراهين خلق السموات والأرض، وأنها أكبر من خلق الناس، وذكر إحياء الأرض بعد موتها، وذكر كمال حكمته، وأنه لا يليق به أن يَترُكَ خلقه سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون؛ فكمال قدرته وحكمته من أكبر الأدلة على المعاد، وذكر سعة علمه وقدرته في مواضع كثيرة. وأن من جزئيات ذلك بعثة الأموات ومجازاتهم بأعمالهم، خيرِها وشرِّها. وذكر تعالى الاستدلال بالموتة الصغرى، وهي النوم، على الموتة الكبرى، ورد الأرواح في الأجساد؛ على ردِّ الأرواح في الأجساد، وأعاد هذه البراهين في الكتاب وأبداها لوضوحها وقوتها، وأن المنكِرين للبعث ليس عندهم إلّا مجرد استبعادات من عقول سخيفة مبنية على قياس الرب العظيم وقدرته وعظمته بالمخلوق الناقص الضعيف في كل أوصافه. وهذه أجناس الأدلة؛ فضلاً عن أنواعها، فضلاً عن أفرادها التي لو بسطت لبلغت مجلدات، وهي براهين عقلية حسية مشاهدة.

وأما البراهينُ النقلية فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام أخبروا بذلك وفصلوه؛ وقرروا توحيد الله وصدق رسله والجزاء والبعث. والقرآن يكاد يكون كله في تقرير هذه الأصول الثلاثة وتفصيلها؛ والسُّنّة فيها من التفاصيل والتوضيحات لهذه الأصول شيء كثير يشفي ويكفي. وبالله التوفيق.

الفصل التاسع والعشرون

في العفّة والغنى

ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (ومن يستعفف يعفه الله. ومن يستغن يغنه الله). هذا خبر منه ﷺ ووعد وترغيب في الاستعفاف والاستغناء عن الخلق. والفرق بين الأمرين فرق ما بين الوسيلة والمقصود وما بين اللازم والملزوم. فإنّ من استغنى بالله وبرزقه وما قسم له الله وأعطاه ولم يلتفت إلى غير ربه وغير فضله وإحسانه استعف عن الخلق ولم يعلق بهم قلبه لا خوفاً ولا رجاءً ولا طمعاً ولا رغبة؛ وهذه المرتبة أعلى المراتب وأشرفها. ولهذا خلق الله العباد ليعبدوه وحدَه، ويطلبوا الرزق والنصر منه وحدَه، ويعلّقوا رجاءهم وطمعهم وسؤالهم بالله وحدَه، ويرضَوْا بقضائه وقسمه وقدره ولا يعلِّقوا شيئاً من ذلك بالمخلوق، مع بذلهم الأسباب التي يدركون بها هذه الأمور الجليلة. ولهذا قال ﷺ: (ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله). أي من اجتهد على تحصيل العفة والاستغناء بحسب ما يقتدر عليه ويستطيعه من الأسباب، وبذل جهده وجاهد نفسه على ذلك أعانه الله ووفقه ويسَّر له هذا الأمر الذي طلبه ورغب فيه وبذل فيه مقدوره لعلمه بمحبة الله له، ولعلمه أنه بهذا يكسب الرزق الحقيقي والمراتب العالية فأراح الله قلبه من تعلُّقه بالخلق وأراحه من تشوُّش الأسباب وإتيانها على غير مراده، واطمأن قلبه

وحَيِيَ حياة طيبة سعيدة، فإنه لا أهنأ حياة ولا ألذّ ممن قطع رجاءه عن الخلق واستغنى عمّا في أيديهم ولم يتطلع إلى ما عندهم بل قنع برزق الله واستغنى بفضل الله، وعلم أن القليل من الرزق إذا كسب القناعة خيرٌ من الكثير الذي لا يغني، فليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى في الحقيقة غنى القلب، غناه بالله وبرزقه المتيسِّر عن رجاء الخلق وسؤالهم والاستعباد لهم في مطالب الدنيا والرضوخ لرقهم.

وهذه المرتبة العالية كلٌّ يحب الوصول إليها والاتِّصاف بها، ولكن أكثر الخلق متخلف عنها، غير عامل بالأسباب الموصلة إليها، ولا متجرد من الموانع المانعة من تحصيلها جهلاً وتهاوناً واشتغالاً بما يضر عما ينفع. وبالمراتب الدنيئة عن المراتب العلية.

فإن قلت: فما هي الأسباب التي تنال بها هذه المرتبة الجليلة؟ قلت: قد ذكرها النبي ﷺ في نفس هذا الحديث، وهي قوله: (يستعفف ويستغني)، أي يسعى في ذلك وفي طلبه، ويسلك كل سبب يوصله إليه.

فأول ذلك مجاهدة نفسه على الاتِّصاف بذلك، ثم سؤال الله والإلحاح عليه أن يُعِينه على الوصول إلى هذه المرتبة، فإن من اجتهد واستعان بالله وألَّح عليه في السؤال لم يخيبه الله، فإنه أمر بالدعاء ووعد عليه الإجابة في جميع الأدعية التي أَفْضَلها وأعلاها أن تدعو الله بالتوفيق لمراضيه، وبالحفظ والوقاية عن مناهيه، فما خاب من سأله ورجاه، ولا من طمع في تحصيل فضله وخيره وهداه.

وإذا علم العبد أن الله تعالى عنده جميع مطالب السائلين، وبيده خزائن الخيرات والبركات، وأنه ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له، وأن النعم كلها منه لا يأتي بالحسنات إلّا هو، ولا يدفع السيئات إلّا هو، وأنه هو النافع الضار، المعطي المانع، وأنّ

الخلق ليس بيدهم من هذه الأمور شيء، وأنهم جميعاً مهما كانت أحوالهم ومراتبهم فإنهم فقراء إلى الله في كل شؤونهم. . مَنْ عرفَ هذا حق المعرفة: اضطرته هذه المعرفة الجليلة الواصلة إلى القلب إلى تعليق الأمور كلها على الله. وتعلق القلب به وانقطاعه عن الخلق. وعلم العبد أنه كلما قوي تعلُّقه وطمعهُ في فضله أتاه من الخير والبركة وطيب الحياة ما لا يخطر ببال.

ثم إذا علم حق العلم أن تعلق القلب بالمخلوق يهبط بصاحبه إلى أسفل الدَّرَكات ويجعله حقيراً ذليلاً مَهيناً مُهاناً، وأن ذلك غير نافع ولا مفيد، بل ضرُّه كبير وشره مستطير، متى علم ذلك حق العلم لم يركن إلى أحد من الخلق، ولم يرجهم ولم يملكوا عليه ضميره، حتى يكون أسيراً لهم، عبداً ذليلاً، يأنف من ذلك كله.

ومما يعين على الاستعفاف قوله ﷺ لرجل أوصاه بوصايا فقال: (واجمع اليأس مما في أيدي الناس): أي اعزم عزماً مصمِّماً لا تَرَدُّدَ فيه على انقطاع أملك وقلبك ورجائك عما في أيدي الناس، فإن من يئس من شيء استغنى عنه. فما أنفع هذه الوصية وأحلاها؛ فإن العزم الجامع المصمم الذي لا تردد فيه خير آلة ووسيلة لإدراك جميع المطالب، والخلل يأتي إمّا من عدم العزم أو من ضعفه وتردده، أو من عدم ثبوته واستمراره، فمتى عزم على قطع أمله من الناس وقطع استشراف قلبه وسؤاله لهم، حصلت له العفة التامة والغنى التام؛ ومتى رأى نفسه مفتقرةً إلى ما بين أيديهم ملتفتاً إليه المرة بعد المرة، فإنه لا يزال مفتقراً إليهم ذليلاً لهم خاضعاً لهم، وذلك هو الخسران المبين. ومن أيس من شيء استغنى عنه.

ومما يوجب للعبد الاستعفاف والاستغناء علمُه بأن افتقاره إلى الخلق وتعلقه بهم واستشرافه لما بين أيديهم أو سؤالهم يجلب الهم والغم والأكدار والقلق، وأن استغناءه عنهم وعدم تعلقه بهم يوجب راحة القلب وروحه وطمأنينته. ثم إنه كلما قوي طمع العبد بالله، وقوي رجاؤه لربه، وقوي

توكله، يسَّر الله له كل عسير، وهوّن عليه كل صعب، ورزقه من حيث لا يحتسب، وكفاه الهموم كلها وكسب الحرية التي لا أرفع منها ولا أنفع.

الفصل الثلاثون

في الصحيحين مرفوعاً: (يسّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا)

ما أجلّ هذا الحديث وأنفعه وأجمعه لكل خير؛ وهو يجمع جميع الأسباب التي تنشط العاملين وتبعث عزائمهم على الخير؛ وذلك أن الداعي إلى الخير لا تتم له الدعوة ولا تحصل ثمراتها المطلوبة منها إلاّ بترغيب المدعوين وتذكيرهم بالأسباب المرغبة، الداخلية والخارجية وإبعاد الأسباب المثبِّطة حسب الإمكان، وهي كلها مجتمعة في هذا الحديث الجليل، فإن التيسير لأعمال الخير وتهوينَها على العاملين والاقتناع بما تيسر وسمحت به هممهم وعزائمهم، وأمر كل عبر ودعوته بما يناسب حاله وتقتضيه نفسه وطبيعته ويهون عليه، لا ريب في نفعه وسهولة الإجابة إليه، وخصوصاً إذا ضم إلى التيسير: التبشير بخيره وثمراته العاجلة والآجلة، ونفعه اللازم والمتعدي، فسلوك طرق التيسير والسهولة، وتبشير العاملين وترغيبهم لا ريب في نفعه.

وأما سلوك الطريق المضادة لهذا من التعسير وتصعيب الأمور على الناس، وعدم قبول ما جاء منهم حتى يكمل من كل وجه، فإنه أعظم منفِّر عن الخير، وأعظم مثبِّط ومكسل عن الخير، والواقع والتجربة خير شاهد لهذا.

ألا ترى أن الصلاة، وهي أعظم شرائع الدين، وهي العمل الذي يشترك فيه جميع المسلمين، قد أمر النبي ﷺ فيها بما يكون سهلاً حتى على العاجزين حيث قال: (أيها الناس، أيكم أمَّ الناسَ فليخفف، فإن فيهم الصغير والكبير والمريض والضعيف وذا الحاجة) وقال لإمام أمَرَه بأحكام

الصلاة حتى قال: (واقتد بأضعفهم) وقال أنس: ما صليت وراء إمام قط أخف صلاه ولا أتم صلاة من النبـي ﷺ.

فالتخفيف الذي تتم به الصلاة، ولا يحصل منه إخـلال بشيء من أمورها، لا شك في نفعه وترغيبه للمصلِّي ولمن يُصلِّي خلفه ويقتدي به؛ وقال في الخطبة: (إن طول صلاة الرجل ــ أي مع عدم التثقيـل على الناس ــ وقِصر خطبته مَئِنَّة[1] من فقهه، فأطيلوا الصلاة وقصروا الخطبة).

وكان ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم؛ وقال ﷺ منكـراً على المتبتِّلين الذين يـريدون استغـراق زمانهم بـالصلاة والصيـام والخشونة: (أما أنا فأُصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وآكـل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)؛ وقال: (إن لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، ولزَوْرِك عليك حقًّا، فآت كلَّ ذي حق حقَّه).

ولما بال الأعرابـي الجاهل في المسجد وانتهره الناس، زجرهم ﷺ وتركه حتى قضى بوله ثم دعاه وعلمه بلطف ورفق وقال: (إن هذه المساجد لا تصلـح لشيء من هذا القذر، إنما بنيت للصلاة والقراءة والذكر والعبادة).

ولما أغلظ له بعض الأعراب الجافين بالقول، وهمّ به الصحابة رضي الله عنهم قال: (دعوه) ثم ألان له القول وبذل له شيئاً من المعروف، فانقاد إلى الحق وحصل المقصود منه، وقال للناس: (إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل له راحلة انفلتت منه، فذهب الناس في طلبها سراعاً من كل جانب، فلم يزدها ذلك إلا نفوراً. فقال صاحبها للناس: دعوني وراحلتي، فلم يزل يناديها ويأخذ من نبات الأرض ليعطيها، فلم يزل كذلك حتى أخذ بزمامها).

وكان ﷺ في دعوته للخلق يدعو كل أحد بما يناسب حاله، وبالطريق التي يعلم حصول المقصود منه بها. وأمر أصحابه أن يدعوا الناس بذلك،

---

(١) المئنة: العلاَمة.

وقال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم). وهكذا شريعته كلها مبنية على السهولة واليسر في ذاتها وأحكامها وشرائعها وفي دعوتها للخلق والأمر والنهي.

ومن النصوص الجامعة في هذا النوع قوله تعالى:

﴿آدعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمةِ والموعظة الحسنة﴾

[سورة النحل: الآية ١٢٥]

﴿ولا تجادلوا أهلَ الكتابِ إلّا بالتي هي أحسن﴾

[سورة العنكبوت: الآية ٤٦]

﴿آذهبا إلى فِرعونَ إنّه طغى. فقولا له قولاً ليِّناً لعله يتذكر أو يخشى﴾

[سورة طه: الآيتان ٤٣، ٤٤]

﴿وقولوا للناس حسنا﴾ [سورة البقرة: الآية ٨٣]

وغيرها من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وعلى هذا فعلى من أراد التعليم أن يراعي أذهان الطلبة ويعطيهم من الدروس ما يتيسر عليهم فهمه، ويربيهم بصغار العلم قبل كباره، ولا يحمل أذهانهم ما لا يتحملون، وكذلك تعليم الجهال وإلقاء العلوم ينبغي مراعاة الأمور التي يحتاجونها، وأن تشرح لهم شرحاً يسهِّل عليهم فهمه.

وكذلك تمرين الصغار من الأولاد الذكور والإناث على الصلاة وأمور الخير، ينبغي مراعاة قُواهم ورغباتهم، وترغيبهم بالقول والفعل والاكتفاء بما تيسّر مما سمحت به طبائعهم، وتدريجهم من شيء إلى آخر. بل وكذلك دعوة المخالفين للدين ينبغي مراعاة هذا الأصل فيها لما يحصل فيه من النفع العظيم، ولهذا أيضاً جاءت الترغيبات المتنوعة على أعمال الخير وأقوال

الخير، وعلى ترك المحرَّمات، لأنها من أقوى الدواعي إلى توجيه الخلقِ إلى طاعة الله ورسوله.

الفصل الحادي والثلاثون

أصول الفضائل ثلاثة: العلم والدين والجهاد

أما العلم: فهو الذي تقوم عليه الأدلة والبراهين، فكل ما دخل في هذا الحد الجامع قيل له علم؛ فيدخل في ذلك العلوم التي يُتَوَسَّل بها إلى الدين وإلى الدنيا وإلى كل مقصود وحقيقة؛ ولكن النافع من هذا ما جاء به الرسول من الكتاب والسُّنّة، وما تفرَّع على ذلك، فلا تخرج العلوم النافعة عن الكتاب والسنة. وأمّا الدين الصحيح: فهو طاعة الله وطاعة رسوله بتصديق خبرهما والاعتراف به والتعبد لله بذلك وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما، فكل من كان أكملَ طاعةً لله ورسوله كان أكمل ديناً.

والجهاد: وحدُّه بذلُ الجهد القولي والفعلي بتنفيذ أمر الله وأمر رسوله في النفس وفي الغير. وذلك تبع القدرة والاستطاعة؛ فمن كان أكمل في هذه الصفات الثلاث العلم، والدين، والجهاد، كان أكملَ وأفضلَ وأرفعَ عند الله درجة؛ وللصحابة منها النصيب الأوفر والحظ الأكمل؛ والآثار أكبر شاهد على ذلك؛ فإن الصحابة، رضي الله عنهم، هم الواسطة بين الأمة وبين نبيِّهم في إيصال جميع العلوم النافعة وفي تنفيذ دينه، فما وصل للأمة من علم ودين إلّا على أيديهم وبسببهم، ولا انتشر الدين في مشارق الأرض ومغاربها إلّا بعلمهم ودينهم وجهادهم، وهم في ذلك الفضل على مراتبهم، وكذلك من بعدهم من أئمة الدين والهدى الذين كانت لهم الآثار الحميدة، والنفع الكثير، والفضائل الغزيرة، إنما ينبوع ذلك ومادته وأصله من هذه الفضائل الثلاث.

ووجه الحصر ورجوع الفضائل كلها إلى هذه الثلاث، أن النقص الحاصل على الإنسان، إما أن يكون لفقد العلم وحصول الجهل، وذلك ضلال، وفقد للهداية التي تنير للعبد جميع الطرق الدينية والدنيوية، ولا يعرف الوسائل ولا المقاصد، ولا يهتدي إلى كيفية المنافع والمضار.

وإما أن يكون عارفاً بذلك ولكن لا يعمل بمعرفته، يعرف الخير فيتركه، ويعرف الشر فيفعله، يرى المنافع الدينية والدنيوية فينحرف عنها ويشاهد المضار المحققة فلا تدعه الأغراض الضارة حتى يقتحمها، فهذا حصل له النقص الكبير، لا لعدم معرفته، بل لعدم دينه، فإن الدين الصحيح هو الذي يسيِّر العبد في مسالك الخيرات والمنافع، ويمنعه من المضار والمهالك.

وإما أن يكون عارفاً بالأمور، سالكاً مقتضاها، عاملاً بعلمه، لكنه مقتصر على نفسه لا يسعى في هداية غيره ولا إصلاح سواه؛ قد ملكه الكسل، واستولى عليه الجبن والخور عن الجد والاجتهاد في إصلاح الغير، والسعي في دفع الصائل؛ فهذا نقصه لفقد اتصافه بالجهاد الصحيح؛ فمن كملت له هذه الأمور الثلاثة فهو السابق إلى الخيرات، المستولي على كل الفضائل، حيث عرف الحق فاتَّبَعَهُ والباطل فاجتَنَبَهُ، وجاهد نفسه وغيره للاستقامة على الصراط المستقيم، فأي فضيلة لم تحصل له، وأي خصلة حميدة لم يدركها. . من فاته العلم وقع في الجهل والضلالات، وفاتته الخيرات والمنافع التي لا تستقيم أموره إلاّ بها. من فاته العلم كيف يهتدي إلى مصلحة، وكيف يتخلص من مضرة؟ من فاته العلم كيف يتعبد وكيف يعامل، وكيف يتمكن من إقامة الحقوق والقيام بها؟ وكما هو محمود في أمور الدين، فهو محمود في أمور الدنيا.

أما المكاسب والتجارات والحراثة والزراعة والصناعات كلها والأعمال مفتقرة إلى العلم، فهل يتوصل إليها وإلى وسائلها ومقاصدها إلاّ بالعلم؟ بالعلم يُرفَعُ العبد درجات، وبالجهل ينزلُ دركات، ثم العلم روحه وزينته

وقوامه وخيره الدين، فلا خير في علم لا دين معه، فأي فضيلة فيمن يعرف الخير والمنافع فيتركها، ويعرف المضارَّ فيتبعها؟

بالدين تحصل السعادة والفلاح، وبالدين تدرك المطالب الطيبة ويتم النجاح. اللهم أَرِنَا الحقَّ حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. من حصل له مقتضى هذا الدعاء وأجيبت دعوته فقد تمَّ علمه ودينه، ولا يتم ذلك ولا يكمل إلّا بالجهاد. أليس التعلم والتعليم والصبر على ذلك من أكبر الجهاد؟ أليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة للخلق من الجهاد؟ أليس تنفيذ الحق ونصره، ورد الباطل وقمعه من الجهاد؟ أليس تعليم الجاهلين وتنبيه الغافلين وإيقاظ المعرضين وموعظة المعارضين ومجادلتهم من الجهاد؟ هل تتم الأمور بدون الجهاد؟ وهل يستقيم الهدى والاهتداء ويحصل الصعود والارتقاء إلّا بالجهاد..

طوبى لأهل العلم والدين والجهاد. ويا هناءهم بما نالوا من الخيرات والمصالح والرشاد. لقد نالوا شرف الدنيا وفوز الآخرة، وتمَّت عليهم النعمة الباطنة والظاهرة.

وإذا أردت أن تعرف فضلهم العظيم وارتفاع منازلهم، فَقِسْ كل واحد بضده، اعرف الفرق بين الجاهل والعالم، وبين المؤمن والجاحد، وبين المجاهد والمخلد إلى الكسل:

﴿قُلْ هَلْ يَستوي الذين يعلمون والذينَ لا يعلمون﴾

[سورة الزُّمر: الآية ٩]

﴿أمْ مَنْ هُوَ قانتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرة ويرجُو رحمةَ ربِّه﴾ [سورة الزُّمر: الآية ٩]

أي كمن ليس كذلك؟

كم بين من مليءَ قلبه من معرفة الله ومحبته والإنابة إليه وإخلاص الدين

له، وعمل بمقتضى ذلك من القيام بحقوق الله وحقوق عباده، وبين من قلبُه من التقوى خرابٌ، وأعماله كلها رياء وسمعة، قد خلا قلبه من الإخلاص لله، ومن النصيحة لعباد الله؟

وكم بين من عرف الله وعرف السبيل الموصلة إلى الله؛ وعرف كيف يهدي وينصح عباد الله وجاهد في تحقيق ذلك، وبين الخالي من هذه المعارف التي لا صلاح للعبد ولا للخلق إلّا بها؟ إنك بمجرد ما تصور أحوالهم وتعرف صفاتِهم، تعرف الفرقَ العظيم بين من أخذ من هذه الصفات الثلاث بأوفر حظ وأكمل نصيب ممن ليس له منها حظ ولا نصيب؛ فنسأل الله أن يمنَّ علينا بالعلم النافع والإيمان الصحيح والجدِّ والاجتهاد في معرفة الحق والعمل به والقيام بحقه وحق عباده.

الفصل الثاني والثلاثون

في الوسائل إلى أهم المقاصد

قد جعل الله لكل مطلوب طريقاً وسبباً، متى سلكه العبد أوصله بإذن الله ومشيئته إلى ذلك المطلوب، وبهذا يعلم افتقار الإنسان إلى معرفة الأسباب والوقوف عليها، ثم يستعين الله على سلوكها ليتمَّ له المطلوب؛ فمتى بذل المجهود واستعان بالمعبود وأتى الأمور من أبوابها أفلح وأنجح. والخلل والنقص يأتي من فوات هذه الأمور الثلاثة أو أحدها.

الإيمان بالله حقيقة والتقوى

جعل الله هذين الأمرين سببين وطريقين تُنالُ بهما خيراتُ الدنيا والآخرة ويعصمان من شرورها ومن كل مكروه؛ وكم لهذين الأمرين من الثمرات

والفوائد والنتائج الطيبة التي لا تعدُّ ولا تحصى، ومن تدَّبر الكتاب والسُّنة رأى الشارع رتّب عليهما أموراً كثيرة وخيرات غزيرة ورتب على فقدهما ضد ذلك.

حُسن السؤال، وحُسن الإصغاء والتفكر، وكثرةُ التأمل مفاتيح للعلوم كلها. السعيُ في طلب الرزق في السبب المناسب لحال العبد مع الاتكال على الله، والثقة به سبب لحصول الرزق وبركته.

الإلحاح في الدعاء كل وقت مع قوة الرجاء سبب لحصول مطالب الدنيا والآخرة.

الجزاء من جنس العمل، فمن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه. ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن نَفَّسَ عن مسلم كربة من كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن شاق شاق الله به، ومن ضارَّ ضارَّ الله به، ومن تفرغ لعيوب الناس تفرغ الناس لعيوبه؛ ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن قوي توكله على الله كفاه أمر دينه ودنياه، ومن توكَّل على نفسه أو على غيره، وَكَلَهُ الله إلى ما توكل عليه وخذله ولم يتمَّ له مطلوبه؛ ومن نوى الخير والنصيحة للخلق يسَّر الله أمره وأثابه بالجزاء الجزيل، ومن نوى الشر والغش للخلق تعسرت عليه أموره وجوزي بالعقاب الوبيل.

التواضع وحسن الخلق تنال بالرغبة في مكارم الأخلاق ومعرفة ما لها من الثمرات الجليلة. ومعرفة النفس ومجاهدتها وتمرينها على ذلك يدرك به كل خلق جميل. كما أن إعجاب الإنسان بنفسه وسكر الرياسة والحمق جالبات لسوء الخلق.

المثابرة على الأعمال والصبر عليها، والثبات وعدم اليأس أسباب لحصول نتائج الأعمال وثمراتها ــ وضد ذلك سبب للخيبة ــ توطين النفس

على الواردات الكريهة سبب لسهولتها وعدم الانزعاج لوقوعها، ومن القواعد الأساسية قول الشاعر:

وقلّ من جد في أمر تطلّبه   واستصحب الصبر إلّا فاز بالظفر

تعلُّق القلب بالله وحدَه واللهجُ بذكره والقناعة، أسبابٌ لزوال الهموم والغموم وانشراح الصدر والحياة الطيبة، والضدُّ بالضد؛ فلا أضيق صدراً وأكثر همًّا ممن تعلّق قلبه بغير الله، ونسي ذكر الله ولم يقنع بما آتاه الله، والتجربة أكبر شاهد.

حُسن النية والإخلاص لله سببٌ لتيسير الأمور ونجاح الأعمال وكثرة فوائدها وثمراتها، والضدّ بالضد.

الدعوة بالحكمة والتربية بالحكمة، والتعلم بالحكمة سبب للنجاح. ومعنى الحكمة وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، وإتيان الأمور من أبوابها وطرقها، ودعوة كل أحد بما يليق به ويناسب حاله. وتعليمه ما يستطيع فهمَه ويتحملُه ذهنه، وتربيتُه بالتدريج بالأسهل فالأسهل والتوفيق بيد الله.

بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، فإن اليقين يبصِّرُ العبدَ في عقائده وأخلاقه وأعماله، والصبرُ يحمله على السعي والعمل والجد والاجتهاد في الأمور النافعة، وبهما الكمال ـ والنقص من فقد الصنفين أو أحدهما.

الشكر مقرون بالمزيد وسبب بقاء النعم وبركتها ونموها، وهو الاعتراف بنعم المولى والثناء عليه بها، والاستعانة بها على طاعته، وضدُّ ذلك بضده.

أكبر الأسباب للاهتداء بما جاء به الرسول من الكتاب والسُّنة والوصول إلى الحق في جميع الحقائق والمطالب العالية، العلم اليقينيُّ أن النبي ﷺ هو الغاية في العلم والنصح والبيان؛ فهو أعلم الخلق على الإطلاق وأنصحُهم للخلق، وأعظمُهم بياناً للحق؛ ومتى علم المنصف كمالَ الرسول

في هذه الأمور علم أن كل ما جاء به هو الحق، وأن كل ما خالف ذلك فهو باطل بلا ريب، يعلم ذلك بهذا الأصل الكبير الذي لا يسع مؤمن إلَّا الاعترافُ به، ثم يعرف بطلانه بتصوره والأدلة الدالة على بطلانه، فإنه محال أن يكون الحق في غير ما جاء به الرسول، وهذا يتضح بتتبع ذلك في أصول الدين وفروعه، وقد بيَّن أهل العلم ذلك غاية البيان.

أقوى الأسباب للسلامة من كيد الشيطان وطرقه قوةُ الإيمان بالله وقوة التوكل على الله، وكثرة ذكر الله، والاستعاذة بالله منه، والابتعاد عن جميع أسباب المعاصي والمبادرة للتوبة النصوح إذا وقع منها شيء.

أسباب صحة الأبدان تدبير الأغذية بأن لا يأكل مضرًّا، بل يأكل المناسب له بقصد، بغير إسراف وبغير إدخال طعام آخر قبل انهضامه، والحِمْية عن جميع المؤذيات الداخلية والخارجية، والابتعاد عن أسباب الهم والغم ومعالجة الواقع منها، والابتعاد عن الروائح الخبيثة، وتنظيف البدن من الأوساخ والمسكن العذي والهواء الطري والرياضة كما تقدم شرحها والسعي في الأسباب الجالبة للحياة الطيبة وسعة الصدر واستعمال الأدوية عند الضرورة إليها، وأما دوام استعمالها ولو لأقل سبب، فإنه ينفع من جهة ويضرُّ من جهة أخرى، وقد يكون الضرر أكثر. فينبغي أن يجعل الدواء بمنزلة الأمور الضرورية.

ومن أسباب تحكُّم الآلام ووقوع الأسقام كثرةُ الأوهام وضعف القلب؛ كما أن قوة القلب والطمع في فضل الله والتوكل عليه في رفع النازل من البلاء، ودفع ما لم ينزل سببٌ قويٌّ جدًّا في الصحة ودفع المؤذيات.

أعظم الأسباب لنيل مغفرة الله ورحمته: الإيمان والتوبة والأعمال الصالحة والإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى الخلق والعفو عن الناس؛ وجماع ذلك كله طاعة الله ورسوله، قال تعالى:

﴿وأطيعوا اللَّهَ والرسولَ لعلكم تُرحمون﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٣٢]

شفاعة النبي ﷺ تُنال بكمال الإخلاص لله وبكثرة الصلاة والسلام عليه، وبحسب اتباعه في أقواله وأفعاله وهديه، وبمحبته وتوقيره ﷺ وتقديم طاعته على طاعة كل أحد من الخلق.

أسباب قبول الأعمال كثيرة، وكلها ترجع إلى شيئين: الإخلاص لله والاتِّباع لرسول الله، فكل من كان أقوى إخلاصاً وأحسن اتِّباعاً كان أعظمَ قبولاً وأكثر مضاعفة وأجل ثواباً وأجراً.

الصبر والثبات والمشاورة والتوكل أكبر الأسباب لحصول النصر على الأعداء، لا سيما إذا انضم إلى ذلك القوة المادية والاستعداد بعلوم الحرب وفنونه، كما ذكر الله هذه الأسباب كلها في سورة الأنفال.

الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة، والصدق في المعاملات تقترن به البركة ويقارنه الشرف والاعتبار، وضد ذلك بضده.

الكسل مفتاح الحرمان، والكِبْرُ مفتاح كل شر.

الشُّح والحِرص مفتاح البخل وقطيعة الرحم، والسماحة مفتاح لكل خير وسبب لكثرة الخير والفضائل، وخصوصاً إذا انضم إليها الصبر، فالصبر والسماحة آثارها جليلة وثمراتها جميلة.

ومن ذلك أن النية أكبر الأسباب وأنفعها وأقربها لحصول المقاصد النافعة، وينبغي أن تفرد بفصل فنقول:

الفصل الثالث والثلاثون

في أن النية أساس الأعمال وبها صلاحها

قال تعالى في وصف النبي ﷺ وأصحابه:

﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩]

وقال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات؛ وإنما لكل امرىء ما نوى). فأخبر أن صلاح الأعمال وفسادها بالنيات، وأنه يحصل للعبد من الثمرات والنتائج بحسب نيته؛ ومعلوم أن جميع العبادات لا تصح إلّا بالنية، بأن ينوي ذلك العمل، ويميز بين العادة والعبادات، وبين مراتب العبادات؛ ثم لا بد مع ذلك أن يكون القصد منها والغرض وجه الله وثوابه، وينبغي للعبد في العبادات أن يكون له فيها نية مطلقة عامة، ونية خاصة مقيدة.

فأما النية العامة، فإنه يعقد بقلبه عزماً جازماً لا تردد فيه، أن جميع ما عمله من الأعمال الاعتقادية والبدنية والمالية والقولية، والمركبة من ذلك مقصودُه بها وجهُ الله، والتقرب إليه وطلب رضاه، واحتساب ثوابه، والقيام بما فرضه وأحبه الله لعبده، وأنه عبد مطلق يتصرف تصرف العبد المملوك فهذه النية العامة التي تأتي على عقائد الدين وأخلاقه وأعماله الظاهرة والباطنة، ينبغي أن يجدِّدها في قلبه كل وقت وحين، لتقوى وتتم ويكمل الله للعبد ما نقص من عمله، وما أخل به وأغفله من حقوق العبادات، لعل الله تعالى يجزيه على تلك النية الشاملة للدقيق والجليل من عمله أجراً وثواباً.

ثم بعد تحقيق هذا الأصل الكبير الذي هو أساس الأعمال، ينبغي للعبد أن يتعبد لله بإخلاص في كل جزء من أعماله، فيستحضر بقلبه أن يعمله لله متقرِّباً به إليه، راجياً ثوابه من الله وحدَه، لم يحمله على ذلك العمل غرض من الأغراض سوى قصد الله وثوابه، ويسأل ربه تعالى أن يحقق له الإخلاص

في كل ما يأتى وما يذر، وأن يقوِّيَ إيمانه ويخلصه من الشوائب المنقصة، وبهذه النية الصادقة يجعل الله البركة في أعمال العبد ويكون اليسير منها أفضلَ من الكثير من عمل من خلا قلبه من هذه النية. ثم إذا عرضت له العوارض المنقصات، كالرياء وإرادة تعظيم الخلق، فليبادر بالتوبة إلى الله ويصرف قلبه عن هذه العوارض المنقصة لحال العبد التي لا تغني عنه شيئاً ولا تنفعه نفعاً عاجلاً ولا آجلاً.

ثم إذا حقق النية في العبادات، فليغتنم النية في المباحات والعادات، فليجعلها بالنية الصالحة عبادة أو قريبة منها، وذلك بأمرين:

أحدهما: أن ينوي أن كل مباح يشتغل به، من أكل وشرب وكسوة ونوم وراحة وتوابعها يقصد به الاستعانة على طاعة الله، والقيام بواجب النفس والأهل والعائلة والمماليك، ويقول: اللهم ما رزقتني مما أحب من عافية وطعام وشراب ولباس ومسكن وراحة بدن وقلب وسعة رزق، فاجعل ذلك خيراً لي ومعونة لي على ما تحبه وترضاه، واجعل سعيي في تحصيل القوت وتوابعه أداءً للأمر وقياماً بالواجب واعترافاً بفضلك ومنتك عليَّ، فإني أعلم أن الفضل فضلُك، والخيرَ خيرُك، وليس لي حول ولا قوة ولا اقتدار على شيء من منافعي ودفع مضاري إلاّ بك. فيتقرب إلى ربه بالاستعانة بالله في ذلك وبالاعتراف بنعمه، ويقصد القيام بالواجب وباحتساب الأجر والثواب، حتى يتحقق بمعنى قوله ﷺ: (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعله في فيّ امرأتك). وقوله: (الساعي على الأرملة والمساكين، كالمجاهد في سبيل الله)، وأحسبه قال: (وكالصائم لا يفطر، وكالقائم لا يفتر).

ثم مع هذه النية العامة التي تحيط بجميع مباحاته وعاداته فليستحضر عند كل جزء من أجزاء عاداته تلك المقاصد الجليلة ليكون قلبه على الدوام ملتفتاً إلى ربه منيباً إليه متعبداً، ويكون اشتغاله بذلك الجزء من عاداته

مصحوباً بحسن القصد، ليتم له الأجر وتحصل له المعونة من الله وينزل الله له البركة، ويكون مباركاً أينما كان.

وليجاهد نفسه على ذلك، فإنه لا يزال يمرِّنها حتى تألفَ الخيرَ وترغب فإذا ذهب إلى دكانه نوى مباشرة البيع والشراء المباح، وقصد الصدق والنصح في بيعه وشرائه، وفعل ما يسهل عليه من محاباة وإحسان إلى من يعامله، وتجنب الغشَّ بكل أنواعه، ونوى بذلك كله قوامَ نفسه وعائلته ومن له حق عليه، وسأل ربه أن يبارك له في معاملته.

وكذلك إذا باشر حرثه أو صناعته أو مهنته التي يتعاطاها فليستصحب النية الصادقة؛ وليستعن ربه في حركاته كلها ويرجو رزقه وبركته، فإن الرجاء وانتظار الفضل من الله من أجل عبادات القلب، وأكبر الأسباب للبركة هذه النية الصادقة، والصدق والتوكل على الله.

وليعلم العبد أن الله مسبب الأسباب وميسِّرُها، فإيَّاك أن تعجب بنفسك وحذقك وذكائك، فإن هذا هو الهلاك، وإنما الكمال أن تخضع لربك وتكون مفتقراً إليه مضطراً إليه على الدوام.

ثم إنه لا بد أن تكون الأمور على ما تحب تارة وعلى ما تكره أخرى؛ فإذا جاءتك على ما تحبُّ فأكثِرْ مِنْ حَمدِ الله والثناء عليه وشكره، لتبقى لك النعم وتنمو وتزداد؛ وإذا أتتك على ما تكره فوظيفتك الصبر والتسليم والرضا بقضاء الله وتدبيره لتكون غانماً في الحالتين، في يُسرك وعُسرك.

ومن هذا ما ذكرناه بقولنا:

الفصل الرابع والثلاثون

في ذكر مفاتيح الخير ومفاتيح الشر

قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تَعَاوَنُوا على الإثمِ والعُدْوان﴾ [سورة المائدة: الآية ٢]

وقال تعالى: ﴿ولتكُنْ منكم أمةٌ يَدعونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكرِ وأولئك هم المفلحون﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٤]

وورد عنه ﷺ أنه قال: (إن هذا الخير والشرَّ خزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح، فطوبى لمن كان مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وويلٌ لمن كان مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير).

لا ريب أن الناس في الخير والشر درجات، ولكل درجات مما عملوا ولا ريب أن أعلاهم درجة من سعى في الخير لنفسه ولغيره، كما أن أسفلهم من هو بالعكس.

فينبغي للعبد أن يكون مباركاً على نفسه وعلى غيره؛ باذلاً مستطاعه في الدعوة إلى الخير والترغيب فيه بالقول والفعل والتحذير من الشَّرِّ بكل طريق، ولا يُحَقِّرَنَّ من المعروف شيئاً.

فمن أهم ذلك تعليم العلوم النافعة وبثُّها، فإنها مفتاح الخيرات كلها: ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برفق ولين وحلم وحكمة، ومن ذلك أن يسن العبد سنة حسنة، ويشرع مشروعاً طيباً نافعاً يتبعه الناس عليه، فكل من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، كما أن من سنَّ سنة سيئة فإن عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

ومن ذلك بذل النصيحة النافعة في الدين أو في الدنيا، فإن الناصحين مفاتيح للخيرات مغاليق للشر.

وينبغي للعبد عند اختلاطه ومعاشرته لهم ومعاملتهم أن ينتهز الفرصة في إشغالهم بالخير، وأن تكون مجالسه لا تخلو من فائدة أو من تخفيف شرٍّ ودفعه بحسب مقدوره، فكم حصل للموفَّق من خيرات وخير وثواب، وكم اندفع به من شرور كثيرة، وعماد ذلك رغبة العبد في الخير وفي نفع العباد، فمتى كانت الرغبة في الخير نصب عينيه، ونيته مصممة على السعي بحسب إمكانه، واستعان بالله في ذلك، وأتى الأمور من أبوابها ومناسباتها فإنه لا يزال يكسب خيراً ويغنم ثواباً.

وضد ذلك عدم رغبة العبد في الخير يفوِّته خيراً كثيراً؛ فإن كان مع ذلك عادماً للنصح للعباد، لا يقصد نفعهم بوجه من الوجوه، وربما قصد إضرارهم وغشهم لأغراض نفسية، أو عقائد فاسدة، فقد أتى بالسبب الأعظم لحصول المضرّات وتفويت الخيرات، وكان هذا الذي يصدق عليه أنه مفتاح للشر، مغلاق للخير، فنعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

ومن أعظم الأصول فتحاً للخيرات وإغلاقاً للشرور الإيمان التام بالرسول ﷺ، فإذا آمن به إيماناً تاماً، وفهم كلامه ومراده تحقق ما قاله قطعاً، وعلم أن ما ناقض ذلك أو خالفه فإنه باطل، فماذا بعد الحق إلّا الضلال؟ فهذا يغلق على العبد أبواباً من الشرور فَتَحَها أهلُ الكلام الباطل: عارضوا بها ما جاء به الرسول؛ ولكن الإيمان التام وفهم مراد الرسول تماماً يرد كل ما ناقضه. سواء تمكن المؤمن من حل تلك الشبهة التي عورض بها الحق أو لم يتمكن، فإنه قد علم الحق يقيناً بلا تردد، فمحال مع هذا أن يقوم شيء ينقض هذا الدين؛ وهذا أصل نافع جداً قرره شيخ الإسلام في مواضع من كتبه، ومن ذلك ما ذكرناه بقولنا:

الفصل الخامس والثلاثون

إن الصدق والأمانة في المعاملات سبب لحصول الرزق وبركته

قال تعالى: ﴿ومن يَتَّقِ اللَّهَ يجعلْ له مخرجاً. ويرزُقْهُ من حيثُ لا يحتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق: الأيتان ٢، ٣]

فرتَّب على التقوى التي أساسها الصدقُ وأداء الأمانة في المعاملة التيسيرَ والخروجَ من كل ما ضاق على الناس، وفتح أبواب الرزق، وفي الصحيحين عنه ﷺ: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما). وفي السنن مرفوعاً (يقول الله: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خان أحدهما صاحبه، خرجت من بينهما).

وإنما كان الصدق والبيان وأداء الأمانة في جميع المعاملات سبباً للبركة وتيسير أبواب الرزق لأمرين مهمين:

أحدهما: وعد الله ووعد رسوله والله لا يخلف الميعاد، أَنَّ مَنْ سَلَكَ الطرق التي أمر بها، وتجنب ما نهى عنه، بارك الله له في سعيه ورزقه من حيث لا يحتسب، وفتح له من خزائن جوده وكرمه ما لا يناله الناس بسعيهم وجدّهم وحذقهم، وهذا أمر رباني وجزاء إلهي مشاهد معلوم بالتجربة.

والثاني: أن من عامل الناس وعرفوا منه الصدق والنصح اطمأنوا إليه، وركنوا إلى معاملته، ورغبوا في الأخذ منه وإعطائه، لأن قلوبهم إليه مطمئنة، ونفوسهم إلى أمانته منقادة واثقة، وحاز الاعتبار والشرف اللذين عليهما أُسِّست المعاملات النزيهة الطيبة، وبذلك مشت أسبابه مع الناس.

وكذلك عقد الشركات بين الشركاء إذا بنيت على الصدق والأمانة أفادت

أهلها خيراً كثيراً، فإنه من كان الله معه أيده بعونه وتوفيقه وتسديده؛ وكانت حركاته مقرونة بالنجاح مـع ما في اتفاق الشريكين على مصالحهما واجتماع رأيهما، وحصول التشاور الذي هو مدار الأعمال مـع ما يقترن بذلك من التعاون البدني والسعي المشترك من المنافـع ودفـع ما يخشى ضرره، كل هذه الأمور أسباب ومفاتيـح لحصول الرزق وبركته ونمائه.

وضد ذلك إذا بنيت المعاملات والشركات على الكذب وعدم النصـح وحصول الغش والخيانة، فإن الله ينزع بركته، ويحل المحق بدل ذلك، وتتأخر المعاملة، وتنحط بالخيانة والكذب، وهذا كله مشاهد مجرب.

الفصل السادس والثلاثون

فيما ينبغي سلوكه في معاشرة المؤمنين

أصل ذلك قوله ﷺ: (أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلُقاً)؛ وقوله: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)؛ واعلم أن الناس في معاشرة بعضهم لبعض درجات في الخير والشر لا تنضبط درجاته، وأغلب المعاشرات قليلة الجدوى عديمة الفائدة، بل كثير منها مؤدٍّ إلى الخسران والأضرار الدينية والدنيوية.

ونذكر في هذا الموضـع أعلى الأقسام وأنفعَها وأبقاها ثمرة، فإن أدركها المؤمن بتوفيق الله وجدِّه واجتهاده، فقد أدرك كلَّ خير، وإن لم تقوَ نفسه على بلوغها فليجاهِدْها ولو على بعضها، وهي يسيرة على من يسّرها الله عليه؛ فأصل ذلك أن تعقد عزماً جازماً وعقيدة صادقة على محبة جميـع المؤمنين، والتقرب إلى الله في هذه المحبة، وتجتهد على تحقيقها على وجه العموم، وعلى وجه الخصوص، وعلى قلـع كل ما يضادها أو ينقصها، فتعتقد أن تحقق القلب بمحبة المؤمن عبادة من أَجلِّ العبادات وأفضل الطاعات؛ فتتخذ جميـع

المؤمنين إخواناً، تُحِبُّ لهم ما تحب لنفسك من الخير، وتكره لهم ما تكرهه لنفسك من الشر، وتَفَقَّدْ قلبَك في تحقيق هذا الأمر الجليل والاتصاف به، والاحتراز من ضده، من الغل والحقد والحسد، والبغض لأحد منهم: ومتى رأيت من قلبك شيئاً من ذلك فبادر بقلعه؛ وسَلِ الله أن لا يجعل في قلبك غِلاًّ على أحد من المؤمنين، خاصتهم وعامتهم، وميِّز من له في الإيمان مقامٌ جليل، كعلماء المسلمين وعُبَّادِهم بزيادة محبة بحسب مقاماتهم لتكون موافقاً لله في محبته، وتعاهدْ ذلك بالتحبب إلى المؤمنين بطلاقة الوجه، وحسن الخلق، والمعاملة الجميلة، فإنها في نفسها عبادة، وهي جالبة لتحقق القلوب بينك وبين المؤمنين بالمودة والرحمة.

وَوَطِّنْ نفسَك على ما ينالك من الناس من أذى قولي، أو أذى فعلي أو معاملة منهم بضد ما عاملتهم به من الإحسان، فإن توطين النفس على ذلك يسهِّل عليك الأمر وتتلقى أذاهم بضده؛ وليكن التقرب إلى الله عند ذلك على بالك، فإن التقرب إلى الله هو الذي يهوِّن عليك هذا الأمر الذي هو شديد على النفس، واعلم أن هذا الوصف من أوصاف الكُمَّل من أولياء الله وأصفيائه فبادر للاتصاف به، فمن أبغضك وعاداك وهَجَرَك فعامله بضد ذلك لتكسب الثواب، وتكتسب هذا الخلق الفاضل، وتتعجل راحة قلبك، وتخفف عن نفسك هم المعاداة، وربما انقلب العدو صديقاً، والمبغضُ مُحبًّا، كما هو الواقع، وآعفُ عما صدر منهم لله، فإن مَن عفا عن عباد الله عفا الله عنه، ومن سامحهم سامحه الله، ومن تفضل عليهم تفضل الله عليه، والجزاء من جنس العمل؛ ولينصبغ قلبك كل وقت بالإنابة إلى الله، ومحبة الخير لعباد الله، فإن من كان كذلك فقد تأصَّلت في قلبه أصول الخير التي تؤتي أُكُلَها وثمراتِها كل حين بإذن ربها، وبهذا يكون العبد أوّاباً

﴿إنه كان للأوَّابين غفوراً﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٥]

وإذا اجتمعت مع الناس فخالقهم على حسب درجاتهم، الصغير

والكبير والشريف والوضيع، والعالم والجاهل، كل أحد تكلم معه بالكلام الذي يناسبه ويليق بحاله، ويدخل السرور عليه، وبالكلام الذي له به ميدان معلماً للجاهل متعلِّماً ممن هو أعرف منك، متشاوراً مع نظيرك فيما هو الأحسن والأصلح من الأمور الدينية والدنيوية، آخذاً لخواطرهم موافقاً لهم على مطالبهم التي لا محذور فيها، حريصاً على تأنيسهم وإدخال السرور بكل طريق مضمناً كلامك لكل أحد بما يناسبه من النصائح التي تنفع الدين والدنيا ومن الآداب الجميلة وحثهم على قيام كل منهم بما هو بصدده من الحقوق التي لله والتي للخلق، موضحاً لهم الطرق المسهلة لفعل الخير والأسباب الصارفة عن الشر، واقنع بالقليل إذا عجزت عن الكثير؛ واعلم أن قبولهم وانقيادهم مع الرفق والسهولة أبلغ بكثير من سلوك طريق الشدة والعنف، إلا حيث تلجىء الضرورة إلى ذلك فللضرورة أحكام.

الفصل السابع والثلاثون

في قصة الرجل المثري مع صاحبه

كان رجل مثرياً قد أعطاه الله من أصناف المال المتنوع من عقار ونقود وعروض وأموال كثيرة، وكان له صاحب يعرف منه النصح والعلم فقال لصاحبه شاكياً له الحال: ألم تر ما أنا فيه من الغنى الواسع والأموال الكثيرة، والناس كالمتفقين على أن من كان كذلك فقد حصلت له السعادة الدنيوية والعيش الهين والحياة السعيدة، وأنا فيما أنا فيه لم أدرك ما ذكروا ولم أزل أتنقل من همّ إلى كدر، ولم تحصل لي اللذة الصحيحة في حياتي؟ فأُحِبُّ أن ترشدني يا صاحبي إلى الحياة السعيدة وإلى الراحة في حياتي. فقال له صاحبه: يا أخي، اعلم أن من أتى الأمور من غير أبوابها وطرقها وسلك للمنافع غير مسالكها لم يدرك المطلوب ولم ينجُ من المرهوب، وأنت

جعلت الدنيا أكبر همك ومبلغ علمك وحبيبك الوحيد الذي ملك عليك ظاهرك وباطنك ومشاعرك وحواسك كلها، ومن كان كذلك فهو طبعاً لا يستريح في دنياه، فإنه إن حصل عليه كساد أو خسارة في بيع وشراء أو نقص في ثمارٍ أو تشوشت عليه الأسباب في جهة من جهات دنياه، فإنه في كدر فضلاً عن الأكدار التي تنتابه من جهة الأهل والعائلة والمعاملين والمعاشرين واختلاف الإرادات وتعذر الاتفاق والانسجام بينهم من كل وجه أو تعسر ذلك.

فقال له المثري صدقت من هذه الجهات كلها ومن غيرها يأتيني الكدر والهم ملازم لي في كل أحوالي، فهل من سبيل إلى تخفيف ذلك أو زواله بالكلية؟ فقد ضاقت عليّ الحيل والمحاولات وأنا حريص على راحة نفسي بأي سبيل.

فقال له صاحبه يا أخي: السبيل واضح، ولكن ما دامت خطتك على هذا المنوال، فغير ممكن لك العيشة الهنيئة، فإن غيرتَ خطتك وفهمت ما أقول لك، وعملت عليه رجوت لك الخير والحياة الطيبة السعيدة.

فأول ذلك أن تعلم علم اليقين أن الدنيا والأموال المتنوعة ليست هي المقصود لذاتها، وإنما هي مقصودة لغيرها، ووسيلة يتوسل بها العبد إلى منافعه الحقيقية ومطالبه الأبدية وسعادته الأخروية.

فاجعل يا أخي هذا المعنى الذي لا يستريب فيه العقلاء نُصبَ عينيك وقِبلةَ قلبك، ثم اسع في تحصيل الدنيا وفي تصريفها وفي تدبيرها من كل جهة على هذا الأساس، واستصحب النية الصادقة في جميع نواحي حياتك سعياً وتدخيلاً وتصريفاً؛ فإذا عاملت الناس ببيع وشراء وتأجير ومشاركات وغيرها، فاقصد بذلك القيام بالواجبات والمستحبات والاستغناء عن الخلق، واقتصر على المعاملات الطيبة الحلال، واجتهد في أن تكون مكاسبُك كلُّها

حلالاً، ثم تصريفها في الواجبات من الزكاةوالنفقات والمستحبات وتوابعها؛ تقرَّبْ بذلك إلى الله، واحتسب عنده الأجر والثواب، واحمد ربك الذي أقدرك على المال ثم وفقك في صرفه في الوجوه النافعة التي تُبرىء بها ذمتك وتكتسب بها الأجر العظيم عند الله، وتكون لك مغنماً لا مغرماً فإنك إن فعلت ذلك هانت عليك النفقات وبذلتها بسماحة ورغبة وعلم بأنها تكسب لها أمثالها أضعافاً مضاعفة.

ومع ذلك فإذا حصل فيها ما تحب من زيادة ونمو وكمال فأكثر من حمد الله وشكره، وإذا حصل فيها ما تكره فاحتسب ذلك عند الله واعتبرها من المصائب التي يعوِّض الله الصابرين عليها من الأجر أضعاف أضعاف ما فاتهم، فإنك إن وُفِّقت لذلك حصلتْ لك الحياة الطيبة، وهي راحةُ القلب وطمأنينته، وطمعه في فضل الله وثوابِهِ في كل حالة وفي كل وقت. ومع ذلك فإنه لا يفوتك من نصيبك من الدنيا ولا من لذاتها شيء بل تستوفيها كاملة هنيئة، تفوق فيها لذة المترفين ونعيمهم، ويجمع الله لك بين خيري الدنيا والآخرة. واعلم أن هذا ليس بعسير، بل هو يسير على من يسّره الله عليه، ومن ذاق طعم هذه الحياة علم أن هذه الحياة التي يسعى لها الخلق وأرباب الدنيا وجمهورهم لم يدركها، بل مات بغمِّه ولم يذقْ لها طعماً، ولكنك يا أخي تحتاج إلى تمرين كثير، وتغيير لطبيعتك الأولى التي مَلَكَتِ الدنيا عليك مشاعرك وأمورك كلها، وتستعين الله على ذلك، فمن توكّل عليه أعانه وكفاه. فوا أسفاً لمن أُعطوا نصيباً من الدنيا فخسروها، وأعطوا الأسباب التي تدرك بها الخيرات فلم يستعملوها، ووهبت لهم المواهب المتنوعة فلم ينتفعوا بها ويستغلوها؛ وما أحسن ما قاله الحكيم في شعره:

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً ... كنقص القادرين على التمام

الفصل الثامن والثلاثون

في قصة الفقير مع صاحبه

كان رجل فقير قد طال فقره، وكان فيه بقية من إنسانية، فشكا إلى صاحبه الذي يعرف فيه النصح والرأي السديد حاله، فقال: قد كنت تعرف حالي في الفقر، وأنا متواطىء على الفقر، ولكني أريد منك نصيحة تخفِّف عني بعض ما أجده من الهموم والغموم التي لازمتني في ليلي ونهاري، وهي زيادة عما أجد من ألم الفقر وبأسائه وعنائه.

فقال له صاحبه: يا أخي اعلم أن الفقر نوعان:

أحدهما فقير شريف، والآخر فقير وضيع، فاجتهد أن تكون من الشرفاء الذين فقرهم لا يتعدّى فقر الإفلاس من الموجودات المالية، وإياك أن تتصف بصفات الفقراء الساقطين الذين افتقرت أيديهم وقلوبُهم، كما بين ذلك النبي ﷺ في قوله: (ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس أو غنى القلب).

فعلم بهذا الحديث الشريف أن المدار كله على ما في القلوب من الأوصاف الطيبة أو الدنيئة في حق الغني والفقير، فمن كان قلبه غنيّاً بالله فهو الغني حقيقة، ولو كان فقيراً. ومن كان قلبه فقيراً إلى الأغراض، وإلى الخلق فهو الفقير حقيقة ولو كان مثرياً.

فمتى علمت أن الله تعالى حكيم في جميع تدبيراته، وأنه لطيف بعباده المخلصين، قد يقدِّر عليهم من الأقدار الكريهة للنفوس ما يكون سبباً ووسيلة لخيرهم وثوابهم، وأن الله قد ابتلَى بالفقر كثيراً من أوليائه وأصفيائه، وأن من صبر على شدته واحتسب ذلك عند الله لم يزل في زيادة في إيمانه وثوابه، وخصوصاً إذا ضم إلى هذا الوصف قوة الرجاء والطمع في فضل الله؛ وأن الله سيزيل فقره، وسيجعل الله بعد عُسر يُسرا. متى تحقق بذلك هانت عليه

وطأة الفقر وشدته لما حصل له في مقابلته من الخير، ولما يرجوه من الفضل والثواب.

ومما يخفف ذلك أن يعلم أن حزنه وهمه لا يخفف من فقره ومصيبته بل يزيد ذلك، فكيف يسعى العاقل في زيادة عنائه، وكيف لا يتسبب في تخفيف بلائه..

ثم أعلم أيها الفقير أن أكبر العلل التي توجب الهم والغم وتُسقط إنسانية العبد وحريتَه تعلُّقُه بالمخلوقين، سؤالاً لهم، وذلاً ورجاء، وطمعاً فيما يناله منهم، وأن من كان كذلك فإنه مقيد النفس رقيق القلب لغير الله قد انقطع رجاؤه ممن كلُّ خير في رجائه، وكل الأمور عنده، ومفاتيحُ الأرزاق بيده، إلى من لا يملك له نفعاً ولا ضراً، ولا يريد له الخير، وليس له من الأمر شيء، وهو فقير مثله، فمتى علقت رجاءَك كلَّه بالله واحتسبت الأمل عند الله، وسَلِمْتَ من التعلق بالمخلوقين، ورجوت زوال عسرك، أبدلك الله بهمك فرحاً، وبكدرك راحة، ويسَّر الله لك الأمور، وأوقع في قلبك القناعة التي مَنْ مَلَكَها مَلَكَ الكنزَ الأكبر، وقد ضمن الله للمتقي أن يجعل له من كل هم فرجاً؛ ومن كل ضيق مخرجاً.

وأما قولك يا أخي إني متواطىء على الفقر، فهو كلام غالط من وجهين. أحدهما: أنه لا ينبغي لك أن تيأس من روح الله ورحمته وفضله وإحسانه؛ الثاني: يجب عليكَ أن تسعى بكل سبب يزيل فقرك أو يخففه، فاعمل بالأسباب النافعة من بيع أو شراء أو حرفة أو خدمة أو ما يناسب حالك وتحسنه من الأسباب، فقد قال ﷺ: (لأنْ يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيعه فيكف الله وجهه، خيراً له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه). ومتى عملت بالأسباب بهذه النية، نية الاستعفاف والاستغناء عن الناس يسَّر الله أمرك وبارك لك في الشيء القليل، وسلمت من الفقر الوضيع وهو فقر القلب لغير الله،

ودخول الفقير في معاصي الله، وفي الأمور الدنيئة الضارة التي إذا ابتلي بها العبد عوقب بعدة عقوبات، أقلها أنها سبب لبقاء فقره وزيادته، كما هو مشاهد مجرب، وأكثر الفقراء قد جمعوا بين فقر الدنيا والآخرة، فقر القلوب وفقر الإفلاس والافتقار إلى المخلوقين وتعلق القلوب بهم، والذل الوضيع لهم، وهذا نهاية الهبوط والسقوط. فالموفق الحازم يستعيذ بالله من هذه الحال، ويعمل الأسباب الواقية والدافعة كما ذكرنا، والله تعالى هو الموفق المعين.

الفصل التاسع والثلاثون

في التنبيه على أصول وقواعد وضوابط جامعة نافعة

من محاسن الشريعة وكمالها وجمالها وجلالها أن أحكامها الأصولية والفروعية، والعبادات والمعاملات، وأمورها كلها لها أصول وقواعد تضبط أحكامها وتجمع متفرقاتها وتنشر فروعها، وتردها إلى أصولها. فهي مبنية على الحكمة والصلاح، والهدى والرحمة، والخير والعدل، ونفي أضداد ذلك، فمن أصولها الجوامع:

١ ـ أن الشارع لا يأمر إلاّ بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلاّ عما مفسدته ومضرته خالصة أو راجحة، لا يشذُّ عن هذا الأصل الكبير شيء من أحكامها.

٢ ـ الوسائل لها أحكام المقاصد، ويتفرّع على هذا الأصل أن ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب، وما لا يتم المسنون إلاّ به فهو مسنون. وطرق الحرام والمكروه تابعة لها، ويتفرع عليها أن توابع العبادات والأعمال حكمها حكمها.

٣ ـ المشقة تجلب التيسير وجميع رخص الشريعة وتخفيفاتها متفرعة عن هذا الأصل.

٤ ــ الوجوب يتعلق بالاستطاعة، فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.

٥ ــ الشريعة مبنية على الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، فهذان الأصلان شرط لكل عمل ديني، وينبني عليهما أن الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى؛ وينبني عليهما أيضاً أن الأصل في العبادات الحظر والمنع، فلا يشرع منها إلّا ما شرعه الله ورسوله؛ والأصل في العادات والمعاملات الإباحة؛ فلا يحرَّم منها إلّا ما حرَّمه الله ورسولُه، ويتفرع أيضاً على ذلك أن الحيل التي تسقط الواجبات والحقوق أو تدخلُ في المحرَّمات ممنوعة لا تحل ولا تنفذ، كما أن الحيل التي يتوصل بها إلى الحقوق ويدفع بها الظلم مباحة بل حسنة.

٦ ــ التكليف وهو البلوغ والعقل، شرط لوجوب العبادات كلها، والتمييز شرط لصحتها، إلا الحج والعمرة فيصح عمن لم يميز.

٧ ــ الأحكام الأصولية والفروعية لا تتم إلا بأمرين: وجود شروطها وأركانها، وانتفاء موانعها؛ وهي مبطلاتها ومفسداتها. ويتفرع على هذا الأصل أن مفسدات العبادات وغيرها ترجع إلى أحد أمرين: إما فقد شرط وركن وواجب، وإلّا ارتكاب محظور يختص تلك العبادة وتلك المعاملة.

٨ ــ العادة والعرف يرجع إليه في كل حُكم حَكم به الشارع ولم يَحُدَّه بحد، فإنه يرجع فيه إلى ما يتعارفه الناس بينهم في جميع المعاملات والحقوق وغيرها.

٩ ــ البينة على المدَّعِي واليمينُ على من أنكر في جميع الحقوق والأموال والمعاملات وتوابعها.

١٠ ــ الأصل بقاء ما كان على ما كان، واليقين لا يزول بالشك في كل شيء من عبادة أو معاملة أو حق من الحقوق.

١١ ـ لا بد من التراضي في جميع العقود، سواء كانت معاوضات أو تبرعات.

١٢ ـ لا بد أن يكون العاقد جائزَ التصرُّف.

١٣ ـ تنعقد العقود كلها بما دل عليها من قول أو فعل، ويستثنى من ذلك بعض العقود التي لا بد فيها من القول.

١٤ ـ الإتلاف يستوي فيه المتعمد والجاهل والناسي.

١٥ ـ التلف في يد الأمين غير مضمون إذا لم يتعدَّ أو يفرِّط، وفي يد الظالم مضمون مطلقاً، أو يقال ما ترتب على المأذون فهو غير مضمون والعكس بالعكس.

١٦ ـ لا ضَرر ولا ضِرار.

١٧ ـ العدل واجب في الحقوق كلها والفضل مستحب.

١٨ ـ من تعجّل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه.

١٩ ـ تضمن المثليات بمثلها والمتقوِّمات بقيمتها.

٢٠ ـ يرجع إلى القيمة إذا تعذّر المسمى.

٢١ ـ جعل المجهول كالمعدوم.

٢٢ ـ الغَرَر والميسر ممنوع في المغالبات وفي المعاوضات.

٢٣ ـ الصلح جائز في كل المعاملات وفي الحقوق إلا إذا تضمن محذوراً من إسقاط واجب أو دخول في محرم.

٢٤ ـ من سبق إلى المباحات فهو أحق بها.

٢٥ ـ القرعة مشروعة إذا تعذر معرفة عين المستحق.

٢٦ ـ قبول قول الأمناء في الذي تحت أيديهم من التصرفات والإتلافات وغيرها إلّا ما خالف الحس والعادة.

٢٧ ـ من وجب عليه أمر من الأمور أو حق من الحقوق ألزم به وأجبر عليه وكان الإجبار والإكراه بحق.

٢٨ ـ من ترك المأمور جهلاً أو نسياناً لم تبرأ ذمته، ومن فعل المحظور وهو معذور بجهلٍ أو نسيان برئت ذمته وتمت عبادته.

٢٩ ـ البدل يقوم مقام المبدل ويحل محله، ولكن لا يرجع إليه إلّا إذا تعذَّر الأصل.

٣٠ ـ يجب تقييد الكلام بملحقاته من وصف أو شرط أو استثناء أو غيرها.

٣١ ـ الشركاء في الأملاك والحقوق والمنافع يلزم الممتنع منهم بما يعود على المشترك من الأمور الضرورية والمصارف والتعميرات ونحوها.

٣٢ ـ الشركاء يشتركون في زيادات الأملاك المشتركة وفي نقصانها بحسب أملاكهم.

٣٣ ـ الأحكام تتبعض بحسب تباين أسبابها، فيعمل كل سبب في مقتضاه، ولو باين الآخر.

٣٤ ـ من أدى عن غيره واجباً بنية الرجوع رجع عليه.

٣٥ ـ الوصف كاف في الأموال المجهول صاحبها.

٣٧ ـ أسباب الضمان ثلاثة: مباشرة الإتلاف بغير حق، أو التسبب لذلك، أو اليد الظالمة.

٣٧ ـ إذا تزاحمت المصالح قُدِّم الأعلى منها، فيقدم الواجب على المستحب، والراجح مصلحة على المرجوح، وإذا تزاحمت المفاسد ارتكب الأخف منها إذا اضطر أو احتيج للتناول، فيرتكب المكروه تفادياً عن الحرام، والمشتبه عن الواضح، وما كان أخف تحريماً على ما عظم تحريمه.

٣٨ ـ الأصل في الأشياء الطهارة، فلا ينجس منها إلّا ما تيقنَّا نجاسته.

٣٩ ـ الأصل في الأشياء الحل والإباحة، فلا يحرم منها إلّا الخبيثة التي نهى الشارع عنها.

٤٠ ـ إذا خُيِّرَ الإنسان بين أمور، فإن كان واجباً عليه لمصلحته فهو تخيير تَشَهٍّ واختيار، وإن كان لمصلحة غيره، فهو تخيير اجتهاد في مصلحة الغير.

٤١ ـ من سقطت عنه العقوبة لموجب ضوعف عليه الضمان.

٤٢ ـ من أتلف شيئاً لينتفع به ضمنه، ومن أتلفه دفعاً لمضرته فلا ضمان عليه.

٤٣ ـ عند اختلاف المتعاملين في صفة من صفات المعاملة يرجح أقواهما وأرجحهما دليلاً.

٤٤ ـ إذا اختلف المتعاملان في شرط أو أجل، أو ادعى أحدهما فساده، فالقول قول من ينفيه حتى يقيم الآخر بينة.

٤٥ ـ إذا عاد التحريم إلى نفس العبادة أو شرطها فسدت، وإذا عاد إلى أمر خارج صحت مع التحريم.

٤٦ ـ يجوز تقديم العبادات أو الكفارات على سبب الوجوب، ويجوز تقديمها بعد وجود السبب وقبل شرط الوجوب وتحققه.

٤٧ ـ يجب فعل المأمور به كله، فإن قدر على بعضه وعجز عن بعضه وجب عليه فعل ما قدر عليه، وسقط عنه ما عجز عنه، إلّا أن يكون المقدور عليه وسيلة محضة، أو كان بنفسه لا يكون عبادة، فلا يجب فعل ذلك البعض.

٤٨ ـ إذا اجتمع عبادتان من جنس واحد تداخلت أفعالهما واكتفي منهما بفعل واحد.

٤٩ ـ الأصل أن الأثر للعلة الموجودة ولو احتمل وجود غيرها.

٥٠ ـ الأصل براءة الذمم.

٥١ ـ الأصل بقاء ما في الذمم حتى نجزم بزواله.

٥٢ ـ إذا اشتغلت الذمة بوجوب عبادة أو حق وجب الاحتياط حتى يتيقن البراءة من ذلك الواجب والحق.

٥٣ ـ استثناء المنافع المعلومة جائز في باب المعاوضات، وبجوز الاستثناء للمنفعة المجهولة في باب التبرعات.

٥٤ ـ من قبض العين لحظّ نفسه لم يقبل قوله في الرد، فإن قبضه لحظ مالكه وإحسانه إليه قبل قوله في الرد.

٥٥ ـ إذا أدّى ما عليه وجب له ما جعل له عليه.

٥٦ ـ من ملك المنفعة فله المعاوضة عليها؛ ومن ملك الانتفاع دون المنفعة فليس له المعاوضة إلّا بإذن.

٥٧ ـ من لا يعتبر رضاه في عقد أو فسخ لا يعتبر علمه.

٥٨ ـ من بيده مال تعذر عليه عِلم صاحبه تصدق به عن صاحبه بشرط الضمان إذا وجده، أو سلمه للحاكم وبرأ من تبعته.

٥٩ ـ من له الحق على الغير وكان سبب الحق ظاهراً فله الأخذ من ماله بقدر حقه عند الامتناع أو التعذر، وإن كان السبب خفياً فليس له ذلك.

٦٠ ـ الواجب بالنذر يلحق بالواجب بالشرع في شروطه.

٦١ ـ الفعل الواحد ينبني بعضه على بعض مع الاتصال المعتاد دون ما زاد على العادة.

٦٢ ـ الأصل أن الشركاء متساوون في أملاكهم بقدر رؤوسهم حتى يأتي ما يدل على خلاف ذلك.

٦٣ ـ الحوائج الأصلية ليست بمال.

٦٤ ـ يثبت تبعاً ما لا يثبت استقلالاً.

٦٥ ـ الأسباب والدواعي للعقود والتبرُّعات معتبرة.

٦٦ ـ القرائن إذا قويت قد يكون الحكم لها وتقدم على الأصل.

٦٧ ـ العبرة في المعاملات بما في نفس الأمر.

٦٨ ـ إذا تبين فساد العقد بطل ما بني عليه، وإن فسخ فسخاً تمت العقود الطارئة قبل الفسخ.

٦٩ ـ لا عذر لمن أقرّ ولو ادَّعى غلطاً أو كَذِباً.

٧٠ ـ يقوم الوارث مقام مورثه وينوب عنه في كل ما له وما عليه إلا ما استثني وهو خيار الشرط والشفعة على خلاف قوي في ذلك.

٧١ ـ المسلمون على شروطهم إلاّ شرطاً أَحلَّ حراماً، أو حرَّم حلالاً.

٧٢ ـ ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسنٌ وما رأوه قبيحاً فهو عند الله قبيح.

٧٣ ـ إذا تضمن العقد ترك واجب أو دخولاً في محرَّم حُرِّم ولم يصح وهذه مستخرجة من قاعدة: الوسائل لها أحكام المقاصد.

٧٤ ـ يجب حمل كلام الناطقين في العقود والفسوخ والإقرارات وغيرها على مرادهم مهما أمكن.

فهذه قواعد عظيمة نفعها لأهل العلم كبير لو بسطت وفصلت بعض التفصيل لجاء منها مجلد ضخم، والله أعلم.

الفصل الأربعون

في تفسير ألفاظ مهمة ينتفع بها كثيراً في الكتاب والسُّنة

«الإيمان» هو التصديق الجازم بأصول الإيمان المعروفة مع انقياد القلب والجوارح.

«والإسلام» كذلك عند الإطلاق، ومتى جمع بينهما كان الإيمان اسماً لما في القلوب من عقائد الإيمان وإقراراته، والإسلام اسماً لأعمال القلوب والجوارح.

(البِرُّ) اسم جامع يدخل فيه العقائد الإيمانية وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، يدخل فيه جميع المأمورات وترك المنهيات.

(التقوى) كذلك عند الإطلاق للبر والتقوى، فإذا جمع بينهما كان البر اسماً لفعل الطاعات، والتقوى اسماً لترك المناهي.

(النفاق) مخالفة الظاهر للباطن، فإن كان في أصل الإيمان كان نفاقاً أكبر مخرجاً عن الدين، وإن كان في فروعه كان حاله بحسب ذلك.

(الإثم والعدوان) الذنوب والمحرّمات المتعلقة بحق الله هي الإثم وهي المعاصي؛ والذنوب والسيئات المتعلقة بظلم الخلق هي العدوان، هذا عند الاجتماع؛ فإذا أطلق كل واحد من هذه الألفاظ دخل فيه الآخر.

(الصِّدق والصِّدِّيقية واليقين) هي العلم الراسخ الذي لا ريب فيه ولا شك، المثمر لطمأنينة القلب علماً وطمأنينته سكوناً لعبودية الله ولأعمال الجوارح، فيدخل في ذلك العقائد الصادقة والأخلاق الحميدة الفاضلة، والأعمال الصالحة والعلوم الصحيحة النافعة علم اليقين وأعلى منه عين اليقين وأعلى منهما حق اليقين.

(الخشوع والإخبات) سكون القلب وخضوعه لله، وخصوصاً وقت تلَبُّس العبد بعبودية الله.

(الإنابة) هي انجذاب القلب في محبة الله وعبوديته والرجوع إليه في كل حالة.

(التوبة) هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً.

(الهداية والاستقامة) هي لزوم الصراط المستقيم ظاهراً وباطناً فهي العلم بالحق والعمل به.

(الحكمة) هي إصابة الصواب في القول والفعل، وهي فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

(العدل والقِسط) بذل الحقوق الواجبة وتسوية المستحقين في حقوقهم.

(الظلم) ضد ذلك.

(الصراط المستقيم) هو الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في كل أحواله.

(المحسنون) في عبادة الله بتكميلها ظاهراً وباطناً، وإلى عباد الله في بذل المستطاع من نفعهم.

(الصبر) حبس النفس على ما يحبه الله ورسوله وهو ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله حتى يؤديها، وصبر عن معصيته حتى يدعها، وصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها.

(الشُكر) وهو الاعتراف بالنعم الظاهرة والباطنة، عموماً وخصوصاً، مع التحدث بذلك والاستعانة بها على طاعة المنعم مع حبه والخضوع له.

(العبادة) اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال

الظاهرة والباطنة، فعقائد الإيمان وأعمال القلوب والجوارح كلها داخلة في اسم العبادة.

(حدود الله) تطلق على المحرَّمات، فيقال فيها لا تقربوها، وتطلق على حدود الحلال والأحكام الشرعية، فيقال فيها لا تعتدوها أي لا تجاوزوا الحلالَ إلى الحرام.

(الطيبات) تشمل كل ما ينفع ولا يضر، من مآكل ومشارب ومناكح وملابس وغيرها.

(الخبيثات) ضدها.

(المعروف) اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعاً وعَقلاً.

(المنكر) ضده.

(الفَلَاح) هو اسم جامع لكل مطلوب محبوب، وسلامةٌ من كل مكروه.

(اللّغو) كل كلام لا نفع فيه في الدين ولا في الدنيا.

(العقل والحجز والحجى والنهي) هو الرزانة وعقل ما ينفع وترك ما يضر، والنظر للعواقبَ وترجيح ما ترجحت مصلحته، وأولو الألباب أهل العقول الوافية.

(الحليم) من الخلق هو المتخلق بالأخلاق الجميلة الذي لا يستفزه جهل الجاهلين، صاحب الثبات والتأنّي في أموره كلِّها.

(الكِبْر والتواضع) فسر النبي ﷺ الكِبْرَ بأنه بطر الحق وغمط الناس، والتواضع ضده، قبول الحق مع من كان، ولين الجانب، وحسن الخلق مع الخلق والتواضع لهم.

(الشِّرك والكفر) الكفر أعم من الشرك، فمن جحد ما جاء به الرسول أو بعضه بلا تأويل فهو كافر، سواء كان كتابياً أو مجوسياً أو وثنياً أو ملحداً أو مستكبراً أو غيرهم؛ وسواء كان معانداً أو كافراً ضالاً أو مقلِّداً، والشرك

نوعان: شرك في ربوبيته، كشرك الثنوية المجوس، الذين يعتقدون مع الله خالقاً، وشركٌ في ألوهيته، كشرك سائر المشركين الذين يعبدون مع الله غيره، ويصرفون له شيئاً من العبادة، ويشركون بينه وبين المخلوقين، ويسوُّونهم بالله في خصائصه التي لا يوصف بها غيره.

(القَوَام والبخل والتبذير) في تصريف الأموال؛ فالقوامُ الذي أمر الله به ورسوله، بذلها فيما ينبغي من واجب ومستحب وطريق نافع على الوجه الذي ينبغي، فهذا قوام واقتصاد وتوسط واعتدال، فإن منع هذه الحقوق فهو البخيل، وإن أسرف أو زاد في النفقة عما ينبغي فهو التبذير والإسراف.

(الشجاعة والجبن والتهور) الشجاعة هي الإقدام في محل الإقدام، والتهور الإقدام في غير محل الإقدام، فالشجاعة محمودة والجبن والتهور مذمومان لمنافاتهما لطريق الحكمة وانحراف خلق صاحبهما.

(الإخلاص) أن يقصد العبد بعمله رضا ربه وثوابه، لا غرضاً آخر من رئاسة أو جاه أو مال أو غيرها.

(الذِّكْر) إذا أطلق ذكر الله شمل كل ما يقرب العبد إلى الله: من عقيدة أو فكر، أو عمل قلبي، أو عمل بدني، أو ثناء على الله، أو تعلم علم نافع وتعليمه، ونحو ذلك، فكله ذكر الله تعالى.

(أوصاف القلب) إذا كان القلب عالماً بالحق مريداً للحق مقدماً له على غيره، فهو القلب الحي الصحيح، وإذا كان بضد ذلك كله فهو القلب الميت، وإذا كان شاكًا في الحق مرتاباً فيه فهو القلب المريض، مرض الشبهات والشكوك، وإذا كان مريداً للشر ميالاً إلى المعاصي، فهو المريض مرض الشهوات، وإذا كان القلب فيه غِلٌّ أو حقدٌ على الخلق، فهو المريض بالغش وعدم النصح، فنسأل الله أن يعافينا عافية تامة يصلح بها قلوبنا بالعلم

والإيمان والهدى والتقى؛ ومن عرف الحق وتركه فهو معاند متكبر مغضوب عليه، ومن تركه جاهلاً به فهو جاهل ضالٌ أعمى غير مهتد.

الفصل الحادي والأربعون

في الإشارة إلى البراهين العقلية الفطرية على ربوبية الله وإلهيته

اعلم أن هذه المسألة أعظمُ المسائل على الإطلاق وأكبرُها وأفضلُها وأوجبُها وأنفعُها وأوضحُها؛ وعليها اتفقت جميع الكتب المنزَلة وجميع الرسل، وهي أول وأهم ما دعت إليه الرسل أممهم، وأولُ ما يدعون قومهم يقولون:

﴿اعبُدُوا اللَّهَ ما لكم مِنْ إلَهٍ غيرُه﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٩]

ويذكرون لهم من أسمائه وأوصافه ونِعَمِه وآلائه وألطافه ما به يَعرفون ربَّهم ويخضعون له ويعبدونه، والقرآن العظيم من أوله إلى آخره يبين هذه المسألة، ويذكر لها البراهين المتنوعة، ويصرف لها الآيات، والسّنة كذلك.

وليس القصد في هذا الفصل ذكر الأدلة النقلية عليها؛ فإنها واضحة جلية متقررة عند الخواص والعوام، وهي وحدَها كافية وافية بالمقصود معرفة بالله جملة وتفصيلاً، ولكن نريد أن نشير إشارة يسيرة إلى أدلتها وبراهينها العقلية التي يخضع لها كل عاقل منصف، وينكرها كل مستكبر مكابر مباهت؛ وهذه المسألة أوضح وأظهر من أن يحتج لها وتذكر براهينها، ولكن كلما عرف المؤمن براهينها قويت في قلبه وازداد إيمانه ونما إيقانه وحمد الله على هذه النعمة التي هي أعظم المنن وأجلها، ولهذا قالت الرسل عليهم السلام لأممهم: أفي الله شك، فاستفهموهم استفهام تقرير وأنه متقرر في قلوب جميع العقلاء، الاعتراف بالله وبربوبيته وتوحيده.

اعلم رحمك الله أنك إذا نظرت إلى هذا العالم العلوي والسفلي وما أودع فيه من المخلوقات المتنوعة، والحوادث المتجددة، فتأمل تأملاً صحيحاً أن الأمور الممكن تقسيمها في العقل ثلاثة:

١ ـ إما أن توجد هذه المخلوقات بنفسها من غير محدث ولا خالق فهذا محال ممتنع يجزم العقل ببطلانه ضرورة، ويعلم يقيناً أن من ظن ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل، لأن كل من له عقل يعرف أنه لا يمكن أن يوجد شيء من غير موجد ولا محدث.

٢ ـ وإما أن تكون هي المحدثة لنفسها الخالقة لها، فهذا أيضاً محال ممتنع بضرورة العقل، كل عاقل يجزم أن الشيء لا يُحدِثُ نفسَه، وإذا بطل هذان القسمان عقلاً وفطرة تعين القسم الثالث:

٣ ـ وهو أن هذه المخلوقات والحوادث لها خالق خلقها ومحدث أحدثها وهو الرب العظيم الخالق لكل شيء، المتصرف في كل شيء المدبِّر للأمور كلها، ولهذا نبّه الله على هذا التقسيم العقلي الواضح لكل عاقل فقال:

﴿أم خُلقوا من غير شيء أمْ هُمُ الخالقون؟. أمْ خَلَقُوا السمواتِ والأرضَ بَلْ لا يُوقِنون﴾ [سورة الطور: الآيتان ٣٥، ٣٦]

فالمخلوق لا بد له من خالق، والأثر لا بد له من مؤثر، والمحدَث لا بد له من محدِث، والموجَد لا بد له من موجِد، والمصنوع لا بد له من صانع، والمفعول لا بد له من فاعل.

هذه قضايا بديهية جلية يشترك في العلم بها جميع العقلاء، وهي أعظم القضايا العقلية. فمن ارتاب فيها أو شك في دلالتها فقد برهن على اختلال عقله وضلاله.

تفكَّرْ في نفسك وانظر في مبدأ خلقك من نطفة إلى علقة إلى مضغة

حتى صرت بشراً كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة. أمَا يضطرك هذا النظر إلى الاعتراف بالربِّ القادر على كل شيء، العليم الذي أحاط علمه بكل شيء، الحكيم في كل ما خلقه وصنعه، فلو اجتمع الخلق كلهم على النطفة التي جعلها الله مبدأ خلقك على أن ينقِّلوها في تلك الأطوار المتنوعة ويحفظوها في ذلك القرار المكين، ويجعلوا لها سمعاً وبصراً وعقلاً وقُوى باطنة وظاهرة، وينموها هذه التنمية العجيبة، ويركِّبُوها هذا التركيب المنظم، ويرتِّبوا الأعضاء هذا الترتيب المحكم، لو اجتمعوا على ذلك فهل في علومهم، وهل في اقتدارهم، وهل في استطاعتهم الوصول إلى ذلك؟ فهذا نظر يوصلك إلى الاعتراف بعظمة الله واقتداره والخضوع له والتصديق بكتبه ورسله، وهو دليل وبرهان عقلي وفطري اضطرت فيه الفطر إلى معرفة ربها وعبوديته.

تأمل في حفظ الله للسموات والأرض وما فيهما من العوالم، وفي إبقائها وإمدادها بكل ما تحتاج إليه في بقائها من الأسباب المتنوعة، أَمَا يدلُّك ذلك على كمال الرب وكمال قيوميته وربوبيته؟ وقد نبه تعالى على ذلك بقوله:

﴿ومن آياته أَنْ تقومَ السماءُ والأرضُ بِأَمْرِه﴾

[سورة الرُّوم: الآية ٢٥]

﴿إنَّ اللَّهَ يُمسِكُ السمٰواتِ والأرضَ أن تَزولاَ وَلَئِنْ زالتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِـنْ أحدٍ مِنْ بعدِهِ إنهُ كانَ حليماً غفوراً﴾ [سورة فاطر: الآية ٤١]

تدبرْ يا أخي في هذا الفلك الدَّوَّار، وفي تعاقب الليل والنهار، وفي تصريف الأوقات بفصولها ومنافعها، وفي كمال انتظامها لمصالح الخلق التي لا يمكن إحصاؤها، هل ذلك صدفة الطبيعة؟ وهل هذا حصل اتفاقاً؟ أم الذي خلق ذلك ودبّر ذلك التدبير المتقن: هو الذي أحسن كل شيء خلقه، وصنع الله الذي أتقن كل شيء؟

وانظر، هداك الله، إلى أنه أعطى كل شيء خلقه اللائق به، ثم هدى كل مخلوق إلى مصالحه وحوائجه وضروراته، حتى البهائم العُجْم صغيرها

وكبيرها قد ألهمها وهداها لكل أمر فيه نفعها. ويسَّر لها أرزاقها وأقواتها؛ فمن نظر في هدايته العامة، وبثه في كل مخلوق إلهاماً عجيباً يهتدي به إلى منافعه وضروراته، علم بذلك عنايته العظيمة، وعلم أنه الرب لكل مربوب، الخالق لكل مخلوق، الذي علّم المخلوقات وأعطاها من الأذهان ما يُصلحها ويدفع عنها المضار، وذلك برهان عقلي عظيم على وحدانية الله وكماله، ولذلك لما أنكر فرعون رب العالمين وقال:

﴿فَمَنْ ربُّكما يا موسى؟. قال ربُّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثمّ هَدَى﴾ [سورة طَهَ: الآيتان ٤٩، ٥٠]

فاستدلَّ عليه بهذا البرهان المشاهد لكل أحد؛ فهل في طبيعة الحيوانات كلها هذه الهداية إلى مصالحها التي لا تحصى أنواعها، وحنوها على أولادها، وقيامها بهم حتى يستقلوا بأنفسهم؟ وهل هذا الحنان والرحمة إلاّ من أكبر الأدلة على عظمته وسعة رحمته التي وسعت كل شيء؟

ثم انظر، رحمك الله، إلى سعة رحمة الله التي ملأت أقطار العالم، وشملت كل مخلوق في كل أحواله: برحمته أوجد المخلوقات، وبرحمته حفظها وأمدها بكل ما تحتاج إليه، وأسبغ عليها النعم الظاهرة والباطنة التي لا يمكن لمخلوق أن يخلق منها طرفة عين، وهي متنوعة عليه من كل وجه: نعم العلم والتعليم لأمور الدين والدنيا، ونعم العافية للأبدان عموماً، وللأعضاء كلها على وجه الخصوص، ونعم الأرزاق ونعم الأولاد والأتباع، ونعم الحروث والزروع والثمار، ونعم المواشي وأصناف الأمتعة، ونعم الدور والقصور، ونعم اللذات والحبور، النعم التي فيها جلب المنافع كلها، والنعم التي فيها دفع المضار كلها، تدل أكبر دلالة على وحدانية مُسْدِيها والمنعم بها، وعلى وجوب شكره والإخلاص له، أفمن يخلق كمن لا يخلق؟ أفمن منه النعم كلها كمن هو فقير محتاج مضطر؟

ثم انظر أحوال المضطرين الواقعين في المهالك والمشرفين على

الأخطار والبائسين من فقرهم المفظع أو مرضهم الموجع، وكيف تضطرهم الضرورات وتلجئهم الحاجات إلى ربهم وإلههم داعين ومفتقرين، وسائلين له مستعطين فيجيب دعواتِهم، ويكشف كرباتِهم، ويرفع ضروراتِهم، أليس في هذا أكبر برهان على وحدانيته وسعة علمه، وشمول رحمته، وكمال عطفه، ودقيق لطفه:

﴿أَمَّنْ يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ويكشِفُ السوءَ، ويجعلُكُم خلفاءَ الأرض؟ أإله مع الله؟ . . . تعالى الله عما يشركون﴾

[سورة النمل: الآيتان ٦٢، ٦٣]

﴿فإذا ركبوا في الفُلكِ دَعَوُا الله مخلِصِين لَهُ الدِّينَ﴾

[سورة العنكبوت: الآية ٦٥]

﴿لئنْ أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغُون في الأرض بغير الحق﴾ [سورة يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣]

وهذا قد شاهده الخليقة ورأوا بأعينهم من الوقائع ما لا يعد ولا يحصى، وهذا يضطرهم إلى الاعتراف بالله وبوحدانيته، فانظر إلى حالة المضطرين إذا كربتهم الشدائد كيف تجد قلوبهم متعلقة بالله، وألسنتهم ملحَّة في سؤاله وأفئدتهم مستشرفة لنواله، لا تلتفت عن الله يمنة ولا يسرة لعلمها الضروري أنه كاشف الشدائد، جالب الخير والفوائد، لا ملجأ منه إلّا إليه، ولا معول للخليقة في جميع أمورها إلّا عليه، فهل هذه الأمور إلّا لأن الخليقة مفطورة على الاعتراف بوحدانية ربها؟ وأنه النافع الضارّ، وأن ملكوت كل شيء بيديه؟ إلّا من فسدت فطرته بالعقائد الفاسدة والإرادات السيئة؟ . .

وانظر إلى فقر الخلائق كلهم إلى الله في كل شيء، فقراء إليه في الخَلْقِ والإيجاد، وفقراء إليه في البقاء والرزق والإمداد، وفقراء إليه في جلب المنافع وفي دفع المضار، فهم يسألون الله بلسان المقال، ولسان الحال، يسأله مَنْ في السموات والأرض فيعطيهم مطالبهم، ويسعفهم في كل مآربهم،

إن رغبوا لم يرغبوا إلاّ إليه، وإنْ مستهم الضرّاء لم يلجأوا إلاّ إليه، فكم كشف الضر والكروب، وكم جبر الكسير ويسَّر المطلوب، وكم أغاث ملهوفاً، وكم أنقذ هالكاً، ففقرهم إليه في كل الأحوال ظاهر مشاهد، وغناه عنهم في جميـع الأمور لا ينكره إلا مكابر جاحد.

ومن براهين وحدانية الباري وربوبيته إجـابته للدعـوات في جميـع الأوقات، فلا يحصي الخلق ما يُعطِيه السائلين، وما يجيب به أدعية الداعين من بَرٍّ وفاجر، ومسلم وكافر، تحصل المطالب الكثيرة، ولا يعرفون لها شيئاً من الأسباب، سوى الدعاء والطمـع في فضل الله، والرجاء لرحمته وهذا برهان مشاهد محسوس، لا ينكره إلاّ مباهت مكابر، يدعونه في مطالب دينهم فيجيبهم، وفي مطالب دنياهم فيجيبهم:

﴿فمن الناس من يقولُ ربَّنا آتِنا في الدُّنيا وَمَا لَهُ في الآخرةِ مِنْ خلاق. ومِنهم من يقولُ ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقِنَا عذابَ النار. أولئكَ لهم نَصيبٌ مما كسبوا﴾ [سورة البقرة: الآيات ٢٠٠ ـ ٢٠٢].

ومن براهين وجود الله ووحدانيته وربوبيته ما يجريه الله على أيدي أنبيائه من خوارق الآيات والمعجزات والبراهين القاطعات، وما يكرمهم به في الدنيا وينصرهم، ويجعل لهم العواقب الحميدة، ويخذل أعداءهم ويعذبهم بأصناف العذاب، وهذا قد تواتر تواتراً لا يتواتر شيء مثله، وكل أحد يعرف ذلك. وآيات الأنبياء ومعجزاتهم وكرامات الله لهم نقلتها القرون والأجيال وصارت أعظم من برهان الشمس والقمر، وهي كلها براهين على ربوبية من أرسلهم وعظمة سلطانه وكمال قدرته وسعة علمه وحكمته، وما ينكرها إلاّ كل متكبر جبـــار.

ومن أعظم براهين وحدانيته ما أنزله على أنبيائه عمومـاً من الكتب والشرائـع العظيمة التي فيها صلاح الخلق وبها استقام دينهم وصلحت دنياهم وخصوصاً هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، خاتمهم وإمامهم، وفيه من

البراهين والآيات ما لا يعبر عنه المعبرون، ولا يقدر أن يصفه الواصفون، وآياته قائمة في جميع الأوقات متحدية للخلق كلهم على اختلاف أصنافهم، وقد تبين عجزهم ووضح غيهم:

﴿سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾

[سورة فُصِّلت: الآية ٥٣]

﴿ونزَّلْنا عليكَ الكتابَ تبياناً لكلِّ شيءٍ وهدًى ورحمة وبشرَى للمسلمين﴾

[سورة النحل: الآية ٨٩]

فمن نظر إلى ما احتوى عليه القرآن من الأخبار الصادقة والأحكام العادلة والشرائع المحكمة والصلاح العام وجلب المنافع الدينية والدنيوية ودَفْع المضارِّ والخير العظيم، اضطر إلى الاعتراف بأنه تنزيل من حكيم حميد، ورب كريم.

وكذلك من نظر إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الشرع الكامل والدين القويم والصراط المستقيم في كل شؤونه اضطره بعض ذلك، ـ فكيف بكله؟ ـ إلى الاعتراف بوحدانية الله، وأن الذي شرعه هو الرب العظيم الحكيم في شرعه ودينه، كما هو حكيم في خلقه وتقديره.

ومن براهين وحدانية الله أن الفِطَرَ والعقول مضطرة إلى معرفتها بباريها والاعتراف بوحدانيته، فإن الخلق مفطورون على جلب المنافع ودفع المضار، ومن المعلوم لكل عاقل أن حاجة النفوس إلى خالقها وإلهها أعظم من جميع الحاجات، وضروراتِها إليه تفوق كل الضرورات، فهي مضطرة إلى علمها بأنه خالقها وحدَه، مالكها وحدَه ومبقيها وحدَه، وممدها بمنافعها وحدَه، فطرة الله التي فطر الناس عليها، ذلك الدين القَيِّم ولم يخرج عن هذه الفطرة إلَّا من اجتالتهم الشياطين وحوَّلت فِطَرَهم وغيَّرَتْها بالعقائد الفاسدة والخيالات الضالّة والآراء الخبيثة والنظريات الخاطئة، فلو خَلَوا وفِطَرَهم لم

يميلوا لغير ربهم، منيبين إليه في جلب المنافع ودفع المضار، ومنيبين إليه في التألُّه والانكسار، قال ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها).

ومن براهين وحدانيته وكرمه ما هو مشهور في حوادث لا تعد ولا تحصى، من إكرام الله تعالى للواصلين لأرحامهم، وخُلْفِهِ العاجل على المحسنين على المضطرين والمنفقين لأجله على المحتاجين وتعويضه لهم وفتحه لهم أبواباً وأسباباً وطرقاً بسبب ذلك الإحسان الذي له الموقع الطيب؛ وقد علم الخلق أن ذلك سببه تلك الأعمال الصالحة والمقدمات الحسنة، ألا يدلُّك ذلك على أن الله قائم على كل نفس بما كسبت، وأن هذا جزاء معجل وثواب حاضر، نموذج لثواب الآخرة؟ وأفراد ذلك وأنواعه لا تدخل تحت الحصر، وهذا أمر لا يمتري فيه أحد، قد رأى الناس من هذا عجائب.

ونظير هذا البرهان العقوبات التي يعجلها الله للباغين والظالمين والمجرمين بحسب جرائمهم عقوبات يشاهدها الناس رأي العين ويعلمون ويتيقنون أن ذلك جزاء لتلك الجرائم. فمن تأمل وسمع الوقائع وأيام الله في الخلق وعلم ارتباطها بأسبابها الحسنة أو السيئة، علم بذلك وحدانية الله وربوبيته وكمال عدله وسعة فضله، فضلاً عن وجوده ووجوب وجوده. فإن كل ما دلّ على شيء من أوصافه أو أفعاله فإنه يتضمن إثبات ذاته ووجوب وجوده، وعلم استناد العوالم العلوية والسفلية إليه في إيجادها وإبقائها وحفظها وإمدادها وجميع أحوالها.

واعلم أن طرق معرفة الله واسعة جداً بحسب حاجة الخلق وضرورتهم إليها، وكل يعبر عنها بعبارات إما كلية وإما جزئية، بحسب الحال التي تحضره وبحسب الأمور التي تغلب عليه، وإلّا فكل ما خطر في القلوب وشاهدته

الأبصار وأدركته المشاعر، وكل متحرك وساكن أدلةٌ وبراهينُ على وحدانية الله.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولكن الجزئيات تسبق إلى الأذهان وتفهمها القلوب ويحصل بها النفع العاجل لسهولتها وبساطتها وكونها تدرك بالبديهة، فلنذكر أمثلة وحكايات من هذا النوع للمتقدمين ولأهل هذا العصر:

سئل بعضهم: بمَ عرفت ربك؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير وآثار السير تدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟

واجتمع طائفة من الملاحدة ببعض أهل العلم ـ أظنه أبا حنيفة ـ فقالوا له: ما الدلالة على وجود الصانع؟ فقال لهم دعوني، فخاطري مشغول بأمر غريب. قالوا له: ما هو؟ قال: بلغني أنّ في دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة، وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحركها ولا يقوم عليها. فقالوا له: أمجنون أنت؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: إن هذا لا يصدقه عاقل؛ فقال لهم: فكيف صدقت عقولُكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف والحوادث العجيبة، وهذا الفلك الدوار السيار يجري، وتحدث هذه الحوادث بغير محدث، وتتحرك هذه المتحركات بغير محرك؟ فرجعوا على أنفسهم بالملام.

وقيل لبعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: هذه النطفة التي يلقيها الفحل برحم الأنثى فيطوِّرها الله من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آخر أطوارها فيكون بشراً سويًا كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، له سمع يسمع به المسموعات، وبصر يبصر به، وعقل يهتدي به إلى مصالحه، ويدان يبطش بهما، ورجلان يمشي بهما، وله منافذ يدخل فيها ما يغذي البدن وينفعه،

ومنافذ أُخر يخرج منها ما يضره، وقد ركب هذا التركيب العجيب الذي لو اجتمعت الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم على إيجاد شخص واحد على هذا الوصف المحكم الغريب لعجزت معارفهم وقُدَرهم عن ذلك، أليس ذلك دليلاً وبرهاناً على وجود الخالق وعظمته وكبريائه؟ قلت: وقد كرر الله هذه الآية في كتابه في أساليب متنوعة.

وقيل لبعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال بنقض العزائم؛ ومعنى ذلك أن العبد يعزم عزماً مصمِّماً على أمر من الأمور، وليس عنده فيه أدنى تردُّد، ثم بعد ذلك تنتقض همته وعزمه إلى أمر آخر قد يرى فيه مصلحته وما ذاك إلاّ لأن الله على كل شيء قدير، يصرف القلوب كما يدبر الأبدان وإنه لطيف بعبده فيصرفه عما يضره إلى ما ينفعه؛ ويدبر قلبه إلى ذلك.

وسئل بعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: كنت مكروباً فدعوته ففرج كربتي، وكنت فقيراً فسألته فأغناني، وكنت مريضاً فدعوته فشفاني، وكنت ضالاً عن الهدى فلطف بي وهداني، وليس هذا الأمر لي وحدي، فكم له على عباده من أصناف النعم المشاهدة المحسوسة، من هذه الأنواع شيء كثير، وهذا يضطر إلى معرفته والاعتراف بربوبيته وتربيته.

وسئل آخر: بم يعرف الله؟ فقال: قد رأينا ورأى الناس في الدنيا مصارع البغاة المجرمين وعواقبهم الوخيمة، وكما رأوا حسن عواقبه في المحسنين.

وقيل لآخر: بم يعرف الله؟ فقال: بإيصاله النعم إلى خلقه وقت الحاجة والضرورة إليها، هذا الغيث يُنزله وقت الحاجة ويرفعه إذا خيف منه الضرر، وهذا الفرج يأتي بعد الشدة، والمطالب بعد الاضطرار إليها، وهذه أعضاء الإنسان وقواه يعطيه الله إياها شيئاً فشيئاً بحسب حاجته إليها، فهل يمكن أن تكون هذه الأمور صدفة بغير اتفاق، أم يعلم بذلك علم اليقين أن الذي أعطاهم إياها وقت الحاجة والضرورة هو الرب المعبود الملك المقصود؟

قلت: ومِنْ هذا الباب ما نحن فيه؛ فإنه لما كانت معرفة الله يضطر إليها العباد ويحتاجونها في كل وقت فوق جميع الحاجات يسَّرها الله وفتح لعباده طرقها وأوضح لهم أدلتها، وليست حاجتهم إليها من الحوائج العارضة، وإنما هي من الحوائج الملازمة لهم في كل لحظة وساعة، فنسأله أن يمنّ علينا بمعرفته وبالإيمان الكامل؛ إنه جواد كريم.

وقيل لبعضهم: بأي شيء يُعرف الله؟ فقال: يعرف بأنه عَلَّم الإنسان ما لم يعلم، خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، فأعطاه آلات العلم ويسَّر له أسباب العلم، فلم يزل يتعلم أمور دينه حتى صار عالماً ربانياً، ولم يزل يتعلم أمور دنياه حتى صار ماهراً مخترعاً للعجائب، ويسَّر له كل سبب يوصله إلى ذلك. ومن عجيب الأمر أن اللوح إذا كتب فيه وشغل بشيء من الأشياء لم يسعْ غيرها، ولم يمكن أن يكتب فيه شيء آخر قبل محو ما كتب فيه أولاً، وقلب الإنسان لا يزال يحفظ ويعقل من العلوم والمعارف المتنوعة، وكلما توسَّعت معارفه قويت حافظته واشتدت ذاكرته وتوسعت أفكاره، فهل هذه الأمور في طوق البشر وقدرتهم؟ أم هذا أكبر برهان على عظمة الله ووحدانيته وكماله وسعة رحمته؟

وقيل لبعضهم: بم يُعرف الله؟ فقال: هذه النواة يغرسها الناس فيأتي منها النخيل والأشجار، وتخرج من الثمار العظيمة ما به ينتفع الخلق، وهذه الحبوب تُلقى في الأرض فتخرج أصناف الزروع التي هي مادة أقوات العباد؛ ثم لا تزال تعاد وتغل كل عام. أليس هذا أكبر برهان ودليل على وجود الله وقدرته وعنايته ورحمته؟

قلت: وقد نبَّه الله على هذا المعنى الجليل في عدة آيات، مثل قوله: فالق الحب والنوى، أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟

وقيل لمن بادر إلى الإيمان بمحمد ﷺ: لَمَ فعلت ذلك؟ فقال: رأيته ما أمر بشيء فقال العقل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته

أمر به، فاستدل بنور عقله وقوة بصيرته على صدق الرسول بصلاح ما جاء به وموافقته للعقول السليمة وللحكمة.

وقيل لآخر من العارفين: بأي شيء يعرف الله؟ فقال: بذوق حلاوة الطاعات، وهذا استدلال برهاني وجداني يضطر العبد إلى كمال الإيمان واليقين، فإن من وجد حلاوة الإيمان وذاق لذة اليقين، فقد بلغ الذروة العليا من الإيمان.

وقيل لآخر: بأي شيء يعرف الله؟ قال: بانتظام الأسباب، ثم بتحويله الأسباب ومنع مسبباتها؛ وبإيجاده الأشياء بغير أسباب يعقلها الخلق. وهذا صحيح فإنه أجرى الأمور على أسبابها ومسبباتها قدراً وشرعاً حكمةً بالغة، ومنع بعض الأسباب من ترتُّب آثارها عليها، كما في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وكذلك يُوجِدُ كثيراً من الأشياء بغير الأسباب المعهودة، كما أوجد عيسى من أم بلا أب، ويحيى بين أبوين لا يولد لمثلهما، وأشياء كثيرة من هذا النوع ليعرف العباد أنه المتصرف التصرفَ المطلق، وأنه كما يتصرف في الأشياء بأسباب مربوطة معلومة، كذلك يتصرف فيها بغير المعهودة، ولذلك كان جمهور هذا النوع من المعجزات والكرامات، وهي كلها براهين على وحدانية الله وإلهيته وربوبيته.

وقيل لبعضهم: بم يُعرف الله؟ قال: من نظر في مواد الرزق وتأمل حالة من لهم موجودات وعقارات وغلات كثيرة؛ ولكنهم قد اتكلوا عليها فضاقت عليهم الأمور وركبتهم الديون، وجاءت الأمور على خلاف ما يؤملون، ثم انظر إلى أناس كثير ليس لهم عقارات ولا غلات؛ وإنما عندهم أسباب بسيطة قد بارك الله لهم وبسط لهم الرزق، وذلك بأن قلوبهم على الدوام متطلعة إلى ما عند الله، راجية منه تسهيل الرزق، متوكلين عليه حق التوكل؛ بذلك يُعرف الله، وبذلك يُعلم أن الأمر كلُّه لله، كما ننظر إلى القَويِّ من الناس الذي جمع بين القوة والذكاء، وبين السعي الحثيث ورزقه مقتر، ونرى الضعيف

البليد الذي ليس عنده من الذكاء والقوة عشر معشار ما عند الأول، والله قد بسط له الرزق ويسّر له أمره. وهذه أمور مشاهدة محسوسة تضطر العاقل إلى الاعتراف بوحدانية الله وقيامه على كل نفس بما كسبت.

وقيل لآخر: بأي شيء تعرِفُ ربَّنا؟ فقال: بمداولته الأيام بين العباد في العز والذل، والغِنَى والفقر، بأسباب وبغير أسباب.

وقيل لآخر: بأي شيء يُعرف الله؟ فقال بقوله تعالى:

﴿وَما مِنْ دابةٍ في الأرض إلاّ على الله رزقُها﴾

[سورة هود: الآية ٦]

فننظر مصداقها بين الخليقة وأن كل أحد قد يسَّر الله له من أسباب الرزق ما به يعتاش، هذا بتجارته وهذا بصناعته وهذا بحراثته، وهذا بخدمته، وهذا بمخلَّفات من قَبْلَه، وهذا بتنميته للمواشي، وهذا بإحسان غيره عليه، وهذا بكدِّ غيره. إلى آخر الأسباب التي قدّرها العزيز الحكيم ونوّعها العليم الرحيم، فسبحان من وصل رزقه إلى الذرات في مهامه البراري وقعور المظلمات.

قلت: وهذه الأجوبة كلها عن الكليات والجزئيات صحيحة تضطر العقول إلى الاعتراف بربها، وبوحدانيته ويمكن مضاعفتها إلى أضعاف أضعاف كثيرة، فإنك إذا نظرت نظرة عمومية إلى العالم العلوي والسفلي وعظيم هذه المخلوقات وانتظامها العجيب وترتيبها المحكم وما يترتب على ذلك وينتج عنه من مصالح العالم أو المخلوقات، علمت أن لهذا العالم رباً عظيماً وملكاً كبيراً قادراً مقتدراً قد خضعت له الأكوان ودانت له الخليقة، وأخذ بنواصي العباد، وعلمتَ أن هذه النيرات وما يتبعها مُدْبِرات ليس لها من الأمر شيء، وإنما هي عبيد لله مسخرات بتسخيره مدبَّرات بتدبيره. ثم إذا نظرت لكل مخلوق على حدته وتأملت في ابتداءَ خلقته وفي بقية صفاته وأحواله وتنقلاته، دَلَّكَ ذلك على أن له إلهاً مدبِّراً وربًّا متصرِّفاً وأن جميع

ما هو عليه من الوجود والصفات ليس من نفسه، ولا من إيجاده، وإنما ذلك خلق رب عظيم وتدبير ملك حكيم.

ثم إذا تأملت في أحوال نفسك، وفي صفات بدنك الظاهرة والباطنة، وفي محسوساتك ومعقولاتك علمت بلا ريب أنك مخلوق، عبدٌ فقير إلى ربك في كل أمورك، فقير إليه في الإيجاد، وفقير إليه في الإمداد بالقُوى والعقل والأرزاق، وفقير إليه في حفظك وبقائك، وفقير إليه في ابتدائك وانتهائك.

ثم إذا نظرت في خوارق العادات وفي معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء التي لا يُحصي عددَها العادُّون، علمت بذلك عظمة الباري، وأنه مقدر الأمور ومسبب الأسباب وربّ كل شيء ومليكه؛ وكذلك إذا نظرت كثرة إجابته للدّاعين، وكشفَه الضُّرَّ عن المضطرين، وإغاثته للملهوفين وهي وقائع كثيرة لا حصر لها، اضطرك الأمر إلى الاعتراف بالربوبية والوحدانية.

ثم إذا نظرت إلى أيامه في الناس، وقيامه بالعدل والفضل، وتعجيله ثواب المحسنين وعقوبات المجرمين، علمتَ أنها براهين محسوسة وأدلة مشاهدة، تشهد لله بأنه قائم على كل نفس بما كسبت، مجازٍ كل عامل بعمله.

ثم إذا نظرت في دينه وشرعه وما فيه من الخير العظيم والمصالح الطاهرة والثمرات الجليلة، وأنه مصلح للعقائد مصلح للأخلاق؛ مصلح للأعمال مصلح للدنيا والدين، محكم الأصول ثابت القواعد، لا يمكن عقلاء الأمم أجمعين أن يأتوا بمثله في إصلاح أحوال البشر ودفع الشرور عنهم، وأنه لم يأتِ ولن يأتيَ علمٌ صحيح يناقض شيئاً من أخباره، بل كلها مطابقة للعقول وفيها تفصيلات لا تهتدي إليها العقول إلاّ بإرشاده وهدايته، وشاهدتَ أحكامَه في العبادات والمعاملات وغيرها، وما فيها من الخير والعدل والصلاح المتنوع؛ وشاهدت كل نفع وإصلاح وُجِد ويوجد موجودة أصوله وأسسه في هذا الدين، وعلمت أنه عصمة للبشر عن الشرور والمضارّ، عرفت

بذلك وحدانية الله في أسمائه وصفاته وأفعاله، وأنه شرع شرعه العـزيز الحميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وإذا علمت أخباراً كثيرة أخبر بها الله ورسوله، فَشَاهَدَ الخلقُ وقوعَها جهراً طِبقَ خبر الله وخبر رسوله، دلك ذلك على الاعتراف بالله وعظمته وكمال سلطانه وكبريائه.

فهذه كلها أدلة عقلية ضرورية، وهي براهين قاطعة على وجود الله ووجوبه ووحدانيته؛ وهي في الحقيقة أعظم الحقائق الصحيحة التي تتفق عليها العقول الصحيحة والفطر السليمة، وكلها تنبيهات وإشارات لو بسطت بعض البسط لبلغت مجلدات، والمؤمن يزداد بها إيماناً ويقيناً، وإلاّ فهو مكتفٍ غاية الاكتفاء ومستغنٍ غاية الاستغناء في هذه المسألة الكبيرة وغيرها بخبر الله ورسوله، ويعتقد بلاً ريب أنه لا أصدق من الله قِيلًا، ولا أصدق من الله حديثاً، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا. ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مـع الشاهدين.

ولكن العقل مؤيد للشرع ومعترف بكمال الشرع وهدايته، وأنه مضطر إلى الشرع ومتكمل بإرشاداته ومهتد بأنواره، فالعقول لا تستنير ولا تستقيم حق الاستقامة إلا بالدين والشرع، ولهذا يكثر تعالى في قوله:

﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ [٢: ١٦٤ ـ ١٣: ٤ ـ ١٦: ١٢ ـ ٣٠: ٢٤]

ويأمر بالتفكر والتدبر لآياته المسموعة وآياته المشهودة. والله أعلم.

الفصل الثاني والأربعون

في آداب وفوائد منثورة لا تدخل تحت نوع واحد
إنما هي بحسب ما يسنح بالبال

من الآداب الطيبة إذا حدثك المحدث بأمر ديني أو دنيوي أن لا تنازعه الحديث إذا كنت تعرفه، بل تصغي إليه إصغاءَ مَنْ لم يعرفه ولم يمرَّ عليه، وتريه أنك استفدته منه، كما كان ألبَّاء الرجال يفعلونه؛ وفيه من الفوائد تنشيط المحدث وإدخال السرور عليه، وسلامتك من العُجْب بنفسك، وسلامتك من سوء الأدب، فإن منازعة المحدِّث حديثه من سوء الأدب.

ومن الآداب أن تشكر من صَنَع إليك معروفاً قولياً أو فعلياً أو مالياً ولو يسيراً وتبدي له الشكر، وبهذا أمر الله ورسوله، وعلى هذا اتفق العقلاء.

ومن الآداب الطيبة الكلام مع كل أحد بما يليق بحاله ومقامه، مع العلماء بالتعلم والاستفادة والاحترام، ومع الملوك والرؤساء بالاحترام والكلام اللطيف اللين المناسب لمقامهم، ومع الإخوان والنظراء بالكلام الطيب ومطارحة الأحاديث الدينية والدنيوية والانبساط الباسط للقلوب المزيل للوحشة المزيِّن للمجالس؛ ويحسن المزح أحياناً إذا كان صِدقاً، ويحصل فيه هذه المقاصد، ومع المستفيدين من الطلبة ونحوهم بالإفادة، ومع الصغار والسفهاء بالحكايات والمقالات اللائقة بهم مما يبسطهم ويؤنسهم، ومع الأهل والعيال بالتعليم للمصالح الدينية والدنيوية والتربية البيتية وتوجيههم للأعمال التي تنفعهم، مع المباسطة والمفاكهة، فإنهم أحق الناس بِبِرِّك، ومن أعظم البر حسن المعاشرة، ومع الفقراء والمساكين بالتواضع وخفض الجناح وعدم الترفع والتكبر عليهم، فكم حصل بهذا من خيرات وبركات، وكم حصل بضده من شرٍّ وفوات خير، ومع من تعرف منه البغض والعداوة

والحسد بالمجاملة وعدم الخشونة، وإن أمكنك الوصول إلى أعلى الدرجات، وهي قوله تعالى:

﴿ٱدفَعْ بالتي هي أحسنُ، فإذا الذي بينَك وبينَه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميم﴾ [سورة فُصِّلت: الآية ٣٤]

فما أكمله من مقام لا يوفق له إلاّ ذو حظ عظيم.

واحذر غاية الحذر من احتقار من تجالسه من جميع طبقات الناس وازدرائه والاستهزاء به قولاً أو فعلاً، تصريحاً أو تعريضاً، فإن فيه ثلاثة محاذير:

أحدها: التحريم العظيم والإثم على فاعل ذلك.

الثاني: دلالته على حمق صاحبه وسفاهة عقله وجهله.

الثالث: أنه باب من أبواب إثارة الشر والضرر على نفسه.

إياك أن تتصدى في مجالسك مع الناس للترؤس عليهم وأنت لست برئيس، وأن تكون ثرثاراً متصدِّراً لكل كلام، وربما من جهلك وحمقك ملكت المجلس على الجلوس وصرت أنت الخطيب والمتكلم دون غيرك، وإنما الآداب الشرعية والعرفية مطارحة الأحاديث، وكل من الحاضرين يكون له نصيب من ذلك، اللهم إلا الصغار مع الكبار فعليهم لزوم الأدب وأن لا يتكلموا إلاّ جواباً لغيرهم.

متى أخبرك صاحبك أو غيره أنه أوقع تصرفاً أو عقداً أو عملاً من الأعمال، وكان قد مضى وتم، فينبغي أن تبارك له وتدعو له بالخير والبركة وتصوِّبه إذا كان باعتقادك صواباً، فإن هذا يؤنسه ويشرح صدره، وإياك في هذه الحال أن تخطئه فتحدث له الحسرة والندامة، وقد فات الاستدراك إلاّ إذا كان غرضك تعليمه ونصيحته النافعة للمستقبل؛ وأما إذا أخبرك بشيء مما

سبق، وهو كالمستشير لك، ولم يتم الأمر، فعليك في هذه الحال أن تبدي له ما عندك من الرأي وتمحّض له النصيحة؛ ففرقٌ بين ما أمكن استدراكه وتلافيه مما ليس كذلك، والله أعلم.

من الآداب الشرعية الوفية الطبية تنظيف الجسد والثياب والأواني المستعملة والفرش والمجالس عن الأوساخ كلها وما يقبح مرآه، فقد ورد الحديث: (أن الله نظيف يحب النظافة).

ينبغي تخير الأصحاب أهل الدين والعقل والأدب والمروءة، ثم الأمثل فالأمثل، فالمرء على دين خليله وعقله وأدبه فلينظر من يخالل، وعلى العاقل أن يرمق أحوال الناس؛ فما رآه منتقداً عندهم من العادات والأخلاق والكلام والأفعال تركه إن لم يخالف عرفهم للأمور الشرعية؛ وما رآه محموداً من هذه الأشياء فعله، وحينئذ ينتفع بمخالطة الناس، وتعرف ما يحمدونه من العوائد وما يذمّونه، وكل هذا بشرط أن لا يكون في الفعل أو الترك محذور شرعي، فإن كان محذور شرعي تعين تقديم الأمر الشرعي على كل عادة وعرف، وقد علمنا بالتتبع والاستقراء أن كل عرف خالف الشرع فإنه ناقص مختل، وهذه قاعدة مطردة لا تنتقض.

من الغلط الفاحش الخَطِرِ قبولُ قولِ الناس بعضهم ببعض، ثم يبني عليه السامع حبًّا وبغضاً، ومدحاً وذماً، فكم حصل بهذا الغلط أمور صار عاقبتها الندامة، وكم أشاع الناس عن الناس أموراً لا حقائق لها بالكلية أو لها بعض الحقيقة فنميت بالكذب والزور، وخصوصاً من عرفوا بعدم المبالاة بالنقل، أو عرف منهم الهوى، فالواجب على العاقل التثبت والتحرّز وعدم التسرع، وبهذا يعرف دين العبد ورزانته وعقله.

إياك والإصغاء إلى قول النمّام فتصدقه، ثم إياك أن تبني على كلامه ما يضرُّك، ثم إياك أن تُبدي له ما لا تحب اطلاع أحد عليه، فإن فعلت فلا تلومن إلّا نفسك، وابتعد غاية البعد عنه مهما أمكنك، فإن كان لا بد منه ــ

ولن يسلم أحد من هذا ــ فاسمع منه غير واثق بكلامه ولا مؤسسٍ عليه، ولا تعطه من الكلام إلا الذي توطِّنُ نفسك على إشاعته وظهوره، واخزن من هذا النوع ما تخشى مغبته؛ وتخشى أن يزاد فيه وينقص.

كن حافظاً للسر ومعروفاً عند الناس بحفظه، فإنهم إذا عرفوا منك هذه الحال أفضَوْا إليك بأسرارهم وعذروك إذا طويت عنهم سرَّ غيرك الذي هم عليه مشفقون، وخصوصاً إذا كان لك اتصال بكل واحد من المتعادين، فإن الوسائل لاستخراج ما عندك تكثر وتتعدد من كل من الطرفين، فإياك إياك أن يظفر أحد منهم بشيء من ذلك تصريحاً أو تعريضاً، واعلم أن للناس في استخراج ما عند الإنسان طرقاً دقيقة ومسالك خفية، فاجعل كل احتمال وإن بعد على بالك، ولا تؤتَ من جهة من جهاتك فإن هذا من الحزم، واجزم بأنك لا تندم على الكتمان، وإنما الضرر والندم في العجلة والتسرع والوثوق بالناس ثقة تحملك على ما يضر، والأصل والميزان في هذا وغيره قوله ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت). متفق عليه.

العاقل من اغتنم الفرص فإنها تمر مرَّ السحاب، كما قال ﷺ: (اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك. وفراغك قبل شغلك. وصحتك قبل سقمك. وغناك قبل فقرك. وحياتك قبل موتك).

النظر إلى العواقب معونة عظيمة في سهولة الأعمال النافعة، وفي الاحتراز مما يُخاف ضرره، فإن العواقب الطيبة يسهِّل على العبد كلَّ طريق يوصل إليها وإن كان شاقاً لما يرجو من الثمرة.

مَنْ بَذَلَ المجهودَ في السعي في الأمور النافعة واستعانَ بالمعبود عليها وأتاها من أبوابها ومسالكها أدركَ المقصودَ، فإن لم يدركه كلَّه أدرك بعضَه، وإن لم يدرك منه شيئاً لم يلمْ نفسه ولم يذهب عمله سدى، وخصوصاً إذا ثابر على العمل ولم يتضجر.

وقـلَّ من جـد في أمــر تـطَلَّبــه واستصحَبَ الصبر إلاّ فاز بالظفـر

تم والحمد لله رب العالمين، بخط عبـد الله بن سليمان العبـد الله السلمان نقله من خط مؤلفه في ٢٠ رجب سنة ١٣٧٠ .

وصلى الله على محمد وسلم تسليماً.

فهرس المجموع الخامس
ثقافة إسلامية

فوائد مستنبطة من قصة يوسف

وجوب التعاون بين المسلمين وموضوع الجهاد الديني

الدلائل القرآنية
في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخل في الدين الإسلامي

الدين الصحيح يحل جميع المشاكل